

Zaydān, Jirjī

كتاب

تاريخ مصر الحديث

من الفتح الإسلامي إلى الآن

مع

نذكرة في تاريخ مصر القديم



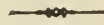
تأليف
Tarikh Misr al-hadith
عرجي زيدان

منشور الهلال

عبد الأنصيف أسعد محمد
الجزء الأول

من الفتح الإسلامي إلى آخر دولة المماليك الثانية

وفي أوله نذكرة التاريخ القديم



الطبعة الثانية

مطبعة الهلال بالنجاة بمصر

سنة ١٩١١



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

D T

95

Z38

1911



فاتحة الكتاب

للطبعة الاولى

حمداً لمن جعل اقصيص الاولين عبرة للآخرين . أما بعد فلا ازيد اقمارىء
 عالماً بجد التاريخ ولا بما له من المنزلة الرفيعة بين سائر العلوم ولا بما يترتب على الاقبال
 عليه من اصلاح الشؤون . وانما اكتفي بكونه اكثر ارتباطاً بمصالح خاصة الناس منه
 بمصالح عامتهم . فقادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصالحين احوج الى معرفته من
 سائر افراد الامة . ولذلك رأينا ولاة الامور على اختلاف الازمان والاحوال يصرفون
 العناية في مطالعته وتفهم خفاياه ويبدلون النفيس في استطلاع مكنوناته وجمع شظاياه
 فتكاد لا ترى مؤرخاً من القدماء الا وقد أوعز اليه ولي الامر او من جرى مجراه
 ان يضع في التاريخ كتاباً . بل كثيراً ما رأينا من ولاة الامور انفسهم من ألف فيه كتباً
 غير مبال بما يقتضيه ذلك من تجشم المشاق ولا مستنكف من ان يقول الناس اذه اعنى
 بما هو دون مقامه

ذلك كان شأن هذا العلم في الازمنة الخالية يوم لم يكن يتيسر لضعيف مثلي ان
 يطرق بابه او يخوض عبا به لقمصر باعه عما يحتاج اليه في ذلك من المادة التي تمتنع الا
 على الملوك او المقربين منهم

أما الان فما يتباحث فيه الملوك صباحاً في مؤتمراتهم السرية باقاصي المغرب لا يأتي
 عاياه الضحى حتى يذيع بين الصانع والتاجر في اقاصي المشرق . والفضل في ذلك لاسلاك
 البرق وصحف الاخبار التي لم تغادر بين الخاصة والعامه حجاً . فلا غرو والحالة هذه
 اذا تجرأ من كان عاجزاً مثلي على ان يضع في مثل ذلك كتاباً

ولما كانت المملكة المصرية من اقدم الممالك تمدناً واكثرها حوادث وطوارىء

ومحناً لكثرة ما تداول عليها من الدول المتباينة نزعة ولغة ووطناً كانت اجدرها بتدوين تاريخها عبرة للذين يعتبرون

وبما ان تاريخها بعد الفتح الاسلامي اكثر ارتباطاً بمجالاتها الحاضرة من تاريخها قبله كان اكثر فائدة واحوج الى التدوين وهذا ما ندعوه بتاريخ مصر الحديث وقد قام من كتبه العرب وافاضلهم كثيرون اعتنوا بالكتابة عن مصر وتاريخها القديم والحديث وسيأتي ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام عن مصادر تاريخ مصر الحديث . وحدث هذه المؤلفات « الخطاط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » تأليف العلامة الفاضل صاحب السعادة علي باشا مبارك نظراً لعموم المعارف جملة عشرين جزءاً كبيراً وهو من التأليف التي لا يقدم على كتابتها الا اصحاب الهمم العالية والمعارف الواسعة . وقد كان عليه معتمدي واليه مرجعي في كثير من المواضيع ولا سيما فيما يتعلق بالشوارع والجوامع

ومن الغريب اني لم ارب بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف على اسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموماً وسائر الدول المعاصرة . واغرب من ذلك اني لم ارب بين مدارس القطر السعيد من اميرية وغير اميرية مدرسة تعني بتدريس هذا التاريخ الذي هو تاريخ بلادها . ولعل السبب في ذلك عدم وجود الكتب الموضوعه على اسلوب مناسب للتدريس

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد الى مثل هذا التاريخ . فاخذت على نفسي مع علمي بعجزني ان ابذل الجهد في سد هذا العوز معتمداً على اصح الروايات واصدق الكتبة من ثقات المشرق والمغرب ملتزماً في كل ذلك صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام العقلية واغفال كل ما هو مقول بغير قياس من التمايلد والخرافات

وقد عنيت اتماماً لمعدات التأليف بتفقد الآثار العربية بنفسني باذن من نظارة الاوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ولا سيما ما كان منها قديماً

كجامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الازهر وجامع السلطان حسن وجامع السلطان بقوق وجامع قايت باي وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها وتسلقت ما صعب مسلكه منها ولا سيما اسوار القاهرة القديمة وابوابها كباب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الاماكن ما قد تداعت اركانها وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت اخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار العربية التي تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع قصر الشمع او دير النصارى في مصر القديمة ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين وغير هذه من الاماكن في القاهرة وضواحيها كالتقاطير الخيرية وغيرها

اما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها ايضاً ولا سيما ما هو منها في مصر العليا مبتدئاً من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر فنزلت خرائب سقارة واسنا وطية والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وانس الوجود واباسنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية فاتريب فنيها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنيات بناها المالك او غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد او دفاعهم عنها

كل هذه الاماكن تفقدتها جيداً تماماً لمعدات التأليف . ولما توفرت لدي المواد اللازمة باشرت تأليف هذا الكتاب ودعوته « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الايام . ثم رأيت ان الفائدة لا تتم الا اذا جعلت في مقدمته ملخص تاريخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها ببعض وبتزيينه بالرسم والخرائط وايضاحات اخرى . فجاء بحمد الله كتاباً في جزئين كبيرين وهالك ملخص ما تضمنته :

١ فذلكة في تاريخ مصر القديم من أول عهدها الى الفتح الاسلامي

٢ تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى هذه الايام وهو مقسوم الى دول تحتها خلافات او سلطنات او امارات مرتبة حسب ازمان حكمها فيبدأ بدولة الخلفاء الراشدين فبني امية فالعباسيين وهكذا حتى العائلة المحمدية العلوية الحاضرة

٣ وفي الكتاب زهاء مائة رسم بينها رسوم الجناب العالي والمغفور له محمد علي

باشا والخديوي السابق و بونا برت و رعسيس الثاني و تحوتس الثالث و امنوفيس الثالث وغيرهم . و بين هذه الرسوم أيضا معظم النقود الاسلامية و لا سيما المضروبة في مصر منذ صدر الاسلام الى اليوم . و رسوم اخرى كحجر رشيد و آلهة المصريين و خرائب المطرية و انس الوجود و ادفو وغيرها

٤ وفي ذيل الكتاب جدول عام لاسماء الذين تولوا مصر من الامراء و الخلفاء و السلاطين و الباشوات من الفتح الاسلامي الى اليوم مرتبة حسب ازمان حكمهم و بجانب ذلك عدد الصفحة التي ذكرت فيها تولياتهم من هذا الكتاب . ثم اذا كانوا امراء أو ولاة يذكر بازاء ذلك اسماء الخلفاء أو السلاطين الذين تولوا البلاد باسمهم

٥ في خاتمة الكتاب فهرس ابجدي عام لكل ما ورد في هذا الكتاب من المواضيع المهمة كالفقوحات و المحاربات و البنائات و التقلبات و اسماء الخلفاء و السلاطين و الامراء و الباشوات وغيرهم ممن حكموا مصر . هذا فضلاً عن فهرس خاص لكل من جزئي الكتاب

٦ قد جعلت للكتاب فضلاً عن الرسوم المتقدمة ذكرها اربع خارطات وهي : اولاً خارطة مدينة القاهرة كما هي الان . ثانياً خارطة مصر السفلى . ثالثاً خارطة مصر العليا . رابعاً خارطة القطر المصري قبل الفتح الاسلامي

وقد عنيت في ضبط هذا التاريخ و ربط حوادثه جهد الطاقة مغفلاً كثيراً من الروايات التي ترجح فسادها بعد النظر و التروي متحاشياً الالفاظ المستهجنة و التعبيرات المعقدة . اما من متخذاً افضل اسلوب تفهيمه العامة و ترضاه الخاصة بغير اخلال ولا املال . راجياً من اصحاب النقد ان ينظروا اليه بعين الرضى اذ العصمة لله وحده سبحانه و تعالى

يقال في الامثال « من الف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف و ان اساء فقد استقذف » اما انا فان احسنت فان الفضل لافضل الكتبة و ثقات الرواة الذين سبقوني لاني لم آت بشيء من عند نفسي ما خلا الحوادث التي قدر لي ان اكون فيها شاهداً عين و ما تفقدته بنفسي من الآثار العربية و المصرية . و ان اسأت فذاك دأب العاجز . وليكني ارجب الي من يعثر لي على خطأ ان ينهني اليه فاشكر سعيه و اثني عليه

لاني استحيي من الحق اذا عرفته ان لا ارجع اليه . او يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا اقول ان كل خطأ سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما اجعل اكثر مما اعلم . وما تمام العلم الا لمن علم الانسان ما لم يعلم
هذا وارجو ان تصادف خدمتي هذه لدى اخواني ابناء هذا القطر السعيد قبولا واقبالا واتقدم الى رجال العلم منهم ان يتحفونا من نقات اقلامهم بما هو أوفر مادة واجزل نفعا . لاني اعلم ان بين ظهرانيهم رجالا لهم من العلم وسعة المعرفة ما يوهبهم لما هو افضل من ذلك كثيرا . فتمت سعادة البلاد ونكون قد فئنا ببعض الواجب علينا نحوها ونحو اميرها الخليل سمو خديونا المعظم محمد توفيق باشا الاختم ادام الله ايامه باسمه الثغور في ظل صاحب الخلافة العظمى مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان ايد الله ايام دولته بالعز والاقبال وادام شوكرته واقتداره ما تكرر الجديان

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ فلاقى اقبالا حسنا نشطنا على المثابرة في خدمة العلم . وما زلنا من ذلك الحين ونحن نزداد معرفة في احوال مصر ونتبع تاريخها . فلما عزمنا على اعادة الطبع اضفنا الى الطبعة الاولى زيادات هامة في مواد ورسومه فضلا عن زيادة التدقيق والتحري وهاك مزيات هذه الطبعة

١ انها اقرب الى الدقة والتحقيق

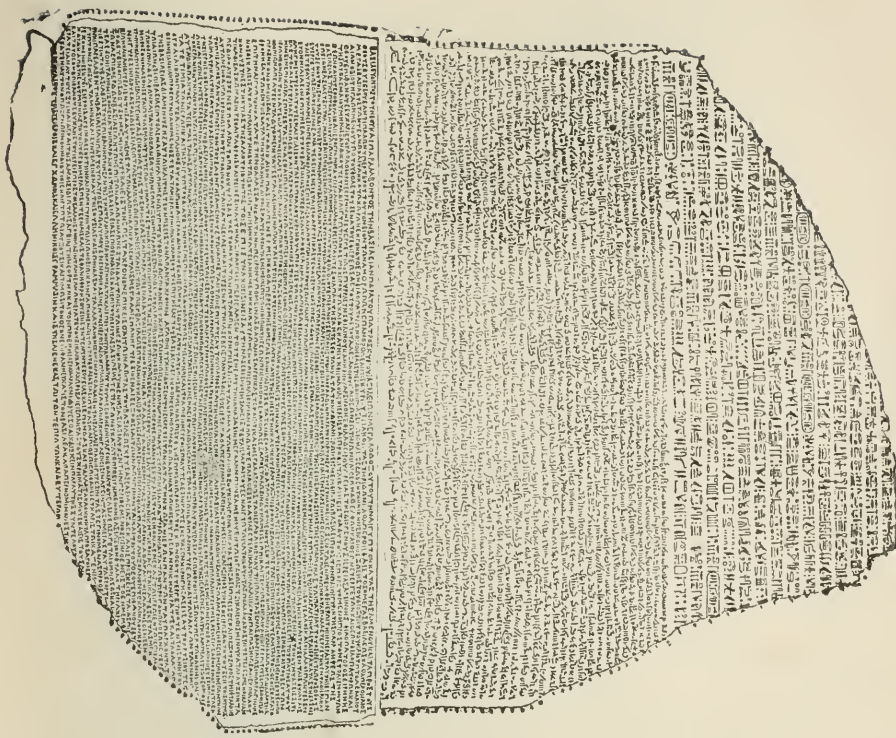
٢ تحتوي على تاريخ بضع وعشرين سنة لم تدر بها الطبعة الاولى

٣ قد توسعنا في اكثر المواد وخصوصا في القسم الاخير وعلى الاخص في تاريخ الاسرة الخديوية وما جرى في ايامها من الحوادث العظام . كالتقلبات السياسية التي جرت في زمن محمد علي . وما ادخله هذا الرجل العظيم من الاصلاحات العمالية والاقتصادية والسياسية والتجارية . وفعلنا مثل ذلك في ازمة خلفائه الى اليوم . ويدخل فيه علاقات مصر مع الدول على زمن اسماعيل باشا والحوادث العربية والسودانية في

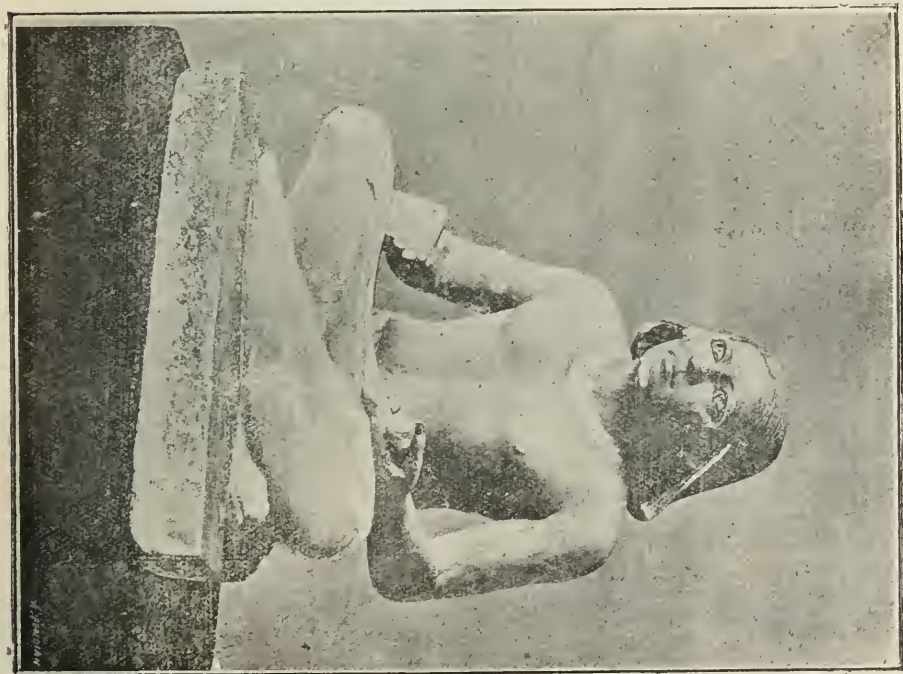
زمن الخديوي السابق وما كان من النهضة العلمية والمالية والسياسية في زمن سمو الخديوي الحالي . ويصح ان يقال اننا كتبنا تاريخ الدولة الخديوية ثانية ونظرنا فيه من الوجهة السياسية والعلمية والاقتصادية مع التوسع والتدقيق . فاصبح الكتاب اكبر حجماً واوسع مادة

٤ زيناه بنيف ومثتين من الرسوم والخرائط وبينها رسوم مشاهير مصر وغيرها في السياسة والعلم والاصلاح وصور اهم المواقع التي جرت فيها الحوادث بمصر والشام . وآلات الحرب والحصار واشهر الآثار البنائية فضلاً عن النقود الاسلامية والآثار المصرية القديمة . ومن الخرائط خريطة مصر في زمن الفراعنة والوجه البحري اليوم ورسم القاهرة على اختلاف اعصرها وخرائط بغداد والخرطوم وام درمان وغيرها فترجو ان تصادف خدمتنا قبولاً والله حسبنا ونعم الوكيل





حجر رشيد



کتاب مصري قديم

اقسام تاريخ مصر العام

يبدأ تاريخ مصر العام عند اقامة اول حكومة نظامية فيها وقد علم من مصادر مختلفة سيأتي ذكرها . ان اول حكومة اقيمت من هذا النوع كانت في اول القرن الستين قبل المسيح اي منذ نحو سبعة الاف سنة على وجه التقريب اما قبل ذلك الحين فكانت قبائل مستقلة تحت سلطة فئة من الكهنة يقال لهم باغة مصر القديمة « حورسوسو » وهم آخر من حكم المصريين قبل الدولة الملكية الاولى التي اول ملوكها « منا » وهو اول من اقام في وادي النيل حكومة نظامية ومنه يتبدى تاريخها

وقد قسم المؤرخون تاريخ مصر العام بالنسبة الى تمدنها الى ثلاثة ادوار كبرى وهي:

١ الدور الجاهلي . يتبدى عند اول دخولها في سلك الممالك سنة ٥٦٢٦ ق هـ او ٥٠٠٤ ق م وينتهي سنة ٢٤١ ق هـ او ٣٨١ ب م . وذلك عند ما نهى الامبراطور نيودوسيوس عن عبادة النصب والتماثيل وامر باتباع الدين المسيحي

٢ الدور المسيحي . يتبدى عند شيوع سنة نيودوسيوس وينتهي عند فتوح الاسلام سنة ١٨ ب هـ او ٦٤٠ ب م

الدور الاسلامي . يتبدى عند فوح الاسلام ولا يزال

اقسام الدور الجاهلي

يقسم هذا الدور الى خمس دول تسلط في اثنائها على مصر ٣٤ عائلة وهي :

١ الدولة الملكية القديمة — تتبدى بتسلط العائلة الاولى وتنتهي بانتهاة العائلة العاشرة اي (من ٥٦٢٦ — ٣٦٨٦ ق هـ) او من ٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق م ومدة حكمها ١٩٤٠ سنة

٢ الدولة الملكية الوسطى — تتبدى بالعائلة الحادية عشرة وتنتهي بانتهاة العائلة السابعة عشرة (من ٣٦٨٦ — ٢٣٢٥ ق هـ) او (من ٣٣٢ — ١٧٠٣ ق م) ومدة حكمها ١٣٦١ سنة

٣ الدولة الملكية الاخيرة — تتبدى بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بانتهاة العائلة الحادية والثلاثين من ٢٣٢٥ — الى ٩٥٤ ق هـ) او (من ١٧٠٣ — ٣٣٢ ق م) ومدة حكمها ١٣٧١ سنة

٤ الدولة اليونانية - بتدئى بالعائلة الثانية والثلاثين وتنتهي بانتهاء العائلة الثالثة والثلاثين (من ٩٥٤ - ٦٥٢ ق هـ) او (من ٣٣٢ - ٣٠ ق م) ومدة حكمها ٣٠٢ سنة

٥ الدولة الرومانية - ويسمىها العرب دولة الروم وهي العائلة الرابعة والثلاثون الرومانية (من ٦٥٢ - ٢٤١ ق هـ) او (من ٣٠ ق م - ٣٨١ ب م) ومدة حكمها ٤١١ سنة

الدور المسيحي

اما الدور المسيحي فهو عبارة عن استقرار الدولة الرومانية بعد ثيودوسيوس الى قسطنطين الاسلام (من ٢٤١ ق هـ - ١٨ ب هـ) او (من ٣٨١ - ٦٤٠ ب م) ومدة ٢٦٠ سنة

اقسام الدور الاسلامي

يقسم الدور الاسلامي الى اثنتي عشرة دولة وهي

١ دولة الخلفاء الراشدين (من ١٨ - ٤١ ب هـ) او (من ٦٤٠ - ٦٦١ ب م)
٢ الدولة الاموية (من ٤١ - ١٣٢ ب هـ) او (من ٦٦١ - ٧٥٠ ب م)
٣ الدولة العباسية للمرة الاولى (من ١٣٢ - ٢٥٧ ب هـ) او (من ٧٥٠ - ٨٧٠ ب م)

٤ الدولة الطولونية (من ٢٥٧ - ٢٩٢ ب هـ) او (من ٨٧٠ - ٩٠٥ ب م)
٥ الدولة العباسية في المرة الثانية (من ٢٩٢ - ٣٢٣ ب هـ) او (من ٩٠٥ - ٩٣٤ ب م)

٦ الدولة الاخشيدية (من ٣٢٣ - ٣٥٨ ب هـ) او (من ٩٣٤ - ٩٦٩ ب م)
٧ الدولة الفاطمية (من ٣٥٨ - ٥٦٧ ب هـ) او (من ٩٦٩ - ١١٧١ ب م)
٨ الدولة الايوبية (من ٥٦٧ - ٦٤٨ ب هـ) او (من ١١٧١ - ١٢٥٠ ب م)
٩ دولة المماليك الاولى (من ٦٤٨ - ٧٨٤ ب هـ) او (من ١٢٥٠ - ١٣٨٢ ب م)
١٠ دولة المماليك الثانية (من ٧٨٤ - ٩٢٣ ب هـ) او (من ١٣٨٢ - ١٥١٧ ب م)
١١ الدولة العثمانية (من ٩٢٣ - ١٢١٦ ب هـ) او (من ١٥١٧ - ١٨٠١ ب م)

١٢ الدولة المحمدية العلوية (من ١٢١٦ - ب هـ او ١٨٠١ ب م ولا تزال)
ويقسم تاريخ مصر العام ايضاً الى قسمين عظيمين قديم وحديث . اما القديم فمن
اول تاريخها الى الفتح الاسلامي ويشتمل على الدورين الاولين الجاهلي والمسيحي .
والحديث منذ الفتح الاسلامي الى هذا اليوم ولا يزال

مصادر تاريخ مصر القديم

مازال تاريخ مصر القديم محبوباً عنا حتى اتيح لابناء القرن الماضي حل رموز
الكتابة الهيروغليفية (القلم المصري القديم) على ان تاريخ العهد القديم لم يخل من بعض
التلويح الى ذلك مما لم يكن من النصوص التاريخية ما يعضده وما زال ذلك شأن تاريخ مصر
القديم الى القرن السابع قبل المسيح عند استيلاء اليونان على وادي النيل . ومن مصادر
تاريخ مصر القديم :

١ نصوص المؤرخين القدماء

ان هيرودوتس الرحالة المؤرخ اليوناني هو اقدم من كتب عن مصر ما يصح ان
يسمى نصاً تاريخياً وقد جال هذا المؤرخ في وادي النيل سنة ٤٥٥ قبل الميلاد
وبعد هيرودوتس ظهر سبانتوس احد كهنة المصريين العظام في القرن الثالث قبل
المسيح وكتب تاريخاً نفسياً عن مصر لكنه فقد ولم يصلنا منه الا بعض ما ذكره
يوسيفوس في آثار الاسرائيليين وما كتبه سنلوس احد كتبة القرن الثامن . ثم جاء
ثيودوروس من صقاية سنة ٨ قبل المسيح . ومن هؤلاء الثقات سترابو العالم الجغرافي
وبلوتارخس المؤرخ الذي ظهر في القرن الاول المسيحي . واما قائمة اسماء الملوك لمانثون
فقد وجدت بين ما كتبه بعض المؤرخين المسيحيين . ويقال بالاجمال انه لم يكتب عن
مصر شيء جدير ان يدعى نصاً تاريخياً الا منذ القرن الخامس قبل المسيح

٢ الآثار

واعلم ان ما كتبه اولئك المؤرخون لم يفدنا شيئاً صريحاً عما وراء القرن السابع قبل
المسيح . اما الآثار - تلك الاطلال البالية التي تراها ميته لا حراك بها وقد بقيت رغم

تقلبات الزمان وافعال العناصر فانها تنطق بافصح اسان وتنادي باجلى بيان عن عظمة صانعيها فتخبرنا عن تاريخهم وتوضح اماننا ايضاً عاداتهم واخلاقهم ومكانتهم من الحضارة وعلو الهمة ورفعة المنزلة . فقد نقشوا عليها من الرسوم والرموز ما جعلها كتاباً مزيناً بالرسوم والاشكال لا تحرقه النار ولا يخرقه الفار

هذه الهياكل العظيمة والمسلات الشاخخة والتماثيل الهائلة هذه المدافن هذه الاهرام هذا ابو الهول بل هذه الجثث البالية نراها صماء وقد افعم الاحياء نطقها وقد كلفت بالحياة وعلقت آمالها بالمعاد فابتنت لانفسها البنائيات الشاهقة القوية العماد تبقى معها في عالم الخلود تقصُّ على القادمين اقايص الاقدمين . وجميع هذه تعدُّ من وثيق المصادر التاريخية

الكتابة الهيروغليفية

يظهر ان ملوك الروم اثناء تسلطهم على مصر لم يكتثروا بهذه الكتابة بل اهملوا شأن اكثر المفتحين بلغة من يتسلطون عليهم فبقيت محجوبة تغشاها دواعي الجهل الى ايام الحملة الفرنسية في اوائل القرن الماضي اذا تيح لاحد رجالها ان يحل بعض رموزها . وقام بعده جماعة اعتنوا بحلها فأتوا على فهمها جيداً بحيث امكنهم قراءة ما كتب بها على البردي (البابيروس) والاحجار فخدموا التاريخ خدمة تستحق الاعتبار وهاك كيفية توصلهم الى حلها بالايجاز

لما قدم نابوليون الاول الى مصر اكتشف احد رجاله سنة ١٧٩٩ بالقرب من نغر رشيد حجراً اسود غير منتظم الشكل الاسطحاً منه كان مستويماً املس في اعلاه كتابة بالقلم المصري القديم (الهيروغليف) تحتها كتابة اخرى بالقلم العاصي او الديموطيقي وتحت هذه كتابة ثالثة باليونانية القديمة فأهدي هذا الحجر الى مجمع العلوم الفرنسي في القاهرة ولما تغلب الجنرال هتشنسون الانكليزي على جنود بونابرت وضع يده على ذلك الحجر ثم اهدي الى المتحف البريطاني في لندن ولا يزال هناك . وقد شاهدناه في ذلك المتحف سنة ١٨٨٢ في صدر الآثار المصرية محفوظاً في صندوق غطاؤه من زجاج اما طول ذلك الحجر فتلاث اقدام وقيراطان وعرضه قدمان وخمسة قرايط

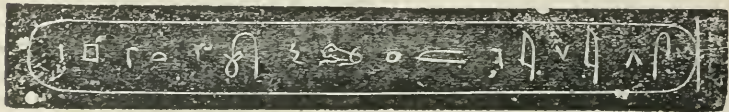
وفي سنة ١٨٠٢ رسمت جمعية العاديات صورته وفرقتها في جمهور العلماء لينظروا في قراءتها فقرأوا اولاً الكتابة اليونانية بسهولة فاذا مفادها ان كهنة منف كتبوها

للكملك بطليموس ايفانيس سنة ١٩٤ ق م يشكرونه لما اسبغهم عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منها نسخة في كل هيكل من هياكل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

ثم ان العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرنسي ديه ساسي حاولوا قراءة الكتابة الديموطيقية وغاية ما وصلوا اليه انهم عينوا مواقع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية . ثم عين العلامة اكربلاد الاسوجي لفظ بعض الاعلام في القلم المصري العامي . اما الهيروغليف فلم يطمع احد منهم في حله الى ذلك الحين وفي سنة ١٨١٨ شرع العالم فرنسوا شمبليون الفرنسي في حل هذه الكتابة بعد ان درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة وكل ما كتبه المتقدمون عن مصر والمصريين . وكان بلزوني الايطالي قد عثر في جزيرة البربة على مسلة مصرية عليها كتابة يونانية وارسل صورة الكتابة الى اوروبا . فلما رآها شمبليون ارتأى ان الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية . ثم رأى في الكتابة اليونانية اعلاما واسما الاعلام لا تترجم فتوسم في ذلك سيلا الى معرفة لفظ بعض الحروف المصرية . ووجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهايلجي وقرأ في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكرراً مراراً كثيرة فاستنتج من ذلك ان النقوش الهيروغليفية المتقدم ذكرها هي اسم بطليموس وزاد تأكيداً عند ما رأى ذلك الاسم وارداً في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدى ويقابله في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهايلجي كالنقوش التي على المسلة تماماً وبناءً على ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط الاهليلجي



ش ١ - كليو بيطرا



ش ٢ - بطليموس

تقابل الحرف الاول من بطليموس اي الباء والثانية تقابل الحرف الثاني اي الطاء وهلم جرّاً . ووجد ايضاً في الكتابة اليونانية اسم كليو بيطرا ويقابله في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهايلجي . فقال شمبليون بنفسه اذا كانت الاولى بطليموس فتكون

هذه كليوباترا واخذ بالمقابلة مستعينا باللغة القبطية لانها بقية اللغة المصرية القديمة فرسم امامه الشكلين اللذين ظنهما اسمي بطليموس وكليوباترا وجعل يقابل الاحرف المماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرها فاذا بها مماثلة تماماً في الشكلين بمواقعها في الاسمين وترى في الشكل الاول والثاني صورتي اسم كليوباترا و بطليموس في القلم الهيروغليفي

فالحرف الاول من اسم كليوباترا صورة ركة . واسم الركة في اللغة القبطية يتبدى بحرف الكاف فهو حرف الكاف . والحرف الثاني صورة اسد . واسم الاسد يتبدى في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة . والحرف الثالث من اسم كليوباترا صورة قصبه . وهو الحرف السادس والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف او الباء . واسم القصبه في اللغة القبطية يتبدى بالالف . والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو . والحرف الخامس مثل الحرف الاول من اسم بطليموس فهو حرف الباء . والسادس صورة نسر . واسم النسر في القبطية يتبدى بالالف فهو حرف الالف . والسابع صورة يد واسم اليد في القبطية يتبدى بحرف الطاء . والثامن صورة فم . واسم الفم في القبطية يتبدى بحرف الراء فهو حرف الراء . والتاسع تقدم ذكره والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء . والحادي عشر لاحرف له باليونانية وقد عرف بعد ذلك انه علامة تلاحق آخر الاسماء المؤنثة . وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كليوباترا . فالاول هو الميم والثاني هو السين . وعلى هذه الصورة تمكن شمبيايون من معرفة كثير من حروف الهجاء وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في تسع سنوات كلها ببحث وجد . واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صورها ما هو حروف ومنه ما هو مقاطع او كلمات . ومبلغ عددها كلها

هذا من قبيل حل الالفاظ اما المعاني فعرفت بالمقابلة باللغة القبطية نحو الالف وبيعض ما كان يكتبه المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

ومن المؤلفات الحديثة التي استعنت بها في فدايكة تاريخ مصر القديم كتاب العقدة الثمين ل احمد بك كحل ومصر لمري وعادات المصريين لويديكنس وغيرها

جغرافية مصر القديمة

وهي جغرافيتها في ايام الدول المصرية القديمة

تدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية « خم » او « ارض خم » ومعناها الارض السوداء نسبة الى لون تربتها وهذا ما يذكرنا بحمام ونسله . وكان يدعوها الشعب العبراني « مصر ايم » ومعناها « المصران » ومنها اسمها في العربية اليوم . اما معنى تسمية العبرانيين لمصر فنظنه مشتقاً من قولهم « صر » في العبرانية ومعناها الشدة والضيق « ومِصر » اسم مكان من صر اي مكان الشدة . ولعلها اشارة الى ما قاساه الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . اما كونها على صيغة المثنى فرمما نتج عن تسميتهم اولاً احد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوه على صيغة المثنى للدلالة على القسمين معاً والله اعلم . اما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايجيتوس » ومنها اسمها في لغات اوروبا الحديثة « ايجيت »

ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القديم ان القطر المصري كان يقسم الى قسمين عظيمين الواحد يدعى ارض الشمال او الوجه البحري والآخر ارض الجنوب او الوجه القبلي . وكان الوجه البحري ممتداً من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر المتوسط ويدعوه اليونان « الذلتا » لمشابهته بحرف الذال عندهم . اما الوجه القبلي فيمتد جنوباً من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ما ندعوه اليوم بارض الصعيد . وكان من القاب ملوك مصر القدماء قولهم « سلطان البرين » اشارة الى تسلطه على الوجهين البحري والقبلي

وكل من هذين القسمين يقسم عندهم الى اقسام دعاها اليونان « نومس » اي مقاطعات ومجموعها في الوجهين معاً يختلف عدداً باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة انها ٤٤ وقال استرابو وديودورس انها ٣٦ والمحول عليه انها ٤٢ منها ٢٠ في الوجه البحري و٢٢ في القبلي وليكل منها عاصمة مختصة بها فيها مقر الحاكم ومركز العبادة . وهاك جدولاً يتضمن اسماء المقاطعات باليونانية واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية

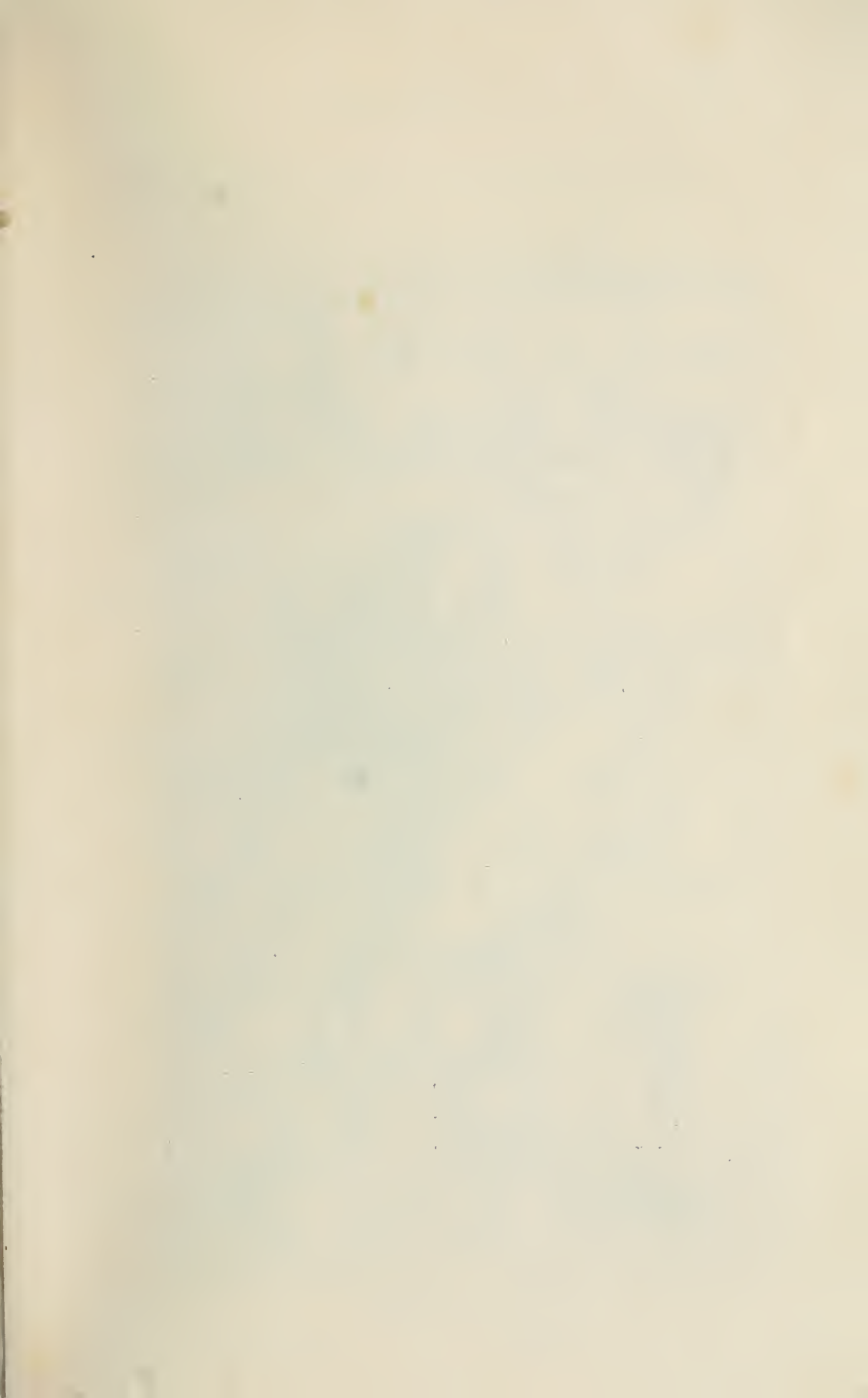
مقاطعات الوجه القبلي

عواصم

بالعربية	باليونانية	بالمصرية القديمة	اسماء المقاطعات باليونانية
كوم امبو	امبوس	ابو	١ اوبيتس
ادفو	ابواينوبولس مانيا	تب	٢ ابواينوبوليتس
« اسنا » الكب	لانوبولس (ايليثيا)	نخب	٣ لاتوبوليتس
ارمنت	هرمونثس	هرمونت	٤ هرمونثيتس
القرنة			٥ باثيريتس
الكرنك والاقصر	ديوسبولس مانيا	نوامن	٦ ديوسبولتس
قفط	كوبتوس	كوبتي	٧ كوبتيتس
دندره	تنقيرا	تنقيرير	٨ تنقيريتس
هو	ديوسبولس بارفا	ها	٩ ديوسبوليتس
البربة . العرابة	ثيس . ابيدوس	ابدو	١٠ ثينيتس
المدفونة			
اخميم	بانوبولس	ابو	١١ بانوبوليتس
العطف	افروديتوبولس	تبو	١٢ افروديتوبوليتس
قاو الكبير	انتيوبولس	نيا تباك	١٣ انتوبوليتس
شذب	هيسلميس	شاسحوتب	١٤ هيسيايتس
اسيوط	ميكوبولس	سوت	١٥ ليكوبوليتس
الشيخ عباده	التينووبولس		١٦ اتينويتس
اشمونين	هرموبولس مانيا	خونو	١٧ هرموبوليتس
القيس	سينوبولس	كوسا	١٨ سينوبوليتس
بهنسا	او كسير نخيس	پياسا	١٩ او كسير ينخيتس
اهناس المدينة	هير اكلوبولس	خينسو	٢٠ هيرا كلبوليتس
مدينة الفيوم	كروكودينوبولس		٢١ ارسينويتس
عظية	افروديتوبولس	تيده	٢٢ افروديتوبوليتس



خريطة مصر في أيام الفراعنة



مقاطعات الوجه البحري

عواصم

بالعربية	باليونانية	بالمصري القديم	اسماء المقاطعات باليونانية
ميت رهينة	ممفيس	منوفر	ممفيتس ١
	ليتوبولس	سوخم	ليتوبوليتس ٣
	ايبس	نياتهابي	ايبيا ٣
	كانوبوس	زوكا	سايتس ٤
صا الحجر	سايس	صا	سايتشس ٥
سخا	خويس	خسون	خويتس ٦
فوه	متايس	سوتينوفر	متليتس ٧
	سيتروي	توكوت	سيترويتس ٨
بو صير	بوسيرس	بيوسير	بوسيريتس ٩
{ تل اريب . الغسل	اتريس	حانا حيراب	اثر بيتس ١٠
كوم شباس	كاباسا	كاهيس	كاباسيتس ١١
سمنهود	سبنيتوس	ثنوتر	سبنيتس ١٣
المطرية	اون . هيليوبولس	انو	هيليوبوليتس ١٣
صان	تانس	زوان	تانبس ١٤
دمهور	هرموبولس بارفا	يثوت	هرموبوليتس ١٥
اشمون	مندس	يبينباد	منديسوس ١٦
	ديوسبولس	بيخون ان امن	ديوسوليتس ١٧
{ تل بسطة (زقازيق)	يوباستس	يباست	يوباستيتس ١٨
	بوتو	بيوتو	بثينستس ١٩
هربت	فاريثوس	كوسم	فاريثيتس ٢٠

ويظهر ان هذين القسمين الكبيرين جعلاً بعد ذلك ثلاثة عرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى . فمصر العليا تدعى ايضاً باليونانية « ثيبايد » نسبة الى ثيبس (طيبة) وتمتد من آخر الحدود القبليّة الى ديروط . والوسطى يدعواها اليونان « هبتانوميس » اي ذات السبع المقاطعات وتمتد من ديروط الى رأس الذلتا . والسفلى تمتد من رأس الذلتا الى البحر المتوسط . وقسمت مصر السفلى في آخر عهد اليونان الى اربعة اقاليم كبيرة تحت كلٍ منها عدة مقاطعات

ودعيت مصر السفلى في ايام اركادوس ابن ثيودوسيوس الاعظم « اركاديا » نسبة اليه . وقسمت مصر العليا ايضاً الى قسمين او اقليمين دعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخميم او مايجاورها . وتكثر عدد المقاطعات في آخر ايام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعه منها ٣٤ في الذلتا فقط

ثم ان بين ملوك مصر القدماء من وسع نطاق المملكة الى ما وراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لان ملوكها كانوا اثيوبيين فامتد حكمهم الى جبل برقل . اما في حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية الى موغراكا وراء وادي حلفا

ديانة المصريين القدماء

زعم بعض قدماء المؤرخين ان المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستدين على ذلك بما شاهدوه من التماثيل العظيمة التي اقيمت للعبادة . ولكن ظهر بعد استطلاع اسرار لغتهم وقراءة ما كتبوه على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيء وان هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات اله حقيقي غير منظور ولكن الزمان ارخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فأصبح القوم لا يعرفون من معبوداتهم الا تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع ايديهم . على ان الحقيقة لم تكن محجوبة عن حكمائهم وكهنتهم

اما آلهتهم فعديدة واسماؤها مختلفة وصورها متنوعة مرجعها جميعاً الى الهين اصل هذه التنوعات وهما « فتاح » في منف ويقصدون به الخالق العظيم و « رع » في طيبة (الاقصر) وهو الشمس . وهذا الالهان هما اقدم آلهة المصريين ويرجعان الى اولهما

لانهم يعتبرون الشمس تمثالاً للاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم انتشرت هذه الديانة واقتت صناعة البناء والرسم فاقاموا في كل مدينة تمثالاً لاحد هذين الالهين او لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة . فتمددت الاشياء ثم نسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر ومن جملة دواعي تعدد الالهة انهم كانوا يجعلون للشمس مثلاً اسماء تختلف باختلاف مواقعها من خط مسيرها فدعوها « هر نخيس » عند شروقها واقاموا لها ابا الهول تمثالاً . و « رع » عند ما تكون في خط الهاجرة . و « توم » عند الغروب و « اوزيريس » عند الظلام اي عند ما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكل من هذه الحالات تمثالاً مخصوصاً . وقس على ذلك ما بقي من الالهة الكثيرة التي اقاموا منها محاكم سماية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنوداً

وفي اثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى اله واحد . منها مثل مؤلف من الآلهة اوزيريس وايزيس وهوروس وهو المعروف بثلاث منف والمتأمل في صورها يرى ان الاول اشبه برجل والثاني بامرأة والثالث بصبي وبين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتقنوس و نوت واوزيريس وايزيس وهوروس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها اخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما نذكر فيما



ش ٣ — أمن رع

يلي اسماء اهم الالهة المصرية مع ذكر مميزات كل منها بقبدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الآثار المصرية ان يميز احدها من الاخر وتسهيلاً لفهم تلك المميزات نقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

اولاً . ذوات الرؤوس البشرية . ثانياً . ذوات الرؤوس الحيوانية . والرؤوس البشرية اما ان تكون رؤوس ذكور او اناث . والرؤوس الحيوانية اما ان تكون رؤوس طيور او حيوانات اخرى

فالآلهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي

١ « فتاح » يمتاز بكونه على شكل جمثة مخنطة (موميّة)

وفي يديه صولجان وايس على رأسه شيء يمتاز به

٢ « أمن » او « رع » على هيئة رجل منتصب وعلى

رأسه قبة مبلطحة تنتهي برشتين غليظتين مستطيلتين بيده

الواحدة مفتاح وبالاخرى عصا كما ترى في الشكل الثالث وقد يكون على شكل جثة
مخنطة جالساً على كرسي وعلى راسه القبعة المتقدم ذكرها وفي يده نمشة وعقافة
وصولجان . وبدعى في هذه الحالة « امن اوزيريس » (ش ٥)



ش ٤ - ايزيس

٣ « هوروس » صبي على رأسه تاج مزدوج يراد به
تاجا الوجهين القبلي والبحري . يده اليسرى في فيه وفي
يده اليمنى مفتاح صليبي الشكل وقد يكون هوروس برأس
طير كما سيحيى

٤ « خم » جثة مخنطة ويده اليمنى مرفوعة وحاملة
زاوية كبيرة

٥ « اوزيريس » جثة مخنطة على رأسه تاج مصر
العليا بريشتي نعام واحياناً بغير ريش . وفي يده النمشة
والعقافة واحياناً الصولجان ايضاً . وقد يكون على راسه هلال
فية قرص الشمس كما ترى في الشكل الخامس

٦ « سب » يمتاز ببطة واقفة على رأسه

٧ « نوم » على رأسه شعر طويل مكال بزهرة حبقوق او بريشة . وقد
يكون على راسه تاجا مصر العليا والسفلى

اما الآلهة ذوات الرؤوس البشرية الانثوية فهي

١ « ايزيس » على راسها طاقيه تشبه النسور فوقها تاجا مصر
العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح وبالاخرى صولجان كما ترى في
الشكل الرابع وقد يكون على راسها قرنان بينهما قرص الشمس
وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر

٢ « ما » آلهة الصدق على راسها ريشة واحدة منتصبه وعلى
عينها غالباً غطاء يشبه العيونات

٣ « موت » (ام الجميع) على راسها طاقيه يشكل النسور
وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها راس نسري

٤ « نيت » على راسها احياناً مكوك واحياناً تاجا مصر العليا والسفلى ش ٥ - اوزيريس

٥ « نفتيس » على راسها الطاقيه النسرية وفوقها ما يشبه البرج

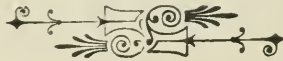


والآلهة برؤوس الطيور هي

- ١ « هوروس » قد تقدم ذكره بين ذوي الرؤوس البشرية وقد يكون ذا راس حيواني كراس الصقر وفوقه الناجان
- ٢ « خونس » (الشمس المشرقة) راسه كراس الصقر فوقه هلال فيه قرص الشمس
- ٣ « رع » (شمس الهاجرة) راسه كراس الصقر ايضاً عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
- ٤ « توت » (اله القلم) راسه كراس اللقلق عليه احياناً هلال في وسطه ريشة

وهذه آلهة برؤوس حيوانات اخرى

- ١ « بشت » (حبيبة فتاح) يمتاز براس الهر واحياناً براس الاسد عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
 - ٢ « عتور » يمتاز براس كراس البقرة بين قرنيها دائرة البدر
 - ٣ « كنوم » او « كنف » يمتاز براس كبش عليه اكليل وتيجان
 - ٤ « انويس » يمتاز براس كراس ابن آوى
- وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسدا عن ذكرها جماً بالاختصار



فذلكة

في تاريخ مصر القديم



لما فكر قدماء المصريين في وضع تاريخ لامتهم تتبعوا الحوادث الى مصادرها وجمعوا ما كان لديهم من التقاليد الموروثة بالتلقين اباً عن جد واستطلعوا سير ملوكهم الاقدمين فوصلوا الى الملك « منا » فاذا هو اول من حكم ونظم . ولما لم يعثروا على ما كانت عليه مصر قبله فرضوا ثلاث عائلات وهمية زعموا انها تسلطت على مصر بالتوالي وانتهت ببداية الدولة الملكية القديمة التي اول ملوكها « منا » ودعوا العائلة الاولى عائلة المعبودات ويقال لها العائلة المقدسة . والثانية دعوها الشيبية بالمقدسة والثالثة الكهنة « الحورشسو » ويزعمون انهم اجدادهم

ونقتصر في ما يلي على خلاصة تاريخ مصر القديم ونبدأ بالملك منس . ونجري في بويبه على مقتضى التقسيم المتقدم ذكره فنبدأ بالدور الجاهلي فالمسيحي ونقسم كلا منهما الى عائلات كما استراه



الدور الجاهلي

الدولة الملكية القديمة

العائلة الاولى الطينية

حكمت من سنة ٥٦٢٦ — ٥٣٧٣ ق هـ او من ٤٠٠٤ — ٤٧٥١ ق م وعدد ملوكها ٩

اول ملوكها الملك «مندا» او «مينس» — وهو اول من حكم مصر بعد الكهنة «الحورشسو» نشأ في طينة (بقرب العرابة المدفونة بجوار جرجا) والظاهر انه كان من الكهنة فثار في خاطره امر الاستقلال بالملك فقاومه الكهنة فتغلب عليهم فترك وطنه واسس مدينة «منف» (البدرشين وميت رهينة) وجعلها سرير ملكه وانشأ حولها جسراً يعرف الآن بجسر قشيشة وحوّل مجرى النيل الى شرقيها وكان يجري لجهة صحراء ليبيا . فعمرت منف واخصبت فساد فيها الهياكل والمعابد واقام تماثيل الالهة . فاذا زرت خرائب سقارة وشاهدت تمثال رعمسيس الثاني ملقّى في البركة الشرقية لميت رهينة اعلم ان بقرب ذلك التمثال كان باب الهيكل الذي بناه هذا الملك لمعبوده «فتاح» وما زالت منف مركز التمدن الى عصر اليونان . وما يذكر عنه انه فتح ليبيا فانسغت مملكة مصر في ايامه وكان رقيقاً برعاياه على ما اعتادوه ولم يسلب الكهنة شيئاً من حقوقهم في قبائلهم . على انه لم ينج من ايقاعهم به فزعموا انه اضرّ بالعبادة من حيث تقاعد الناس في ايامه عن الزهد واحدثوا انواع الترف فكانوا يتناولون طعامهم وهم مضطجعون على اسرّتهم

وقام بعد «منا» اخوه «تتا» فأسس القصر الملوكي في منف وكان عالماً بالطب ولا سيما التشریح فكتب فيه رسالة جددت كتابتها في عهد رعمسيس الثاني ومن ملوك هذه العائلة «ونيفس» حصلت في ايامه مجاعة وهو الذي بنى هرم «كوكمه» بقرب الهرم المدرج في سقارة لدفن ما كانوا يعبدونه من الثيران في عصره فان صح ذلك كان هذا الهرم اول ما بني من الاهرام في مصر ولم يبق من العائلة الاولى من يستحق الذكر

العائلة الثانية الطينية

حكمت من ٥٣٧٣ - ٥٠٧١ ق هـ او من ٤٧٥١ - ٤٤٤٩ ق م وعدد ملوكها ٩

نشأت في طينة ايضاً والمظنون ان بينها وبين العائلة الاولى قرابة من ملوكها « كايه خوس » اجاز عبادة الحيوانات فاقام الثور « أيبس » في منف والثور « منيفس » في مدينة الشمس (المطرية) . وقام بعده « بينوتريس » فجعل للنساء حق الحكم على سرير الملك اذا لم يكن للملك المتوفى اولاد ذكور . وزعم ان الملك نائب الالهة في الاحكام وادعى ان بينه وبين الالهة نسباً وما زال الملوك بعد ذلك يدعون مثل دعواه الى عهد اليونان

ومن ملوكها « استنس » كان عالماً وطيبياً فاتمّ الرسالة الطبية المتقدم ذكرها . واعلم ان الملك « منا » لم يقوَ في حياته على اخضاع جميع القبائل المصرية لحكمه ولا ان يجعل مصر امة واحدة . اما العائلة الثانية فلم تنته حتى جعلت ذلك امراً مفعولاً

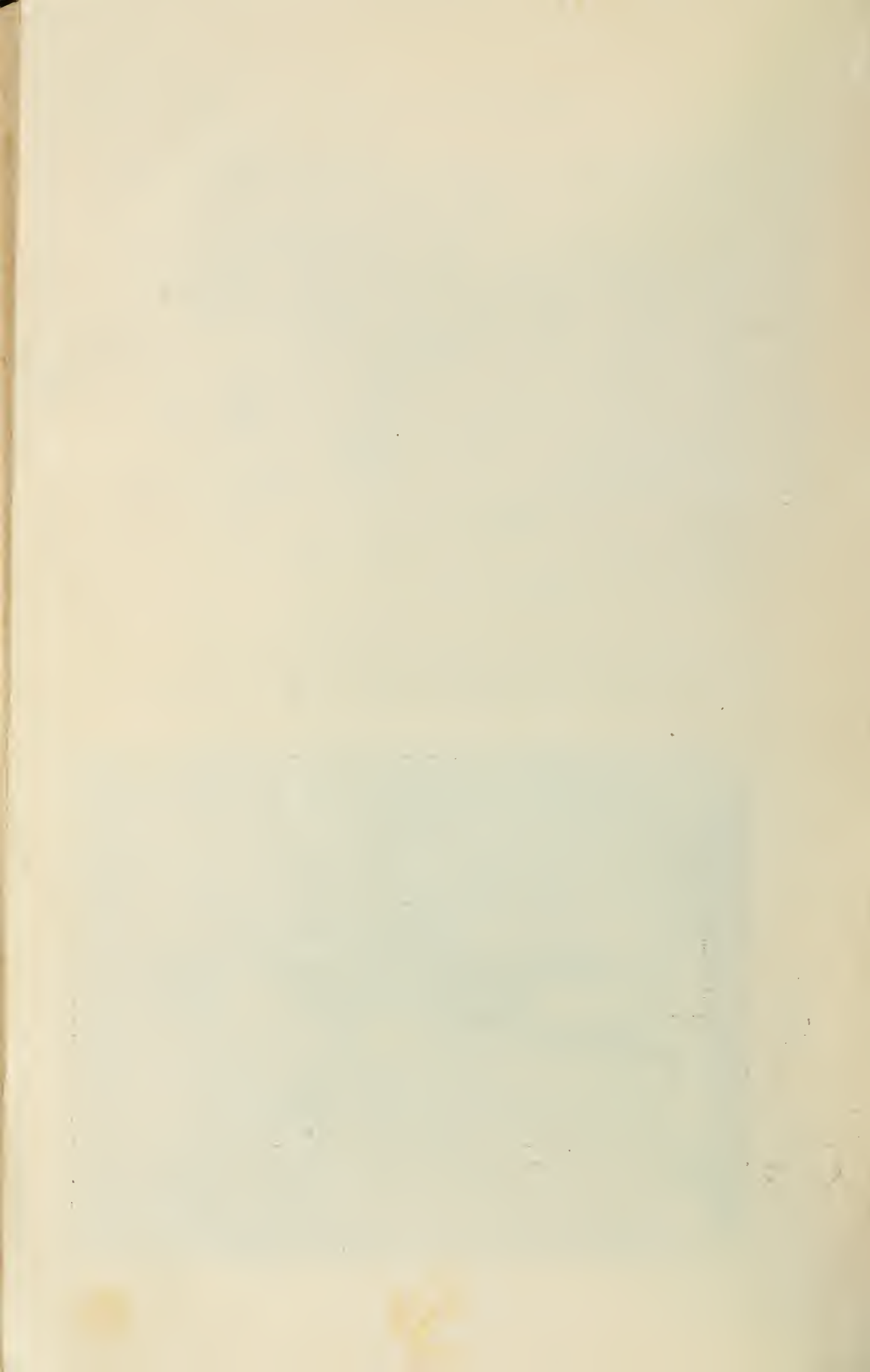
العائلة الثالثة المنفية

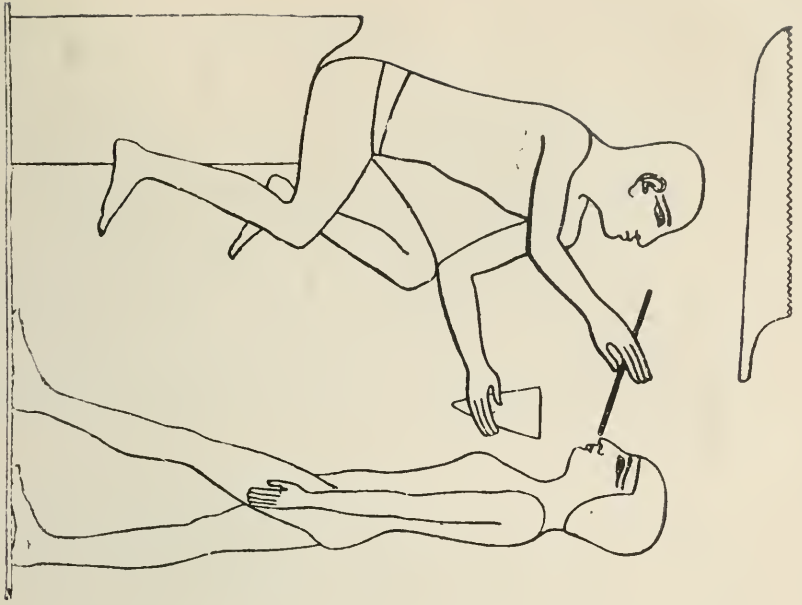
حكمت من ٥٠٧١ - ٤٨٥٧ ق هـ او ٤٤٤٩ - ٤٢٣٥ ق م وعدد ملوكها ٩

كانت طينة قبل ظهور الملك « منا » مدينة العلم والحكمة ومحط رحال المنعة والسلطة . فلما بنيت منف تحول كل ذلك تدريجاً اليها وما زالت تخط شيئاً فشيئاً حتى انقرضت بانقراض العائلة الملكية الثانية

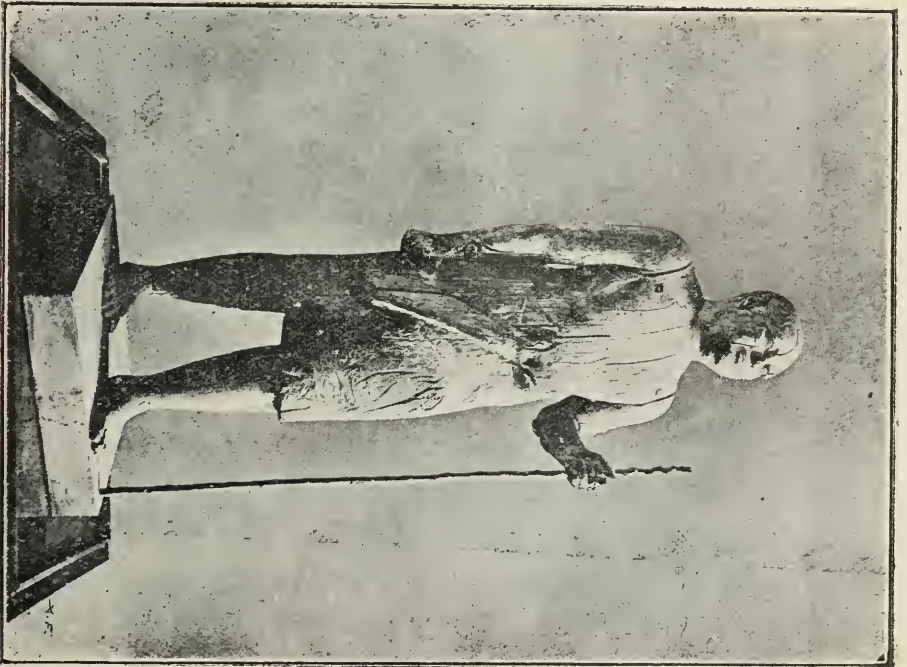
اما العائلة الثالثة فاوّل ملوكها « نخر وفتس » وفي اول حكمه تمردت اييبسا وشقت عصا الطاعة فسامها الرضوخ فابت فادى به الامر الى تحكيم السيف وكانت المعركة في ليلة مغمرة يقال ان الليبيين راوا تلك الليلة دائرة القمر تتسع على غير المعتاد فخيّل لهم ان ذلك من غضب الالهة على اعمالهم فالتقوا السلاح وسلموا . وقام بعده الملك « توسرتس » وكان عالماً بالطب فوضع فيه كتباً تداولها الناس الى القرن الاول للتاريخ المسيحي

اما من بقي من ملوك هذه العائلة فلم يصلنا من اخبارهم سوى ان الملكة زهت في ايامهم فتكثرت مبانيها واقامت فيها النصب الهائلة اعظمها ابو الهول التمثال المشهور بعظمه القائم الى هذا العهد قرب اهرام الجيزة وبسمى بلغتهم « خورميخي » اي شمس الاقفين جعلوا جسمه اسد ورأسه رأس انسان اشارة الى اجتماع القوة والتعلقل





مصور مصري يلون تماثلاً حجرياً



منبع البلاد

واشبه هذا التمثال كثيرة في الآثار المصرية بين ما حجه هائل الكبير كابي الهول الذي يبلغ طوله ٢٠ متراً تقريباً وعرضه اربعة امتار وما لا يزيد عن حب المرجان حجماً كانوا يصنعونه من العقيق حلية للعقود . ومن آثارهم أيضاً الهيكل الكائن الى جنوبي اهرام الجزيرة بجوار ابي الهول ويعرف بالكنيسة وهو مبني من الحجارة الصوانية الضخمة ولهم أيضاً آثار اخرى كمدافن ومحاريب وغيرها

ومن ملوك هذه العائلة أيضاً « سنغرو » عمدت الى ذكره لما عرف به من العدل والبر وما اوتي من العزم والقدرة على الفتح فقه اهل جبل الدور واستولى على ارضهم وبنى فيها حصوناً ومعاقل واحفر آباراً جعل فيها رجالا يستخرجون معادنهم وتفس رسمه على حجر في وادي مغارة . ويقال انه لما عاد الى مصر ابني لنفسه هرما لم يعلم مقره الى الآن

العائلة الرابعة المنفية

حكمت من ٤٨٥٧ - ٤٥٧٣ ق هـ او من ٤٢٣٥ - ٣٩٥١ ق م وعدد ملوكها ١٤

اعظم ملوك هذه العائلة واحقها بالذكر الملك « خوفو » كان بناءً ماهراً ومحارباً باسلاً فبنى اعظم اهرام الجزيرة الذي تفتخر به مصر على سائر الامصار . ويقال ان الذين اشتغلوا في بنائه مائة الف رجل في ثلاثين سنة كانوا يتناوبون كل ثلاثة اشهر . وبنى له جسراً موصلاً بينه وبين ضفة النيل لنقل الحجارة . وارتفاع هذا الهرم ٤٥٠ قدماً وبعض القدم وعرضه ٧٤٦ قدماً وهو من جملة عجائب الدنيا يقصده السياح والمتفرجون الى هذا العهد

ونحت « خوفو » عدة تماثيل للالهة ورم بعض الهياكل وقال بعضهم انه كان عاتياً يبخس الناس حقهم ويهتضم اجورهم لانه ابني هرمة على نفقة الفعلة المساكين على انه لم يكن على شيء من ذلك وربما بنى المعنفون قولهم على انه كان يستخدم الاسرى بجناً وتلك عادة كانت متبعة في ذلك العهد

ومن ملوك هذه العائلة « خفرع » وهو الذي بنى الهرم الثاني في الجزيرة بجانب هرم « خوفو » وسماه « أر » اي العظيم ارتفاعه ٤٤٧ قدماً وعرض قاعدته ٦٩٠ قدماً وبعض القدم . ولم ينج هذا من السنة القاذفين فقد كان وسلفه « خوفو » مضغاً في افواه المرجفين وقد بلغت قوتهم الى ان اخر جواجثيها من هرمةها وكسروا تابوتيها ورموا بالجثتين الارض اهانة واحتقاراً . وقد وجد في المعبد بجوار الاهرام

سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعة على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في المتحف المصري

ومن ملوكها « منكورع » بنى الهرم الثالث من اهرام الجيزة وسماه « حور » اي الاعلى جعل ارتفاعه ٢٠٣ اقدام وعرض قاعدته ٣٥٢ قدماً وبعض القدم . وقد كان حظ هذا الملك من الشعب غير حظ سالفه لانهم بالغوا في مدحه كثيراً . ويقال انه ارسل ابنه ليطوف في الهياكل المصرية ويرهم ما كان منها في احتياج الى الترميم وكان « منكورع » عالماً عاملاً في الدين والادب وقد وجدت جثته مخنطة في تابوت من الصوان في هرمه المتقدم ذكره فحاولت الدولة الانكليزية نقلها وتابوتها الى متحفها فغرقت بها السفينة على مقربة من البورتغال ولم يبق الا الجثة وغطاء التابوت وهو مصنوع من خشب الجيز

ومن ملوكها ايضاً « سبسكاف » ويسميه ماينون « سبرخرس » وهذا بنى الايوان الغربي بمعبد فتاح بنف وهو اعظم ايوان فيه وكان محباً للعلوم فقيهاً . ويقال انه ابتدع فن الهندسة وورصد الكواكب وسن قانوناً للقرض من مقتضاه انه يجوز للانسان ان يرهن مدفن ابيه على مبلغ يستدينه وللدائن الحق في استخدام المدفن حتى يفنيه الفلس الاخير

العائلة الخامسة الاصوانية

حكمت من ٤٥٧٣ - ٤٣٢٥ ق ه او من ٣٩٥١ - ٣٧٠٣ ق م وعدد ملوكها ٩

منهم « سحورع » او « سفرس » بنى هرماً شمالي قرية ابي صير وله في وادي مغارة لوح لا يزال هناك محفورة عليه صورته منصوراً على اعدائه . وبعد وفاته عبده المصريون زمناً طويلاً

ومن ملوكها « نفراركارع » او « نفرخرس » اتسع نطاق العلم في ايامه وعمرت البلاد وقد بنى هرماً لا يعرف مقره

ومن ملوكها « اغنوسر » وهو اول من اضاف الى اسمه لقب عائلته « آن » فصار « اغنوسر آن » غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها ونقش صورته على حجر هناك وبنى هرماً في ابي صير ودفن فيه بعد موته . وكان في عصر هذا الملك رجل يدعى « تي » بنى مقبرة بديعة الاتقان وهي المقبرة المشهورة في سقارة على يسار المدفن المعروف ببربة « ايس » يقصد المتفرجون من كل الانحاء لما فيها من الدقة وبديع الصنعة وجميل

النقوش وتعداد الرسوم . وكان هذا الرجل صهر الملك وصاحب دواته وله رسم محفوظ في المتحف المصري

ومن ملوكها « دكارع » اكتشف المعادن في وادي مغارة وابتنى هرماً لم يعلم مكانه ولرجال دولته عدة مقابر في سقارة

ومن ملوكها « اوناس » او « انوس » بنى هرماً في سقارة الى الجنوب الغربي من الهرم المدرج ترى حوله كثيباً من الرمال والحصى قد تراكت هناك عند ما حاولوا فتحه سنة ١٨٨١ مما تساقط من كسائه الخارجى . وكان عرض قاعدته ٢٢٠ قدماً ولا يبلغ هذا القدر الآن لما لحقه من الهدم والتساقط وذلك لانهم كانوا يعتقدون ان في هذه الاهرام كنوزاً فيحاولون فتحها هدماً . ولما هدموا هذا الهرم بعد المشقة لم يجدوا فيه الا تابوت الملك من المرمر الاسود وذراعه الابن وساقه وقطعاً من اكفانه

العائلة السادسة الاصوانية

حكمت من ٤٣٢٥ - ٤١٢٢ ق ه او من ٣٧٠٣ - ٣٥٠٠ قم وعدد ملوكها ٦

من ملوك هذه العائلة « مريوع » اتخذ جزيرة اصوان سريراً املكته التي كانت شاملة لسائر القطر المصري . ومن ذلك الحين جعلت منف تخط . وكان له وزير اشهر بالدراية والحكمة فعهد اليه بنظارة الاشغال فقام باعبائها حق القيام فتضاعفت المحصولات ولهذا الوزير حاجر في متحف بولاق منقوش عليه ما يفهم منه شيء من سيرته . ومن اعمال « مريوع » انه فتح طريقاً تجارية بين قفط والبحر الاحمر وخط مدينة في مصر الوسطى واصاح معبد ذندره وفتح بلاد الشام واستولى عليها كل ذلك بدون نقشاً على حاجر وزيره المتقدم ذكره . وخضعت له النوبة وليبيا والحيشة وطورسينا وهو اشهر ملوك هذه العائلة

ومن ملوكها « مرنوع » الاول ابن المتقدم ذكره ويسمى « سوكر مساف » وهو اول من اصطنع سفينة في مصر بهمة ودراية وزيره الذي كان وزيراً لابييه قبله ومن ملوكها ايضاً الملكة « نيتوقريس » كندا دعاها مانيثون وقال انها كانت اجمل واكمل اهل عصرها . وكانت مع ذلك ذات حيلة ومكر فكان لها اخ اتخذته بعلاً فقتله بعض رجال دولته قبل تويته الملك . فلما توات اخذت تسمى في طلب الثرافاصطنعت سرداباً تحت الارض يصل بين النيل ومحل اعدته لوليمة دعت اليها نفرأ من الاعيان ورجال الدولة ومن جملتهم القاتل فلما التأم الجمع واشتغلوا بالوليمة فتدحت باب السرداب

من جهة النيل فسار الماء فيه الى قاعة الوليمة فاغرق جميع من كان هناك . أما هي فاسرعت من غيظها وألقت نفسها في الرماد الحار فماتت
وفي أيام هذه العائلة أُتقنت الرسوم على اسلوب خاص بحيث ان من تعود معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين اي رسم كان من رسوم هذه العائلة

العائلات السابعة والثامنة المنفيتان والتاسعة والعاشره الاهناسيتان

حكمت من ٤١٢٢ - ٣٦٨٦ ق هـ او من ٣٥٠٠ - ٣٠٦٤ ق م

لم يعلم ما الداعي لطموس اخبار هذه العائلات على انه قد علم ان قاعدة العائلتين الاوليين كانت منف والأخريين اهناس وربما وجد في اهناس المدينة شيء من آثارهم الا انها على كل شيء لا تستحق الذكر

الدولة المملوكية الوسطى

العائلتان الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتان سريرهما طيبة

حكمتا من ٣٦٨٦ - ٣٤٧٣ ق هـ او من ٣٠٦٤ - ٢٨٥١ ق م وعدد ملوكها ٢٤

اول ملوك العائلة الحادية عشرة « انتف عا » لم يكن من ذوي العصبية المملوكية انما كان من عمال ملوك اهناس المدينة في الوجه القبلي . على انه كان مهوباً لسطوته وعلوهمته . بنى هرماً من الاطين في الجهة المعروفة بذراع ابي النجا بمديرية قنا وجعل في وسطه ضريحاً متقناً دفنت فيه جثته في تابوت غطاؤه مظلي بالذهب استخرجه اهل تلك الناحية وذهبوا به . فلما توفي قام ابنه « منتوحتب » فجعل نفسه من مصاف الملوك وليس له من الآثار ما يذكر به

ومن هذه العائلة ايضاً « انتف الرابع » تمكن بحكمته وبطشه من الاستيلاء على الوجه القبلي رغمًا عن ملوك اهناس واستقل بالحكم عايه وعلى آسيا الشمالية . وقد قال « اني استوليت على الوجه البحري » ولا مثبت لقوله . ومن ماثره انه جدد بنايات رفيعة العماد في جهة قنط استعمات انقاضها في هذه الايام لبناء قنطرة . واما مات دفن في ذراع ابي النجا . وقد وجدوا من آثاره مسلة بالقرب من العرابة المدفونة

وتولى بعده « منتوحتب الرابع » ولقب « بنخررع » وهذا بالحقيقة نزع الوجه البحري من ملوك اهناس وما زال يقاثلهم حتى استقل بالملك جميعه فبكل من قبل هذا من هذه العائلة لم يكونوا ملوكاً مستقلين

وتولى بعده « سنخ كارع » ومن عظيم اعماله انه انفذ « حنو » احد رجاله فاتم الطريق الموصلة بين مصر وبلاد العرب التي شرع فيها مسيرع المتقدم ذكره جعل فيها خمس محطات فيها عيون من الماء فيتم بها التواصل مع بلاد العرب والهند وشبه جزيرة العرب وما زالت هذه الطريق كذلك الى عصر اليونان فالروم

ومن خصائص ماوك هذه العائلة انهم كانوا يرسمون فوق توابيت موتاهم اشكالاً مجنحة يلونونها بالوان مختلفة زعماً منهم ان احدي معبوداتهم « ابزيس » كانت ترف على اخيها « اوزيريس » ناشرة جناحيها حنوياً ومعظم آثار هذه العائلة في ذراع ابي النجا لا يزال محجوباً

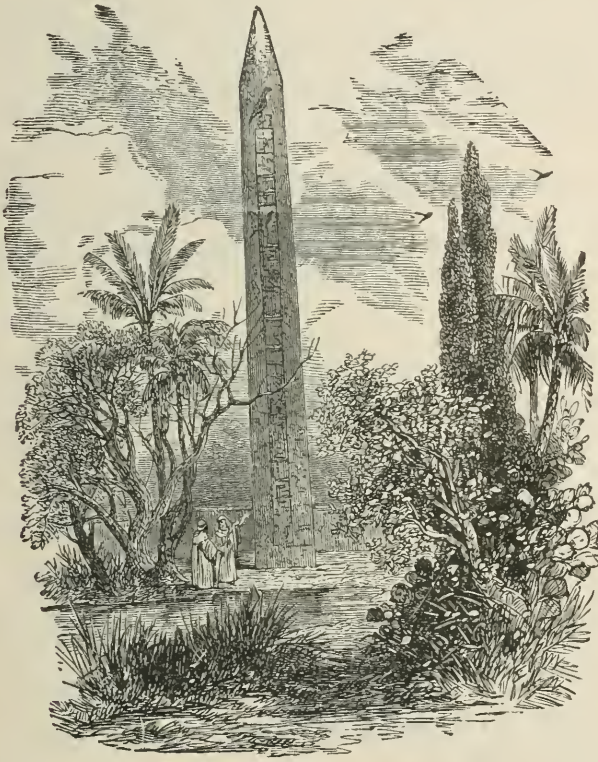
اما العائلة الثانية عشرة فابتدأت بدور جديد . فقد كانت مصر قبها منقسمة غالباً الى حكومات متعددة في وقت واحد اما في ايامهم فانضمت جميعها تحت لواء واحد قاعدته مدينة طيبة

اول ملوك هذه العائلة « امنمحتت الاول » كان من اتباع الملك منتوحتب الثالث وبسميه ما نيثون « امنميس » فلما استتب له الملك قاتل الذين كانوا يكفرون صفو راحة مصر وهم عصب من اهالي ليبيا والنوبة وآسيا تجمعوا لقتاله حول قاعة تاتوي غربي منف فخار بهم حتى انتصر عليهم وطردهم واستولى على منف . وكان عاقلاً حكيماً وشجاعاً مدرباً استخرج المعادن من بلاد النوبة واخضع عدة اقاليم من بلاد الزنوج وغيرها

وقبل وفاته ولى ابنه « اوسرتسن الاول » ويدعوه مانيثون « سيسونخوسيس » وهو صاحب المسلة المشهورة في المطرية التي طولها عشرون متراً وبعض المتر نصبها امام هيكل الشمس المدعو « اتوم » اجلالاً لذلك الهيكل ومعبوده ونصب بجانبها مسلة اخرى شاهدها عبد اللطيف البغدادي وقد فقدت ولم يبق لها اثر الآن . اما الاولى فلا تزال باقية منقوشاً عليها باقليم المصري القديم ما ترجمته ملخصاً « ان الملك انصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والبحري (خبر كارع) صاحب التاجين وسلالة الشمس (اوسرتسن) المحب لمعبودات المطرية دام بقاءه قد نصب هذا الاثر في مبدأ العيد الرسمي تخليداً لذكوره واحياء لهذا العيد » انظر الشكل السادس

فاذا زرت قرية المطرية الان ووقفت بجانب مسلتها ترى حولك بقعة من الارض

فيها بعض الزرع طولها ٤٥٦٠ قدماً بعرض ٣٥٦٠ محاطة بتلال متلاصقة كأنها سور من تراب . يقول ماريت ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وانما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بادلة تقرب من الصواب ونصب اوسرتسن ايضاً مسلة اخرى فيما يحاذي قرية بجيج بجهة الفيوم وقد ظن بعض المؤرخين مستنثحاً من سباق حكاية كتبها احد معاصري هذا الملك انه الفرعون الذي حصلت في ايامه المجاعة على عهد يوسف بن يعقوب غير ان الجمهور على خلاف ذلك لعدم مطابقة الزمن بين ما هو في العهد القديم وهذا التاريخ . ويقال بالاجمال ان



ش ٦ — مسلة المطرية

هذا الملك يعد من اول المؤسسين لهيكل طيبة « الاقصر » وقبل وفاته امر مهندسه الخاص ان يبني له مقبرة فبناها وجعل في داخلها عدة غرف اقامها على اعمدة وجعل فيها حوضاً متصلاً بالنيل وصنع لها ابواباً ومسلات ووجهة من حجر طرا الابيض ومن ملوك هذه العائلة « اوسرتسن الثاني » ويسميه مانثون « سيزوستريس »

ترك آثاراً كثيرة قلما يستفاد منها شيء عن تاريخه وغاية ما علم منها ان مملكة مصر كانت في عصره محافظة على شوكتها متسعة النطاق ومن ملوكها ايضاً « اوسرتسن الثالث » وكان رجلاً حازماً مقداماً واشتهر بهذه الصفات فارتفعت منزلته في قلوب الاهلين فعبدوه ومن اعماله انه جرد على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكته . وشاد في وادي حلفا قلاعاً منها قلعتان تعرفان الان « بقمنة » و « سمنة » لمنع الاعداء من مصر لا تزال تشهد في اطرافها الجداران الشاخحة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعدة مساكن دُمرت الان

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية . ذلك ما فهم مما هو مكتوب عليها . وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرناً أي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد « تحوتمس الثالث » معبداً في سمنة وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين . ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة « امنمحت الثالث » ولهذا الملك يد بيضاء في امر النيل وفيضانه في اقليم الفيوم . وذلك ان للنيل كما لا يخفى ارتفاعاً معلوماً اذا بلغه كان غيماً وحياة لارض مصر واذا زاد عنه كان ضربة ودماراً فتسقط الجسور وتغرق البيوت . واذا نقص لا تكون مياهه كافية للري فيخشى من المجاعة . فلما علم هذا الملك بذلك هم بتدارك الامر . فرأى في الصحراء الغربية من مصر بادية شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الان بوادي الفيوم يفصلها عن وادي النيل الاصيل برزخ قليل الارتفاع . وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعاً عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربعة . وبجانبه الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه البحيرة الطبيعية المعروفة الان ببركة قارون « او القرون » طولها يزيد عن عشرة فراسخ فأمر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احدها كانت تبندى من النيل بجانبه الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي . والاخرى كانت تجري شمالاً . وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاهما قناطر بجواز تسد وتفتح حسب اللزوم . فكانت تلك البقعة بصفة حوض عظيم تجتمع فيه مياه النيل عند فيضانه عرفت ببركة

موريس

فان كانت زيادة النيل اقل من احتياج الارض انصرف اليها من مياه مايس

احتياجها . واذا كانت اكثر من الحاجة صُرف ما يزيد الى ذلك الحوض فان طفق ماؤه انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تسد وتفتح على قدر الحاجة . وكانت الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنقذ من يسير الى النوبة لاستكشاف مقدار زيادته في جهة سمنة وقتنة وفي تلك الجهات الان كتابات هيروغليفية تشير الى شيء من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمان في كل منهما تمثال . واصل كلمة موريس « مري » ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انها دعيت بذلك نسبة الى اسم احد الفراعنة . واصل كلمة الفيوم « پايوم » ومؤداها باللغة المصرية بلد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناه هائل يعرف باسم « لابرانسا » واسمه بالمصرية « لابوراخونت » اي معبد فم البحر بناء هذا الملك لاجتماع مجاس الاعيان من الكهنة وفي هذا البناء رحبات الى كل من الجانبين فيها من الغرف نحو من ثلاثة آلاف غرفة ويحيط بالبناء من الخارج سورٌ عليه نقوش

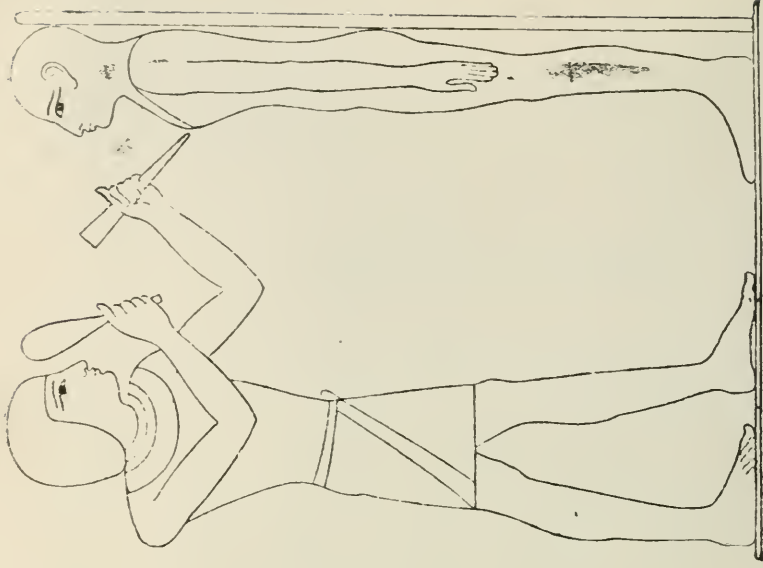
اما بركة موريس فقد جفت ولم يعد لها اثر الان . امام موقعها فقد اختلف المهندسون في حقيقته ومن راي المستر كوب وايتيوس انه واقع في واد وسبع الى جنوبي بركة قارون بعرض ٤٠' ٤٨° و ٣٠' ٢٩° شمالاً وهو المعروف الان بوادي الريان . وقد اقترح وايتيوس^(١) على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذخراً لماء النيل كما كان قديماً

وامتدت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها وبين ليبيا الشمالية واسيا علاقات تجارية محورها ما بين بني سويف واهناس المدينة . وبسبب هذه العلاقات تعلم المصريون من الايبين علم الرياضة الجسدية (الجمباز) اما صناعة البناء في ايام هذه العائلة فقد كانت من الاتقان والتفنن على غاية حتى قيل ان معظم الاعمدة الخشبية الشكل في الاثار المصرية انما من مصنوعات هذه العائلة

العائلة الثالثة عشرة الطيبية

حكمت من ٣٤٧٣ — ٣٠٢٠ ق هـ او من ٢٨٥١ — ٢٣٩٨ ق م وعدد ملوكها ٨٧

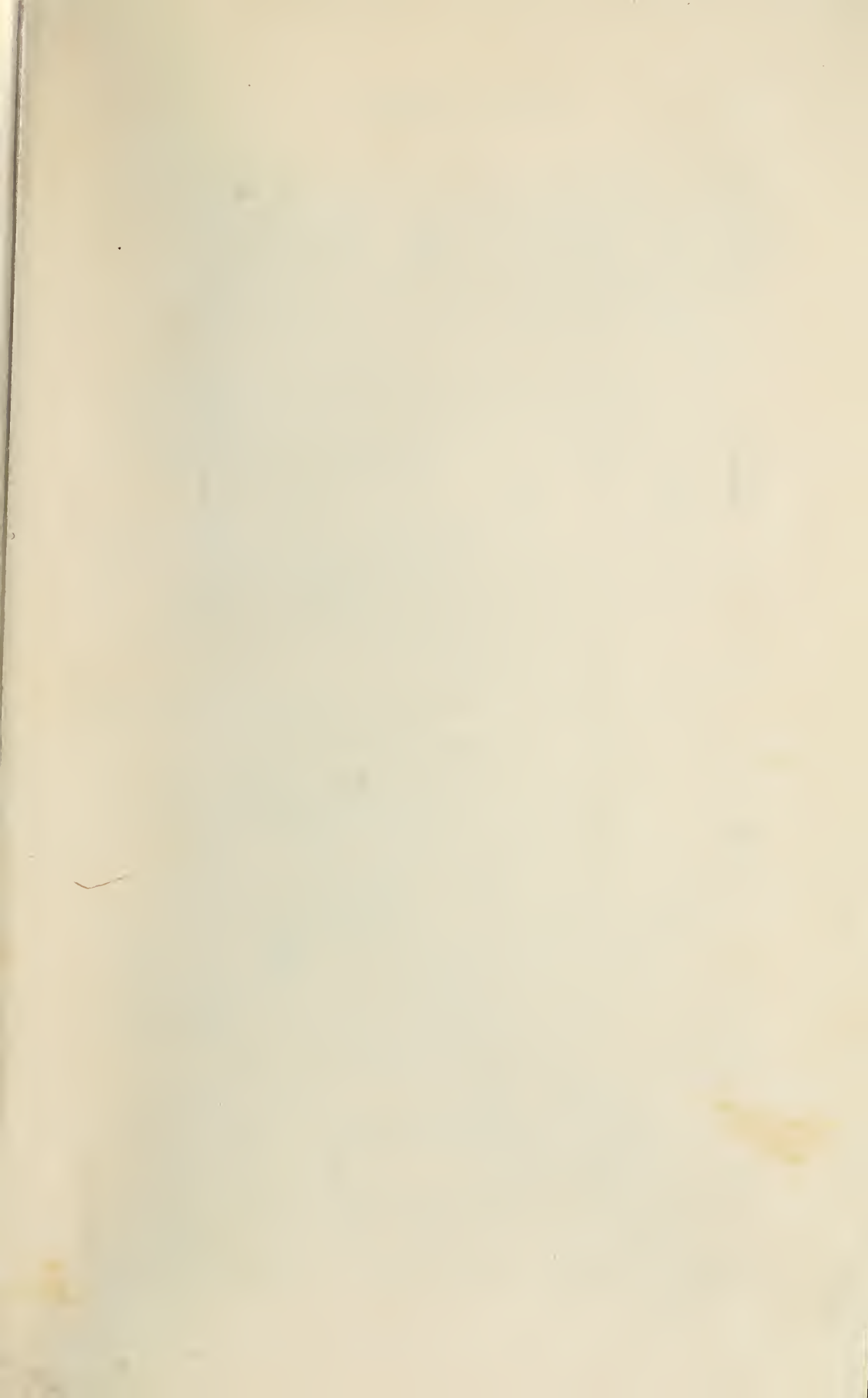
من ملوك هذه العائلة « سبك حتب الثالث » له آثار كتابية على صخور شاحنة صعبة التساق عند ضفة النيل بقرب سمنة مفادها ان ماء النيل بلغ هذا الارتفاع في



حفار مصري يصنع تمثالا



حفار مصري يذبح ذراعاً



السنة الثالثة من حكم الملك سبك حتب الثالث واطأ جزء من هذه الكتابة يعلو أعلى نقطة يبلغها النيل عند ارتفاعه في هذه الايام نحو سبعة امتار . وذلك من الادلة على ان النيل كان اكثر ارتفاعاً في العصر الخالية منه في هذه الايام بما يستحق الاعتبار . وهذه العائلة على كثرة عدد ملوكها قلّ ما يعرف عنها . ويظن ماريت ان اكثر آثارها مردوم في اسيوط

العائلة الرابعة عشرة السخاوية

حكمت من ٣٠٢٠ - ٢٨٣٦ ق هـ او من ٢٣٩٨ - ٢٢١٤ ق م وعدد ملوكها ٧٥

بسقوط العائلة الثالثة عشرة سقطت طيبة بعد ان كانت سريراً للدول المصرية نحواً من سبعائة سنة . على ان ملوك العائلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة لم يكونوا في اهتمام لحفظ رونقها وافضليتها على سائر القطر المصري وانما صرفوا اهتمامهم في تعبير الذلتا ورفع شأنه فزهت منديس وسايس وبوباتس وعلى الخصوص تانس ولكنهم مع ذلك لم يتخذوا غير طيبة سريراً للملكهم . اما العائلة الرابعة عشرة فجعلت عاصمتها في الوجه البحري في مدينة خيس (سخا) في منتصف الذلتا . لا يعلم عن ملوك هذه العائلة ما يستحق الذكر سوى ان اسماءهم وجدت مكتوبة على صحيفة من البايروس (البردي) حفظت في متحف تورين

العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (الرعاة)

حكمت من ٢٨٣٦ - ٢٣٢٥ ق هـ او من ٢٢١٤ - ١٧٠٣ ق م

فالعائلة الخامسة عشرة مؤلفة من ملوك الرعاة الذين افتتحوا مصر واتخذوا « اوريس » سريراً للملكهم وكان معظم سلطتهم في الوجه البحري . اما القبلي فكان يحكمه بعض الملوك الوطنيين . اما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون « هيكسوس » فقد اختلف المؤرخون في حقيقته وقد عقدنا فصلاً في كتابنا تاريخ العرب قبل الاسلام ينبا فيه ارجحية كون الرعاة عرباً من القبائل التي يسميها العرب « العمالقة » فليراجع هناك . ويقال انهم جاؤا مصر من جنوبي اسيا ففاجأوا المصريين في الوجه البحري وافتتحوا بلادهم وتقاطروا اليها افواجاً حتى انتشروا فيها كالجراد وجعلوا يعيشون استبداداً فاحرقوا المعابد ونهبوا ما فيها واتخذوا منف قاعدة لحكمهم

فقر الملوك المصريين الى الصعيد

واول من ملك من العالقة « سلاطيس » شاد قلاعاً حصينة في اماكن مختلفة وجعل في السويس جنداً عظيماً خيفة ان يهاجمه كنعانيو الشام والعراقيون . وفي ايامه تقاطر اهل اسيا الى مصر اسراباً يطلبون ملجأ ورزقاً فبنى لهم في اواريس معسكراً

عظيماً يسع نحواً من مائتين واربعين الفاً وجعل حوله خندقاً ورتب لهم ارزاقاً فصاروا له اعواناً فهاهه المصريون

ثم تداول خلفاؤه على سرير الملك الواحد الآخر . وعدد هم ٦ ومدة حكمهم جميعاً ٢٦٠ سنة وقد كانوا في

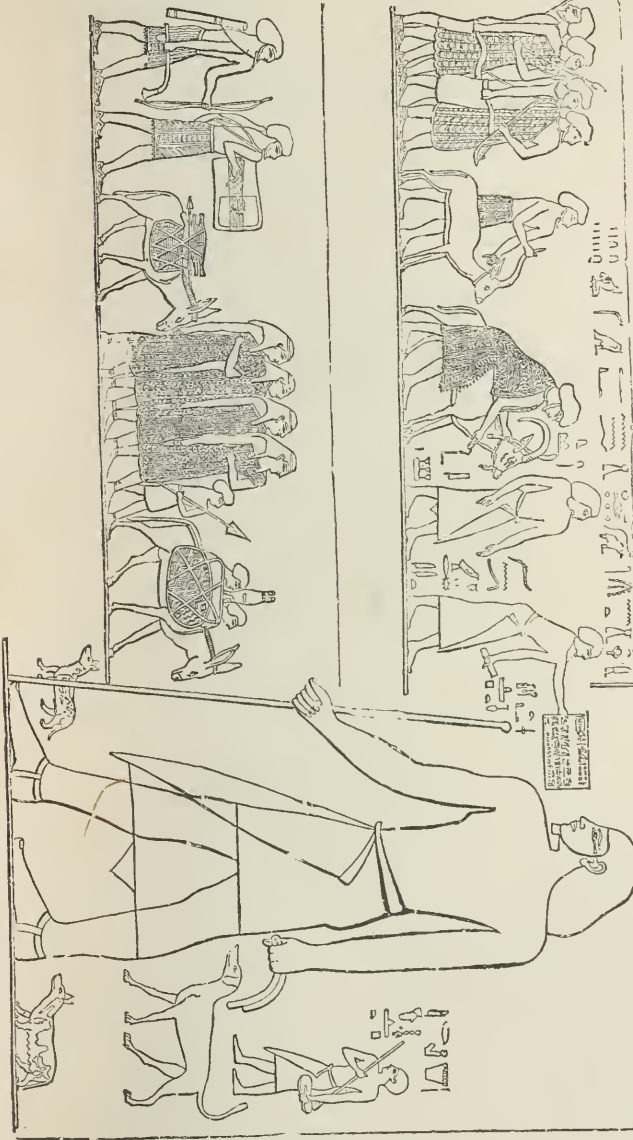
اول امرهم مستبدين يسومون المصريين شر

المعاملة ولايستخدمون في مصالح حكومتهم الا

الاجانب من ابناء جلدتهم . لكنهم في آخر الامر قربوا

الوطنيين منهم واستخدموهم في مصالح

الدولة وصر فوا اهتمامهم الى احياء البلاد وتجديد ثروتها فبنوا المعابد



ش ٧ - مهاجرو اسيا

ودانوا بديانة اهل مصر . فحضع لهم الوجه القبلي فاصبحت مصر جميعها في ايديهم .

أيديهم . ثم خلفتهم دولة الرعاة الثانية وهي العائلة السادسة عشرة وعدد ملوكها اثنان وثلاثون لم يعرف منهم الا ملك واحد يدعوه المصريون « اياي اعاكنن » والعرب يدعونه « الريان بن الوليد » ومانثون يدعوه « ابوفيس » وفي ايامه نزع كثيرون من اهل الشام الى مصر واستوطنوها لكنهم حافظوا على لغتهم ولم يبدلوا . وفي ايامه ايضاً وفدت السيارة الذين باعوا يوسف بن يعقوب الى قطفير وزير مصر الذي يدعى بلغة مصر القديمة « بدفير » اي هدية الشمس وقصته مشهورة . وقد وجدت في الآثار حكاية استتج منها بعضهم ما يؤيد قصة المجاعة التي حصلت في ايام يوسف والله اعلم

واما العائلة السابعة عشرة فكانت مصر في ايامها تحت حكومتين وطنية بيد المصريين واجنبية بيد الرعاة . وبلغ عدد ملوك كل من الحكومتين نحواً من ٤٣ ملكاً قلما يعرف عنهم . وكانت قاعدة مملكة الرعاة « سان » والوطنيين « طيبة » وغاية ما يقال في هذه العائلة انها لم تنته حتى انتهى معها الرعاة وبنقضائه انقضت الدولة الملكية الوسطى

الدولة الملكية الاخيرة

حكمت من ٢٣٢٥ — ٩٥٤ ق ه و عدد عائلاتها ١٤

العائلة الثامنة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٣٢٥ — ٢٠٨٤ ق ه او من ١٧٠٣ — ٤٦٢ ق م وعدد ملوكها ١٤

ولهذه العائلة شأن عظيم في تاريخ مصر القديم لان البلاد في ايامها نشطت وامتدت سطوتها الى انحاء بعيدة

اول ملوكها « احمس » ويسميه مانثون « اموزيس » زوج ابنة ملك اثيوبيا وتحالف معه على طرد بقية العمالقة من مصر . وكانوا متحصنين في قلعة اوريس برّاً وبحراً فحاصروهم ثم طردهم منها . وما زال يتبعهم بجنوده حتى نهر الفرات فتخلصت مصر منهم بعد ان استبدوا فيها ستمائة سنة . وبقيت منهم بقية رضخت لاحكامه قهراً وما لبث ان عاد من هذه المحاربة حتى عصته اهل النوبة فجرد اليها وظهر عليها . اما الاثيوبيون فدخلوا في طاعته بغير حرب وامتدت سلطته الى البحر المتوسط . وفي

السنة الثانية والعشرين من حكمه استعمل العمالقة لقطع الحجارة من محاجر طره لتجديد معبد « فتاح » في منف ومعبد « امون » في الكرنك ولانشاء معابد اخرى وقد وجدت جثة هذا الملك في الدير البحري بجبل القرنة وهي الآن في المتحف المصري ومن ملوكها « امنحتب الاول » ويسميه مانيتون « امنوفيس » كان ملكاً عادلاً مسالماً تزوج بابنة ملك اثيوبيا وجنتاهما في المتحف المصري

ومن ملوكها أيضاً « نحتمس الاول » رغب في توسيع دائرة ملكه فجعل محارب جنوباً وشمالاً فامتدت سلطته الى محاجر مدينة « انبو » في وسط النوبة ويستدل على ذلك بوجود اسمه منقوشاً على حجر هناك . وقد وجدت نقوش اخرى في جهات اصوان تشير الى شيء من ذلك . وامتدت مملكة مصر في ايامه جنوباً الى جبل « ابته » في الحبشة . وشمالاً الى اقصى اسيا المعمورة من ضمنها فلسطين وبابل وغيرهما . اما معظم ثروة بلاده فكانت من اثيوبيا التي كانت تأتي منها البضائع مشحونة في مراكب النيل الى مصر وفيها الحيوان والحب والجلد والعاج والخشب والحجارة الكريمة والمعادن كالذهب وغيره ويقال ان اسم النوبة مأخوذ من « نب » اي ذهب . ومن آثاره انه شاد معبد امون في الكرنك ومستلتي احدهما لا تزال الى الان عند باب المعبد المذكور اما الثانية فقد ذهبت بها يد الزمان

ومنهم الملكة « حعتشيو » ويسميا مانيتون « مفرس » ساست الاحكام بتدبير وحزم ورسمت صورتها على الآثار بهيئة رجل ذي لحية ملوكة مهيبة . وقد سعت هذه الملكة في نشر سطوتها ففتحت بلاد « بون » جنوبي بلاد العرب فكانت باباً للتجارة وكانت تأتي منها بالخشب والعطريات والصمغ والذهب والفضة والحجارة الكريمة وغير ذلك من لوازم بناء اهليا كل . ومن آثار هذه الملكة مسلتان نصبتهما في الكرنك لم تنزل احدهما قائمة الى هذه الغاية عليها كتابة بالقلم المصري القديم تفيد انها اقامت هاتين المسلتين تذكاراً لوالدها . وكان على قمة كل منهما اكليل هرمي الشكل مصنوع من الذهب المنقش من الاعداء . والمسلة الواحدة قطعة واحدة مقطوعة من محاجر اصوان استغرق عملها معاً أربعة عشر شهراً وارتفاع كل منهما ثلاثون متراً ومن ملوك هذه العائلة « نحتمس الثالث » وهو شقيق الملكة المتقدم ذكرها . لم يمضه الملك الا بعد وفاتها ولم يكن راضياً بحكمها الا رغم ارادته فلما تولى محاسنها من اكثر الاماكن التي ذكرت فيها انتصاراتها وكتب اسمه مكانه لتنسب تلك الانتصارات اليه

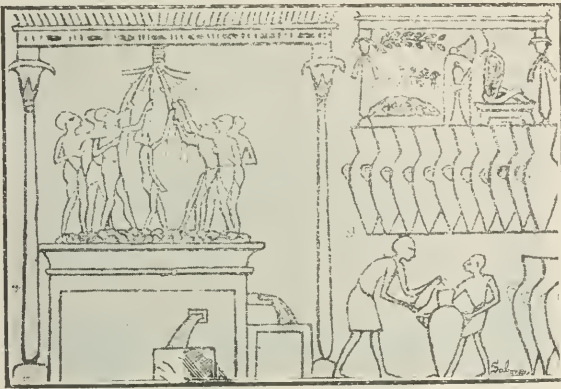
وفي ايامه استقلت اسيا من سيطرة المصريين الا غزوة وضواحيها . ثم ظهر التمرد في الشام فنار اهلها وحرصوا سكان شمالي سوريا على مثل ما فعلوا . فقاتلهم وظهر عليهم وسلبهم مدينة حلب ومدناً اخرى ثم سار الى الفرات فاخضع العراق والجزيرة وبعد انتصاره اراد اكرام جيشه فصرح لهم ان يصطادوا من حيوانات تلك البلاد ما شاؤا . وكان في جملة صيدهم مائة وعشرون فيلاً فعاد الى مصر ظافراً . ثم لم يمض يسير حتى عادت اسيا الشمالية الى الثورة فشقت عصا الطاعة وتمرد اهلها وتابعهم اهل الجزيرة . فعاد الى قتلهم وما زال حتى استظهر عليهم وعاد الى مصر ثم خرج عليه الزنج والعبيد من النيل الاعلى فخاربههم ونهب بلادهم وهدم مساكنهم وحرقها وقادهم اسرى الى مصر . (انظر ش ٨) ويقال بالاجمال ان اكثر ايام هذا الملك كانت حروباً وشدائد ولذلك لقبوه بالسلطان الاكبر . وفي المتحف المصري حجر جيبى به من الكرنك عليه من الأعلى صورة الملك المذكور كأنه يقرب القرابين لبعض الالهة وهم وقوف بين يديه وتحت ذلك كتابة هيروغليفية بين نثر ونظم كتبت عن لسان امون اله طيبة يخاطب بها الملك بما يشبه المدح والتشيط



ش ٩ - اسرى الزنوج

وكان في حوزته عند وفاته الجبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة والعراق العربي وكرديستان وارمينيا وقبرس اما جثته فتشاهد في المتحف المصري . ومن آثار نحوتمس الثالث مسلة ان اقامهما في المطرية حتى اذا كانت ايام الملكة كليوباترا نقلتا الى الاسكندرية وجعلتا امام هيكل القيصر وعرفتا بعد ذلك بمسلي كليوباترا وعليهما كتابة هيروغليفية كثيرة بينهما اسماء نحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني وسيتي الثاني ولا وجود لاسم كليوباترا عليهما . وفي سنة ١٨٧٢ ب م نقلت احدهما الى لندرا واقامت على ضفاف التيمس ثم نقلت المسلة الاخرى الى اميركا بعد حين

ومن ملوكها الملك « امنوفيس الثاني » استلم زمام الاحكام وسلطة مصر منتشرة في اقاصي الارض فاجتهد في حفظها الا ان اشور نظراً لبعدها من مصر تارت واستمات اليها ما حوّلها من المدن فجهاز اليها امنوفيس وما زال يحاربها ومن تابعها نحواً من سنتين كان يتردد اثناءهما بين العراق والجزيرة واكاد . واخيراً عاد الى مصر بجزراً غانماً ظافراً . وفي جملة ما جاء به من الغنائم سبع جثث ممن قتلهم في تلك الحملة فعلق ستاً منها على سور طيبة . ولهذا الملك رسم منقوش على مقبرة في القرنة هو فيه على هيئة ملك عظيم الشأن جالس على كرسي قد نقش على قاعدته اسماء البلاد الخاضعة له



ش ٨ — معاصر العنب عند المصريين

ومن ملوكها ايضاً الملك « تحوتمس الرابع » ومن اعماله اعادة عبادة الشمس الى مصر . فكركم ابا الهول المرموز به عنها . ومن يزر هذا التمثال العظيم في الجزيرة يري في صدره لوحاً ارتقاه اربع عشرة قدماً انكليزية في اعلاه الى اليمين رسم هذا الملك يقدم العبادة لابي الهول والى اليسار رسم الشمس . وبلي ذلك نقوش كتابية تفيد ان ذلك الملك لم يندخر وسعاً في تحسين مدينتي منف والمطرية واعطاء المرتبات المقررة للمعابد او لانشاء الهياكل والتمثيل والمعبودات وكان ملكاً قوياً مهوباً

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الثالث » لما تولى الاحكام كانت حدود مملكة مصر ممتدة شمالاً الى نهر الفرات وجنوباً الى جلة ولسعة شهرته في الاقطار الغربية دعاه اليونان بالامنون . وله تمثال عظيم في طيبة مشهور بهذا الاسم . وقد كثرت في ايامه القلاقل والفتن فسعى في اخادها بعزم ونشاط وكان ذا وقار ومهابة وفي الحروب باسلاً مقداماً . كل ذلك تراه مكتوباً نقشاً على تاج هيكل الاقصر لانه جدد فيه قسماً عظيماً وكان يلقب نفسه بسطان البرين وامير العالمين (يريد عالمي اسيا وافريقيا) وكان حسن

السياسة فزادت مصر في ايامه سطوة ومملكته اتساعاً
ومن آثاره هيكل في « نبتة » جعل في الطريق الى بابه صفين من الكباش الراقدة
على مثال ابي الهول وحسن معبد تحوتس الثالث في سولين بين الشلال الثاني والثالث
وشاد هيكلًا غربي الكرنك خدمة للمعبود امون . وهناك اصلاحات اخرى اجراها في
هياكل ومعبودات اصوان وجزيرتها وجبل السلسلة وغيرها . وانشأ على ضفة النيل
الغربية تجاه الاقصر معبداً طالما كان من اعظم الآثار القديمة اما الان فقد اصبح خراباً
لاسباب لا نعلمها الا صنين كبيرين كانا على بابه ولا يزالان قائمين رغم مصادمة
الايام ويعرفان بشامة وطامة وكل منهما تمثال امنوفيس الثالث . وبقيتا الى سنة ٥٩٥ قبل
الهجرة ولم ينتبه اليهما حتى حصلت زلزلة اسقطت جزء احداهما الاعلى وبقيت قاعدته
في مكانها فلو حظ ان هذه القاعدة اذا سقط عليها الندى ثم اشرفت عليها الشمس اخرجت
صوتاً يستمر مدة فجعلوا يقولون في شأنه اقوالاً شتى اكثرها مبني على الوهم والخرافات
ثم اهتم القوم باعادة الجزء الساقط الى قاعدته فأعادوه وملطوا مكان الالتحام جيداً فلم
يعد يسمع له صوت فعلموا ان ذلك الصوت كان يحدث من تأثير اشعة الشمس على نقط
الندى بعد تخللها جسم ذلك الحجر

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الرابع » رغب في عبادة الشمس فابتنى في محل تل
العهدانة على مقربة من المنيا مدينة جديدة جعلها سريراً للملك بدلا من طيبة ونقل
اليها معبود قرص الشمس وسماه (اتن) على مثال اله اليهود (ادوناي) اقامه في معبد
ابتناء من اجله . وقد تقبوا اطلال تلك المدينة فوجدوا بينها بقية ذلك المعبد على
دهليزين وستة اعمدة مدرجة الوضع يظهر انها كانت منصوبة في صحنه وشاهدوا
على جدرانها رسم الشمس مشرقة على الملك ورجاله وهم وقوف يقربون القرابين اليها
وبين اشعتها ايدٍ ممتدة كأنها تنثر الحياة على المخلوقات وحول هذه الرسوم ادعية وقصائد
كان يتلوها المرتلون على نغمات الاوتار . وعلى جدران الهيكل ايضاً رسم هذا الملك
ورجاله على هيئة غير مصرية . ويشاهد ايضاً في مقبرة بتل العهدانة نقوش بينها صورة
الملك واقفاً على عربته الحربية وبجانبه بناته السبع يقاتلن معه . وله آثار في سوليب
وهيكل ومسلية بمدينة طيبة

ومن ملوكها ايضاً الملك « حور محب » وهو من اقارب « امنوفيس الرابع »
نارت عليه الرعية عند اول حكمه فارتاحهم بمحو عبادة الشمس وهدم معبدها والمدينة
جميعها واعادة الديانة المصرية . ولما خمدت الثورة بنى الوجهة الرابعة من معبد الكرنك

وفي أيامه خرجت اسيا من سيطرة المصريين وما زالت كذلك الى ان جاءت العائلة
التاسعة عشرة

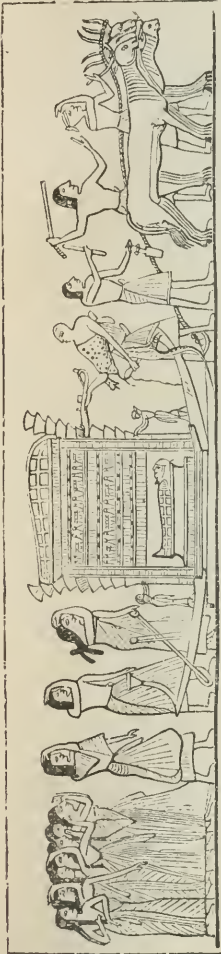
العائلة التاسعة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٠٨٤ — ١٩١٠ ق هـ او من ١٤٦٢ — ١٢٨٨ ق م وعدد ملوكها ٨

اول ملوكها « رمسيس الاول » ولم يتحقق حتى الآن اذا كان مصري المولد او
اسيو به تبوا كرسي الملك شيخاً وكانت المملكة المصرية تنن لخروج معظم ايلاتها
من طاعتها على اثر الحرب الدينية فجدد شبابها ونهض لاجهاد فخارب الاثيوبيين والحثيين
وكانوا امة عظيمة تحتها عدة طوائف قد تحالفوا معاً على قتال المصريين . ويقال ان
هذا الملك هو اول من ناهض الحثيين واخترق بلادهم

وجال في اصقاعهم حتى ضفاف نهر العاص

وخلفه ابنه « سيتي الاول » فسعى سعياً حميداً لتوسيع
مملكته فغزا بعضاً من بلاد اسيا الغربية . ذلك ما يستفاد
مما كتب على هيكل الكرنك فغزا غزوات عديدة الى
الشام والعراق وغيرها ففتح بلاداً تمتد من جنوبي الشام
الى ارمينيا . وقد كانت قبلاً لا يطلب منها الا جزية
تدفعها وحكامها من ابنائها . اما هذه المرة فادخل اهلها
في طاعته وجعل عليهم حكماً من امرائه واحاطهم بنقط
حصينة كغزة وعسقلان جعل فيها حاميات من رجاله
فامن طغيانهم الا ما جاور الفرات فانه عجز عن ابقائه
في حوزته وعصته الجزيرة والعراق ولم يعد قادراً على
مقاومتها فوقف عند حده ولذلك كانت فتوحاته كبيرة
في الظاهر حقيرة في الباطن . ولما عاد من تلك المحاربات
جعل يمكن العلاقات مع ايلاتة بواسطة النقط العسكرية
التي كان قد جعلها فيها فزاد الارتباط بين المصريين والامم
المتحابة ولا سيما الكنعانيين فادخل المصريون معبود
الكنعانيين (بعلا) في عداد معبوداتهم ومثلوه بالشمس
وكان لهذا المعبود زوجة اسمها استارته (عشترت) مثلوها
بالقمر واتخذوا من اسيا ايضاً آلهة اخرى



ومن آثار هذا الملك هيكمل في القرنة وآخر في رداسية وآخر في العرابة المدفونة وقد نحت اعمدة كثيرة اقامها في النوبة وحجراً جعله في اصوان . وفتح ترعة بين النيل والبحر الاحمر تبندىء من تل بسطة وتجري شرفاً في وادي الطملات الى ان تصب في البحيرات المرة وبنى خط دفاع شرقي مصر وشاد محراباً في القرنة وفتح طريقاً للقافلة بين قرية رداسية باقاي اسنا ومعدن الذهب بمجمل اتوكي حيث اصطنع عيناً صناعية ينفجر منها الماء غزيراً . واصلاح الغار الذي في بني حسن للمعبودة « بشت » ويعرف الآن بغار « اتميدس » واخيراً بنى لنفسه ضريحاً في بيان الملوك يعجب له كل من عينه لدقة صنعه ووافيه من المناظر الفلكية البديعة

ومن ملوك هذه العائلة « رعمسيس الثاني » المشهور باسم « سيزوستريس » ويقال له « رعمسيس الاكبر » لانه في الواقع اعظم من ملك مصر حكمة وبطشاً حكم مدة طويلة كلها فتوحات وحروب ومبان ونقوش فلا يكاد يوجد اثر من الآثار المصرية القديمة الا وعليه اسمه ورسمه . ولي الملك صغيراً فشب معتاداً على الاعمال السياسية وكان متوقد الذهن وفيه فطنة ونباهة منذ حداثة . ولما توفي والده قام باعباء الملك بنفسه فاخذ في توسيع نطاقه بالفتوحات . واول غارة شنها كانت على الشام فسار بجيشه وما بلغ نهر الكلب بقرب بيروت حتى خدت الفتنة فعاد الى مصر تاركاً اثرأ منقوشاً على صخر هناك . وفي السنة الرابعة من حكمه ثار عليه سكان شمالي اسيا وهم الحثيون وكاتي وكركاميش وكوش وكانوا اقواماً من الشجاعة على جانب عظيم فانضموا لمحاربتة وساروا جميعاً حتى وادي الارونط بقرب حدود مصر في ذلك العهد . فبلغ رعمسيس خبرهم فجمع اليه امرائه ورجال دولته وقوادده وجنوده وسار في مقدمتهم وما زالوا يخترقون سوريا حتى اتوا نهر العاص قرب مدينة قادس فاذا هي على جانب من المنعة ففرق رجاله فرقاً في نقط معينة ثم سار في حاشيته منفرداً فاقبه جواسيس الحثيين فاغروه على التقدم نحو المدينة فسار في حاشيته تاركاً جيشه في اماكنهم فلما اقترب من المدينة علم انها دسيسة اوقع فيها فالتفت واذا بركبات الحثيين حوله لا اعداد لها فلما رأى ذلك رجال حاشيته طلبوا النجاة بانفسهم وبقي رعمسيس وحده فاستنجد الهه وهاجم الحثيين بمفرده على مركبته ففرقهم وفاز بهم . وبعد سير عاد اليه رجال حاشيته وقد كادوا يذوبون خجلاً لما كان من فرارهم اما هو فاكتفى بتوبيخهم ثم اجتمع بجيشه ثانية وهاجم العدو فهزمهم وانتهى الامر بعقد معاهدة بينه وبينهم ثم هم بالجللاء من اسيا



ش ١١ - رمسيس الثاني

وبينما هو في طريقه الى مصر ثار عليه الكنعانيون وانضم اليهم الحثيون ناقضين العهد وثار غيرهم معهم فاصبح جميع من قطن ما بين ضفاف الفرات وضفاف النيل يقاتلون المصريين الا اهل اسيا الصغرى فانهم هجروا اوطانهم ولم يظهروا للقتال . وما زالت هذه الحروب متواصلة يتخللها هدنات وفترات مدة خمس عشرة سنة فاستولى رمسيس على مدينتي نابور وميروم وقاعة اورشليم وعسقلان . ثم سار شمالا وقاتل هناك حتى اخذ من الحثيين مدينتين وجد في احدهما الان تمثله . وما زالت الحرب سجالاتا حتى اضطر ملك الحثيين الى المصالحة فطلبها فقبل رمسيس ذلك في السنة الحادية والعشرين من حكمه فعدوا معاهدة كتبت اولاً بلغة الحثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت الى رمسيس ومفادها ان الحثيين يتعهدون انهم لن يعودوا بعد ذلك الى حمل السلاح ضد المصر بين وعلى مثل ذلك يتعهد المصريون وان يكون الفريقان متحالفيين الى الابد وجعلوا في وسط لوح الفضة وعلى جانبه الاعلى صورة تمثل (ست) معبود المصريين معانقاً تمثال (خيتا) معبود الحثيين . وما زالت هذه المعاهدة مرعية مدة ست واربعين سنة كانت الراحة في اثنائها مستتبة وتصاهر الملكان توطيداً للعلاقات الودية فاصبح المصريون والحثيون قبالاً واحداً وبعد التوقيع

على المعاهدة يسير دعا رعمسيس الثاني ملك الحثيين لزيارته الى مصر فزاره
فاكرم مشواه

ولما سكنت الحروب اخذ رعمسيس في تشييد المباني فشاد في كل مدينة معبداً
وتم معبد القرنة في الاقصر وكان قد شرع فيه ابوه . ومن آثاره ايضاً هيكل بناء في
شرقي الشيخ عبد القرنة بطيبة سماه شامبلدون « رامسيون » منقوش فيه تفاصيل
احدى وقعاته ومنها معابد في العرابة المدفونة ومنف وتل بسطة وغيرها وأسس في
الوجه البحري مدناً عديدة دعاها باسمه . وكان لهذا الملك العظيم في قلوب رعيته من
الحبة الى حد الشغف و كان لهم فيه من الثقة الى حد العبادة . ولما مات دفن في مقبرة
بيبان الموك ثم نقل الى الاقصر لاسباب غير معلومة . ثم نقل الى المتحف المصري وهو
هناك الى هذه الغاية

ومن ملوك هذه العائلة « منفتاح الاول » ابن رعمسيس الثاني اتبع خطوات ابيه
فجعل يزيد في بنايات الدلتا وتحسينها ثم ثار عليه اهل اسيا الصغرى وطائفة الليبيين
فانفذوا اليه بوارجهم في البحر المتوسط الى سواحل ليبيا ثلثة مائة بالعدة والرجال من
قبائل مختلفة وما زالوا حتى اتوا السواحل المصرية ودخلوها من غربي الدلتا كل ذلك
والمصريون لا يبدون حراكاً الا اذا كان للتسليم . ولم يمض كثير حتى اصبح معظم الوجه
البحري في ذمة اولئك الوافدين . فلما علم منفتاح بذلك تجند في منف وارسل فرقة
من فرسانه لمقابلة العدو ثم امر بتحصين جميع المراكز الواقعة على ضفتي فرع رشيد .
فتناقل الليبيون فانفذ اليهم فرقة شتمتهم وعاد المصريون فأزربن غائبين بعد ان احرقوا
معسكر العدو فعاد الامن الى بلادهم . ويقال ان الاسرائيليين هاجروا مصر في ايام هذا
الملك ولهم على ذلك ادلة اعرضنا عن ذكرها لضيق المقام

العائلة العشرون الطيبية (وتسمى الرعمسية)

حكمت بن سنة ١٩١٠ — ١٧٣٢ ق م او من ١٢٨٨ — ١١١٠ ق م وعدده لوكها ١٢
من ملوكها « رعمسيس الثالث » وهو اخر من اشتهر من ملوك مصر القدماء وفي
اول حكمه ثار عليه اهل البادية فهددوا استحكامات الدلتا واهانوا العملة الذين كانوا
يستخرجون المعادن من جبل الطور . وخرجت ولايات الشام من طاعته وسطا
الليبيون على ارضه فاحتلوا بعضاً من الدلتا من جهة الغرب
فلما علم رعمسيس بما كان من تلك الوقاحة سار في جيش من رجاله على البدو

فهمهم ثم على الليبيين فاقلمهم من محتاهم فعادوا على اعقابهم خاسرين . فلما علم اهل اسيا الصغرى والجزائر اليونانية بما كان جردوا جيوشهم متحالفين على محاربة رعمسيس وما زالوا حتى اتوا الذلتا فلاقهم الجيوش المصرية عند مصاب النيل بقلوب لا تهاب الموت وفي مقدمتهم رعمسيس الثالث غير مبال بما كان حوله من الاسهم المتساقطة عليه من كل الانحاء . وما زالت الحرب سجلاً الى ان فاز المصريون فوزاً تاماً . ولهذه المعركة العظيمة رسم منقوش على جانب الحوش الاول من مباني مدينة (ابو) بطيبة . واستتبت الراحة في ديار مصر بعد ذلك نحو سنتين ثم عاد الليبيون الى الثورة ثانية وضموا اليهم بعضاً من القبائل المجاورة لبلادهم واغاروا على مصر من غربيها فقاهاهم المصريون بشبات فانتهت الحرب بنصرة المصريين كل ذلك منقوش في مدينة (ابو) بطيبة ايضاً . فاضطر الليبيون بعد المعركة الثانية الى رعاية حقوق مصر عليهم فرضخوا لها صاغرين . ثم دخل في ذمة المصريين ايضاً اهل الشام وسكان سيسيليا وغيرهم من الامم المتعاهدة فاصبحت مصر دولة مهيمية واسعة النطاق واستعز رعمسيس بالملك . الا انه لم ينجح من بعض المتاعب الداخلية لان اخاه ارمانيس كان يسعى فيه بدسياسة يذهب بها حياته ولم ينجح فعلم رعمسيس بذلك فأتى باخيه ومن شاركه وبعد تحققه ارتكابهم جازى كلا منهم بما فعل فسفاله الدهر فجعل يجمد المباني فبنى في مدينة (ابو) قصرأ كبيراً نقش على جدرانها ما كان من محارباته ووسع معبد الكرنك واصلح هيكل الاقصر وغيره من مباني الوجه البحري وكانت التجارة في ايامه راجحة ممتدة الاطراف

وتلا هذا الملك ملوك اخرون من هذه العائلة يعرفون برعمسيس الرابع والخامس الخ ويقال بالاجمال ان سطوة مصر اخذت بالسقوط في ايامهم الواحد بعد الاخر الى ايام رعمسيس الثالث عشر وهو اخر من ملك من هذه العائلة فاذا بمصر في ايامه منكسرة الشوكة محصورة الحدود يترصدها الاعداء يريدون النهامها فكانت غنيمة لاحد كهنتها الذي يدعى (حرحور) وهو اول من ملك من العائلة الحادية والعشرين

العائلة الحادية والعشرون الطيبية والطينية

حكمت من سنة ١٧٣٢ — ١٦٠٢ ق ه او من ١١١٠ — ٩٨٠ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم الكاهن (حرحور) اختلس الحكم اختلاسا من العائلة الرعمسية على اسلوب دني منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم نفى من نقي من العائلة المذكورة الى الواحات في وسط الصحراء الكبرى

وتولى بعده ابنه الكاهن (يعنخى) وليس له ما يذكر به سوى انه تزوج بابنة ملك الشام
ثم تولى بعده ابنه الكاهن (بينوزم الاول) وفي سنة ٢٥ من حكمه قامت فتنة
بين اهالي الوجه القبلي واهالي الوجه البحري بسبب نفي العائلة الرعميسية وانتهت
باستدعاء اولئك المنفيين من الواحات الى طيبة
وفي ايامه اتى النمرود بجيشه من اشور متظاهراً بالدفاع عن العائلة الرعميسية
وانما كان قصده الاستيلاء على البلاد المصرية فتحققت اماله واخذها عنوة وضمها الى
بلادهم ثم توفي النمرود ودفنته امه في العرابة المدفونة وجعلت لمدفنه المرتبات المعتادة
وتولى بعده ابنه (ششنق) على مصر واشور واتخذ مدينة (تانيس) سريراً للملكه
وسياتي ذكره في الكلام على العائلة الثانية والعشرين

العائلة الثانية والعشرون البسطية

حكمت من سنة ١٦٠٢ - ١٤٣٢ ق هـ او من ٩٨٠ - ٨١٠ ق م

سميت بسطية لان قاعدة ملكها كانت في تل بسطة بالشرقية قرب الزقازيق
وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم ١٢٠ سنة
اول ملوكها انك « ششنق الاول » ويدعى في التوراة شيشاق وهو سامي الاصل
ابن النمرود كما تقدم . ولد في مصر ونشأ فيها والماستتب له المقام في عاصمته سار الى
العرابة المدفونة لزيارة قبر ابيه فوجد خدمة القبر قد نهبوا ما كان في المعبد من الامتعة
الفضية فامر بقتلهم بعد ان سار الى طيبة واستشار معبودها « امن رع » بذلك . واعاد
الى المعبد منهباته ورتب للخدمة مرتباتهم . كل ذلك منقوش على حجر في العرابة المدفونة
ومن اعمال هذا الملك انه سار الى فلسطين ووضع يده على اموال المسجد الاقصى
الذي بناه سليمان الحكيم وعلى اموال القصور الملوكية وفيها الدروع السللمانية الذهبية
المشهوره ثم سار الى الاسرائيليين فساهموا له القلاع بغير قتال . وبعد عوده من هذه
الغزوة نقش صورته على الجدار القبلي لهيكل الكرنك بالقرب من ايوان البسايطه الذي
اسسه هو وبجانب صورته اسماء المدن التي افتتحها مكتوبة في ست وتسعين منزلة ورسم
صور الملوك الذين اصبحوا تحت حكمه وفي جملتهم الملك رحبعام ابن سليمان مكتوف
اليدين وراء ظهره وفي عنقه جبل . وبني عمارات كثيرة في طيبة بججارة من جبل

السلسلة من اعظمها الايوان المتقدم ذكره ولا تزال اثاره باقية الى هذا العهد قبلي
 هيكل رعمسيس الثالث ويعرف هذا الايوان عند علماء اللغة الهيروغليفية بايوان
 البسايطه وتوفي بعد ان حكم ٢١ سنة



ش ١٢ — نبات البردي الذي كانوا يصنعون منه البايروس

وتولى بعده ابنه « اوسوركون الاول » وليس له آثار تذكر وخلف هذا ثلاثة
 ملوك ليس لدينا شيء من اخبارهم . ثم تولى الملك « تاكلوت الثاني » وله لوح حجري
 في رواق البسايطه بالكرنك منقوش عليه بالقلم الهيروغليفي شيء من سيرته وفي ايامه
 ضعفت شوكة مصر فعصتها اعمالها واستقلت في سلطتها . فاصبحت مصر حقيرة وقد
 ذهب نفوذها ولا شيء من العزة والمنعة فيها . ثم تولى بعد هذا « ششنق الثالث »
 « وبياني » « وششنق الرابع » وفي عهدهم تجزأت مصر الى اعمال متفرقة على كل
 منها حاكم ايجي تحت ادارتهم فاستبد اولئك الحكام وتغافل عنهم ملوكهم فزادوا جوراً
 ومازالوا حتى ازالوا ساطة اولئك واخذوا الملك من ايديهم واقتبوا انفسهم بالفراعة

ونزل الملوك الاصيليون في بسطة ثم هاجروا منها خوفاً الى منف وانتهى الامر بعد موت ششمنق الرابع بخروج الدولة من يدهم الى ملوك العائلة الثالثة والعشرين

العائلة الثالثة والعشرون الطينية

حكمت من سنة ١٤٣٢ — ١٣٤٣ ق هـ او من ٨١٠ — ٧٢١ ق م وعدد ملوكها ٤

قاعدة ملكهم « تانيس » المعروفة الان بسان في الوجه البحري بمديرية الشرقية وقد كانت عند اول استيلائهم على الوجه البحري مدينة بسطة وكانت طيبة في ايدي الاثيوبيين فنزعها منهم « بتوباستيس » وهو اول ملوك هذه العائلة . وفي ايام هذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين اقليماً تحت كل منها اقسام يتولى القسم منها امير يرجع في معضلات احكامه الى مركز الاقليم وما زال الامر كذلك حتى ظهرت العائلة الرابعة والعشرون

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٣٤٣ — ١٣٣٧ ق هـ او من ٧٢١ — ٧١٥ ق م وعدد ملوكها ٥

اولهم « تفتخت » وكان احد امراء الاقسام المتقدم ذكرهم . فتقويت سطوته شيئاً فشيئاً حتى تمكن من جميع مصر قبليها وبحريها الاقليم الشرقية فانه تركه للعائلة الملوكية السابقة ولما علم ملك اثيوبيا بما كان جرد اليه جيشاً وحاربه فقهره ونقش صورة المحاربه على حجر وجد في جبل برقل ثم نقل الى متحف بولاق . فلما دخلت مصر في سلطة ملك اثيوبيا واسمه « يعنخي » جعلها ماحقة ببلاده لكنه ابقى لروسائها الامتياز وجعل « تفتخت » ملكاً عليهم بالاصالة وبعد سير مات يعنخي وخلفه آخر لم يكن اهلاً للحكام فتحرر المصريون من سلطته فانسحب برجاله الى بلاده وفي اثناء ذلك مات تفتخت فتولى بعده ابنه « باكوريس » وكان قوي الادراك فقيهاً بارعاً فجعل مصر الوسطى والسفلى تحت حكمه الا ان الدهر لم يدم له لان الدولة الاثيوبية صارت الى « سباقون » نجاء مصر واقتتحها عنوة والتي باكوريس حياً في النار وبموته ماتت العائلة الصاوية وامست مصر ايلة اثيوبية

العائلة الخامسة والعشرون الاثيوبية

حكمت من سنة ١٣٣٧ — ١٢٨٧ ق هـ او من ٧١٥ — ٦٦٥ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم « سباقون » المتقدم ذكره تولى زمام مصر وجعل انفسه القاب الفراغنة واخذ يبيث النظام في البلاد ويحسن سياستها فابتقى كل رئيس على اقليمه مع حفظ

فبؤذه عليهم جميعاً بمراقبة امراء اثيوبيين . ثم شاد الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد ان يمسه غرق او شرق ورمم كثيراً من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة فاكسب ثقة المصريين واشتهر بالرافة وحسن التدبير

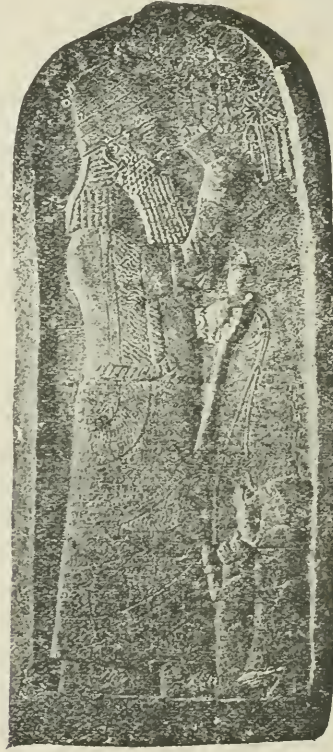
الا ان ذلك لم يدم له لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد قد امتدت سطوتها على الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين ورغب هؤلاء في التخلص من نير الاشوريين فاجمعوا على ان يستنصروا « سباقون » في ذلك . فانفذ هوشع ملك اسرائيل اليه هدايا فاخرة وسأله التحالف معه على « شامنصر » ملك الاشوريين فاجابه سباقون الى طلبه طمعاً منه بالحصول على ما كان لاسلافه من ملوك مصر العظام . فبلغ خبر تلك المعاهدة مسامع شامنصر فاحتال على هوشع حتى اسره وفاجأ قومه بالهجوم فظهر عليهم فاعترفوا له بالسيادة بعد ان قنطوا من مساعدة سباقون . ثم سار « شامنصر » الى السامرة وحاصرها لكنه مات قبل افتتاحها وكان اخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فاقيم مكانه « سرجون » رئيس قواده فاقتدي به وسار على خطواته فاتم فتح السامرة ثم سار الى فلسطين وقتل الملك « يهوئيد » احد المتحالفين مع سباقون .



ش ١٣ — سرجون ملك اشور يده الصولجان

فلما راي سباقون ذلك خاف على بلاده فتقدم بمجنوده الى الشام لرد « سرجون »
معد ان انضم اليه « حانون » ملك غزة احد المتحالفين فالتقيا بجيوش الاشوريين في

مدينة رفح وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجيوش المصرية والشامية وأخذ « حانون » اسيراً ونجا سباقون فضل في الصحراء الى ان وجد من اهداه الى طريق مصر . فكانت هذه المحاربة امثولة له لكي لا يطمع فيما هو عاجز عن نياله . ولم يكن ذلك كل شقائه فانه بعد هذه الهزيمة ثار عليه سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيغانيس احد اقرباء الملك « باكوريس » سعيًا في اصلاح شؤون البلاد فانهزم سباقون الى الصعيد واستقل باكوريس بالوجه البحري لكنه لم ترسخ قدمه حتى انقسمت حكومته على نفسها وقام النزاع بين فئتين من طالبي السيادة وفي اثناء ذلك توفي « سباقون » وخلفه ابنه « سيخون » فاغتم فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واستولى عليه . وهذا ما لبث ان ثبتت قدمه حتى قتله « طهراق » وتولى مكانه



ش ١٤ — اسرحدون يقود طهراق ملك مصر وبعل ملك صور بجيل

اما « طهراق » هذا فكان رجلاً محارباً نزع مدينة منف من « استغانيس » ثم جاءه اسرحدون ملك اشور فاتحاً ففر طهراق (تهراكا اوتهاكه) الى النوبة واستولى ملك اشور على منف وطيبة ونهب امتعة هياكلها وقسوسها وارسلها الى بلاده لتحفظ تذكراً

تللك الغلبة . ثم اشتغل في اصلاح شؤون مصر واعد رؤساء الاقاليم كما كانوا كل واحد في اقليمه وضرب عليهم الجزية وبعد ان تم له ذلك سار الى « نينوي » تاركاً بعض جنوده حامية في قلاعه خوفاً من عائلة الاثيوبيين فر في اثناء الطريق نهر السكاب قرب مدينة بيروت فنقش على الحجر الذي كان نصبه رعمسيس الثاني نقوشا كثيرة بين فيها فتحة بالمصريين والاثيوبيين

وفي سنة ٦٦٩ ق م اغتتم طهراق فرصة مرض اسرحدون وهاجم المصريين لاسترجاع البلاد اليه فلما علم اسرحدون بذلك وعلم بعجزه عن الدفاع تنازل عن الملك لابنه الاكبر « اشوربانال » . فسار هذا الى مصر واخرج منها الاثيوبيين واعد السلطة لرؤساء الاقاليم وعاد الى وطنه . فعاد طهراق الى مشروعه فتحالف مع المصريين سرّاً على ان يعضدوه فيما يريد فعلم ملك اشور بذلك فقبض على الخائنين من رؤساء الاقاليم وقادهم اليه اسرى الا ان ذلك لم يمنع طهراق مما اراد فهجم على مصر واستولى على منف وابطل عبادة الضم « ايس » منها . اما ملك اشور فجعل يقرب منه رؤساء الاقاليم المأسورين عنده استجلاً لرضاهم وطلباً لمساعدتهم فخلع عليهم واكثر من اكرامهم وارسلهم الى مصر فاخذوا الوجه البحري ثم القبلي ثم ما زالت مصر يتناوبها الاشوريون والاثيوبيون حتى انتهى الامر باغضاء الاشوريين عن تملكها لما يقتضي لذلك من المشقة فدخلت في سلطة « نوان ميامون » ملك اثيوبيا بدون كبير مشقة وترى كيفية استيلائه مكتوبة بالهيروغليف نقشا على حجر وجد في اطلال مدينة « نبتة » بجبل برقل وهو محفوظ في المتحف المصري

العائلة السادسة والعشرون الصاوية

حكمت من ١٢٨٧ - ١١٤٩ ق م و ٦٦٥ - ٥٢٧ ق م وعدد ملوكها ٦

اولهم « بسامتيك الاول » استولى على الوجه البحري والقبلي حتى الشلال الاول وكان اجنبياً وايس من العصبية الملوكية الا انه اقترن بابنة من العائلة الملوكية فاكتمسب حق التملك بواسطتها . فتولى الملك ومصر تن ضعفاً وقنوطاً لما قاسته من الحروب التي توالى عاينها اعواماً بين الاشوريين والاثيوبيين فاخذ في احياء ربوعها واعداد رونقها اليها فبنى المعابد في منف ووجوهات معبد فتاح وفتح فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبيرة التي كانوا يعلفون فيها العجل « ايس » ورمم ما

كان مهتماً من معبد الكرنك . وبأشر جميع هذه الاعمال دفعة واحدة فاصبحت مصر كأنها معمل عظيم لبناء والترميم ونشط على الخصوص صناعة الحفر والنقش فباغت اوجاً رفيعاً . ثم نظر الى مناعة البلاد فراها محاطة باعداء كثيرين اشد بأساً منها كالاثوريين والاثيوبيين فأخذ في تحصينها فبنى القلاع والحصون في مضائق طرق الشام من الشرق وفي ضواحي بركة المنزلة وفي مدينة دفنة بالقرب من « تسال » لمنع اغارة الاثوريين وحصن اصوان لدفع الاثيوبيين

على انه عمد بعد الاكتفاء بالدفاع الى الهجوم فهاجم الاثيوبيين وحاربهم فظفر عليهم ثم سار الى الشام فاستولى على فلسطين واخذ مدينة اشدود من الكنعانيين ثم عاد الى بلاده قانعاً بما اوتيه من النصر . وفي ايامه كثر تردد الاجانب الى مصر وفيهم اليونان فكان يكرم مثواهم ويقطعهم من بلاده على سواحل بحر طينة ما يبثون فيه معاقل وبيوتاً يقيمون فيها

اما اليونان فاعجبته مصر وطاب لهم المقام فيها فاخذوا يتعلمون علومها وصنائعها واعجبتهم الديانة المصرية فاصطنعوا آلهتهم على مثال آلهة المصريين . وادخلوا احداثهم المدارس المصرية فنبغوا وقام بينهم فلاسفة لانزال نستفيد من تعاليمهم الى هذا العهد . ومن هؤلاء الفلاسفة سولون وفيثاغورس وافلاطون وغيرهم وقد كان المصريون قبل ذلك العهد ينظرون الى اليونان نظر الاحتقار ويحتنبون معاشرتهم وكانوا يبالغون جداً في وجوب الابتعاد عنهم . اما « بسامتيك » فكان يحبهم ويقربهم منه حتى جعل بطانته منهم والف ميمنة جيشه من رجالهم فاصبحت مصر في قبضة يدهم . فعظام ذلك على المصريين الى حد لم يكنهم معه البقاء في بلادهم ولم يجدوا سبيلاً لشفاء ما في نفوسهم الا بالهجرة من مواطنهم ومغادرتها لاولئك النزلاء فاجتمع منهم نحو ٢٤٠ الفاً . وهموا بالجلء الى اثيوبيا فتبعهم الملك واستعطفهم ان لا يفعلوا فأتوا فقال لهم ولئن تغادروا نساءكم واولادكم قالوا اينما ذهبنا نجد نساءً واولاداً وما زالوا حتى دخلوا اثيوبيا فاستقبلهم ملكها واكرم مثواهم وادخلهم في جيشه فتألفت منهم جيوش عرفت بالاسماخ اي حجاب ميسرة الملك وسماهم اليونان بعد ذلك « انوبولس » . اما « بسامتيك » فعرف بعد ذلك خطأه فأخذ في اصلاحه فسعى في حشد الجيوش ولكن هيئات ان تعود مصر الى رونقها وكان هو الجاني على نفسه

والا توفي تولى ابنه « نخاو الثاني » فاتم تنظيم الجيوش وكان ذا نفس ابيه وهمة عالية فانشأ معامل بحرية لتشييد السفن الحربية على نية افتتاح سواحل البحر الاحمر

والمتوسط وجعل رؤساء تلك المعامل من اليونان . ولاح له لاتمام مشروعه ان يوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط فحفر ترعة امتدادها اربع مراحل وعرضها يسع سفينتين اولها مدينة بسطة بقرب الزقازيق وآخرها بركة التمساح لان البحر الاحمر كان على مقربة من تلك الجهة وكان قد سبقه الى هذا المشروع (حسب قول بعضهم) ملوك العائلة العشرين ففتحوا هذه الترعة لكنهما سدت بعد ذلك بالرمال . وسيأتي امامك كلام مفصل عن تاريخ الوسائل التي اتخذت لايقال البحريين عند الكلام على ترعة السويس من هذا الكتاب

ثم سار نخاو بجيش لافتح فلسطين وافتتح معها اكثر البلاد في طريقه اليها وكانت تحت سلطة الاشوريين ولما عاد الى مصر كافأ من كان في عساكره من اليونان ثم ان ملك الاشوريين « نبوخذ نصر » ارسل ابنه بختنصر في جيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين فسار ولم يبلغ مقصوده حتى بلغه موت ابيه فعاد الى بابل مسرعاً بعد ان استرجع الشام . وحاول « نخاو الثاني » بعد ذلك الاستيلاء على بلاد الشام ثانية فلم يستطع

ثم توفي وخلفه ابنه « بسامتيك الثاني » وهذا لم تطل ايام حياته فخلفه « وح ابرع » وهو الذي استنجد به « صدقيا » ملك اليهود على محاربة بختنصر ملك بابل في عصر ارميا النبي فسارت جيوش مصر وما لبثت حتى عادت منهزمة فاستولى الاشوريون على اليهود فالتجأت اليهود الى مصر فاقطعهم ملكها ارضاً بقرب دفنة فانتشروا في مجدل ومنف وبعضهم سكن الصعيد

وبختنصر لما استولى على الشام طمع بمصر فجاءها مهاجماً وقتل ملكها واستولى عليها واقام فيها عاملاً من امرائه وعاد الى بلاده وساق معه جميع من كان في مصر من العملاء الا ان هيرودونس المؤرخ يقول خلاف ذلك

ثم حكم مصر الملك « اموزيس » وهذا كان في خشية من غارات الفرس على بلاده ولذلك كان يحاذرهم لقوتهم على انه لم ينبج من غائلهم فسلبوه بعضاً من بلاده لكنه بالسياسة وحسن التدبير أمن من اغارهم على كرسي ملكه فارتاحت مصر في ايامه فاقام فيها البنائات والمعابد والمسلات واتسعت التجارة ولاسيما مع اليونان فانهم كانوا من البارعين فيها فزاد عددهم في مصر حتى بلغ ٢٠٠ الف نفس فاعطاهم اموزيس ارضاً ابتوا فيها بيوتاً لهم بالغوا في اتقان بنائها فاصبحت مدينة من اجمل مدن مصر ثم جعلوا يحصنونها . وبعد يسير سنوا لانفسهم قانوناً مخصوصاً . وكانت تجرة مصر في ايديهم فالتسعت وابتساعها

اتسعت شهرة مصر فطمع الناس فيها فاتاها الطلاب من كل الجهات بين فلاسفة وتجار واجناد . ثم راي « اموزيس » من الحكمة ان يتحالف مع اثينا لعابها تفيده ضد ملك فارس ففعل وتم التحالف

وفي اثناء ذلك مات « قورش » ملك فارس فقام ابنه « كمبيز » مكانه وكانت مطامعه لا تزال قوية في مصر فأخذ منذ توليته الملك يسعى في هذا السبيل فاستكشف انسب طريق يؤدي الى وادي النيل برّاً ولزيادة التأمين عقد مع القبائل البدوية التي في طريقه ليمدوه بالماء الذي يحتاج اليه رجاله وبناءً على هذه المعاهدات سارت الجيوش الفارسية وما زالوا حتي نزلوا امام طينة فبلغهم ان « اموزيس » توفي وتولى مكانه « بسامتيك الثالث » وهذا جهز جيوشه وعساكره عند طينة لدفع الفرس فحصلت موقعة كبيرة وكان الفرس اشدة . مكرهم قد جعلوا امام جيوشهم عدداً عظيماً من القطط والبزاة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين فذهب هؤلاء ولم يجسروا على رمي السهام مخافة ان تصيب تلك الحيوانات المقدسة فلم يكن لديهم الا الفرار ففروا الى منف . فارسل اليهم « كمبيز » رسلاً في مركب يطلب اليهم التسليم فخرج المصريون الى ذلك المركب وكسروه ارباً وقتلوا من كان فيه جميعاً فاستشاط كمبيز غضباً وانتقاماً فسار بجيشه الى منف وفتحها عنوة وقبض على بسامتيك وقيده واهانه واودعه السجن ومن معه وكان بسامتيك صبوراً فاحتمل كل ذلك ولم يبد تضجراً فعجب كمبيز لصبره ثم اتفق فيما كان بسامتيك جالساً في السجن مقيداً وكمبيز بجانبه اذ مر به احد ندمائه السالفين متردياً بثوب خلق فتأفف بسامتيك وصفح بيده على جبهته متأسفاً فقال له كمبيز ما بالك تتأسف وتتأفف الان وقد احتملت منا اهانة عظيمة ولم تبد في اثناءها اسفاً . فقال انما اتأسف على حالة هذا الرجل فانه كان في عز وقد اصبح كما ترى والرجل اذا حلت به المصائب وتجرد من ذات يده واهين شرفه يحق عليه الاسف فتأثر كمبيز من ذلك واسرع الى حل قيوده واعاد اليه شرفه الا انه رآه بعد ذلك يسعى ضده فامر بقتله فانتهت هذه العائلة وابتدت العائلة السابعة والعشرون

العائلة السابعة والعشرون

الدولة الفارسية الاولى

حكمت من سنة ١١٤٩ — ١٠٢٨ ق م او من ٥٢٧ — ٤٠٦ ق م وعدد ملوكها ٧ اولهم « كمبيز » المتقدم ذكره فهذا كان براعي ميل الوطنيين فابقاهم على ما كانوا يعبدون واعاد الى اعيانهم امتيازاتهم وحقوقهم وتلقى اسرارهم اللاهوتية ليكون له الممام

فيها واذاف الى اسمه القاباً فرعونية وكان لفتح مصر عظيم هبة وتأثير عند الامم المجاورة فسعوا جميعاً الى كمين بالهدايا والجزية وجعل كمين مصر حصناً يستعين به في فتح افريقيا . ثم جند لقرطاجنة فلم يفز بها فعاد وجند الى واحات سيوى فلم يرجع من رجاله مخبز ثم طمع في اثيوبيا وكانت اذ ذاك على جانب من المنعة والثروة فارسل اليها جواسيس معهم الهدايا فساروا ووقدوها الى ملك اثيوبيا وكان فضماً نبيها فعرف مقاصدهم لكنه اظهر استحساناً لهديتهم . ثم قال لهم وفي يده قوس كبيرة « انظروا الى هذه القوس » ورمى منها سهماً وقال « خذوا هذه القوس الى ملككم كمين واخبروه ان الانسب ان يأتي هو بمفرده فقط لفصل ما تحده به نفسه حقناً لدم العباد وهذه القوس قولوا له اني اوترتها وحدي فاذا استطاع ذلك جاز له شيء مما يكنه ضميره والا فليحمد الالهة لاغضائنا عن بلاده » فلما باع كمين ذلك اخذت به سورة الغضب فجرد جيشه وطلب اثيوبياً من اقرب الطرق فسار في صحراء كروسكو وهو لا يدري مسافقتها فعطش جيشه وجاع حتى اكل بعضهم بعضاً فاضطر الى العود وفي نفسه من الغيظ ما كاد يذيه فجاء منف وكان اهلها في احتفال سنوي لاحد معبوداتهم فظنهم فرحين تخيبتهم فامر بقتل كل الكهنة وشق صوف العجل « ايس » والقاء للكلاب تاكله ثم سخر بمعبوداتهم فجعل احدها فتاح على هيئة قزم زميم الخلق ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة وزاد فيجوره حتى قتل اخته وغيرها ممن هم بريئو الساحة وهو مشهور بالقسوة والعسف . وبقي على كرسي الملك ثلاث سنوات ثم قتله شعبه

وتولى بعده « دارا » فاخذ يسعى في وسيلة يستجاب بهارضى المصريين فانفق موت العجل ايس في اول حكمه فجاء بنفسه الى المعبد واظهر تأسفه الشديد لذلك وواعد بمبلغ وافر لمن يأتي بعجل اخر مثله فاحبه المصريون واتسعت مملكة الفرس في ايامه كثيراً فكان تحتها ٣١ ولاية وقبل ان يبارح مصر زار معبد فتاح بمنف واراد ان يجعل تمثاله بجانب تمثال رعمسيس الثاني فنعمته الكهنة بحجة انه لم يأت بعد على ما أتاه رعمسيس الاكبر فقال لهم دارا « اني ارجو ان اساوي رعمسيس الاكبر ان طال عمري بقدر عمره » وأذن دارا لقول الكهنة بكل احترام

ومن ما ثره انه مهد سبل التجارة فاتم طريق التواصل بين البحرين كما سترى عند الكلام على ترعة السويس وفتح طريق قفط للمواصلات برّاً وطريق اسيوط الممتدة الى العرابة المدفونه ومنها الى اصوان واكثر من العساكر للمحافظة على الواحات الكبرى . وكان الفرس القاطنون في مصر مجوساً متعصبين فصرح لهم بانباع دينهم

على ان لا يستخدموا الكتابة الهيروغليفية على الاطلاق
ثم ثار اليونان في اسيا فسار بجيش كبير لاقاعهم فاغتمت المصريون فرصة غيابه
وشقوا عصا الطاعة وانزلوا ولاية « دارا » وعهدوا الحكم الى رجل يدعى « خبيش »
من سلالة « بسامتيك » فعلم دارا بذلك فهم اليه لكنه توفي قبل اتمام مشروعه فأقيم
ابنه « شيارش » مكانه فجاء مصر واسترجعها عنوة الا انه كان فآثر الهمة فاطلق تدبير
الاحكام لولاية يعيشون بها كيف شأوا وذكنا كان شأنه في سائر ولاياته فلم تبض مدة
من الزمن حتى تجرد من سائر تلك الايالات وقتله من هم حوله وتولى الملك بعده
الملك « ارتحشارشا » فاحب المصريون الخروج من طاعته فاستنجدوا عليه اليونان
فانجدوهم فخصات حروب طويلة انتهت بانهزام المصريين وثبوت قدم الفرس
وفي سنة ٤٢٥ ق م توفي « ارتحشارشا » وخلفه الملك « شيارش الثاني » ثم
« سوغديانوس » ثم « دارا الثاني » وبه انتهت هذه العائلة وعادت مصر للمصريين

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٠٢٨ — ١٠٢١ ق هـ او من ٤٠٦ — ٣٩٩ ق م
ليس لهذه العائلة الاملك واحد يدعى « اميرتيوس » ولاءه المصريون عند تحلصهم
من نير الفرس وحكم مدة سبع سنين كلها اصلاح وترميم

العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية

حكمت من سنة ١٠٢١ — ١٠٠٠ ق هـ او من سنة ٣٩٩ — ٣٧٨ ق م وعدد ملوكها ٤
وليس في تاريخها شي مهم سوى ان الفرس كانوا يهدونها وقدموا يريدون
الاستيلاء عليها ولم يظفروا

العائلة الثلاثون السمنودية

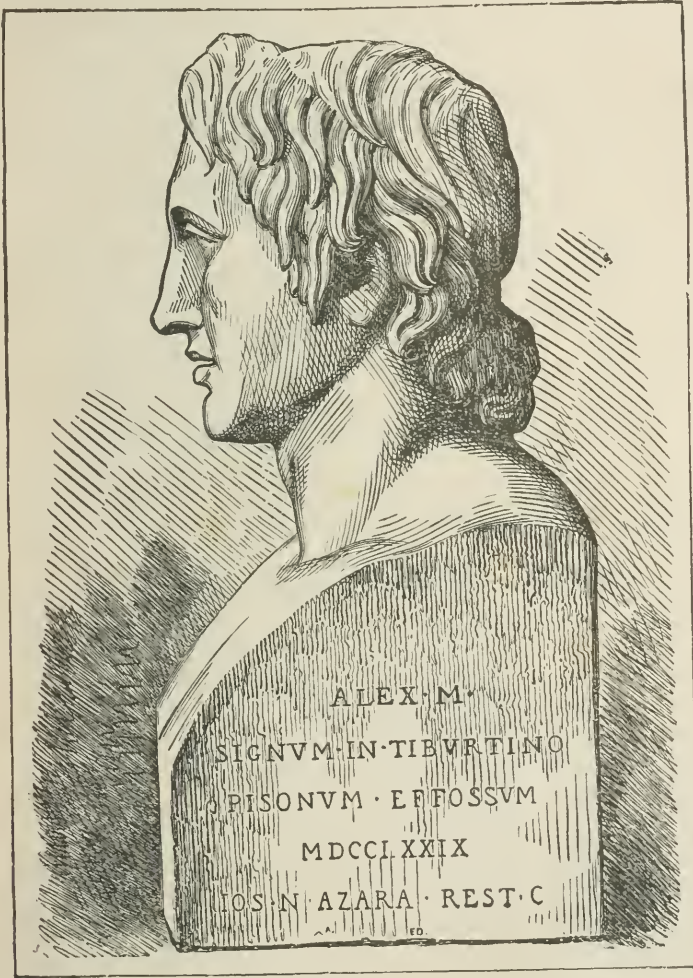
حكمت من سنة ١٠٠٠ — ٩٦٢ ق هـ او من ٣٧٨ — ٣٤٠ ق م وعدد ملوكها ٣
قضوا مدات حكمهم وهم بين دفاع وحذر من استيلاء الفرس وحصل بينهما عدة
وقائع كانت قيادة الجيوش المصرية فيها بيد قواد من اليونان مجريين ولم يفز الفرس
الا في الواقعة الاخيرة . وكانت حكومة مصر بيد « نكتانيس » فانهمزم الى النوبة وهو
اخر من حكم مصر من المصريين الاصليين لانها خرجت من يده الى الفرس ومنهم
الى اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك كما سترى

العائلة الحادية والثلاثون

الدولة الفارسية الثانية

حكمت من ٩٦٢ — ٩٥٤ ق هـ او من ٣٤٠ — ٣٣٣ ق م وعدد ملوكها ٣

اولهم الملك « اوخوس » الملقب « بارتخشارشا الثالث » والذي نزع مصر من يد المصريين . مات مسموماً بجناة ابنه « اريسيس » وحكم سنتين ثم مات وخلفه احد اقاربه المدعو الملك « دارا الثالث » وكان يدعى قبل توليته « كودومانوس » وكان



ش ١٥ — اسكندر المكدوني

معاصراً لالاسكندر المكدوني الشهير . وفي ايامه جعلت دولة الفرس تتقهقر وبدا نجم اليونان بالاشراق فاخذ الاسكندر في فتوحاته وتوسيع مملكة ابيه ففتح الهند وفارس واستولى على مصر بعد موقعة انتهت بانهزام الفرس ودارا الثالث معهم وقتل كثير من رجاله ثم قتله احد نوابه فانتقل بعده حكم مصر الى اليونان

العائلة الثانية والثلاثون

الروم اليونانية

حكمت من ٩٥٤ - ٩٤٥ ق هـ او من ٣٣٢ - ٣٢٣ ق م

اول ملوكها وآخرهم « اسكندر المكدوني » . تغلب هذا الفاتح العظيم على الفرس واخرجهم من مصر ودخاها عنوة فربقعة من الارض على شاطئ البحر المتوسط من حدود مصر فاستحسن موقعها لانه رآها عبارة عن اسان من الياسة داخل في البحر وعلى احد جانبيه بحيرة مريوط المشهورة فلاح له ان يبني فيها مدينة فبناها على رسم مخصوص رسمه بنفسه وعهد اتمام العمل الى المهندس « نيوكراتس » فلما تم بناء المدينة دعاها الاسكندرية ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى هذا العهد . وفي ٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل في بابل وسنه ٣٣٣ سنة فنقلت جثته الى الاسكندرية ودفنت فيها

العائلة الثالثة والثلاثون

البطالمة

حكمت من ٩٤٥ - ٦٥٢ ق هـ او من ٣٢٣ - ٣٠ ق م

بطليموس الاول سوتر حكم ٣٢٣ - ٢٨٥ ق م

لما توفي الاسكندر جاء بطليموس الاول واسمه سوتر من بابل ووضع يده على مصر وجعل يسعى في اكتساب ثقة اهله ثم ارسل احد قواده المدعو « بيكانور » في جيش لاقتحاح سوريا فسار وحارب وفاز ولم تمض بضعة سنين حتى ضم الى مصر سوريا وقبرص وفينيقية

ثم شرع في بناء المعابد في الاسكندرية واقام على جزيرة فرعون التي يصلها

بالاسكندرية برزخ صغير برجاً يباغ علوه الف ذراع على قمته نور يستضيء به القادمون
بجراً وقد هدم هذا البرج الآن ولم يبق له اثر . ومن ماثر هذا الملك مدرسة
الاسكندرية الشهيرة فانه جمع اليها العلماء والفلاسفة من اليونان وسائر بلاد العلم والصناعة
في ذلك العهد وكان يكرم وفادتهم ويضعهم في مكانهم من الهيئة الاجتماعية والنشأ
مكتبة نفيسة طار صيتها في الآفاق

بطليموس الثاني فيلا دلفوس ٢٨٥ - ٢٤٧ ق م

وفي السنة التاسعة والثلاثين من حكم سوترعهد الملك لابنه البكر «فيلاذلفوس»
واجلسه على كرسي الملك في حياته سنة ٢٨٥ قبل المسيح ولقبه ببطايموس الثاني
ثم توفي سنة ٢٨٣ قبل المسيح فاهتم بطايموس الثاني في توطيد العلاقات مع الدول



ش ١٦ — فلكي اسكندري يرصد الافلاك

المعاصرة ولا سيما دولة الروم (الرومانيين) ولم يكن بينهما سابق مخبرات مطلقاً وليتها
لم تحصل لانها كانت آخر الامر داعياً لاستيلاء الروم على مصر . ثم عكف هذا الملك
على تنشيط العلم وذويه فزاد في مكتبة ابيه فبلغت الاسكندرية في ايامه مبلغاً عظيماً من
العلم والثروة ولم تعد ترى مثله بعد ذلك الحين . فقد كانت محور التجارة ومحط رجال

العلماء والفلاسفة . وفي أيامه أيضاً ترجمت التوراة الترجمة السبعينية المشهورة
ومن مآثره خرائب انس الوجود عند شلال اصوان فانه هو الذي شرع في بناء
الهيكل الكبير الذي تشاهد اطلاله هناك الى هذه الغاية على جزيرة فيلوي تجاه
اصوان ويدعوها العامة ايضاً جزيرة البربة وهي من الآثار المشهورة وقد اشتغل
في اتمام بناء الهيكل كل من جاء بعد فيلادلفوس من البطلمسة

بطليموس الثالث افرجيت ٢٤٧-٢٢٢ ق م

وكانت مدة حكم فيلادلفوس ٣٨ سنة ثم توفي وخلفه ابنه « افرجيت الاول »
ولقب ببطلميوس الثالث وكان مجاللاً لتوح جرد جيوشه الى اسيا مقتدياً برعمسيس
الثاني فلم يكن حظها منها باقل من حظها لانه دوخ جميع البلاد التي على الفرات فبال
فانفرس فما وراءها وضرب الجزية عليها كلها واعظم ما سر به المصريين انه استرجع من
الفرس جميع ما كان منقولاً الى بلادهم من تماثيل الآلهة المصرية بامر كمبيز . ثم غزا
اثيوبيا حتى « ابريم »

بطليموس الرابع فيلوباتر ٢٢٢-٢٠٥ ق م

وفي سنة ٢٢٢ قبل المسيح توفي « افرجيت الاول » بعد ان حكم ٢٥ سنة تاركاً
الملك لابنه « فيلوباتر » فتولى الاحكام حال وفاة ابيه واتق ببطليموس الرابع الا
ان المصريين اتهموه بقتل ابيه فكرهوه وكان فظاً عاتياً فزادهم كرهاً . وبعد جلوسه
بيسير سار في جيش عظيم لمحاربة انطيوخس صاحب سوريا فخاربه فطاب الصاح بان
يرجع له سوريا وفينيقية فقبل فيلوباتر وبقي هناك بضعة اشهر ثم عاد الى الاسكندرية .
كل ذلك واخته « ارسينوا » معه لم تفارقه يوماً واحداً . فاصبحت الاسكندرية بعد
ذلك في رغد ورخاء فعكف فيلوباتر على الملاذات فنتسي واجباته المقدسة نحو البلاد
فكثر اللغط بين الاهلين وتكررت التظاهرات وليس من يجيب

وفي ٩ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٢١٢ ق م او سنة ٨٣٤ قبل الهجرة
وضعت ارسينوا غلاماً ولم يكن من واريي الملك غيره فما كان من فيلوباتر الا انه قتل
ارسينوا بدسياسة بعض ذويه . وفي ٢٩ مارس (اذار) سنة ٢٠٥ قبل المسيح مات
فيلوباتر واخفى اصحابه خبره حيناً ريثما يتمكنون من سلب امواله . ثم شاع خبره
فاقاموا عوضاً عنه ابنه الوحيد « ايفان » وهو بطليموس الخامس ولم يكن له من
العمر الا خمس سنوات فاقم عليه وصي من سرات الدولة

وفيلوباتر هو المؤسس الاول لهيكل ادفو (فيما بين الاقصر واصوان) وقد اتم بناءه

من جاء بعده من البطالسة . والهيكल المذكور من اوضح الهياكل المصرية لانه باق برمته الا ان الرمال قد غطت جزء السفلي فترى فيه الاعمدة والرواقات والابواب مكشوفة ككشفاً تاماً

فلما رأى انطيوخس حالة مصر من الارتباك بعد وفاة فيلوطر عاد الى ماكان شارعاً فيه ففتح سوريا وفينيقية عنوة وهم الى مصر فعرض له شاغل أكثر اهمية فعقد مع نواب مصر صلحاً على ان يعطي ابنته كليوبيطرا زوجة بطليموس الخامس وان يترك له مقابل ذلك البلاد التي فتحها فقبلوا

بطليموس الخامس ايفان ٢٠٥ — ١٨١ ق م

وفي ٢٢ مارس سنة ٢٠٥ قبل المسيح اجلس « ايفان » على كرسي الملك وسلم زمام الاحكام فكتب السكينة شيئاً عن ذلك نقشاً على حجارة في ثلاث لغات كانت متعارفة في ذلك العهد وهي الهيروغليفية (القل المصري القديم) والديموطيقية واليونانية وقد وجد احد هذه الحجارة في رشيد وبواسطته توصلوا الى حل رموز القلم المصري القديم كما مرّ بك . وفي سنة ١٩٢ زفت « كليوبيطرا » ابنة « انطيوخس » الى ايفان بطليموس الخامس . وفي نحو السنة الثامنة عشرة من حكمه زادت التشيكات والتظلمات لسوء تديره وضعفه وما زال الاهلون يزيدون عليه حنقاً وحقداً حتى يتسوا من الاصلاح فاماتوه مسموماً في سنة ١٨١ قبل المسيح

بطليموس السادس فيلومتر ١٨١ — ١٤٦ ق م

فتولى مكانه ابنه « فيلومتر » وهو بطليموس السادس وله من العمر خمس سنوات فحكم تحت رعاية امه كليوبيطرا فاقامت له اوصياء من رجال دولته العقلاء . وفي السنة الحادية عشرة من حكمه انتشبت الحرب بين مصر وسوريا وما زالت بينهما سجلاً حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم فيلومتر . وسار السوريون في مصر برّاً الى منف اما الاسكندريون فلما علموا بسقوط منف واسر ملكهم اقاموا عوضاً عنه اخاه افرجيت الثاني وبعد اربع سنوات اخرج السوريون من مصر بمساعدة الروم وعادت مصر لحكم البطالسة فعاد فيلومتر الى منصبه

بطليموس السابع افرجيت الثاني ١٤٦ — ١١٧ ق م

وفي سنة ٢٦٨ قبل الهجرة او ١٤٦ قبل المسيح توفي فيلومتر بعد ان حكم ٣٥ سنة فاقم على مصر « افرجيت الثاني » وهو بطليموس السابع وقد كان الحق في

الحكم لابن فيلوماتر الا انه كان صغيراً فقتله عمه وتزوج بامه فكان الوريث الوحيد ولم يكن افرجيت الثاني حسن السياسة فكان يقتل ويسجن ويستبد في احكامه بغير وجه حق فكرهته الرعية وصاروا يتوقعون له داهية وبالغوا في اضطهاده الى حد انه لم يعد يمكنه البقاء بينهم ففر من مصر ثم عاد اليها وما زال حملاً ثقيلاً على عاتق رعيته الى آخرايام حكمه فاهتدى الى الصراط المستقيم واخذ في تنشيط العلم والصناعة حتى انه كان يمارسها بنفسه والف نحواً من اربعة وعشرين كتاباً معظمها في علم الحيوان

بطليموس الثامن والتاسع سوتر الثاني واسكندر ١١٧ - ٨٢ ق م

وفي سنة ٢٣٩ قبل الهجرة او سنة ١١٢ قبل المسيح توفي افرجيت الثاني بعد ان حكم ٢٩ سنة فاستدعت كليوبيطرا اولادها وكان البكر في قبرص فاتى مصر فواته الملك ودعته « سوتر الثاني » ويسميه العرب « شوطار » فهو بطليموس الثامن ثم سعت في ابعاده الغرض في نفسها فاشاعت انه مضمحل قتلها فثار الرعية عليه ففر الى قبرس ثم الى سوريا فاستدعت اخاه « اسكندر » وولته الملك فكان بطليموس التاسع فخاف على نفسه ايضاً ففضل الاعتزال على اخطار الملك ففر الى قبرس وكان اخوه « سوتر الثاني » في سوريا يستعد للهجوم على مصر فاما رأت كليوبيطرا قرب مجيء الجيوش لمحاربتها اخطرت ابنها اسكندر فعاد من قبرس وبعد يسير عادت الامور الى مجاريها اما كليوبيطرا فكانت رغم كل عاطفة والدية تحاول التخلص من ابنها هذا . اما هو فعلم بما في نفسها وسبقها الى ذلك فذهب بحياتها وفر من مصر فاستدعى اهالي الاسكندرية سوتر الثاني من سوريا ليستلم زمام الاحكام فقدم فرحب به المصريون الا اهالي طيبة لكنهم ما لبثوا ان اذعنوا وفي ايام سوتر هذا كانت مملكة الروم آخذة في الاتساع ودولتهم بالقوة والثروة ثم مات سنة ٨٢ قبل المسيح بعد ان حكم في المرة الاولى عشر سنوات وفي الثانية سبع سنوات ونصف

بطليموس العاشر اسكندر الثاني ٨٢ - ٨٠ ق م

فتولى مكانه ابنه « اسكندر الثاني » او بطليموس العاشر ولم يحدث في ايامه ما يستحق الذكر الا ان دولة الروم كانت قد استوتت على سوريا وسيرينيا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محصورة لا تستطيع حراكاً وكان اسكندر هذا ساعياً جهده في ارضاء الرعية لكنهم لم يكونوا يحبونه بل كانوا يرون فيه العسف والظلم

وما زالوا عليه حتى ابعده من الاسكندرية فسار الى صور فاعتراه مرض اشتد عليه حتى ذهب بحياته

بطليموس الحادي عشر اوليتس ٨٠-٧٢ ق م

ولم يبق من العائلة الملوكية من يحكم بعد اسكندر فاتخب الاسكندريون رجلاً منهم يدعى « ديونيسيوس » ولقبوه « باوليتس » لانه كان مغرمًا بالفلوت (الآلة الموسيقية المعروفة) ولم يكن يهمه امر الملك على ان مصر كانت بغاية الاحتياج الى الحكمة والتدبير لما كان يهددها من المخاطر فنار الاهالي عايمه في طاب الاصلاح وهو غير قادر عايمه ولم يكن في وسعه اخاد الثورة لان الجيوش الذين هم حامية البلاد كانوا في جملة الثائرين فترك مصر وفر الى رومية . وكان له ابنتان الواحدة تدعى « كليوبيطرا » والاخرى « برنيس » وبعد بضعة اشهر ماتت الاولى (كليوبيطرا) فتولت الثانية مدة سنتين فعلم اوليتس بذلك فعاد الى مصر وقتل ابنته قصاصاً لها على اختلاسها الملك

آخر البطالسة كليويط ٥٢١ - ٣٠ ق م

وبعد يسير توفي اوليتس فتولت ابنة له ثالثة اسمها ايضاً كليوبيطرا وكانت بالغة رشدها ولولا ذلك لتولى اخوها ديونيسيوس الثاني وقد كان لخرسه ان يتولى مكانه الا ان كليوبيطرا جاست على كرسي الملك حالاً ودعت نفسها ملكة وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وهي آخر من حكم من الدولة اليونانية في القطر المصري . وكان لهذه الملكة مطامع في السيادة وقد ملكت رغم مشقات كثيرة كانت تحول بينها وبين ماتريدنفي اول الامر نازعها احد اخوتها ووافقه الاهلون فاخرجوها من مصر فسارت الى سوريا واستجدت بجيوش الروم فساعدها يوليوس قيصر القائد الروماني الشهير واعادها الملك واغرق اخاها في النيل فتولت وتزوجت اخاها الآخر . ثم سارت برفقة قيصر الى رومية وبقيت عنده الى يوم قتله سنة ٤٤ ق م ولما جاء يوليوس قيصر الاسكندرية زار قبر الاسكندر وكشف عن جثته ووضع عليها اكليلاً كما ترى في الشكل ١٧ وفي سنة ٤٢ قبل المسيح قتلت كليوبيطرا اخاها باسم فخلاها الجوثم اتفق ان « انطونيوس واكتافيوس » القائدين الرومانيين كانا في حرب مع « بروتس » فامتد هذا الاخير بعارة بحرية وكانت قبل ذلك قد ولدت ولدأ دعتة قيصر ونسبة الى قيصر والده فكان هو الملك على مصر رسمياً



ش ١٧ — يوليوس قيصر امام جثة الاسكندر

فاما باع انطونيوس وهو في طرسوس ان كليوبيطرا انجذت بروتس عدوه
 بالمال والرجال خلافاً للمعاهدة استدعاها الى طرسوس لمرافعة فركبت زورقاً جميلاً
 مزخرفاً جوؤء من ذهب ومجازيفه من فضة تخرج عند التجديف بها صوتاً موسيقياً
 مطرباً وكانت كليوبيطرا من اجمل النساء فلبست افخر ما لديها من اللباس الثمين
 وجعلت حولها الجوارى في احسن ما يكون من الترتيب والنظام ونشرت الارواح
 العطرية في ذلك الزورق . فلما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم
 يعد يخالف لها امراً فاصدر الحكم كما شاءت وشاء الغرام فعادت الى مصر غائمة
 وبعد سيرزارها انطونيوس في الاسكندرية فاكرمت مثنوا فدعاها ملكة الملوك
 يودعى ابنها قيصر وون ملك الملوك بدعوى انه ابن قيصر بحسب الشرع وكان ذلك سنة
 ٣٦ قبل المسيح فزادت كليوبيطرا عجباً على عجب ولم تعد تكتفي بلقب الملوك

فدعوها ايزيس الالهة الجديدة . واما انطونيوس فانسأه الغرام كل واجباته ولم يعد يعلم اهو نائب القيصر ام هو ملك مصر لانه اصبح اسيراً لكليوبيطرا وكتب اسمه بجانب اسمها

والا بلغ ذلك المشيخة الرومانية اشهرت الحرب على ملكة مصر سنة ٣٢ ق م فبعثت اوكتافيوس بجيش وجعات نقطة المحاربة في « فارتو » و « برنديزي » فلم يقبل انطونيوس بذلك وطالب ان تكون الحرب في فرساليا ثم أعد جيشه وسار في خمسمائة مركب وسارت معه كليوبيطرا في ستين مركباً فانقتى الجيشان في اكتوبر باليونان وابت كليوبيطرا الا ان تكون الحرب بحراً

ثم انها خشيت ان تعود العاقبة على جيش انطونيوس فانسحبت بمراكبها شيئاً فشيئاً وكان انطونيوس مهتماً باعداد الممتهات الحربية غير مبال بالموت في جانب مرضاة سألبة ليه ثم التفت الى مراكبها فاذا هي بعيدة تحترق عباب البحر فاقتنى اثرها تاركاً رجاله يحاربون ولا يدرون بقره وما زال حتى ادركها وسار بها الى مصر

اما الحرب فانتهت بانكسار جيوش انطونيوس

ثم رات كليوبيطرا ان محبها انطونيوس لا يقوى على حمايتها فالتجأت الى الجانب الاقوى فارسات صولجانها سرّاً الى اوكتافيوس وطلبت مساعدته فوعدها بما تريد بشرط ان تتخلص من انطونيوس فعمدت الى الحيلة فاخفت نفسها وكل امتعتها واشاعت انها ماتت فها علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها . ثم بلغته خيانتها فقتل نفسه

اما اوكتافيوس فاستلم زمام الاسكندرية ونوى بكليوبيطرا سوءاً فاجست هي خيفة منه وجعات تستجابه بما استجابت غيره من قبله فلم تفر وفي آخر الامر قبض عليها ففضلت الانتحار على ان يقتلها غيرها فقررت ثعباناً ساماً الى صدرها فلذغها فانت في ١٥ اغسطس (آب) سنة ٣٠ قبل المسيح وقال آخرون في كيفية موتها غير ذلك والله اعلم

وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وكان ذلك اليوم آخر حكم اليونان بمصر واول حكم الروم فيها وهي :

(انظر الصورة في الصفحة القابلة)



ش ١٨ — كليوباترا والتعبان يدغها

العائلة الرابعة والثلاثون

الدولة الرومانية

حكمت من ٦٥٢ — ٢٤١ ق هـ او من ٣٠ ق م — ٣٨١ ب م

لما مات كليوباترا على ما تقدم دخلت مصر في حوزة دولة الروم وصارت ولاية من ولاياتهم يتولاها وال منهم يحكم بمقتضى شرائعهم وهذه الدولة هي آخر دول الدور الجاهلي وقد توالى على مصر في حوزة دولة الروم عدة ولاة ليس في سرد اخبارهم ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في العالم ومجيء بعض نصرائها الى مصر وما لاقوه فيها من الاضطهادات العنيفة واشهر تلك الاضطهادات اضطهاد ديوقليطيانس فانه بالغ في مطاردة المسيحيين وقتل منهم جمعا غفيرا

بين كهنة وعامة . ومن تولية هذا الملك (في ١٣ يونيو (حزيران) سنة ٢٨٤ ب م)
 يبتدىء التاريخ القبطي المعروف بتاريخ الشهداء وهو المعوّل عليه عند الطائفة القبطية
 الى هذا العهد . وفي سنة ٣٠٦ ب م جعل قسطنطين امبراطور الروم سرير ملكه في
 مدينة بيزانس (القسطنطينية) فأنحطت سطوة مصر
 وفي سنة ٢٤١ ق هـ او ٣٨١ ب م نهى الامبراطور « ثيودوسيوس » المصريين



ش ١٩ — ثيودوسيوس الأكبر

عن عبادة الاصنام وامرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لامره هذا اسرع في هدم
 الهياكل وتنزيل الانصاب وابطال التقاليد التي كان يعتبرها المصريون من ضروريات
 التدين وكل ذلك بمساعدة بطريك الاسكندرية ثيوفيلوس . وهنا ينتهي الدور الجاهلي
 ويبتدىء الدور المسيحي

الدور المسيحي

من سنة ٢٤١ ق هـ — ١٨ ب هـ او من ٢٨١ — ٦٤٠ ب م

لما توفي «نيودوسيوس» سنة ٣٩٥ ب م قام ولداه «هونوريوس» و«اركاديوس» واقتسما المملكة الرومانية بينهما فجعلها مملكتين شرقية وغربية وجعلتا عاصمة الشرقية بيزانس وعاصمة الغربية رومية وكان كلاهما حاكماً معاً في وقت واحد اما مصر فكانت تابعة للملكة الشرقية

وكان هذا الانقسام رمزاً عن قرب انحلال هذه الدولة لان الامبراطورين ما فتئا يتناظران والانقسامات الدينية تزيد كل يوم والحرب قائمة سجلاً بين لاهوتيي الاسكندرية . وكان لكل من الفريقين احزاب حجة وكثيراً ما اشتد الخصاص بين هذه الاحزاب في الاسكندرية قال الى اشهار السلاح واهراق الدماء وكان الامبراطوران عبثاً يحاولان التوفيق بينهما

وكان النصراني اذ ذاك قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم احدهما اهل الدولة وكلهم روم ورايهم وديانهم باجمعهم الديانة الملكية وعتدهم تزيد على ثلثائة الف رومي

والقسم الآخر عامة اهل مصر ويقال لهم القبط وانسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منها القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره وكلهم يعاقبة فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة والاساقفة والقسوس واهل الفلاحة والزرع واهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة ما يمنع تزواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً وعددهم عدة ملايين وهم بالحقيقة اهل مصر اعلاها واسفلها وفي سنة ٦١٠ للميلاد تولى عرش القسطنطينية الامبراطور هرقل والمملكة لا تزال آخذة بالتقهقر وكانت طائفة القبط قد ظهرت على سواها واتضح انها ستكون المؤسسة للديانة المسيحية في مصر . على ان دولة الروم كانت ترغب في جعل المصريين على مذهبها في الدين لتثبت لها مصر لكن اولئك لم يغفلوا عن هذا فتبتوا على مبادئهم وحفظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية فترجوا جميع تعاليمها اليها ولا

يجب ان ذلك جمع كلمتهم وشد عرى اتحادهم ففقروا وثار في خاطرهم امر الاستقلال وقد كان في وسعهم الحصول عليه لو طابوه
ومما كان زاد الاقباط ثبوتاً ضد الروم انهم كانوا يشاهدون قرب سقوط هذه
الدولة وما كان يهددها من جميع الجهات فالفرس هددوا احدودها الشرقية والمغاربة كانوا
ينتظرون اول فرصة لرفع النير عنهم وهكذا غيرهما من الولايات . الا ان التقادير كانت
تعد هذه البلاد لامة حديثة نشأت في شبه جزيرة العرب نعني الامة الاسلامية



ش ٢٠ — هرقل امبراطور الروم وجنوده

وكانت شبه جزيرة العرب في ذلك العهد جزءاً من مملكة الروم كسائر بلاد سوريا
وفلسطين ومصر الا انهم لم يكونوا يسكنون فيها ولا يعتنون بها على انهم لم يأخذوها
بالحرب وانما كان تسلطهم عليها مجرد عظمتهم ونفوذهم ولذلك لم يكن فيها حاميات من
جنودهم . وهنا ينتهي الدور المسيحي ويبتدئ الدور الاسلامي وهو تاريخ مصر
الحديث

تاريخ مصر الحديث

فصل في

مصادر تاريخ مصر الحديث

لم اَرَ بين المؤرخين الكثيرين الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث من جاء على كتابة وافية تتعاقب فيها الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة ذلك بعموم الدولة الاسلامية وسائر الدول المعاصرة . فبين مؤرخي المشرق ولا سيما العرب من اسهب في الكلام عن بعض اقسام مصر وعني بتاريخها على افراد . ومنهم من انفرد بتاريخ بعض دول مصر دون البعض الاخر ومنهم من اقتصر على تراجم بعض مشاهير حكام مصر او علمائها او ادبائها ومنهم من وصف بعض وقائعها وحروبها بقطع النظر عن تعاقب السنين ومنهم من نظر الى تناسق الحوادث مع نسبتها لتعاقب السنين لكنه اوجز كثيراً فلم يأت بالفائدة المطلوبة ومنهم من جاء على تاريخ مصر عرضاً في اثناء تاريخ الدولة الاسلامية عموماً . فكان قوله متفرقاً فضلاً عن كونه موجزاً

اما مؤرخو الغرب (الافرنج) ولا سيما المتأخرون فقد اتخذوا في كتاباتهم عن مصر اسلوباً اقرب الى المقصود من قبيل تناسق الحوادث وتعاقبها بتعاقب السنين مع بعض الاسهاب ولكنهم في الغالب لا يضبطون الاعلام لان حروف لغاتهم لا تساعدهم على ذلك وقد يغفلون المحاطبات البليغة التي كان يتكاتب بها الخلفاء والامراء والخطب الفصيحة التي كانوا يلقونها في مجالسهم او على جنودهم او اذا لم يغفلوا فانهم يضعونها في لغة قومهم فتخسر بلاغتها ورونقها العربي فاذا اريد ترجمتها الى العربية لا يتفق ان تأتي مثل اصلها تماماً

فرايت ان لكل من الطرفين حسنات فجمعت بينها ما تزاماً صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام التاريخية مع مراعاة الممكنات واغفال ما هو مقول بغير قياس ومناقض لاحكام العقل بين ،بالغات واختلاقات وتقاليد

فزادت المؤلفات التي اخذت عنها كتابي على بضع عشرات فضلاً عن القواميس الكبيرة
وهالك جدولاً فيه اسماء اشهر المؤلفات العربية والافرنجية التي استعنت بها في
تأليف هذا التاريخ:

الكتب العربية

اسم المؤلف	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم الكتاب
الجبرتي	عجائب الآثار	المقرزي	الخطط
ابن اياس	بدائع الزهور	ابن الاثير	الكامل
علي باشا مبارك	خطط مصر	شهاب الدين المقدسي	الروضتين
السخاوي	التبر المسبوك	ابن العميد	تاريخ المسلمين
ابراهيم الطيب	تاريخ الدولة العثمانية	ابن خلدون	ديوان العبر
سليم خليل النقاش	مصر للمصريين	ابن خلكان	وفيات الاعيان
نعوم بك شقير	تاريخ السودان	ابن شاكر	فوات الوفيات
ترجمة بسترس	هيرودوتس	الاسحقاقي	اخبار الأول
يعقوب نخله	الامة القبطية	عبد اللطيف البغدادي	الافادة والاعتبار
احمد الرهبان	الخريدة النفيسة	ابو المحاسن	النجوم الزاهرة
		المسعودي	مروج الذهب

الكتب الافرنجية

فرنساوي	موزوند	تاريخ الحروب الصليبية
»	مارسل	» مصر الحديث
»	اميديه ريم	» الحملة الفرنسية
»	بوه	» محمد علي
»	موزو	الانبياء الثلاثة (عراي وگردون والمهدي)
»	دافاسيه دي بونته	المشرق ومصر
»	كلوت بك	نظرة في مصر
»	نروتوسوس بك	تاريخ الدوائر الصحية المصرية
انكليزي	مري	الآثار المصرية

انكليزي	شارب	تاريخ مصر القديم
»	سلاطين باشا	السيف والنار في السودان
»	شارلس رويل	الحوادث المصرية الاخيرة
»	باتون	تاريخ الممالك الى وفاة محمد علي
»	جمعية الرسائل الدينية	المملكة العثمانية
		الانسكلويديا البريطانية وغيرها من القواميس الشهيرة

جغرافية مصر الحديثة

حدود مصر واقسامها

كانت المملكة المصرية قبل انسلاخ الاقطار السودانية عنها تمتد شمالاً الى البحر المتوسط وجنوباً الى قرب خط الاستواء حيث الجبال الزرق وبحيرة البرت نيازا وشرقاً تبديء من العريش على ساحل البحر المتوسط وتسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الاحمر مقابل راس بنار على ساحل البحر الاحمر الغربي ومن هناك تمتد الى مصوع نخليج عدن حتى بربرا اما في تلك الانحاء الجنوبية فسلطة الخديوي لم تكن تتجاوز الشطوط فضلاً عن ان الحبشة وقبائل اخرى هناك كانت مستقلة. وغرباً من راس الكنائس عند البحر المتوسط مخترقة صحراء ليبيا حتى دارفور ثم تعطف شرقاً الى الجبال الزرق

اما بعد الحوادث السودانية الاخيرة فامحصرت المماكة المصرية في القطر المصري ويحدهُ شمالاً البحر المتوسط وجنوباً الشلال الثاني (وادي حلفا) وشرقاً قنال السويس فالبحر الاحمر وغرباً راس الكنائس وصحراء ليبيا

وينقسم القطر المصري الآن الى قسمين عظيمين هما الوجه القبلي والوجه البحري او مصر العليا ومصر السفلى تفصل بينهما القاهرة وكل من هذين القسمين يقسم الى اقاليم او مديريات في كل منها مدينة كبيرة تقيم فيها حكومة تلك المديرية وعلى كل من هذه المديريات حاكم يدعى مديراً وهالك اسماء المديريات وقواعدها وعدد سكانها حسب

المديريات وقواعدها

عدد سكان المديرية	اسم قاعدتها	اسم المديرية
٤٣٤ ٥٧٥	قايبوب	القليوبية
٩٧١,٠١٦	شبين الكوم	المنوفية
١,٤٨٤,٨١٤	طنطا	الغربية
٨٣٠,٠١٥	دمنهور	البحيرة
٨٨٦,٣٤٦	الزقازيق	الشرقية
٩١٢,٤٢٨	المنصورة	الدقهلية

ثانياً الوجه القبلي

٤٦٠,٠٨٠	الجيزة	الجيزة
٣٧٦,٣١٢	بني سويف	بني سويف
٤٤١ ٥٨٣	الفيوم	الفيوم
٦٦٣ ١٤٤	المنيا	المنيا
٩٠٧ ٤٣٥	اسيوط	اسيوط
٧٩٧ ٩٤٠	سوهاج	جرجا
٧٨٠ ٨٤٩	قنا	قنا
٢٣٤ ٦٠٢	اسوان	اسوان

ويشتمل القطر المصري عدا عن المديريات المذكورة على مراكز مستقلة باحكامها

يسمونها محافظات وهي مع عدد سكانها

اسم المحافظة عدد سكانها

٦٥٤ ٤٧٦	القاهرة
٣٣٢ ٢٤٦	الاسكندرية
٤٩ ٨٨٤	بور سعيد
١١ ٤٤٨	الاسماعيلية
١٨ ٦٣٧	العريش

السويس	١٨ ٣٤٧
سينا	٢٥ ٠٨٢

السودان المصري

اما السودان المصري فقد قسم بعد استقلاله عن مصر الى مديريات ليكمل منها مركز وهذه اسماءها مع اسماء بناورها

المديرية	البندر	المديرية	البندر
الخرطوم	الخرطوم	سنار	سنجا
بربر	الدامر	كسلا	كسلا
دنقلا	مروى	اعالي النيل	كودوك
وادي حلفا	حلفا	بحر الغزال	واو
البحر الاحمر	بورسودان	كردفان	الايض
النيل الابيض	الدويم	منجلا	منجلا
النيل الازرق	واد مدني		

سكان مصر

بلغ عدد سكان مصر بناءً على تقويم سنة ١٨٨٢ نحو ٧٤٧ ٨٠٩ ٦ نفساً منهم ٩٠٨٨٨ من الاجانب . وبلغ حسب احصائها سنة ١٩٠٧ نحو ١١ ٣٠٠ ٠٠٠ . وهم على الاكثر يونانيون وايطاليون وانكليز وفرنساويون واتراك اما العربان المقيمون بالقطر المصري فمعدودون في الوطنيين ويبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ . وغالبهم بدو يقطنون الخيش بالقرب من المزارع والرحالة منهم يبلغ عددهم سدس مجموعهم

ويظهر ان عدد سكان مصر في عهد المصريين القدماء لم يتجاوز هذا العدد قال هيرودوتس المؤرخ انه كان في مصر على عهد الملك اماسيس ٢٠٠٠٠ مدسة . وقال ديودوروس ان عدد السكان بلغ سبعة ملايين ويوسيفوس يقول سبعة ونصف . اما في الدولة الاسلامية فبلغ عددهم نحو ٢٠٠٠٠٠٠ نفس ثم انحط في عهد المماليك الى ثلاثة ملايين واخذ في الزيادة من عهد المغفور له محمد علي باشا ولا يزال يتزايد الى اليوم

مزروعات مصر

تقسم مزروعات القطر المصري الى المزروعات السنوية والاشجار وقد حسب عدد هذه المزروعات على وجه العموم فبلغ نحو ١٣٠٠ نوع

فن المزروعات السنوية للقمح والشعير والذرة والدخان والارز وقصب السكر والبقول والعدس والحمص والترمس والبشلة والباميا واللوبيا والبلاب والبصل والكرات والتوم والخبيزة والخس والسكرمب والباذنجان والرشاد والفجل والخيار والقثاء وعبد اللوي والعجور والشام والبطيخ والجزر واللفت والبرسيم والحلبة والقطن والكتان والقنب والقرطم والسهمس والنيلة والحناء والقوة والافيون والخردل والكزبرة والبقونس وغيرها

ومن الاشجار النخل والبرتقال والماندرين (يوسف افندي) والليمون والتين والجميز والموز والشمس والخواخوخ والرمان والتوت والغنبل والزيتون واللوز والسنط والطرفة والخرنوب والنبق والدوم واللبخ وغيرها

ومعظم هذه الاشجار كان معروفاً لدى المصريين القدماء الا ان بعضها قد دخل الى البلاد حديثاً منها اللبخ وهو مزروع على معظم الشوارع العمومية في المدن الكبيرة للانتفاع بظله

حيوانات مصر

تقسم الى الحيوانات الداجنة والحيوانات البرية

فالداجنة منها الجمل والفرس والحمار والبغل والجاموس والبقر والضأن والماعز والخنزير والكلب والهر والدجاج والديك الهندي والوز والحمام . ومن الغريب ان الجمل والجاموس والضأن والدجاج لم تكن معروفة لدى المصريين القدماء والحيوانات البرية منها الخنزير البري والضبع والغزال وبقر الوحش وكبش الجبل وابو الحسين والذئب والثعالب والقط البري والتمسك والارنب والوطواط والتمساح وحيوانات اخرى من الطيور والزحافات والاسماك لا حاجة بنا الى ذكرها

الدور الاسلامي

دولة الخلفاء الراشدين

مؤلفه عمر بن الخطاب

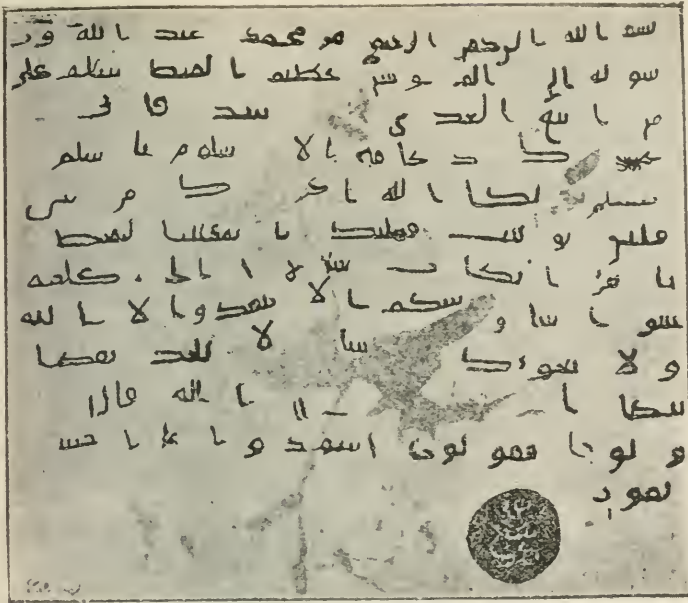
من سنة ١٣ - ٢٣ هـ او ٦٣٤ - ٦٤٤ م

مبدأ الدولة الاسلامية

وفي خلال تلك الانقسامات الدينية في مصر كانت نشأة حضرة صاحب الشريعة الاسلامية محمد الهادي بن عبدالله القرشي . ولد في مكة المشرفة نحو سنة ٥٦٩ ميلاد المسيح وهاجر الى المدينة في ١٦ يوليو (تموز) سنة ٦٢٢ ومن هذا اليوم يتبدى التاريخ الاسلامي وهو تاريخ الهجرة النبوية المعول عليه الآن . وفي آخر السنة السادسة للهجرة كتب الى الامبراطور هرقل ملك القسطنطينية كتاباً يدعو فيه الى الاسلام وكتب مثل ذلك الى سائر ملوك العرب والعجم وفي جملتها كتاب الى المقوقس يوحنا بن قرقت حاكم مصر من قبل ملك الروم فبعث اليه المقوقس اربع جوارب منهن مارية ام ابراهيم ابنه فكان ذلك اول الصلات بين دولة العرب ومصر ثم كانت الغزوات والفتوح المشهورة حتى السنة الحادية عشرة فتوفي صاحب الشريعة وبويع الخليفة ابوبكر الصديق فعمل على استمرار الفتوح حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٣ هـ او ٦٣٤ م

فما لبث الاسلام ان ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهاداً في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز ثماني عشرة سنة

فلما رأى الامبراطور هرقل ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من بلاده عنوة اوجس خيفة على باقيها ولاسيما مصر الا انه لم يكن في حسبان ان العرب يقدمون الى مصر مفتحين حالاً على اثر فتوحهم الكثيرة فعقد بينه وبين الخليفة عمر بن



ش ٢١ — النسخة الاصلية لكتاب النبي الى المقوقس زعم بعض المستشرقين انه
 وجدها في الصعيد (راجع الهلال سنة ١٣ صفحة ١٠٣ و ١٦٠)

خطاب معاهدة مآ لها ان يدفع جزية سنوية معلومة لخزينة المسلمين قبالة اغضائهم
 عن فتح مصر. الا ان هذه الجزية لم تكن تدفع في حينها وبالتقدر المعين فاعتبر
 الخليفة تلك المعاهدة منقوضة

فتح مصر . سنة ١٨ هـ او ٦٤٠ م

وكان عمر وبن العاص لا يفتقر عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها
 لانه كان قد جاءها قبل ان اعتنق الاسلام وراى فيها من العظمة والمجد ما جعله
 شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول له « انك ان افتتحتها كانت قوة المسلمين وعروناً
 لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب » وكان الامام عمر يتخوف
 من ذلك ولا سيما بعد ان عقد المعاهدة بينه وبين هرقل لكنه بعد ان نقضت على ماتقدم
 راى ان يجيب طلبه فانفذ اليه ان يسير باربعة الاف رجل اشداء وقال له « سر اني
 مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي قريباً ان شاء الله تعالى فان ادر كك كتابي أمرك
 فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخاها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخاها

قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس بأيام

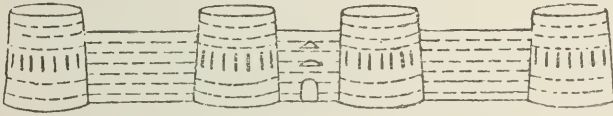
فسار عمرو بن العاص ومن معه قاصداً مصر وهو يكاد لا يصدق ان اذن له بذلك . فما بلغ رفح « وهي قرية تدعى الان رفع تبعد نحو عشر ساعات عن العريش) حتى ادركه رسول من عمر ودفع اليه كتاباً يخاف ان يكون ذلك الكتاب مؤذناً بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فاجل فتحة حتى يدخل ارضها وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بجرد السير حتى امسى المساء فسأل ابن نحن فقبل له في العريش فعلم انه دخل ارض مصر فأمر بالمبيت هناك . وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يده كتاب الخليفة ففضه بكل احترام وتلاه على الجمهور بصوت عال وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما انا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامض واعلم اني بمدك » فالتفت عمرو الى من حوله قائلاً « ابن نحن يا قوم » فقالوا « في العريش » فقال « وهل هي من ارض مصر ام الشام » فاجابوا « انها من مصر » فقال « ها م بنا نعبّر على خيرة الله تعالى » . وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة الاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يحترقونها جنوباً في قسها الشرقي وعدادهم يزيد كل يوم ممن كان ينضم اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يبرون بها في طريقهم

فكان اول موضع قوتل فيه الفرماقات الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربه . ثم تقدم عمرو وهو لا يقاتل الا بالامر الخفيف حتى اتى بابيس فقاتلوه فيها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه وكان في بابيس ارماتوسة بنت المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فأحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلاباً لوده فسير اليه ابنته مكرمة في جميع ما لها فسر ابوها بقدمها كثيراً

ثم سار عمرو وما زال حتى مر بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل او بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة . وكان حصناً منيعاً رفيع العماد^(١) الى شرقيه جبل المقطم راسخ وعلى وجهه تجعدات تدل على قديم عهده وبين

(١) ويسميه بعض مؤرخي العرب حصن بابليون او باب الاون والمؤرخين فيه

الجبل والحصن بقعة من الارض لاثيء من العمارة فيها الابعض الايرة والكنائس . ثم نظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيده مناعة والى ما وراء النيل ارض قد كستها الطبيعة من جاهها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبة وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسر من خشب وكذلك فيما بينها والجزيرة يمر عليهما الناس والدواب من البر الشرقي الى الجزيرة ومن هذه الى البر الغربي . وكان هذان الجسران مؤلفين من مراكب بعضها بجذء بعض وموثقة بسلاسل من حديد وفوق المراكب اخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات



ش ٢٢ - حصن بابل كما كان لما حاصره العرب

وتطلع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد اثقلت كاهل الدهر فمجز عن هدمها . ثم رمى بنظره الى جنوبي الاهرام فرأى ببقايا منف العظيمة ترهب القلوب لما يتجلى فيها من العظمة والفخامة ومن جملتها اهرامها المعروفة الان باهرام سقارة

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والقباض وجعل يسرح نظره ويتأمل بما يهدهه من الاخطار في مقاومة هذا الحصن . ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتميه النظر يخترقه النيل المبارك . على غربيه آثار منف والاهرام وعلى شرقيه ذلك الحصن وفيه قد حشدت جنود الروم متأهبين للدفاع ولم يكن قد رأى شيئاً من ذلك فيما مر به من البلدان فعظم عليه الامر الا انه عاد الى عزمه عند ما تصور ما يلحق به من العار اذا عاد خائباً وما يقع في يده من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن واذا لم يفز في جهاده هنا واستشهد ففي الآخرة ما هو افضل ماباً

وكان في الحصن المتفوقس وقد تقدم انه حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا

اقوال اظهرها انه حصن بناه الفرس عند تملكهم مصر ودعوه باسم عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم

والسفلى ومعظم سكانهما من القبط . وكانت عاصمة حكومته منف على الضفة الغربية
واما هذا الحصن فقد اتخذ مركزاً حربياً ليمتع العرب من المرور الى عاصمته . وكان
المقوقس من حزب الوطنيين ويقال انه كان بينه وبين الرسول مكاتبة وعلى كل فانه لم يكن
له ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدم جيوش المسلمين جهز جنداً تحت قيادة احد كبراء
جيشه المدعو الاعيرج . وجاءوا بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن
اما عمرو فاخذ في المراجعة مدة فابطاً عليه الفتح فكتب الى الخليفة يستمدده فامده
باربعة الاف رجل عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود
وعبادة بن الصامت ومسامة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسامة
وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصه « اني قد انفذت اليك اربعة الاف على كل
الف منهم رجل مقام الف »

فانفذ عمرو واحد قواده واعله حذافة بجمسمائة فارس الى الجهة الثانية من الحصن
من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد خندقوا خندقاً وجعلوا له ابواباً وبذروا
في اقينتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهزم المصريون حتى دخلوا
الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الا النيل وكان حول ذلك الحصن
الخندق فلم يستطع العرب الهجوم عليه واستمر رمي السهام صباحاً ومساءً ثم تشاور
عمرو والزبير بشأن ذلك فاقروا على تشديد الحصار ففرقوا الرجال حول الخندق . والح
عمرو على الحصن بالمنجنيق ثم خاب القوم بشأن التسليم فلم يفعلوا . وكان المقوقس يريد
التسليم تخلصاً من نير الروم لما بينه وبينهم من الضغائن الدينية وان لم يتجرا على التصريح
ببغيته لان رجاله لم يكونوا كلهم من حزبه ولا سيما الاعيرج . ولما رأى من اقدام العرب
وصبرهم على القتال ورجبتهم فيه خاف ان يظهروا على رجاله فتكون الخسارة مزدوجة
فعمد برجله الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبر بهم على الجسر الى الجزيرة ثم
تبعه الاعيرج ولم يترك في الحصن الا نفرأ قليلاً من رجاله والعرب غير عابئين

ولما ابطأ الفتح قال الزبير « اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على
المسلمين » فعبر الخندق ثم وضع ساهماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر
عمراً انهم اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوه جميعاً فما شعر الا والزبير على رأس الحصن يكبر
والسيف في يده فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه لكثرتهم فنهاهم ثم كبر
وكبر الناس معه واجابهم من كان خارجاً فظن من كان باقياً في الحصن من الروم ان العرب
جميعهم هاجموا فهربوا . وعمد الزبير واصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحموا

الحصن وتملكوه ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة . واما هولاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم . وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

الخابرة بشأن الصلح

فلما رأى المقوقس ذلك انشد الى عمرو كتاباً نصه « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والاحتتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلمتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فاعلم ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا يتدر عليه . واعلم ان تندموا ان كان الامر مخالفاً لطابتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالاً من اصحابكم نعالمهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما اتى رسل المقوقس الى عمرو حبههم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك رد عمرو الرسل وكتب الى المقوقس « انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخاتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان ايتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هولاء قالوا « رأينا قوماً الموت احب الي احدهم من الحياة والتواضع احب الى احدهم من الرفعة ليس لاحد منهم الدنيا ورغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخاف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »

فاقسم المقوقس قائلاً « لو ان هولاء التقوا الجبال لزالوها ولا يقوى على قتال هولاء احد ولئن لم نغتتم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لن يجيبونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقوا على الخروج من مواضعهم » وما زال على رجال حكومته حتى وافقوه على طلب الصلح فكتب الى عمرو « ابعثوا الينا رسلاً منكم نعالمهم وتداعى وهم الى ما عساه ان يكون فيه صلاح لنا ولكم »

الوفد الى المقوقس

فبعث عمرو عشرة نفر احدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجاش هائل المنظر اسود اللون طوله عشرة اشبار وجعله منكم القوم وامره ان لا يجيبهم الى شيء دعوه الا احدى هذه الثلاث خصال قائلاً « ان امير المؤمنين قد تقدم الي في ذلك وأمرني ان لا اقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث » فركبوا السفن حتى اتوا المقوقس ودخلوا عليه فتقدم عبادة في صدر اصحابه فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته وقال « نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيري بكلمي » فاجابوا « ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورايه وقد امرنا الامير ان لا نخلف له امراً » فقال المقوقس « وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدماً عليكم وهو اسود وانما ينبغي ان يكون دونكم » فقالوا « كلا وان كان اسود فهو افضلنا »

فقال المقوقس لعبادة « تقدم يا اسود وكلمي برفق فاني اهاب سوادك »

فتقدم وقال « قد سمعت مقلتك وان فيمن خلفت من اصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني وافظع منظرأ وجميعهم اشد هيبة مني وانا قد وليت وادبر شبابي واتي مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما هولرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الا ان الله عز وجل قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً وما يبالي احدنا ان كان له قنطار ذهب او كان لا يملك الا درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعه ليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب انفقه في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس نعيماً ورخائها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الا ما يسك به جوعه ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه »

فلما سمع المقوقس منه هذا الكلام قال لمن حوله باسائهم « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب . ان هذا واصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها » ثم اقبل على عبادة وقال له « ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة

والشدة ما يبالي احدهم بمن اتى ولا من قاتل وانا لعلم انكم ان تطيقوهم لضعفكم وقاتم
وقد اقم بين اظهرنا اشهرأ وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب
انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولا ميركم مائة دينار
وخليةفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام
لكم به »

خطاب عبادة بن السام

فقال عبادة « يا هذا لاتغرّن نفسك ولا اصحابك .. اما ما تخوفنا به من جمع الروم
وعدهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا
عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقا فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا
عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان امكن لنا في
رضوانه وجنته وماشيء اقر لاعيننا ولا احب لنا من ذلك واننا منكم حينئذ لعلى احدى
الحسنين اما ان تعظم لنا بذلك غنمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنمة الاخرة ان ظفرتم
بنا ولانها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه كم
من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . وما منا رجل الا ويدعور به
صباحاً ومساء ان يرزقه الشهادة وان لا يردّه الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده
وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه اهله وولده وانما همنا ما امامنا .
واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالتنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا
كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فبينه فليس بيننا وبينك
خصلة تقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايها شئت ولا
تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول
الله من قبل الينا . اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره
وهو دين انبيائه وورسله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل
فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت
واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والاخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا
التعرض لكم وان ايتمت الاجزية فادوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان تعاملكم
على شيء نرضى نحن وانتم في كل عام ابدأ ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض
لكم في شيء من ارضكم ودماءكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان
لكم به عهد علينا وان ايتمت بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا

او نصيب ما تريد منكم . هذا ديتنا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لانفسكم »

فاعظم المقوقس ذلك وقال « هذا ما لا يكون ابداً ما تريدون الا ان تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا »

فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت »

فقال « افلا تحبوننا الى غير هذه الثلاث الخصال »

فرفع عبادة يديه الى السماء وقال « لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاخثاروا لانفسكم »

فالتفت اذ ذاك المقوقس الى ارباب مجلسه فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا « أيرضى احد بهذا الذل؟ اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابداً ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لانعرفه . واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مراراً كان اهن علينا »

فقال المقوقس لعبادة « قد ابى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تبتيم وتنصرفون »

فقال عبادة واصحابه « لا » . فقال المقوقس لاصحابه « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما اكم بهم طاقة وائى لم نجبهم اليها طائعين لنجيبهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا « واي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدرؤا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » قالوا « فذكون لهم عبيداً ابداً؟ » قال « نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم فاطيعوني قبل ان تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال المقوقس لعبادة « اعلم اميرك اني لا ازال حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي ارسل الي بها فليعطني ان اجتمع به انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابه فان استقام الامر بيننا تم ذلك جميعاً وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه » فرجع عبادة الى عمرو واخبره بما كان فاستشار اصحابه فقالوا « لانجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئاً وغنمة كما

صار لنا الحصن وما فيه . فقال عمرو « قد علمتم ما عهد الي امير المؤمنين في عهده فان اجابوا الي خصلة من الخصال الثلاث التي عهد الي فيها اجبتهم وقبالت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم » فوافقوه

عهد الامان للمصريين

فاجتمع عمرو والمقوقس وانفقا على الصلح بان يعطى الامان المصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نص الشروط

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم ولا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف وعليه ممن جنى نهرتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن ابى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب »

ولما تم الصلح على هذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتاباً يعلمه بالامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه « ان ما اتاك من العرب اثناء عشر الفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأجبا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندكم بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة الف فارس معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم في حال القبط اذلاء فقاتلهم انت ومن معك من الروم حتى تموت او تظبر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً الى جماعة الروم

فاقبل المقوقس على عمرو فقال له « ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب

الى والى جماعة الروم ان لا نرضى بمصالحتك وامرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم . ولم اكن لاخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تم صلح القبط مما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وانا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . واما الروم فانا منهم براء وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال . الاولى الا تنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب . واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيناً وعبيداً فانهم اهل لذلك لاني نصحتهم فاستعشوني ونظرت اليهم فاتهموني . واما الثالثة فاني اطلب اليك ان انا مت ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » فاجابه الى ما طلب على ان يضموا له الجسرين جميعاً ويقوموا لهم الانزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعواناً

وصف مصر

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولا بكتاب يخبره بما تم بينه وبين المقوقس فاجابه منشطاً وسأله ان يصف له مصر فكتب اليه « ورد الي كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه ويسأني عن مصر اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل اغبر ورمل اعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان لجاري الشمس والقمر . له اوان يدر حلاله ويكثر عجاجه وتعظم امواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القمري بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كانهن الخيايل ورق الاصيل . فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كاول ما بدا في جريته وطمى في درته . فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمة محقورة يحرثون بطون الارض ويندرون بها الحب يرجون بذلك الثناء من الرب لقيهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم . فاذا احق الزرع وأشرق سقاء الندى وغناه من تحت الثرى . فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينيرها وبقراً قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها . وان لا يستأدي خراج الثمرة الا في اوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق الملك والمال »

فتح الاسكندرية . سنة ٢٠ هـ

ولما تم التعاقد بين المسلمين والقبط على ما تقدم هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم الى الاسكندرية . اما عمرو فاقام في الحصن حامية وقام برجاله نحو الاسكندرية على نية الفتح وسار معه جماعة من رؤساء القبط يصلحون له الطرق ويقيمون الجسور والاسواق وكانت خيام العرب مضروبة بين النيل والجيل على ما تقدم فامر عمرو بتقويضها والاستعداد للمسير فاذا بيمامة قد باضت في اعلاه فقال « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » فاقروا الفسطاط في موضعه واوصى به صاحب القصر



ش ٢٣ - فسطاط
عمرو بن العاص
وقد عشى اليمام
في اعلاه

ولا يخفى ما كان لهذه الحادثة من التأثير الحسن في قلب من سمعها من الوطنيين فتكروها وساروا في سبيلهم قاصدين الاسكندرية متخذين ضفة فرع النيل الغربي خطة مسيرهم فلاقاهم في الطريق بعض من هاجر من منف من الروم فقاتلوهم يسيراً وكان من هؤلاء فئة فئحة تحصنت في كوم شريك وأخرى في مريوط فتغلب عليهما عمرو واحتلها . اما القبط فكانوا اعواناً للمسلمين في كثير من احتياجاتهم حسب امر القوقس فلما بلغ ذلك جماعة الروم في الاسكندرية اشتد غيظهم فاصروا على الحرب واخذوا

يعدون مهات الدفاع

أما عمرو فما زال يتقدم بجيشه الى الاسكندرية وكانت هي قاعدة القطر المصري الى ذلك العهد وفيها من عظمة الروم ورهبتهم ما يرهب الابطال وحاصرها برأً اما بجزراً فكانت الطريق مفتوحة بينها وبين القسطنطينية يأتيها منها ما تحتاج اليه من المؤن والزخائر فطال الحصار رغم الوسائل التي اتخذها العرب فضجر عمرو وجمع اليه رجاله وخطب فيهم فهاجوا الاسوار وهو في مقدمتهم فخرقوها ودخل عمرو وأثنان من قواده هما مسامة بن مخد ووردان الا انهم لم يكادوا يطأونها حتى أقفلت الاسوار وراءهم والتي القبض عليهم واحضروا امام البطريق (الحاكم) فخطبهم قائلاً « هوذا انتم اسرى في ايدينا فخبرونا ما الذي جاء بكم اليينا وما الذي حملكم على قتالنا » فاجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت « قد آتيناكم ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم مالنا او ان تؤدوا الجزية عن يدي و انتم صاغرون والا فلنا نقاتلكم الى ان نفي لامر الله » فبهت الحاكم وداخله الريب فقال لمن في مجلسه من الروم باللغة اليونانية « يظهر ان هذا الرجل من وجوه العرب واعله امير القوم فينبغي ان نضرب عنقه » وكان وردان عارفاً باللغة اليونانية ففهم ما قاله البطريق والسي يطاع عمراً على ذلك لكمه مستهزئاً و ناداه منتهراً « مالك ولهذا القول وانت أدنى من في الجماعة و اقل فترك غيرك يتكلم » فاختلف ظن البطريق وقال « لو كان هذا امير القوم ما كان يفعل به هكذا » فقال مسامة « ان اميرنا كان عازهاً على الانصراف عنكم و اراد ان يسير من اكابر القوم من يتفق معكم على شيء تراضون عايه فان اطلقتمونا مضيئنا و عرفناه ما صنعتم بنا من الجميل و يتفق الامر بينكم و ننصرف عنكم »

فتوهم البطريق ان الامر كذلك فاطلقهم فاما خرجوا قال مسامة لعمرو « قد خلاصتك لكلمة وردان » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى ان يقضي الله بما يشاء

وكان الامام عمر قد استتبأ فتح الاسكندرية . فكتب الى عمرو « اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر . انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما احدثتم و أحببتهم من الدنيا ما أحب عدوكم فان الله تبارك و تعالى لا ينصر قوماً الا بصدق نياتهم و قد كنت و جهت اليك اربعة نفر و اعلمت ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت اعرف الا ان يكونوا قد غيرهم ما غير غيرهم فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب في الناس و حضهم على قتال عدوهم و رغبتهم في الصبر و النية و قدم اوائك الاربعة في صدور

الناس ومر الناس جميعاً أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم « جمع عمرو ورجاله وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين فأثر فيهم تأثيراً عظيماً وعزموا على القيام به

وفي خلال ذلك توفي هرقل ملك القسطنطينية وعقب موته انقسامات داخلية وحروب اهلية سفكت فيها الدماء بسبب ادعاء الملك من هم من غير الاسرة المملوكية وانتهى الامر بان افضى الملك لولده هرقل الثاني او قسطنطين الثالث وهذا لم يمض عليه مائة يوم من جلوسه حتى قضى مسموماً بيد مارتين امرأة ابيه ثم بمساعي بطريك القسطنطينية عقد على الملك بعده لهرقلينة ابنة مارتين المذكورة وبعد بضعة اشهر نصب قسطنطين بن هرقل الثاني . يقال اجمالاً انه كان على القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد فازداد الانشقاق وتعاضم الخصام فضعت هم الاسكندرانيين وتضاعف بأسهم فهاجر بعضهم بجزراً ولبث البعض الآخر في المدينة يريدون دفاعاً لم يقووا عليه فدخلها عمرو يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة (او ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد) واقام فيها احتفالاً عظيماً تذكاراً لما أوتيته من الفتح المبين ثم كتب الى امير المؤمنين كتاباً ونصه :

« الى الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص عليك سلام الله تعالى وبركاته أما بعد فقد فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير ابي اصببت فيها اربعة آلاف بنية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمئة ماعب الملوك واثني عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر »

وبعد ان استلم عمرو زمام الاحكام أخذ في استجلاب قلوب الاهلين فجعل يقرب منه سراة القوم ووجوههم ويحكم في الناس بالقسط ويجيب التماسهم في كل ما كانوا يسألونه منه حتى اجمع السكل على الميل اليه والاذعان لامره
مكتبة الاسكندرية

وذكر ابن القفطي وابو الفرج الملطي وغيرهما ان عمراً لما فتح الاسكندرية كان في جملة علمائها رجل اسمه يحيى الغرامطيقي فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفاسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً « انك قد احضرت بجواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فالملك به انتفاع فلا تعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فتنحن اولى به »

فقال له عمرو « ما الذي تحتاج اليه » قال « كتب الحكمة التي في الخزان الملوكة » فقال له عمرو « هذا مالا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها » فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمات الاسكندرية واحراقها في مواقيدها فاستنفدت في مدة ستة اشهر فاسمع ما جرى واعجب . اه

على ان بعض الكتيبة ينزهون الامام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة . وكنا قد جاربناهم في الطبعة الاولى من هذا الكتاب ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها وقد فصنا دلة على ذلك في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي ولا يزال عليه حتى يتبين لنا ما ينقضه ونحن موالون للبحث في هذا الشأن اذ لاغرض لنا غير تقرير الحقيقة

بناء القسطنطينية

ثم كتب عمر الى الخليفة يستفتيه في السكنى بالاسكندرية فسأل الخليفة الرسول « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » قال « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو « اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً حتى اردت ان اركب اليكم راحتي حتى اقدم اليكم قدمت » وتلك كانت قاعدة عمر في جمع المسلمين في بقعة لا يحول بينهم وبينه ماء . كذلك فعل ببناء البصرة والكوفة . فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابل فلما باغوا المكنان احيث خيمة الامير راوها لا تزال منصوبة وفيها اليوم فنزلوا فيها وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض واخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاختم عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها القسطنطينية باسم الخيمة فيها نحو عشرين حارة دعاها خطاً واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

حصن بابل او دير النصارى

وفي مكان حصن بابل اليوم كنائس قبطية قديمة العهد يدعون مجاها قصر الشمع او دير النصارى او دير ماري جرجس . فاذا تجارزت جامع عمرو مسافة بضع دقائق ومصر العتيقة الى يمينك رايت الى يسارك بناء كبيراً يظهر انه مؤلف من عدة ابنية عليها ملامح الشيخوخة وكأنها محاطة بسور كبير من القرميد الاحمر عند اسفله باب

قديم مصفح بالحديد الغليظ يتصل اليه بالمحدر لا يقل عن ثلاثة اذرع هو احد ابواب الحصن . وتدخل من هذا الباب في زقاق ضيق تتصل منه الى ازقة كثيرة كلها ضيق من النمط القديم تستطرق الى عدة كنائس قبطية منها كنيسة العذراء وكنيسة ابي سرجة وكنيسة ماري جرجس وكنيسة القديسة بربارة وكنيس لليهود (كان في الاصل كنيسة على اسم القديس ميخائيل) وغير ذلك وقد زرت جميع هذه الكنائس فرايت انها مع

تقدم عهدها في البناء قد جدد فيها قسم عظيم وجميعها داخلية في بناء الحصن وما يستحق الانتباه اني شاهدت تحت كنيسة ابي سرجة مغارة ينزل اليها بعدة درجات يقولون انها كانت مقاماً للسيدة مريم العذراء عند قدومها الى مصر وبلوح لي انها كنيسة من الكنائس التي كان يصلي فيها المسيحيون في ايام الاضطهاد الشديد لانها تظهر للمتأمل مبنية على مثال الكنائس الحاضرة ففي صحنها الى كل من الجانبين عدة اعمدة بينها تفر في جدار المغارة اشبه بالمناج وفي المغارة جرن للعمارة

اما الحصن فاذا تأملت جدرانها الباقية من الخارج رايتها على نمط البناء الروماني وترى احدها وهو الجنوبي لا يزال عبارة عن برجين كبيرين في احدهما كنيسة العذراء المعروفة بالعلقة سميت كذلك لارتفاعها وقد جدد بناؤها منذ بضع سنين . وبين البرجين باب مسدود وقد طمرت التربة جزء السفلي ويشاهد في جدران اخرى آثار مثل هذين البرجين . وتشير هذه الابراج الى ما كان عليه هذا الحصن من المناعة (انظر ٢٢) فلا غرو اذا امتنع على العرب سبعة اشهر . اما محلة نابليون التي قد اقيم فيها هذا الحصن فلا يمكن معرفة حدودها الآن ولكن يشاهد الى جنوبي الحصن يوضع مئات من الامتار دير يقال له دير بابلون يدخل اليه من باب ضيق مصفح بالحديد وفيه الى الآن كنيسة السيدة مريم مجتمع اليها بعض المسيحيين للصلاة وبناء هذا الدير اشبه ببناء الحصون منه بالاديرة وهو قائم في منخفض بين تلين يقال لهما تل غراب ولم يبق الان غير هذا الدير حاملاً لاسم تلك المحلة

اما الفسطاط فقد خربت ولم يبق منها الا آكام من الاتربة فيما بين القاهرة ومصر العتيقة بجدها شمالاً اطراف القاهرة وجنوباً السبع السواقي ومصر القديمة وشرقاً اكام من الاتربة متصلة بالقرافة وغرباً مدافن النصارى

وجعل عمرو الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة وجعل على الوجه القبلي عبد الله بن سعد بن ابي سرح وتولى بنفسه صلات مصر وخراجها فكان يجبي منها ١٢ مليوناً من الدينارين سنوياً

وكان في جملة القبائل التي شهدت فتح مصر وجاءت لاحتلالها قبيلة همدان فهذه أحببت النزول في الجزيرة مع من والاها من المسلمين فاستأذنوا عمرو بن العاص فقال مهلاً ريثما استشير امير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بما فتح الله عليهم وبما ارادت همدان فاجابه محمد الله على ما كان من ذلك ويقول له « كيف رضيت ان تفرق اصحابك بان يحول بينك وبينهم بحر ولا تدري ما ينجأهم فالعك لا تقدر على غيائهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان ابوا عليك واعجبهم موضعهم بالجزيرة واحبوا ما هنالك فابن عليهم من في المسلمين حصناً » فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا واعجبهم موضعهم فبنى لهم حصناً يقيمهم اذا فاجأهم امر

ثم سار عبد الله بن سعد الى الوجه القبلي لتدويع البلاد فلم يلق معارضاً ومازال حتى اتى بلاد النوبة ففتحها كلها

اصلاح البلاد وتنظيمها

وأخذ عمرو من ذلك الحين في تنظيم البلاد فقسم القطر المصري الى كور او اعمال يرأس كل منها حاكم قبضي تأتية القضايا فينظر فيها ويصدر احكامه الى من هم تحت حكمه رأساً فحصل الاهلون على راحة لم يكونوا راوها منذ ازمان وساد الامن في بلادهم

فامر عمرو بترميم مقاييس النيل التي كانت قد تعطلت منها مقياس اصوان ومقياس ارمنت ومقياس منف وغيرها . وكان من عادة المصريين قبل الفتح الاسلامي انه اذا مضى ١٢ يوماً من شهر بؤونه يعمدون الى جارية بكر من ابويها فيرضونها ويجعلون عليها من الحلي افضالها ثم ياقونها في النيل ضخية له . فابطل عمرو هذه العادة وعوض عن الجارية بتمال من طين . وقد ذكر بعض المؤرخين هذه الحقيقة في سياق حكاية لابأس من ذكرها وهي انه اتفق لاسيل في السنة التالية للفتح انه لم يرتفع الارتفاع اللازم للري . ولما دخل شهر بؤونه القبضي قال له اهل البلاد « ايها الامير ان لينا هذا سنة لا يجري الا بها » فقال لهم وما ذلك فقالوا « اذا كان اثنا عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من ابويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب افضل ما يكون ثم القيناها في النيل » فقال لهم عمر « ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله » فمضى بؤونه وايب ومسرى وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلء فكتب عمرو الى امير المؤمنين عما كان فاجابه « انك قد اصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فالتقها في داخل النيل

إذا أتاك كتابي »

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها « من عبد الله امير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجري بامرِك فلا تجر وإذا كان الله الواحد القهار هو الذي يجربك بامرِه فمسأل الله الواحد القهار ان يجربك » فاتى عمرو البطاقة في النيل وقيل ان ذلك كان قبل عيد الصليب بيوم وقد همَّ اهل مصر بالخروج منها لانه لا يقوم بمصالحتهم فيها الا النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراه الله تعالى ١٦ ذراعاً فلما رأى المصريون



عند النيل
بنامه لفاسه

ش ٢٤ - ضحية النيل

ذلك تعجبوا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة واوامره وابطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزا عنها تمثالا من طين يصنعونه كل سنة عند فتح الخليج يسمونه العروسة فيلقونه في الخليج وما زال ذلك جاريا الى عهد غير بعيد اثرأنا كان يرتكبه المصريون القدماء من العسف كل سنة في شأن الفيضان ثم اخذ عمرو في تنظيم القضاء وكانت امورها الى ذلك العهد منوطة بنواب مالين

او جهاديين من قبل حكومة الروم يستبدون بالرعية كيف شاؤا وليس من ينصف فوجد لهم عمرو المحاكم النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من اعضاء ذوي نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الاهلين . ولا بد لنا من ذكر فضل هذا الفاتح بانه اول من اوجد هذه المحاكم بمصر تحت اسم دواوين . اما اعضاءها فينتخبون من الاهالي والاحكام تجري بمقتضى عدل القضاة وتسنأنف عند الاقتضاء لتقضها او ابرامها ولم تكن احكام القضاة المسلمين تجري الا على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال والقضايا التي فيها احد الخصمين قبطي كان انواب القبط حق الدخول فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والاهلية

اما اعطيات الجيش فكانت تصرف مما يجيء من اموال الخراج وتوزع في الديوان على الامراء والعمال والاجناد على قدر مراتبهم وبحسب مقاديرهم ويحمل ما يفضل الى بيت المال . وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال ذلك جارياً في الدول الاسلامية الى آخر الدولة الفاطمية ثم صارت منذ ايام صلاح الدين تعطى اقطاعات تفرق على السلطان وامرائه واجناده

وما فتى عمرو يتخذ الوسائل الممكنة لاكتساب ثقة المصريين ولم يدع فرصة تفوته في اكتسابها . قيل ان البطريرك بنيامين كان من الطائفة يعقوبية وقد اضطهده هرقل ملك الروم اضطهاداً عظيماً لمخافته على خطته الدينية وهو لا يبالي بما كان يهدده من المخاوف والاضطار فشدد هرقل عليه التكبر ومنعه من السلطة الدينية وهدده بالقتل ففرّ يطلب ملجأ في بعض الاديرة فأقام هرقل مقامه في زمن الحصار رجلاً كان بيد المجلس آلة يديرونها كيف شاؤا . وكانت مصر حينئذ منقسمة كما تقدم الى قسمين دينيين ملكيين ويعقوبيين وكان على رئاسة الطائفة الاولى وهي الاصغر هذا البطريرك الجديد وعلى الطائفة الثانية بطريرك واساقفة اقامهم هرقل باختياره غير ان الشعب كان يعاملهم بالاحتقار ولم يكن يعتبر الرئاسة الحقيقية الا لبنيامين المختار قديماً منهم . فعند ما بادت سلطة الروم ورأى القبط من الاسلام ميلاً ورفقاً عرضوا امرهم الى عمرو باتمسون استرجاع بطريركهم القديم فاستدعاه عمرو وطيب خاطره واقامه في منصبه وخلع الذين كانوا مكانه فحسب القبط هذا الامر منة وفضلاً . وازدادوا ثقة وميلاً للمسلمين ولا سيما ما رأوهم يفتحون لهم الصدور ويديحون لهم اقامة الكنائس والمعابد في وسط الفسطاط بل وفي وسط جيش الاسلام على حين انه لم يكن للاسلام معبد فكانوا يصلون ويخطبون في الخلاء



ش ٢٥ - جامع عمرو

ثم عمد عمرو الى بناء جامع على مثال جامع مكة سعة وشكلاً فبناه في الفسطاط قرب حصن بابل وكان في موضعه خان استولى عليه احد رجال عمرو عند الفتح فلما عادوا من الاسكندرية طلب اليه عمرو ان يجعل منزله هذا مسجداً فرضي وكان النيل يجري بقربه ثم انحسر عنه بعد ذلك غرباً . واتي عمرو بججارة ذلك الجامع من بقايا منف العظيمة بينها اعمدة كبيرة من الجرانيت وقطع هائلة من الرخام اقيمت بها جدرانها وقد قيل ان القرآن كله كان منقوشاً عليها بالذهب . والجامع المذكور لا يزال الى يومنا هذا في مصر القديمة يعرف باسم جامع عمرو يصلون فيه الجمعة الاخيرة من رمضان . مساحته ٣٥٠ قدماً مربعاً وقد رُم مراراً بحيث لم يبقَ من البناء الاصيلي الا شيء زهيد . ومن جملة من جدد في بناؤه السلطان المؤيد سنة ٨١٤ هـ وآخرهم مراد بك وهذا لم يكن يحاول ذلك الا طمعاً بمخباة او عز اليه انها مدفونة في بعض اجزائه كما ستري . واذا زرت هذا الجامع الآن رايتَه كالحراب وقد سقطت اعمدته الرخامية التي كانت على الجانبين وفي صحنه حنفيه وشجرة وفي ارض ليوانه صهريج

وفي هذا الجامع كانت تعطى قبالات الاراضي وهي ان متولي الخراج كان يجاس فية زمان تئين فيه قبالة الارضين (التزامها) ومجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات (وكانت صفقة البيع عند العرب ان يضرب المشتري بيده على يد البائع ان رضي البيع ثم سمي عقد البيع الصفقة) وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليه من البائع الكور والصفقات على من يتقبلها من

الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظماً والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى الامر خرج كل من كان تقبل ارضاً وضمها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعمالها بنفسه واهله ومن يتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على اقساط ويحسب له من مبلغ قبالتة وضمانه لتلك الاراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خراجها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين فكان اذا تأخر من مال الخراج البواقي تشدد الولاية في طلبه مرة وتسامح به مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكبوا البلاد كلها وعدلوها تعديلاً جديداً فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد وينقصون فيما يحتاج التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع ابن العاص الى ان بنى احمد بن طولون جامعه

مخبرات بين ابن الخياط وابن العاص

والمفتتحون اجدر الناس باتباع الرفق بمن اصبحوا من رعابهم وقد ضربت عليهم المسكنة بعد ان كانوا اصحاب البلاد ويدهم الحل والعقد والظاهر ان عمراً كان على بيته من ذلك وقد جرى عليه لانه كان تحمل من المصريين وبمهلهم في دفع الخراج الى حد ان يوقع فيه مظنة الخليفة ويحكي ان الخليفة استبطأ الخراج من عمرو فكتب اليه :
 « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد فاني فكرت في امرك والذي انت عليه فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة وقد اعطى الله اهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وانها قد عاجلتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب . ولقد اكرت في مكاتبك في الذي على ارضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير زور وجوت ان تفيق فترفع الي ذلك فاذا انت تأتيني بمعارض تعبأ بها لاتوافق الذي في نفسي . لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست ادري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً ان البراءة لافعة وان كنت مضيعاً نطعاً ان الامر اعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان ابتي ذلك منك في العام الماضي رجاء ان تفيق فترفع الي ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا ان عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفياً وعددي باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك فيه فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحق وتعطاء فان النهر يخرج الدر والحق ابلج ودعني وما

عنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر امير المؤمنين . من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد بلغني كتاب امير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي واعجابه من خراجها على ايديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام واعوري للخراج يومئذ او فر و اكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كثيرهم وعتوهم ارغب في عمارة ارضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدر فابيتها حايماً قطع درها . واكثر في كتابك وانبث وعرضت وتربت وعلمت ان ذلك عن شيء مخفيه على غير خبر فجت لعمرى بالمقاطعات المقدمات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله (صاع) ولما بعده فكنا نحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق امتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل شيناً فتعرف ذلك لنا وتصديق فيه قبانا . معاذ الله من تلك الطعم وشر الشيم والاجترأ على كل ما تم فامض عمالك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه اخاً والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك مني اشد غضباً لنفسي ولها انزاهاً واکراماً . وما عملت من عمل ارى عليه فيه متعلقاً ولكنني حفظت ما لم يحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت بغفر الله لك ولنا وسكت عن اشياء كنت بها علماً وكان اللسان بها مني ذلواً ولكن الله عظم من حقاك ما لا تجهل »

فكتب اليه الخليفة « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني قد عجب من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الي بنيات الطرق . وقد علمت اني لست ارضى منك الا بالحق البين ولم اقدمك الى ممر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطني بالخراج ويزعم اني احيد عن الحق وانك عن الطريق واني والله ما ارغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني ان تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من ان نخرق بهم فيصيروا الي بيع ما لا غنى لهم عنه والسلام »

فكف الخليفة وقد كان محمولاً على ما أنبه به ممن كان يناظر عمراً على ولاية مصر
فتح دمياط وتانيس

فهذه المعاملة وامثالها جعلت للعرب منزلة رفيعة عند المصريين فرضخوا لهم الا
الهاموك حاكم دمياط وهو من انبساء المقوقس فانه امتنع عن التسليم واستعد للحرب
فانفذ اليه عمر والمقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين نخرج اليهم الهاموك وحاربهم حتى
قتل ابنه بالحرب فعاد الى دمياط وجمع اليه اصحابه فاستشارهم في امره وكان عنده حكيم
قد حضر الشورى فقال له « ايها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استغنى به احد
الا هداى الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهؤلاء العرب من بدء امرهم لم ترد لهم
راية وقد فتحوا البلاد واذلوا العباد وما لاحد عليهم قدرة ولسنا باشد من جيوش
الشام ولا أعز وامنع وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر والراي ان تعقد مع القوم
صالحاً تنال به الامن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما انت باكثر رجلاً من المقوقس »
فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب منه فقتله وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة لسور
نخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا
منها فلما برز الهاموك للحرب لم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلد فاستأمن
للمقداد فتسلم المسلمون دمياط واخبروا عمراً بذلك . ثم خرج شطا بن الهاموك بعد
ان اسلم الى البرلس والدميرة واشموم طنح فحشد اهل تلك النواحي وجعلهم مدداً
للمسلمين وسار بهم مع المسلمين لفتح تانيس فبرز لاهلها وقاتلهم حتى قتل في المعركة في
ليلة الجمعة نصف شعبان بعد ما أكل فيهم فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به
خارج دمياط يحيون فيه ليلة نصف شعبان من كل سنة . ولم يكف المسلمون عن تانيس
حتى فتحوها

الفتح الاسلامي احتلال عسكري

١١ فتح المسلمون البلاد لم يتولوا حكومتها كإرايت بل نزلوا خارجها في معسكراتهم
كالمحتلين يستولون على الخراج والجزية ويراقبون الاحكام . فعمرو بن العاص وجنده لما
فتحوا مصر نزلوا في الفسطاط والاسكندرية وتركوا سائر قرى مصر بايدي القبط . ولم
يسكن احد من المسلمين بالقرى وانما كانت رابطة تخرج الى الصعيد حتى اذا جاء اوان
الربيع انتشر الاتباع في القرى لرعي الدواب ومعهم طوائف من السادات
وكان الخليفة عمر بن الخطاب مع ذلك ينهى الجند عن الزرع ويبعث الى

امراء الاجناد باعطاء الرعية اعطياتهم وارزاق عيالهم وبنهاهم عن الزرع وكان عمرو يقول لرجاله اذا رجعوا من غزوهم « انه قد حضر الربيع فمن احب منكم ان يخرج بفرسه بربعه فليفعل ولا اعلمن ما ينفع من اسمن نفسه واهزل فرسه . فاذا حمض اللبن وكثر الذباب ولوى العود فارجعوا الى قيرورتكم » وذكر ان قريزي خطبة لعمرو في هذا المعنى رواها عن بجير بن ذاخر المعافري وفيها وصف عمرو بن العاص وابته قال المعافري :

« رحمت انا ووالدي الى صلاة الجمعة تهجيراً وذلك بعد حميم النصراري بايام يسيرة فأطلنا الركوع اذ اقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت فقلت يا ابيت من هولاء فقال يا بني هولاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر فرأيت رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج أبايج عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على النبي صلى لله عليه وسلم ووعظ الناس وامرهم ونهاهم فسمعتهم يحض على الزكاة وصلة الارحام ويامر بالاعتقاد وينهي عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال على ذلك فقال :

خطبة عمرو

« يا معشر الناس اياكم وخلافاً اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى المذلة بعد العزة اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييق المال والقييل بعد القال في غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم . من نفسه فيجوز من الخير عطلاً وعن حلال الله وحرامه غافلاً . يا معشر الناس انه قد تدلت الجوزاء وذات الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر فخي لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره وابنه وخرافه وصدده واربعوا خيولكم وأسمنوها وصونوها واکرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتهم من القبط خيراً واياكم والمومسات المعسولات فانهم يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً واذمة فكفوا ايديكم وعفوا فروجكم وغضوا ابصاركم . ولا اعلمن ما اتى رجل قد اسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه

من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال له ابو بكر رضى الله عنه ولم يارسول الله . قال لانهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله يا معشر الناس على ما اولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فاذا ينس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فخي الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدم من احد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما اطاف من سعته او عسرته . أقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم » اه

خليج امير المؤمنين

ومن الاعمال العظيمة التي أجزيت على يد عمرو بن العاص احتفار الخليج الموصل بين النيل والبحر الاحمر سنة ٢٣ هـ ودعاه خليج امير المؤمنين . وسبب ذلك ان الناس بالمدينة اصابهم جهد شديد في سنة الرمادة فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ما نصه : « من عبد الله عمر امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام . اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليه عمرو « الى امير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص اما بعد فيالبك ثم يالبك قد بعثت اليك بعير او لها عندك وآخرها عندي والسلام » اراد بذلك انه ارسل له قافلة من الجمال عظيمة الجمل الاول منها في المدينة والآخر في مصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على الخليفة وسع بها على الناس ودفع الى اهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام لياً كلوا الطعام ويأندموا باحمه ويحتدوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما ارادوا من لحاف وغيره . فلما رأى الخليفة ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليه هو وجماعته من اهل مصر فقدموا . فانفرد بعمرو وقال له « يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد اتى في روعي لما احببت . من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم وجميع المسلمين والعرب قد تشاءمت بي وكادت ان تغلب على رحلي وقد عرفت الذي اصابها . وايس جند من الاجناد ارجى عندي ان يغيث الله بهم اهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى » فقال عمر « ما شئت يا امير المؤمنين قد عرفت انه كانت تاتينا سفن فيها حجار من اهل مصر قبل الاسلام من خليج

كان مفتوحاً بين النيل المبارك وبحر القازم فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجار فان شئت ان نحفره فننشىء فيه سفناً يحمل فيها الطعام الى الحجاز فعلمته « فقال الخليفة نعم فافعل واما خرج عمرو من حضرة امير المؤمنين لاقاه الذين اتوا معه من مصر فذكر لهم ما كان من حديث الخليفة فقالوا « ماذا جئت به اصالح الله الامير اتريد ان تخرج طعام ارضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه فان استطعت فاستقل من ذلك » فاستصوب قولهم ثم جعل يتردد بين الامرين

فلما حان اوان عوده الى مصر ذهب لوداع امير المؤمنين فقال له « يا عمرو انظر الى ذلك الخليج ولا تنسين حفره » فاجاب عمرو « يا امير المؤمنين انه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظيمة » فقال له « اما والذي نفسي بيده اني لاطنك حين خرجت من عندي حدثت بذلك اهل ارضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك اعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيه سفناً » فقال عمرو « يا امير المؤمنين انه متى ما يجد اهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد » فقال الخليفة « اني سأجعل من ذلك امرأاً ألا يحمل في هذا البحر الا رزق اهل المدينة واهل مكة » فافهم عمرو وعاد الى مصر وباشر لساعته حفر الخليج ومعالجته وجعل فيه السفن ودعا « خليج امير المؤمنين » ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاية فأهمل وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على ترعة السويس في ايام الخديوي اسماعيل باشا

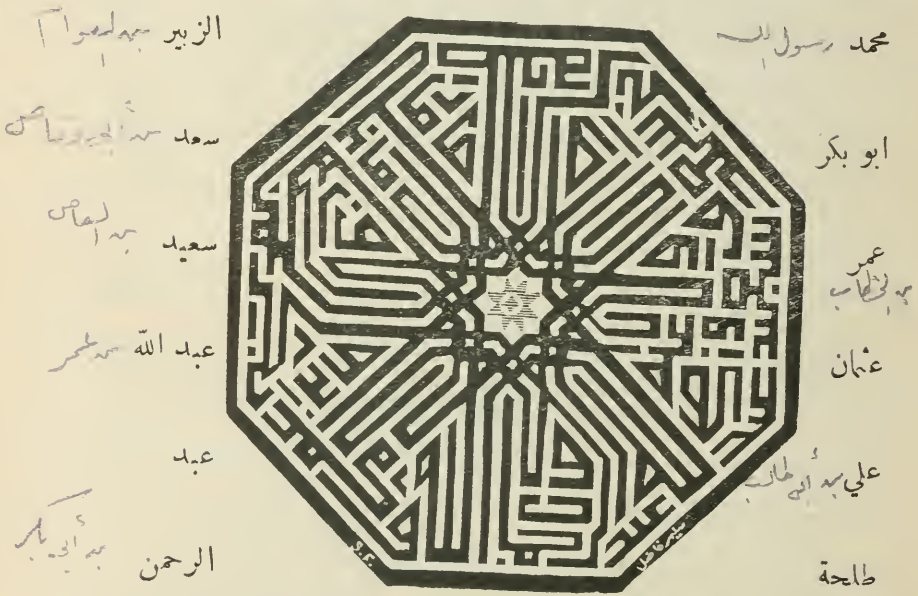
وفي خلال ذلك تجند عمرو الى الغرب ففتح برقة وصالحه اهلها ا على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب ففتحها ايضاً وكتب الى الخليفة بذلك سنة ٢٢ للهجرة

خلافة عثمان بن عفان

من سنة ٢٣ - ٥٣٥ او من ٦٤٤ - ٦٥٥ م

وبعد فتح طرابلس الغرب بقليل قتل الامام عمر بن الخطاب قتله عبد فارسي يقال له فيروز الملقب بابي لؤلؤة كان عبداً للمغيرة بن شعبة في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد ان تولى الخلافة عشر سنين وخمسة اشهر وثمانية وعشرين يوماً ونادى قتل وفاته بعبد الرحمن بن عوف فصلى في الناس ثم قيل لو استخلفت يا امير المؤمنين فقال « دعوني اعهد الى النفر الذين توفي رسول الله (صالحهم) وهو عنهم

راض « ثم دعا عالياً وعمان والزيبر وسعداً فقال « انتظروا اخاكم طلحة ثلاثاً فان جاء وآلا فاقضوا امركم فقد قبض رسول الله وهو عنكم راض واني لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم ولسكني اخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهضوا الى حجرة عائشة باذنهما فتنشاوروا فيها ثلاثة ايام ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم . ويحضر عبد الله بن عمر (ابنه) مشيراً ولا شيء له من الامر . وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فامضوا امركم . انشدك الله يا علي ان وُلّيت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس انشدك الله يا عثمان ان وُلّيت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني معيط على رقاب الناس انشدك الله يا سعد ان وُلّيت من امور الناس شيئاً ان تحمل اقاربك على الناس فتنشاوروا واقضوا امركم وليصل بالناس صهيب . وترى في الشكل السادس والعشرين اسم الجلالة واسم الرسول واسماء الصحابة المتقدم ذكرهم مع اسماء الخلفاء الراشدين مكتوبة بالحرف الكوفي في شكل جميل



ش ٢٦ — اسماء الجلالة والرسول والصحابة بالحرف الكوفي

وبعد وفاة عمر تشاور الصحابة فيما اوصاهم به عمر فبايعوا عثمان بن عفان في ٣ محرم سنة ٢٤ هـ . وفي سنة ٢٥ عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخاه من الرضاعة وكان عاملاً على الصعيد في اماره عمرو.

فلما تولى اماره مصر جى خراجها للسنة الاولى ١٤ مليوناً من الدنانير وكان عمرو لا يجي اكثر من ١٢ مليوناً فقال عثمان لعمرو « يا ابا عبد الله درت اللقحة باكثر من درها الاول » فاجابه عمرو « لقد اضررتهم بولدها ذلك ان لم يمت الفصيل »

وفي اثناء ذلك انفذ الروم حملة من جنودهم لاسترجاع مصر من المسلمين وسبب ذلك ان الروم في القسطنطينية عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية ووظنوا انهم لا يمكنهم المقام في بلادهم بعد خروج الاسكندرية من يدهم فكتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم لانهم رأوا الجوخاليا لهم بعد موت الامام عمر لانه كان يبعث كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط بالاسكندرية . وكان على الولاة لا يغفها ويكثف مراتها ولا يأت من الروم عليها . فسارت الجيوش من القسطنطينية في المراكب تحت قيادة منوبل الخصى . فلما بلغوا الاسكندرية كان عليها المقوقس فمنعهم من الدخول فنزلوا في ساحلها وانضم اليهم من كان فيها من الروم اما المقوقس ومن معه من جماعة القبط فلم ينقضوا عهدهم مع المسلمين فسأل اهل مصر الخليفة ان يقر عمرو بن العاص حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل . فنزل عمرو الفسطاط يتأهب لمناهضة الروم . وكان حول الاسكندرية سور فخاف عمرو ان يظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية توتى من كل مكان . فقال خارجة ابن حذافة لعمرو « ناهضهم قبل ان يكثر مددهم فلا آمن ان تنقض مصر كلها » فقال عمرو « لاولكن ادعهم حتى يصيروا الي فانهم يصيدون من مروا به فيخزي الله بعضهم ببعض » فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من اهل القرى فجعلوا يزلون القرية فيشربون خورها ويأكلون اطعمتها وينهبون ما مروا به فسار اليهم عمرو ولم يتعرض لهم حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فسدات الروم القبط بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً وكانت الروم قد تأهبت صفوفاً خلف صفوف فبرز احد كبار الفرسان من الروم عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز اليه رجل من زييد يقال له حومل يكنى ابا مذحج فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان ثم اتى الرومي الرمح واخذ السيف فالتقى حومل رمحه واخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح ابا مذحج فيجيبه ليبيك والناس على الجانبين وقوف في صفوفهم كان على رؤوسهم الطير فنجوا لاساعة بالسيف ثم حمل الرومي فاحتمله حومل واخترط خنجرأ كان في منطقته فضربه به في نحره فسقط ميتاً فوثب اليه واخذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك ودفن في المقطم . فاشتد المسلمون وانهمزم الروم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية

وقتلوا منوبل الخصي وأخذوا في رجاله فاستنجدوا المسلمين فأمر عمرو برفع السيف عنهم وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجداً دعاه مسجد الرحمة إشارة الى رفع السيف هناك وهدم سور المدينة . ثم جمع ما اصاب منهم فجاءه اهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا « قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء الاصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك » فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه واقاموا عليه البينة فقال بعضهم لعمرو « ما حل لك ما صنعت بنا فقد كان لنا ان تقاتل عنا لاننا في ذمتك ولم نقض فاما من نقض فابعده الله » فندم عمرو وقال يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية

ولما انهزم الروم وسكنت القلوب اراد الخليفة ان يكون عمرو على جند مصر وعبد الله بن سعد على خراجها فقال عمرو « انا اذا كقبايض على البقرة بقرنيها وآخر يستدرها » فأبى عمرو وتحنى عن مصر فعاد عليها عبد الله بن سعد وفي سنة ٢٧ هـ غزا عبد الله بن سعد افريقية فقتل ملكها جرجير وضم البلاد الى حكمه

وفي سنة ٢٨ هـ غزا قبرص مع معاوية بن ابي سفيان فصالحهم اهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وعليهم ان يوذنوا المسلمين ان يجعلوا طريقهم الى العدو اليهم وفي سنة ٣١ هـ نقضت بلاد النوبة فغزاها عبد الله بن سعد وحصر رجالها في دنقاه حصاراً شديداً ورماهم بالنهجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهزم ذلك فطلب ملكهم « قليدوروث » الصالح وخرج الى عبد الله وابدى ضعفاً وتواضعاً فالتقاه عبد الله ورفع وقربه ثم قرر الصالح معه على ثلاثماية وستين راساً في كل سنة . وفي هذه السنة غزا ذا الصواري ايضاً

مقتل عثمان

وفي سنة ٣٣ هـ كثرت الاشاعة بالامصار بالطعن على عثمان وعمله وكتب بعضهم الى بعض في ذلك وتوالت الاخبار الى اهل المدينة فجاؤا الى عثمان واخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه فقال « اشيروا علي واتم شهود المؤمنين » قالوا « تبعث من تثق به الى الامصار يأتوك بالخبر اليقين » ففعل فجاءته الاخبار فكتب الى اهل الامصار « اني قد رفع الي اهل المدينة ان عمالي وقع منهم اضرار بالناس وقد اخذتهم ان يوافوني في كل موسم فن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني او من عمالي او تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين »

وفي سنة ٣٥ هـ بعث الى عمال الامصار فقدموا اليه في الموسم وفيهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح من مصر فقال الخليفة « ويحكم ماهذه الشكاية والاذاعة واني اخشى والله ان يكونوا صادقين وانما الامر كائن وبابه سيفتح ولا احب ان يكون لاحد علي حجة في فتحه وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً فسكنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم » ثم قدم المدينة ودعا عياً وطاحة والزبير ومعاوية حاضر فكلّمهم فأظهروا له وجهه اجحافه بالحقوق

وكان عبد الله بن سعد قد استخلف على مصر عند قدومه الى عثمان عقبه بن عامر وكان فيها محمد بن ابي حذيفة ممن ناروا على عثمان لجمع اليه عصبه واخرج عقبه بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان واسعر البلاد وعرض على عثمان بكل شر يقدر عليه فاعتزلته شيعة عثمان ونابدوه وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وبسر بن قرطاط ومسلمة بن مخلد في جمع كثير وبعثوا الى عثمان بامرهم وما صنعته ابن ابي حذيفة فبعث سعد بن ابي وقاص يصلح امرهم فخرج اليه جماعة فقلّبوا فسطاطه وشجوه وسبوه فركب وعاد راجعاً . ولما اقبل عبد الله بن سعد من مكة منعه ان يدخل فانصرف الى عسقلان وازداد المسلمون تعصباً على عثمان فمكّابوا من امصارهم في القدوم الى المدينة خفية فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في الف وخرج اهل الكوفة والبصرة وكلهم في مثل عدد اهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج فلما اتوا المدينة واجه المصريون عياً وهو عند احجار الزيت فعرضوا اليه امرهم فصاح بهم وطردهم وفعل مثل ذلك طاحة مع البصريين وزبير مع الكوفيين فانصرفوا الى بعد . فتفرق اهل المدينة ظناً منهم ان القوم قد رجعوا عن مرادهم فلم يشعروا الا والتكبير في نواحيها وقد احاط المصريون بعثمان ونادوا بأمان من كف يده فغدا عليهم علي فقال « ماردمكم بعد ذهابكم » قالوا « اخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا والكتاب موقع عليه من عثمان » فدخل علي على عثمان واخبره برجوع المصريين فاشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم يريد زجرهم فنادوه من كل ناحية « اتق الله يا عثمان وتب اليه » وكان اولهم عمرو بن العاص فرفع الخليفة صوته وقال « انا اول من اتعظ واستغفر الله مما فعلت واتوب اليه فليات اشرفكم يروني رأيهم فوالله ان ردني الحق عبداً لاسن بسنة العبد ولاذان ذل العبد وما عن الله مذهب الا اليه فوالله لاعطينكم الرضا ولا احتجب عنكم » . ثم بكى وبكى الناس ورجع الى منزله فدخل عليه علي ومحمد بن مسامة وسألوه عن اعتراضه على ما يقوله اهل مصر فحلف ما كتب ولا عام ثم دخل عليه

المصريون وقالوا له « جئنا لقتلك فردنا علي ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا واتيئنا رسولك ناقلاً كتاباً وفيه امرك لابن ابي سرح (ولم يكونوا عالمين باعمال ابن ابي حنيفة) بجهدنا والمثلة بنا وهو بيد غلامك وعلية خاتمك ، خائف عثمان لا كتب ولا امر ولا علم . فقالوا « كيف يجترأ عليك بمثل هذا فقد استحققت الخلع على التقديرين اذ لا يحل ان يولى الامور من ينهي الى هذا الضعف فاخلع نفسك » فقال « لا أنزع ما البسني الله ولاكني انوب وارجع » قالوا « رأيناك تتوب وتعود فلا بد من قتلك » وخرجوا . وبقي محصوراً اربعين يوماً منع عنه الماء في اواخرها وفي ١٨ ذي الحجة دخل عليه اربعة اربعة فيهم محمد بن ابي بكر فقتلوه والقرآن في يده فنخض بالدماء . وهجمت زئلة امراته لتحميه بيدها فاصيبت بضربة قتيامت اصابعها . وبقي في بيته ثلاثاً ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم الى علي فأذن لهما بدفنه فخرجا به ومعهما الزبير والحسن وابو جهم ابن حنيفة و مروان فدفنوه في حش كوكب بعد ان تولى الخلافة ١٢ سنة الا ١٢ يوماً والاعلم اهل مصر بقتل عثمان نار المشيعون له فيها وعقدوا معاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان فساروا الى الصعيد فبعث اليهم ابن ابي حنيفة خيلاً فهزمت ومضى ابن حديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليه ابن ابي حنيفة جيشاً آخر فالتقى به في خربتا في اول شهر رمضان سنة ٣٦ فاقتتلوا وكانت النصره لشبيعة عثمان وانهزم الجيش واقامت شبيعة عثمان في خربتا

خلافة علي بن ابي طالب

من سنة ٣٥ — ٤١ هـ او من ٦٥٥ — ٦٦١ م

اما ما كان من امر الخلافة فان طلحة والزبير والمهاجرين والانصار اجتمعوا الى علي ببايعونه فأبى وقال « اكون لكم وزيراً خير من ان اكون اميراً ومن اخترتم رضيتهم » فالحوا عليه قائلين « لانعلم احق منك ولا نختار غيرك » فبايعوه في المسجد بالمدينة يوم الجمعة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥ واول من بايعه طلحة ثم الزبير ثم بايعه الناس وبايعته الانصار وتاخر منهم قائلون نخطب خطبته الاولى في الناس بعد حمد الله فقال « ان الله انزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فنحنو بالخير ودعوا الشر . الفرائض الفرائض ادوها الى الله تعالى يودكم الى الجنة . ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل

حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الابالحق ولا يحل دم امرء مسلم الا بما يجب . بادروا امر العامة وخاصة احدكم الموت فان الناس امامكم وان ما خلفكم الساعة محدودكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخر ايامهم . اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده انكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم اطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ انتم قاييل مستضعفون في الارض »

ثم رجع الى بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدد من اصحابه فقالوا « يا علي انا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هولاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل واحلوا بانفسهم » فقال « يا اخوتاه اني لست اجهل ما تعلمون ولكن كيف اصنع بقوم يملكوننا ولا يملكهم ها هم هولاء قد ثارت معهم عبيد انكم وثابت اليهم اعرابكم وهم اخلاطكم يسومونكم ماشوا فهل ترون موضعاً لقدرة على شي مما تريدون » قالوا لا . فقال « فلا والله لا ارى الا رايأ ترونه ابدأ الا ان يشاء الله . ان هذا الامر امر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض آخذاً بها ابدأ ان الناس من هذا الامر ان حرك على امور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا واشتدوا على قريش » فخرجوا من عنده وقد اضروا له شراً

وكان معاوية لما توجه الى ولايته في الشام اخذ قيص عثمان المملطح بالدماء واصابع نائلة امراته وعلق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغرس في اذنانهم ان قاتل عثمان انما هو علي ويحثمهم على معاملة القاتل بالقتل وشدد التكبير على علي فالتفت حوله دعائه رغبة في الانتقام

وما زاد اعداء الامام علي عدداً انه لم تدخل سنة ٣٦ هـ حتى عزل جميع من كانوا على الامصار في ايام عثمان وولى مكانهم من راي من المتقربين فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبدالله بن عباس على اليمن . ولما علم بقتل محمد بن ابي حذيفة ولى مكانه قيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام عوضاً من معاوية . اما سهل فخرج حتى اذا كان في تبوك لقيته خيل فقالوا من انت قال امير قالوا على اي شي قال على الشام فقالوا « ان كان بعثك عثمان فاهلاً بك وان كان بعثك غيره فارجع » قال اما سمعتم بالذي كان قالوا بلى فرجع الى علي

قيس بن سعد على مصر

اما قيس بن سعد فكان صاحب راية الانصار مع النبي وكان من ذوي الراي والبأس وكان ضخماً جسماً صغير الراس طويلاً جداً مطاعاً جواداً كريماً يعد من دهاة العرب ونا ولاه عليُّ على مصر قال له « سر الى مصر فقد وليتُكها واخرج الى رجلك واجمع اليك ثقتك ومن احببت ان يصحبك حتى تأتيا ومعك جنود فان ذلك ارهب لعدوك واعز لوليك واحسن الى المحسن واشدُّ على المريب وارفق بالعامه والخاصة فان الرفق ين » فقال له قيس « اما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن لم ادخلها الا بجند آتيا به من المدينة لا ادخلها ابداً فانا ادع ذلك الجند لك تبعهم في وجوهك » فخرج قيس حتى دخل مصر في مستهل رجب سنة ٣٧ هـ بسبعة من اصحابه فصعد المنبر وامر بكتاب الخليفة فقرأ على اهل مصر بامارته وبأمرهم بمبايعته واعانته على الحق وقال « الحمد لله الذي جاء بالحق وامات الباطل وكبت الظالمين . ايها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا يبعه لنا عليكم » فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر . وبعث عليها عماله الا خربت وفيها من قد اعظموا قتل عثمان وعليهم رجل من بني كنانة اسمه يزيد بن الحرث فبعث الى قيس يدعو الى الطلب بدم عثمان وكان مسامة بن مخلد قد اظهر الطلب ايضاً بدم عثمان فارسل اليه قيس « ويحك اعليُّ تب فوالله ما احب ان لي ملك الشام الى مصر واني قتلتك » فبعث اليه مسامة « اني كافُّ عنك ما دمت على مصر » وكان معاوية لا يزال ساعياً على علي فلما رأى مصر قد استقام امرها خاف ان يقبل علي في العراق وقيس في مصر فيقع هو بينهما فيكتب الى قيس « سلام عليك اما بعد فانكم نعمتم على عثمان ضربة بسوط او شتمة رجل او تسير آخر واستعمال فتى وقد علمتم ان دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيمًا وجئتم امراً اذ افتب الى الله يا قيس فانك من الجلبين على عثمان فاما صاحبك فانا استيقنا انه هو الذي اغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان شئت يا قيس ان تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على امرنا ولاك سلطان العراقيين اذا ظهرت ما بقيت لمن احببت من اهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلي ما شئت فاني اعطيك واكتب الي برايك » فلما جاء الكتاب احب ان يرافعه ولا يبدي له امره ولا يتعجل الى حربه فكتب اليه « اما بعد فاني لم اقرار شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شي منه وما ذكرت ان عظم عشيرتي لم يسلم فاول الناس كان فيه قياماً عشيرتي واما متابعتك

فهذا امر لي فيه نظر وفكرة وليس هو مما يسرع اليه . وانا كافٌ عنك وليس يأتيك من قبلي ما تكرهه حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى » فلما قرأ معاوية كتابه رآه متقاراً بمبتدأ فكتب اليه « اما بعد فقد قرأت كتابك فلم اركّ تدنو فاعدك سائماً ولا تتباعد فاعدك حرباً وليس مثلي يصانع الخداع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال واعنة الخيل والسلام » فلما قرأ قيس الكتاب ورأى انه لا تنفيذ معه المرافعة والمهاطلة عمد الى مكاشفته بما في نفسه فكتب اليه « اما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك فيّ واستسقاطك اياي انسومني الخروج عن طاعة اولى الناس بالامارة واقولهم بالحق واهداهم سبيلاً واقربهم من رسول الله (صلعم) وسيلة وتأمرنى بالدخول في طاعتك طاعة ابعد الناس من هذا الامر واقولهم بالزور واضلهم سبيلاً وابعدهم من رسول الله وسيلة ولد الضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس . واما قولك اني مالي عليك مصر خيلاً ورجلاً فوالله ان لم اشغلك بنفسك حتى تكون اهم اليك انك لذو جد والسلام »

فلما رأى معاوية كتابه قنط منه وثقل عليه مكانه ولم تنجح فيه حيله فجعل يسعي في كيد افسانه بينه وبين علي فقال لاهل الشام « لا تسبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة تائنا كتمبه ونصيحته سرّاً الا ترون ما يقع باخوانكم الذين عنده من اهل خربتا يجري عليهم اعظياتهم وارزاقهم ويحسن اليهم » واتقانا لمكيدته افنعل كتاباً عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك وقرأه على اهل الشام فبلغ ذلك علياً فاعظمه واكبره فدعي ابنه وعبدالله بن جعفر واعلمهم بذلك

فقال ابن جعفر « يا امير المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يريبك اعزل قيس عن مصر » قال علي « اني والله ما اصدق بهذا عنه » فقال عبد الله اعزله فان كان هذا حقاً لا يعتزل لك . فبينما هم كذلك اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر امير المؤمنين بحال المعتزلين وكفه عن قتالهم فقال ابن جعفر « ما اخوفني ان يكون ذلك عملاً منه فره بقتالهم » فكتب اليه يامره بقتالهم فلما قرأ قيس الكتاب كتب جوابه « اما بعد فقد عجبت لامرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فاطعني يا امير المؤمنين واكفف عنهم فان الراي تركهم والسلام »

محمد بن ابي بكر على مصر

فقرأ علي الكتاب بحضور ابن جعفر فقال له « يا امير المؤمنين ابعث محمد بن ابي بكر على مصر واعزل قيساً » فبعث علي محمد بن ابي بكر الى مصر فلما وصاها قال له قيس « ما بال امير المؤمنين ما غيره ادخل احد بيني وبينه؟ » قال لا . وهذا السلطان سلطانك

ففاك قيس « والله لا اقيم » وخرج من مصر مقبلاً الى المدينة وسار الى علي واخبره الخبر فعمام انه كان يقاسي اموراً عظيماً من المكابدة

اما محمد بن ابي بكر لما قدم مصر على ما تقدم جمع اليه سراة البلاد ورجال الدولة وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين ثم قام خطيباً فقال « الحمد لله الذي هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيراً مما كان عمي عنه الجاهلون . الا ان امير المؤمنين ولاني امركم وعهد اليّ ما سمعتم وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه ائيب فان يكن ماترون من امارتي واعمال طاعة لله فاحمد الله على ما كان من ذلك فانه هو الهادي له وان رايتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوا الي وعاتبوني فيه فاني بذلك اسعد وانتم جديرون وفقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمته »

وفي سنة ٣٨ هـ خرج معاوية بن حديج السكوني وطلب بدم عثمان فالتفت عليه قوم كثيرون وفسدت مصر على محمد بن ابي بكر

فتح عمرو بن العاص مصر ثانية

اما معاوية فكان قد استفحل امره وكثر متشيعوه فبايعوه على الشام ولم يكن له هم الا مصر وكان يخشى منها لقربها منه وكان يعتقد انه اذا ظهر عليها مكنته من الظهور على علي فتكون الخلافة كلها له . فاجتمع بعمرو بن العاص وحييب بن مسامة وغيرهما من سراة قومه وقال لهم « اندرون لما جمعتم فاني جمعتم لامر لي مهم » فقال عمرو « دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر فان كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر فنع الراي رأيت في افتتاحها فان فيه عزك وعز اصحابك وكبت عدوك وذل اهل الشقاق عليك »

فقال معاوية « اهمك يا ابن العاص ما اهمك » وكان عمرو قد صالح معاوية على قتال علي على ان له مصر طعمة ما بقي حياً . فنظر معاوية الى من حضر من اصحابه وقال لهم « لقد اصاب ابو عبد الله فماترون »

فقالوا « ما نرى الا ما رأى عمرو » قال « فكيف اصنع فان عمراً لم يفسر كيف اصنع »

فقال عمرو « ارى ان تبث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صابر صارم تأمنه وتثق به فيأتي مصر فانه سيأتيه من كان على مثل رأينا فيظاھره على عدونا فان اجتمع جنك ومن بها على رأينا رجوت ان ينصرك الله »

قال معاوية « ارى ان نكتب من بها من شيعتنا فنحنهم ونأمرهم بالثبات ونكتب

من بها من عدونا فندعوهم الى صلحنا ومنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا فان كان ما اردنا
بغير قتال فذاك الذي اردنا والا كان حربهم من بعد ذلك . انك يا ابن العاص بورك
لك بالشدّة والعجلة وانا بورك لي بالتؤدة »

فقال عمرو « افعل ما ترى فما ارى امرنا يصير الا الحرب »

فكتب معاوية الى مسleme بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني وكانا قد خالنا عيماً
يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطلب بدم عثمان ويعدهما المساواة في سلطانه فاجاب مسleme
ابن مخلد الانصاري عن نفسه وعن ابن حديج بما نصه « أما بعد فان الامر الذي بدلنا
له انفسنا واتبعنا به امر الله امرٌ نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خائفنا وتعجيل
النقمة على من سعى على اماننا . اما ما ذكرت من المساواة في سلطانتك فتالله ان ذلك
امرٌ ما له نهضنا ولا اياه اردنا فعجل الينا بنحيتك ورجلك فان اعداءنا اصبحوا لنا هائين
فان يأتي مدد يفتح الله عليك والسلام » فجاء الكتاب وهو في فلسطين فدعا اوائك
الزفر وقال لهم ماترون فقالوا نرى ان تبعث جنداً فعهده الى عمرو ان يسير في ستة
آلاف رجل واوصاه بالتؤدة وترك العجلة

مقتل محمد بن ابي بكر

فسار عمرو فنزل اداني ارض مصر فاجتمعت اليه دعاة العثمانية فاقام بهم وكتب
الى محمد بن ابي بكر كتاباً ونصه « اما بعد فتتح عني بدمك يا ابن ابي بكر فاني لا احب
ان يصيبك مني ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك
فاخرج منها اتي لك من الناصحين » وبعث معه كتاب معاوية بالمعنى ايضاً . فارسل محمد
الكتابين الى علي واخبره بنزول عمرو بارض مصر وانه راي الثاقل من عنده
ويستمدّه فكتب اليه علي يأمره ان يضم شيعته اليه ويعده انفاذ الجيوش اليه ويأمره
بالصبر لعدوه وقتاله

فقام محمد بن ابي بكر في الناس وندبهم الى الخروج على عدوهم فانضم اليه ثلاثة
آلاف فلما رأى ذلك عمرو بعث الى معاوية بن حديج يستمدّه فامده والتقى الجيشان
فظهرت رجال عمرو وتفرقت اصحاب ابن ابي بكر . فما زال عمرو بجيشه حتى اقبل
على محمد وكان قد تحلّى عنه رجاله ففر من وجه عمرو يطلب ما يجأ فاتمى الى خربة
بناحية الطريق فاولى اليها . وسار عمرو حتى دخل الفسطاط ثم ارسل معاوية بن
حديج في طلب محمد بن ابي بكر فاتمى الى جماعة على قارعة الطريق فسا لهم عنه فقال
احدهم « دخلت تلك الخربة فرايت فيها رجلاً جالساً » فقال ابن حديج « هو هو

فامسكوه « فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً واقبلوا به نحو الفسطاط فوثب اخوه عبد الرحمن بن ابي بكر الى عمرو وكان في جنده وقال « اتقتل اخي صبراً فابعث الى ابن حديج فانه عنه » فبعث اليه يأمره ان يأتيه به فخاؤا به وقد اعياه الظم فقال لهم « اسقوني ماءً »

فقال له معاوية بن حديج « لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ابداً انكم منعمتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والفساق »

فقال له محمد « يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اولياءه ويظمي اعداءه انت وامثالك . اما والله لو كان سيدي بيدي ما بانغم مني هذا » فقال له ابن حديج « اتدري ما اصنع بك ؟ ادخلك جوف سمارثم احرقه عليك بالنار » فقال محمد « ان فعلت بي ذلك فظالما فعلتم مثله باولياء الله واني لارجو ان يجعلها عليك وعلى اوليائك ومعاوية وعمرو ناراً تلظى كلما خبت زادها الله سعيراً . فغضب منه وقتله وجعله في جيفة حمار والقاه في النار . فلما بلغ ذلك عائشة اخته جزعت عليه جزعاً شديداً وقتنت في دير الصلاة تدعو على معاوية وعمرو واخذت عيال محمد اليها فكان القاسم ابن محمد بن ابي بكر في عيالهم ولم تعد تا كل من ذلك الوقت شواء . هكذا تم فتح مصر لمعاوية على يد عمرو بن العاص فاتحها الاول

اما الامام علي فكان قد اجهد نفسه ليجمع مدداً الى محمد فلم يأت من رجاله الا نفر قليل ويمنما هو يحث الناس على ذلك جاءه الخبر بقتل محمد بن ابي بكر وفتح مصر فاشتد غيظه وخطب في الناس قائلاً :

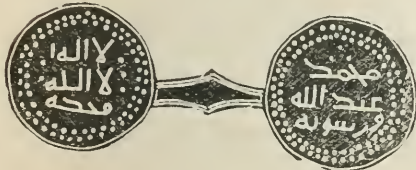
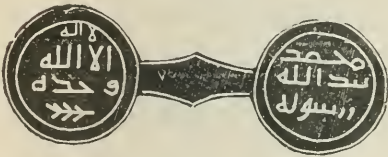
« الا ان مصر قد افتتحتها اهل الفجور اولو الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجاً الا وان محمد بن ابي بكر قد استشهد فعند الله تحتسبه اما والله ان كان كما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحب هدى المؤمن ابي والله ما الوم نفسي على تقصير واني لمقاساة الحروب لجدير خبير واني لا أقدم على الامر واعرف وجه الحزم واقوم فيكم بالرأي المصيب واستعرضكم معلناً واناديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امراً حتى تصير بي الامور الى عواقب المساء فانتم القوم لا يدرك بكم النار ولا تنقض بكم الاوتار . دعوتكم الى غياث اخوانكم من بضع وخمسين ايلة فتجر جرتهم جرجرة الجمل الاشدق وتناقلتم الى الارض تناقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الاجر ثم خرج الي منكم جنيد متذائب كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون فافترسكم » ثم نزل

وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ قتل الامام علي بن ابي طالب وبويع ابنه الحسن مكانه
 وبقي هذا على كرسي الخلافة ستة اشهر فدخات سنة ٤١ هـ وفيها تنازل الحسن عن
 الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان خايفة الشام ومصر وهذا لم يحل عن مقصده حتى بلغه
 فودي به اميراً للمؤمنين وبويع لخمس بقين من ربيع الاول سنة ٤١ هـ
 نقود الخلفاء الراشدين

اما النقود فقد كان العرب في الجاهلية يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى
 ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدهم .
 فكان في جملة عوامله السكة . فضربوا الدراهم والدنانير اولاً بشركة بينهم وبين الروم
 او الفرس . منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة
 للهجرة وهي رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى
 احد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (XALXED) وهذه الاحرف (BON)
 ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني انها مقتطعة من « ابوسايمان » كنية خالد بن الوليد
 وهناك قطعة أخرى ضربت باسم معاوية . ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس
 برسمه وشكاه الا اسم معاوية عاينه (راجع الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي)

وذكر الميري ضرباً من النقود يقال
 لها البغلية قال ان رأس البغل ضربها لعمر
 ابن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة
 الملك وتحت الكرسى مكتوب بالفارسية
 « نوش خور » اي كل هنيئاً

وذكر المرجوم جودت باشا انه رأى
 نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد
 الخلفاء الراشدين اقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ
 في قسبة هرتك طبرستان وعلى دائرها
 بالخط الكوفي « بسم الله ربي » ورأى
 نقوداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه
 العبارة ايضاً ونقوداً ضرب سنة ٦١ هـ في يزد
 على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين »



ش ٢٧ - نقود الخلفاء الراشدين

بخط بهلوي . وهناك نقود نحاسية ضربت على عهد الراشدين بغاية البساطة وعلى بعضها
 رسوم قلابها نقود الفرس كما تقدم (انظر ش ٢٧)

الدولة الاموية

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ او من ٦٦١ - ٧٥٠ م

خلافة معاوية بن ابي سفيان

من سنة ٤١ - ٦٠ هـ او من ٦٦١ - ٦٨١ م

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة خلفاء بني أمية واولهم معاوية بن ابي سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية وقصبتها المدينة فجعلها معاوية وراثية وجعل قصبتها دمشق فأنحصرت اعقابه . وشرع في تولية العمال على الامصار وكانت مصر من اهم تلك الامصار فعهد بامرها لعمر بن العاص لما عرف من علوهمته وحسن سياسته وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والتفقة في مصلحتها . ففقد عمرو ولشريك بن سمي لغزو البربر في شمالي افريقيا فغزاهم وصالحهم ثم انتقضا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة ايضاً على غزو هوارة وعقد لشريك على غزو ولدة فغزواهما في سنة ٤٣ هـ ولما قفلا كان عمرو وشديد الدنف يتقلب على فراش الموت فتوفي ليلة الفطر من السنة المذكورة وكان قصير القامة يخضب بالسواد وكان من افراد الدهر دهاءً وحزماً وفصاحة الا انه كان يتلجلج بكلامه ولما علم معاوية بوفاة عمرو تكدر كدراً عظيماً جداً لانه لم يعد يعلم لمن يعهد بولاية مصر بعده . وبعد التردد في الامر لم يردداً من تولية احد اهله فارسل اليها عتبة بن ابي سفيان أخاه في ذي القعدة من سنة ٤٣ فسار اليها وبعد ان اقام اشهرأ عرض له سفر الى اخيه معاوية بدمشق فاستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث وكان في شدة وعسف فكره المصريون ولايته وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فاضطر الى الرجوع الى مصر ولما جاءها سعد منبر الخطابة فقال :

« يا اهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع . منكم لبعض الجور عايكم وقد وليكم من اذا قال فعل فان ايتم درأكم بيده فان ايتم درأكم بسيفه ثم رجى في الاخير ما أدرك في الاول . ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل وابتنا عنذرفلا ذمة له عند صاحبه » فناداه المصريون من جنبات المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » ونزل وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثني عشر الفأ تكون لها رابطة

وتوفي عتبة في الفسطاط في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ وكانت مدة ولايته سنة كاملة فاقام معاوية عوضاً عنه عقبة بن عامر بن عيس الجهميني وجعل له صلاتها وخراجها وكان عقبة قارئاً فقيهاً مفضلاً شاعراً له الهجرة والصحة والسابقة الا انه لم يكن من السياسة وحسن التدبير على ما يرضي معاوية فولى مكانه مسلمة بن مخلد بن صامت الانصاري وكان من سراة المدينة وامره ان يكتم ذلك لينبأ يخرج عقبة من مصر بحيلة ففي ١٩ ربيع الاول سنة ٤٥ هـ انفذ معاوية امره الى عقبة ان يسير الى رودس بجزراً فقدم مسلمة ورافق عقبة الى الاسكندرية وهو لا يعلم بامارته فلما توجه سائراً استوى مسلمة على سرير امارته فبلغ ذلك عقبة فقال « أخلعاً وغربة » وكانت مدة ولايته ثلاثة اشهر وقيل سنتين وثلاثة اشهر . واخذ مسلمة في اجراء الاحكام وجمع الصلات والخراج وانتظمت غزواته في البر والبحر فانفذ الى الغرب جيوشاً وشاد مدينة القيروان واقام حولها حصوناً ومعاقل وجعل فيها حامية . وفي سنة ٥٣ هـ في امارته نزلت الروم البرلس وقتل يومئذ وردان مولي عمرو بن العاص في جمع من المسلمين وامر مسلمة بابتناء منارات المساجد وهو اول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع . وفي سنة ٦٠ هـ سافر مسلمة بن مخلد الى الاسكندرية واستخلف على مصر عابس بن سعيد وفي هذه السنة توفي معاوية في دمشق في غرة رجب وسنه ثمان وسبعون سنة ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وخمسة ايام

خلافة يزيد بن معاوية

من سنة ٦٠ - ٦٤ هـ او من ٦٨١ - ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة معاوية بويع ابنه يزيد فأقر مسلمة بن مخلد على مصر فكتب اليه باخذ البيعة فبايعه الجند الا عبد الله بن عمرو بن العاص فهددوه بالحريق فبايع ولم يكن يزيد اهلاً للخلافة ولولا قانون الوراثة الذي سنه ابوه ما بلغ عمره هذا المنصب لانه كان متبعاً هوى نفسه متغاضياً عن واجباته . فحرك ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير على اقامة الحجة عليه وكانا في المدينة فبعث يزيد الى حاكمها ان يقبض عليهما ففراً منها وسار الحسين الى العراق لان اكثر شيعة ابيه هناك وقد التف عليه حزب كبير من اهل الكوفة وغيرها فأرسل يزيد الى عبيد الله بن زياد عامله هناك بدفعه فبعث اليه جنداً قتلوه افضع قتلة وأتوا برأسه الى يزيد . لكنهم لم يكذبوا بل بلغ مناه بقتل الحسين

حتى قام عبد الله بن الزبير في مكة فشدد عليه النكير وهو يطلب الخلافة لنفسه . وكانت مصر في اثناء ذلك ساكنة آمنة وفي ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ توفي اميرها مسلمة بن مخلد بعد ان تولاها خمس عشرة سنة واربعة اشهر فولى الخليفة مكانه سعيد بن يزيد الازدي من اهل فلسطين فدخل مصر في مستهل رمضان سنة ٦٢ هـ فتلقاء عمر بن حفزم الخولاني وقد شق عليه تولية من هو من غير بلاده عليه فقال « يغفر الله لامير المؤمنين اما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك يولي علينا احدثهم » ثم جعل اهل مصر يرضون عنه ويعارضونه في احكامه ولكنه كان حازماً لم يشته ذلك عن اقامة الحد واتباع العدل فسادت الراحة واستتب النظام الى اخر ايامه

وما زالت الاحزاب في مكة والمدينة يشددون النكير على يزيد الى ان اجمعوا على خلعه رغم كثرة دعاة الامويين واخرجوا من كان منهم في المدينة فانفذ يزيد ١٢ الفاً من رجاله عليهم مسلمة بن عقبة المرسي لمحاصرة المدينة وامرهم ان لا يكفوا عنها الا اذا اذعنن فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنمية للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر . وكان ذلك في سنة ٦٣ هـ

وفي سنة ٦٣ هـ بويع عبدالله بن الزبير على الخلافة في مكة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن الخير الى مكة فحاصرها وقاتل اهلها ورمها بالمنجنيق فاحرق الكعبة . كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاء الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب وكانت وفاته في حواريين من اعمال حمص في ٤ ربيع اول سنة ٦٤ هـ بعد ان تولى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الا بضعة ايام وسنه ٣٩ سنة

خلافة معاوية بن يزيد

ثم عبدالله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ — ٦٥ هـ او من ٦٨٤ — ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابنه معاوية وسنه عشرون سنة ويدعوه بعضهم معاوية الثاني تمييزاً له من معاوية بن ابي سفيان جده وبعد ٤٥ يوماً من مبايعته توفي ولا ولد له

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف اهل الحجاز بمبايعة عبدالله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة من يوم بايعوه لما راى من كثرة احزابه وعجزه عن مناهضته فزهدي الدنيا مع صغر سنه وطلب ان يكتب على قبره «الدنيا غرور» وكان عبدالله بن الزبير رجلاً مؤدباً فطناً جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة وقائع وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوه الزبير واخوه محمد من جيشه ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهوداً . ولما ارسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله بن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبدالله بن الزبير معه . ومن اخلاقه انه كان منابرآ في اعماله ثابتاً في مقاصده فلم ينفك منذ اختلاس معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليه ثم على ابنه يزيد ثم على ابن ابنه معاوية الثاني حتى ظفر بمرامه ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطاً بجيش من اليبانيين فلما علموا بالخبر عادوا على اعقابهم الى الشام فاستولى عبدالله على المدينة والحجاز واليمن وبايعه من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى الحقتها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عليها سعيد الازدي كما مر وكان عبدالله بن الزبير على بينة من امر مصر واهميتها فانفذ اليها عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم واوصاه ان يدعو الناس الى مبايعته غير ان سعيداً الازدي كان لا يزال متشعباً للامويين فلم يقبل على دعوة عبدالله من المصريين الا بعضهم ولم ترسخ قدم عبدالله بن الزبير في الخلافة الا بعد وفاة معاوية ابن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسماً من مصر يدعوا باسمه فلم يعد في خشية من شيء فصرح بخلافته . ثم هم باخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسله اليها وكيلاً فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ واخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعد الازدي فبايعه الناس وفي قلوب بعضهم غل

اما اهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحكم من بني امية فعظم ذلك على عبدالله بن الزبير وقام لنصرته الضحاك بن قيس في جيش من رجاله فساروا الى قرب دمشق فانصل خبرهم بمروان فسار من الجابية للملاقاة فالتق الجيشان في مرج راهط ففصلت بينهما وقائع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبدالله وكان مروان قد انفذ ابنه عبد العزيز في جيش من اهل الشام لفتح مصر اما بعد

ظفره بجيش ابن الزبير في مرج راهط فاشتدت عزيمته وحمل بكل جيشه على مصر . فلما علم اميرها عبد الرحمن بن عتبة بذلك اخذ في الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال اثره باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعه عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليه واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يظفرا احدهما بالآخر . وبينما كان الجيشان في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في نجبة من رجال مروان قادماً الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم يرد بدأ من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ جمادي الاولى سنة ٦٥ هـ فكانت مدة اماره ابن جعدم تسعة اشهر وفي هذا اليوم توفي عبدالله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بجنازته الى المدافن لشغب الجسد على مروان فدفنوه في بيته قرب جامع عمرو . اما مروان فلم يكن واثقاً بالمصريين واخلاصهم وخاف ان يستغيبوه وبعقدوا لعبد الله بن الزبير فولى عليهم ابنه عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يده على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فبايعه جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالوا لا نخاع بيعة ابن الزبير فقطع اعناقهم وعنق ابن همام رئيس قبيلة لخم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس واجمعوا على مبايعته فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد بمهامها الى ابنه عبد العزيز وهم بالرحيل فقال له ابنه « يا امير المؤمنين كيف المقام في بلدة ليس بها احد من بني ابي » قال له مروان « يا بني عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم وواقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عيناً على غيره وينقد قومه اليك وقد جعات معك اخاك بشراً مؤنساً وجعات لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني ان تكون اميراً باقصى الارض . اليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخولك في منزلك ؟ » ثم اوصاه عند خروجه من مصر الى الشام قائلاً « اوصيك بتقوى الله في سر امرك وعلانيته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون واوصيك ان لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً واوصيك ان لاتعد الناس موعداً الا انذنته لهم ولو حملته على الاسنة . واوصيك ان لاتعجل في شي من الحكم حتى تستشير فان الله لو اغنى احداً عن ذلك لاغنى نبيه محمداً (صاعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم في الامر » وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة ٥٥ هـ والحرب لاتزال سجالاً بين دعاة مروان ودعاة عبد الله بن الزبير

خلافة عبد الملك بن مروان

من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ او من ٦٨٤ — ٧٠٥ م

وفي غرة رمضان من تلك السنة توفي مروان وله من العمر ٦٣ سنة فبويع ابنه عبد الملك فاقر اخاه عبد العزيز على مصر واخذ في متابعة مشروع ابيه فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعيماً في تعميم خلافته . وفي آخر الامر ارسل اليه الحجاج بن يوسف فحاصر عبد الله بن الزبير في مكة مدة سبعة اشهر وفي نهاية سنة ٧١ هـ قتل عبد الله بن الزبير فخلوا الجو لعبد الملك وكانت وفاته فصلاً نهائياً لذلك الخصاص بعد ان استقر عشر سنين متوالية ومملكة الاسلام تنازعها خلفتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ هـ امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصى وبنى مقياساً للنيل في حلوان وهو اول مقياس بناه المسلمون في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بنى مقياساً قبل ذلك ولا دليل على صحة هذا القول

وفي سنة ٧٠ هـ وقع الطاعون في مصر فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها داراً وجعل فيها الاعوان وبنى فيها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخلها وكرمها

وفي سنة ٧٧ هـ هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه وفي ايام عبد الملك ضربت الدنانير المنقوشة الفضية والذهبية

وفي آخر ايام هذا الخليفة تم بناء القصر الجميل المدعو الدار المنهبة في شارع سوق الحمام

وكانت طائفة الكهنة الاقياط معفاة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم ديناراً وعلى البطارقة ثلاثة آلاف دينار سنوية

وسنة ٨٦ هـ توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٣ جمادى الاولى بعد ان حكم فيها عشرين سنة وعشرة اشهر و١٣ يوماً وكان جواداً حليماً حازماً بشوشاً فتولى بعده عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل ابيه على صلاحها وسنه ٢٩ سنة وطلب اليه ابوه ان يقتني آثار عمه عبد العزيز بالفطنة والدراية



خلافة الوليد بن عبد الملك

من ٨٦ - ٩٦ هـ او من ٧٠٥ - ٧١٤ م

وفي هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك الملقب بابي العباس فاقرّ اخاه عبد الله على مصر . وفي ايام الامير عبد الله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لاتزال الى ذلك الحين بالقبطية يتولى امرها انتناش فعزله وولى مكانه بن يربوع الفزاري من اهل حمص . وغت الاسعار في امارته فتشاءم الناس به وقالوا انه كان يقبل الرشوة ثم وفد على اخيه في صفر سنة ٨٨ هـ واستخاف عبد الرحمن بن عمر بن قعزيم الخولاني واهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف اما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكماً حقاً ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروباً كثيرة عاد منها ظافراً . منها الحروب الهائلة مع أمراء تركستان والفرس والهند وملك القسطنطينية وقد فتح طوانه من بلاد الروم والاندلس وسمرقند كل هذه الفتوح والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٣ ربيع اول سنة ٩٠ هـ اقيم على مصر قررة بن شريك من اهل قنسرين بدلا من عبد الله بن عبد الملك واحيا قررة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقبل لها اصطلب قررة واصطلب القماش

وقد تشكى القبط من جورده فهم يقولون انه كان يحقر اعتقاداتهم ويدخل احيانا الى كنائسهم ومعه رجال من حاشيته ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٣ هـ اعاد قررة بن شريك بأمر الوليد بن عبد الملك بناء جامع عمرو . وفي سنة ٩٦ هـ توفي قررة في الفسطاط فأقيم مقامه عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قررة سيء التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً وبعد ثلاثة اشهر من امارته توفي الخليفة الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد ان حكم ٩ سنين ونصف وسنه ٤٨ سنة وقد



بنى مقياساً للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفه وقال آخرون ان الامون امر بهدمه . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هـ

ش ٢٨ : نقود الوليد بن عبد الملك

خلافة سليمان بن عبد الملك

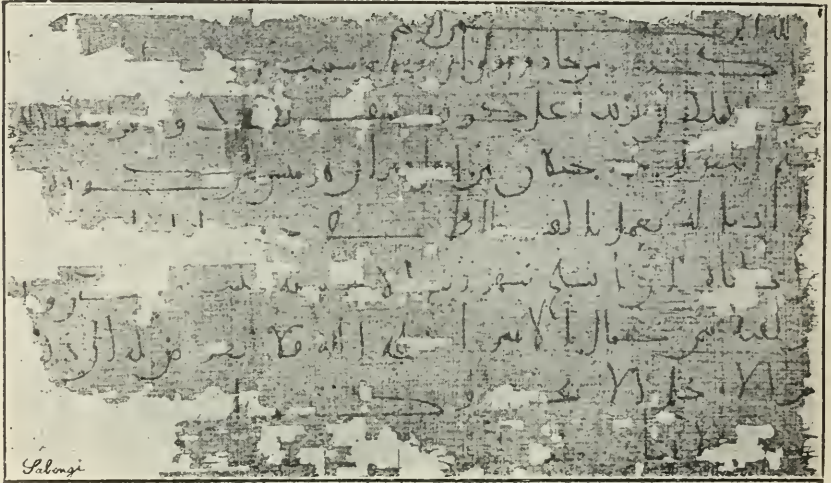
من سنة ٩٦—٩٩ هـ او من ٧١٤—٧١٧ م

وبعد وفاة الوليد بويع اخوه سليمان بن عبد الملك الملقب بابي ايوب فسار على خطوات اخيه في توسيع نطاق مملكته ففي اول سنة من خلافته فتح طبرستان وجورجيا وارسل اخاه مسامة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصاراً شديداً وعند اول خلافته اقرَّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها اسامة بن يزيد المشهور بالظلم واقبه بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين واقباط على استبداد هذا الرجل وعسفه . ومما جعلهم يزيدون تظلماً منه انه لم يكتف باعلان الرهبان باستمرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنه امر ان يلبس كل منهم في كل سنة خاتماً من حديد في اصبعه عليه اسمه يأخذه من جابي الخراج اشارة الى خلوطه ومن يخالف ذلك تقطع يده فاذا اصر على المخالفة يقتل فكانت العساكر تطوف الدير والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس زكية وربما كانوا يرون قتلها واجباً . وكان اسامة مع ذلك يظهر رغبة شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى آخر يتفقد الارض وريها وينتبه خصوصاً لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعلم سنة ٩٦ هـ بسقوط مقياس حلوان فأعلم الخليفة بذلك فأمر باغفاله واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين الفسطاط والجزيرة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المار في النيل صاعداً او نازلاً ولا يمر الا من كان في يده جواز مؤذن له بذلك بعد اداء المبلغ المفروض ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونيل تذكرة المرور بكل مشقة نظراً لضيق ذات يدها فحدث وهي في اثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقيماً فاخططه تمساح وابتلعه وثيابه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبه . والماء صلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وابي الا ان تبرز تذكرتها فاخبرته بما كان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاغلق اذنيه عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت ما في يديها ودفعت الفلوس الاخير

كل هذه الاجراءات وغيرها جعلت المصريين في قنوط فناروا على اسامة يطلبون الانتقام وبينما هم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جاشهم على

امل ان يالوا ما يريدون ممن يخلفه وكانت وفاته في ٢١ صفر سنة ٥٩٩ هـ وهو يني مدينة الرملة في فلسطين بعد ان حكم سنتين وثمانية اشهر وخمسة ايام وسنه ٤٥ سنة فبويغ ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملقب بابي حفص لانه لم يكن من اخوته وولده من يصلح للخلافة



ش ٢٩ - صورة رسالة عربية على البايروس في أيام بني أمية

خلافة عمر بن عبد العزيز

من ٩٩ - ١٠١ هـ او من ٧١٧ - ٧٢٠ م

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز محباً للعدالة فرفع اليه المصريون شكاوهم على اسامة فأمر بعزله وتولية ايوب بن شرحبيل . وكان هذا ورعاً ومنهاً مستقيماً عادلاً فزاد في الاعطائيات وعطل الخانات فأنسى المصريين ما كان من استبداد اسامة وغلاظته ثم بعث اليه الخليفة بالقبض على اسامة وتكبيله بالحديد وتسمير يديه ورجليه باطواق من الخشب وارساله اليه ففعل فمات اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شرحبيل فبلغ عمر بن عبد العزيز انه يطالب المسلمين بالجزية فعظم عليه ذلك وكتب اليه دأري يا حيان ان تضع الجزية عنمن اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة نخلوا سيلهم ان الله

غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله
ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد
وهم صاغرون « فأجابه حيان « اما بعد فان الاسلام قد اذمر بالجزية حتى ساءت من
الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تمت بها عطاء اهل الديوان فان رأى امير المؤمنين
ان يأمر بقضائها فعل « فكتب اليه عمر « اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند
مصر وانا عارف بضعفك وقد امرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطاً فضع
الجزية عن اسلم قبح الله رايبك فان الله بعث محمداً (صاعم) هادياً ولم يبعثه جابياً
واعمري اعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يده « وفي ٢٥ رجب سنة
١٠١ هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة اشهر و١٤ يوماً
فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موته فبويغ يزيد بن
عبد الملك

خلافة يزيد بن عبد الملك

من ١٠١ - ١٠٥ هـ او من ٧٢٠ - ٧٢٤ م

فأقر يزيد ايوب بن شرحبيل على مصر ثم انفذ اليه ان يسام الحكم ابشر بن
صفوان السكبي وبعد يسير امره ان يتوجه الى افريقية واقام مكانه حنظلة بن صفوان
وفي ايامه امر الخليفة بتكسير ما بقي من التماثيل والاصنام في مصر فكسر معظمها . وفي
سنة ١٠٤ هـ عزل حنظلة وتولى الامارة محمد بن عبد الملك اخو الخليفة . وفي ٢٥
شعبان سنة ١٠٥ هـ توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك في حران فبويغ اخوه هشام ولم
ير المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

خلافة هشام بن عبد الملك

من ١٠٥ - ١٢٥ هـ او من ٧٢٤ - ٧٤٣ م

فأما بوبع هشام أمر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر وأقام عليها الحر بن يوسف وفي امارته كان اول انتفاض القبط سنة ١٠٧ هـ ثم وفد الى الخليفة واستعفى من الامارة في سنة ١٠٨ هـ فولى مكانه حفص بن الوليد وفي سنة ١٠٩ هـ استبدل حفص بعبد الملك ابن رفاعة وفي تلك السنة توفي ابن رفاعة فتولى مكانه بأمر أمير المؤمنين اخوه الوليد ابن رفاعة

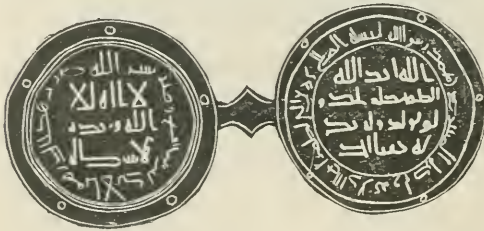
وفي ولايته نقلت قبيلة قيس الى مصر ولم يكن فيها أحد منهم فأنزلوا في الحوف الشرقي (الشرقية) وفي أيامه خرج وهيب اليحصبي شارداً في سنة ١١٢ هـ من أجل ان الوليد أذن للنصارى في ابناء كنيسة يومنا بالحرراء . وفي هذه السنة توفيت السيدة سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب . وتوفي الوليد في الفسطاط وهو وال أول جمادى الآخرة سنة ١١٧ هـ بعد أن حكم تسع سنين . فتولى مكانه عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفه حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة ست سنوات وكان عاتياً غشوماً رغم رغبة الخليفة اليه ان يعامل الناس بالرفق والمعروف ولم يكتب بالضرائب المفروضة على الانسان ففرضها على الحيوانات وكان يحتم الوصول المعطاة منه بحتم عليه صورة اسد وكان يقطع يد كل من لم يكن ناقلاً هذا الرسم من المسيحيين

فكاتب المصريون الخليفة بشأن ذلك فأنفذ اليه في سنة ١٢٤ هـ يعزله عن مصر وبأمره ان يتوجه الى أفريقية ففعل فولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لامارته . وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥ هـ توفي الخليفة هشام بن عبد الملك وسنه ٥٦ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر و ١١ يوماً ومن أعماله التي تستحق

الذكر انه تغلب على الروم

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ كما ترى في الشكل

الثلاثين



ش ٣٠ — نقود الخليفة هشام

خلافة الوليد بن يزيد

١٢٥ — ١٢٦ هـ او من ٧٤٣ — ٧٤٤ م

ولما توفي هشام بوبع الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس أمر بصرف حفص عن مصر مع ما عرف به من النزاهة والاستقامة وثقة الادالي فيه وأقام عوضاً عنه عيسى ابن أبي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء، فأثار بسوء تصرفه خواطر المصريين ثانية . والخليفة لم يكن أحسن سياسة منه لانه جمع جميع الصفات التي تحط من قدر الملوك فأثار عليه رعاياه ولاسيما أهل الشام فشقوا عصا الطاعة وطلبوا أن يبدل يزيد بن الوليد بن عبد الملك وطلبوا من هذا اذا كان يقبل ذلك فأجاب بالاجاب وجعل لمن يأتيه برأس الوليد بن يزيد مائة الف دينار ثم قتل الوليد وسنه ٤٢ سنة ولم يحكم الا سنة واحدة وشهرين و٢٠ يوماً

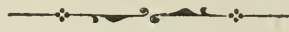
خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد

١٢٦ — ١٢٧ هـ او من ٧٤٤ — ٧٤٥ م

فبوع يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادى الآخرة من سنة ١٢٦ هـ الا أن تلك المبايعة لم تكن كافية لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى أطراف العالم الاسلامي حتى هددت المملكة بالسقوط . فان اهل حمص لم يبايعوا يزيد بل قاموا يطالبون بدم الوليد . وسليمان بن هشام نجح من سجنه في عمان وجمع اليه أجناداً وسار الى دمشق يطالب بمقوق الخلافة . وأهل فلسطين ثاروا على أميرهم وقتلوه . ومروان بن محمد الحمار جرد من أرمينيا مطالباً بدم الوليد . وكان جيشه غفيراً فلما بلغ حران خافه يزيد فكتبه وعاهده على ان يخلي له ما بين النهرين وارمينيا واذربيجان حقناً لدماء العباد . وبعد ذلك يسير توفي يزيد بالطاعون وسنه ٤٠ سنة ولم يحكم الا خمسة اشهر وعشرة ايام

وفي يوم وفاة يزيد بوبع ابراهيم بن الوليد اخوه من ابيه ولم تكن تلك المبايعة مفرحة له لانه جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب . فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرد جيشاً من ٨٠ الف مقاتل الى قدسرين ينكر المبايعة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام للملاقاة في حمص وكان

مروان ينتحل سبياً يسوغ له الهجوم على دمشق فدعى انه جاء لانقاذ الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسأله اذا كان يوافقه على خلع الخليفة ابراهيم وتولية أحد ابناء الخليفة السابق فأبى فخاربه مدة ففر سليمان ورجاله الى دمشق . فلما دخلها تعاقد مع الخليفة ابراهيم وجعلوا ايديهما على الخزان ثم اخرجوا ابني الوليد من السجن وقطعا عنقيهما لانهما منشأ تلك المتاعب لعلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل ابناء اخيه بغير الحق لا يصلح للخلافة وطاب خلعها وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ هـ ووضع يده على الاحكام ودعا الى مبايعته فبايعه الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانه اشترى حياته بهـ. هذه المبايعه وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات



خلافة مروان بن محمد

من ١٢٧ — ١٣٢ هـ او من ٧٤٤ — ٧٥٠ م

وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الأول أبو عبد الملك لقب به يوم ولادة ابنه البكر والثاني الجادي نسبة الى عمه جاد بن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً به اكثر مما بغيره واصل تلقبه به انه كان ثابتاً في الحروب فلقبوه بحمار الوحش ثم اهملت الكلمة الثانية فتنوسيت وبقيت الاولى وحدها . فلما تمت له المبايعه سنة ١٢٧ هـ ابدل حفص ابن الوليد أمير مصر بحسان بن عتاهية النجيبى فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليه وقالوا لارضى الجحفص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في داره وقالوا اخرج عنا فانك لا تقيم معنا يبلى فأخرجوه بعد ١٧ يوماً من توليته وأخرجوا معه عيسى بن أبي عطاء صاحب الخراج فولى مروان على مصر الحفص ابن الوليد وهي المرة الثالثة لولايته عليها . وفي سنة ١٢٨ هـ صرفه مروان وولى مكانه الحوثره بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الاف باول الحرم وقد اجتمع الجند على منعه فأبى عليهم حفص فخافوا خوثره وسألوه الامان فأمنهم ونزل في ظاهر القسطنطينية . وبعد سنة ونصف (في ٢٤ رجب سنة ١٣١) عزل خوثره وولى مكانه المغيرة بن عبيد الله الفزاري وبعد يسير توفي المغيرة وولى مكانه عبد الملك بن موسى وكان والياً على الخراج فلما تولى الامارة امر بالتحاذ المنابر في السكور

ولم تكن قبله وكان ولاية الكور يخضبون على العصي الى جانب القبلة . والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية . لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في أنحاء المملكة الاسلامية فنارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوته كما علمت فسامها الرضوخ فأبت . ومثل ذلك فعلت دمشق وكانت اول من دعا الى بيعته وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشه الى قنسرين فحاربه مروان وقتل من رجاله ثلاثين ألفاً فانزى مروان الى حمص وحاصر فيها فجهز اليه مروان وحاصره هناك

وكثير منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم أبو العباس الهاشمي أول خلفاء الدولة العباسية وكان قد بايعه الفرس في اقصى الشرق (خراسان) بمساعدة أبي مسلم الخراساني وكان قد ارسله اليها داعياً وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنه أظهر همة ودراية لا تتفقان الا بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليه وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بها فتقدم الى العراق حتى أتى السكوفة فافتتحها وخطب فيها لابي العباس . أما مروان فلم يظفر بجمص وسار الى الموصل فاضطهده اهلها ففقط من الفوز فعاد على اعقابه الى سوريا فرآها مجمعة على عصيانه فلم ير له ملجأ الا مصر لانها كانت لاتزال الى ذلك الحين على بيعته

أما أبو العباس فلما استتب له الامر في السكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمه ولاية اختارهم من ذويه ثم بايعه اهل الشام ومن الاهم . وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي أقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى أبو العباس تشيبتاً لقدمه في الخلافة ان يقتل كل من بقي من ابناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوه فامر بالقبض عليهم وهم ثمانون نفساً بين نساء ورجال واولاد فامر بذبحهم معاً بغير شفقة فلقتب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينج من هذه المذبحة الا شاب يقال له عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام فرّ الى الاندلس (اسبانيا) وأسس فيها دولة اخرى اموية

اما مروان فجاء مصر على ان يستبقها له فارسل عبد الله عم ابي العباس اخاه صالح بن علي يقضي اثره وامره ان يقبض عليه باي وسيلة كانت فسار صالح في جيش عظيم ومعه ابو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسماً من الفسطاط في اول عهدهما ثم صار خراباً . فأمر ابو عون اصحابه بالبناء فيه فابتنوا وقاموا فيه معسكرهم ودعوه بالعسكر واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه بعد ذلك دار الامارة وجامع عرف بالعسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار امراء مصر ينزلون فيه من بعد ابي عون

الى ان بنى احمد بن طولون القطنع واقام فيها قصره
ثم اخذ صالح بن علي في مطاردة مروان فأدرکه في قرية بوضير من الجيزة وقتله
في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وسنه سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل راسه
الى ابي العباس السفاح . وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهراً واحداً وهو
آخر خليفة من الدولة الايوبية بالشام

الدولة العباسية للمرة الاولى

من سنة ١٣٢ - ٢٥٧ هـ او من ٧٥٠ - ٨٧٠ م

خلافة ابي العباس بن محمد

من ١٣٢ - ١٣٦ هـ او من ٧٥٠ - ٧٥٤ م

بويع الخليفة ابو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح في ١٣ ربيع اول سنة
١٣٢ هـ وهو من سلالة العباس بن عبد المطلب واول الخلفاء العباسيين فأقال ولاية الامصار
الذين كانوا قبل خلافته وابدلهم بولاة من اقاربه وذويه . فجعل على مصر عمه صالح بن
علي قاتل مروان . فسار صالح حتى دخلها في محرم سنة ١٣٣ هـ وبعد سير بعث الى
الخليفة وفداً من اهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك بن موسى وجماعته وقتل
كثيراً من دعاة بني أمية وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقانسوة من ارض فلسطين
وفي غرة شعبان سنة ١٣٣ هـ ورد اليه كتاب امير المؤمنين بامارته على فلسطين وان
يستخلف على مصر من اراد فاستخاف ابا عون عبد الملك بن يزيد نائباً عنه وسار
ومعه عبد الملك بن نصير وعدة من اهل مصر

وفي ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافته بعد
ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و٨ اشهر و٢٦ يوماً وسنه ٣٣ سنة ونصف وهو
اول من اتخذ وزيراً لان خلفاء بني أمية لم يكونوا يستوزرون واسكنهم استكتبوا

خلافة المنصور بن محمد

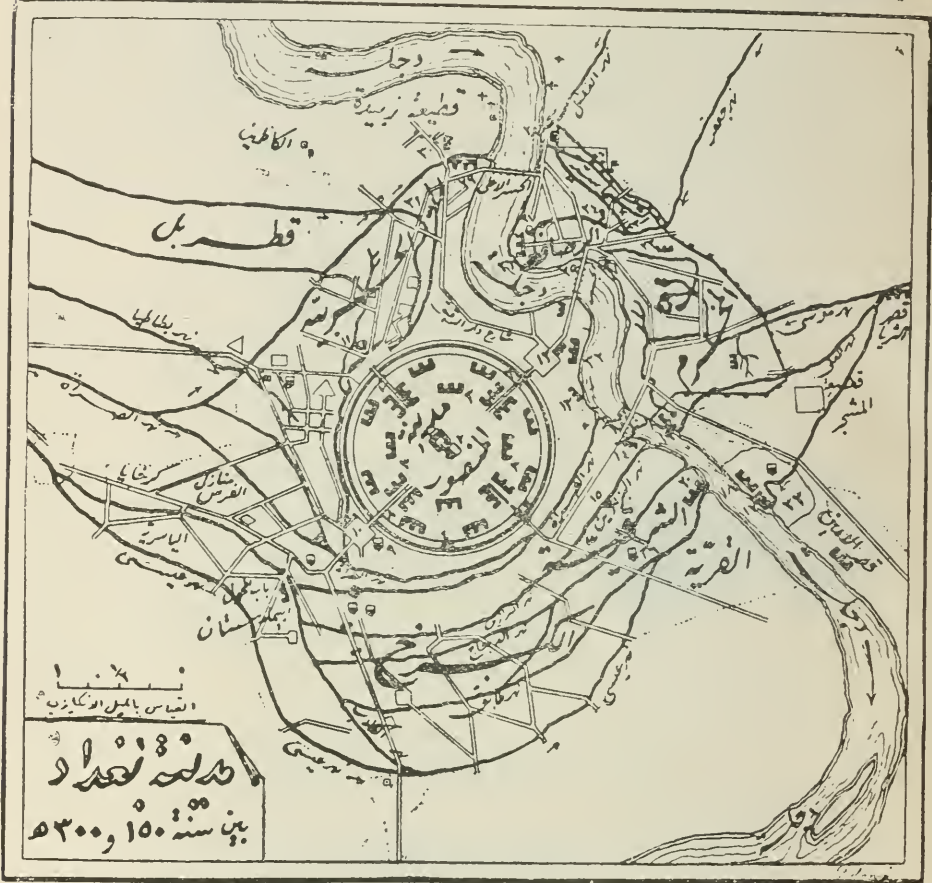
من ١٣٦ - ١٥٨ هـ أو من ٧٥٤ - ٧٧٥ م

وخلف ابا العباس اخوه المنصور بن محمد الملقب باني جهنم واتخذ الهاشمية سريراً للملكة كما فعل سلفه . وفي سنة ١٤٠ هـ عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائباً فيها وفي سنة ١٤١ هـ عزل ابا عون عن مصر وولى موسى بن كعب وكان احد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولى محمد بن الاشعث الخزاعي واراد توليته امر الخراج فابى فتولاه نوفل بن الفرات ثم راي بعد حين ان اهل الدواوين مالوا بكياتهم نحو صاحب الخراج فقدم آل الامر الى نفور بينه وبين نوفل . وفي ٥ رمضان سنة ١٤٣ هـ صرف محمداً وولى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش . وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ صرفه وولى يزيد بن حاتم المهلبى

فتري انه تقاب على مصر في مدة لا تتجاوز سبع سنوات ستة امراء الامر الدال على ما فطر عليه المنصور من الانقلاب فانه كان لا يثق باحد ولا يقر على امر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلك على ذلك ما كان من امره مع ابي مسلم الذي له الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيه ما وصات الخلافة الى يدهم . فانه بمجرد ما قيل له ان ابا مسلم متشيع لاهل البيت امر بقتله . ولشدة هواجسه ترك الهاشمية التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ هـ) سريراً للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . ثم خلع عن ولاية العهد ابن اخيه عيسى بن موسى وكان السفاح قد اوصى له بها بعده . وبابح لابنه محمد المهدي بن المنصور مكانه على ان يكون عيسى المذكور خليفة بعده

اما يزيد بن حاتم فتولى مصر في ايام المنصور نحواً من ثمانين سنين عمل فيها بامانة . وفي امارته ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وبابح كثير منهم لعلي ابن محمد بن عبد الله وطرق المسجد في ١٠ شوال سنة ١٤٥ هـ ثم قدمت الخطباء براس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي في ذي الحجة فصب في المسجد . وفي تلك السنة منع يزيد اهل مصر من الحج ولم يجح منهم احد ولا من اهل الشام لما كان في الحجاز من

الاضطرابات باصر بنى حسن . وفي سنة ١٤٦ هـ ورد كتاب ابي جعفر يأمر يزيد بن حاتم بالتحويل من العسكر الى الفسطاط وان يجعل الديوان في كنائس القصر من اجل ليلة المسجد



خريطة المدن الاستعمارية

ش ٣١ - خريطة بغداد

وفي هذه السنة كان الفراغ من بناء مدينة بغداد فتحول اليها الخليفة ابو جعفر المنصور في صفر فلما دخلها امر ان تجتمع اليه العلماء والفلاسفة . وفي سنة ١٤٢ هـ حج يزيد واستخاف عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطته وبعث جيشاً لغزو الحبشة من اجل خارجي ظهر هناك فظفر به الجيش وقدم راسه في عدة رؤوس فحمت الى بغداد . وفي سنة ١٤٨ هـ ضم يزيد برقة الى عمل مصر وهو اول من فعل ذلك . وفي سنة ١٥٠ هـ خرج القبط في سخر فبعث

اليهم جيشاً فرجع منهزماً . وفي سنة ١٥٢ هـ توفي يزيد بن حاتم واقام المنصور عوضاً عنه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وهذا لم يحكم مصر الا ٣ سنين . وفي سنة ١٥٥ هـ اُبدل باخيه محمد بن عبد الرحمن . وفي سنة ١٥٦ هـ توفي محمد المذكور فولى مكانه موسى بن علي بن رباح . ولداعي هذه التغييرات الكثيرة في امارة مصر لم يرخ اهائها فلم يكن لها فرصة للتقدم خطوة نحو الامام لاعتقاد كل حاكم انه عن قليل معزول فبدلاً من ان يسعى في زرع ما ربما لا يستغله كان يسعى فيما فيه نفعه الشخصي ولذلك كان كل واحد منهم يزيد في مقدار الضرائب المفروضة او يخترع ضرائب جديدة بحيث انه لم يبق شيء من الضرائب حتى الفعلة وبأعني البقول وقادة الجمال وكل الصناعات حتى المتساوين كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب فعم البلاء واشتد الجوع فاكل الناس السكلاب ولحم الادميين !

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بير ميمون على بضعة اميال من مكة حيث توجه لاقضاء فروض الحج وكان عمره ٦٣ سنة و١٤٠ سنة حكمه ٢٢ سنة الا ٧ ايام . وهذه صورة من النقود التي ضربت في ايام الخليفة المنصور سنة ١٤٦ هـ (انظر ش ٣٢)



ش ٣٢ - نقود المنصور

خلافة محمد المهدي

من سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ او من ٧٧٥ - ٧٨٥ م

تخلفه محمد المهدي ابنه وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كاليه متقلباً متردداً وفي سنة ١٥٩ هـ صرف موسى بن علي عن مصر وولى محمد بن سليمان من اهالي سوريا ثم عزله واعاد موسى بن علي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولى عيسى بن لقمان الجهمي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف عيسى وولى واضحاً مولى ابي جعفر وبعد سير ابدله بمنصور بن يزيد الرعييني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٣ هـ ابدله يحيى بن داود الملقب بابي صالح من اهل خراسان وكان ابوه تركياً وهو من اشد الناس

واعظمهم هيبة واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبة فنزع من اغلاق الدروب ليلاً ومن اغلاق الحوانيت حتى جعلوا عليها شراخ القصب لمنع السكلاب . ومنع حراس الحمامات ان يجلسوا فيها وقال « من ضاع له شيء فعليّ اداؤه » فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول « يا ابا صالح احرسها » فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايته وامر الاشراف والفقهاء واهل النوبات بلبس القلائس الطوال والدخول بها عليه يوم الاثنين والخميس بلا اردية . وكان ابو جعفر المنصور اذا ذكره قال هو رجل يخافني ولا يخف الله . وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح وولي سالم بن سواده التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ هـ عزله المهدي وولى ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس فابتنى داراً عظيمة بالموقف من العسكر . وخرج دحيه بن المعصب من نسل عبد العزيز بن مروان نابذاً ودعا الى نفسه بالخلافة فتراخى عنه ابراهيم ولم يحفل بامره حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدي على ابراهيم وعزله عزلاً قبيحاً في ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ وولى موسى بن مصعب بن الربيع من اهل الموصل ، ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم ومن كان معه ثلثمائة الف دينار ثم سيره الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل وجعل يقبل الرشوة وضرب خراجاً على الحوانيت وعلى الدواب فنضايق الاهالي وكره الجند ذلك ونابدوه وثار تقيس واليانية وكاتبوا اهل الفسطاط فانفقوا عليه فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنه اهل مصر باجمعهم واساموه فقتل في ٩ شوال سنة ١٦٨ هـ من غير ان يتكلم احد منهم . وكانت ولايته عشرة اشهر وكان ظالماً غاشماً . فولى المهدي مكانه اسامة بن عمر وقتياً الى ان انفذ اليها الفضل بن صالح اخا ابراهيم المتقدم ذكره اميراً فاخذ يسعى في اخماد ثورة اهل الحوف وخاف خروج دحية لان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه فسير الفضل عساكره اليه وكان قد اتى بها من الشام فانهمزمت رجال دحية وقبض عليه وسيق الى الفسطاط فضربت عنقه في جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ وكان يقول للفضل انا اولى الناس بولاية مصر لاني قتت في امر دحية وقد عجز عنه غيري ويقال انه ندم على قتل دحية وفي تلك السنة بنى الفضل الجامع بالعسكر وكان الناس يجتمعون فيه

وبقيت مصر في راحة وهدوء تامين بعد اخماد ثورة اهل الحوف وكذلك كانت سائر الامارات الاسلامية فسكن بال خليفة المهدي من قبيل داخلية المملوك فمكث على توسيع نطاقها فغزا ملك اليونان بجند تحت قيادة ابنه الثاني هارون الرشيد فتغلب

هارون على بلدان عديدة ضمها الى مملكة ابيه ووضع على القسطنطينية جزية مقدارها سبعون الف دينار فاطهر هارون شجاعة واقداماً وقعا في عيني ابيه موقعاً عظيماً فكافأه بان جعل له حق الخلافة بعد اخيه موسى الهادي

وفي ٢٢ محرم سنة ١٦٩ هـ توفي الخليفة المهدي وله من العمر ٤٢ سنة ومدة حكمه عشر سنين وشهران ونصف

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المهدي سنة ١٦٣ هـ (انظر ش ٣٣)



ش ٣٣ - نقود الخليفة المهدي

خلافة موسى الهادي

من سنة ١٦٩ — ١٧٠ هـ او من ٧٨٥ — ٧٨٦ م

فبويج موسى الهادي وهو الخليفة الرابع من بني العباس وحالما استلم زمام الاحكام عزل الفضل بن صالح عن مصر وولى علي بن سليمان وحاول الغاء وصية ابيه القاضية بخلافة هارون من بعده على نية ان يجعل الخلافة لابنه ليكنه لم يأت على ادراك مناه حتى ادركه الموت في يوم الجمعة الواقع في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ وعمره ٢٤ سنة ولم يحكم الا سنة وشهراً و٢٢ يوماً

خلافة هارون الرشيد

من سنة ١٧٠ — ١٩٣ هـ او من ٧٨٦ — ٨٠٩ م

فبويج ابنه هارون الرشيد يوم وفاة اخيه وهو الخليفة الخامس من بني العباس وفي أيامه بلغت دلة والعرب من العمران والمجد مافاح ارجة في اقاصي الارض المعمورة ولم تعد ترى عصراً مثل ذلك العصر وكان شمس الدولة العربية في أيامه بانغت خط الهاجرة بم اخذت تنحدر بعده رويداً رويداً نحو الافق . وفي يوم مبايعته ولد له غلام دعاه عبدالله وهو بكر اولاده وولى عهده ولقب بعدئذ بالأمون

واقر هارون الرشيد علياً على مصر فظاهر هذا في ولايته حزماً وسياسة فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنع الملاهي والخمر لسكنته عكف على هدم الكنائس الحديثة في مصر فبذل له النصارى خمسين الف دينار على أن يتخلى عن هدمها فأبى . وكان كثير الصدقة فعلق به الاهلون حتي قالوا انه اهل للخلافة فطمع فيها فسخط عليه هارون الرشيد وعزله وولى مكانه موسى بن عيسى العلوي في ١ ربيع اول سنة ١٧١ هـ وحالما استمر زمام الامارة اذن للمسيحيين بابتناء الكنائس التي هدمت بامر علي بن سليمان فابتيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن هبة . وفي ١٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ عزل بعد ان تولى الامارة سنة وخمسة اشهر وتولى مكانه مسامة بن يحيى وفصل بين ادارة الحكومة والمالية او الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ هـ عزل مسامة بن يحيى عن الصلاة وتولى محمد بن زهير وفي غايه ذي الحجة سنة ١٧٣ هـ عزل وتولى مكانه داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة . وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ هـ عزل داود بن يزيد وولى مكانه موسى بن عيسى ثانية . وفي هذه السنة اوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنه الثاني محمد الملقب بالامين وهو لم يبلغ الخامسة من العمر واخوه المأمون في السادسة . وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة واما المأمون فكان ابن جارية فارسية ففضت زبيدة لحرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبها فاوصى بالخلافة لابنها الامين على ان يكون المأمون حق الخلافة بعده

وفي ٢٦ صفر سنة ١٧٦ هـ عهدت امارة مصر الى ابراهيم بن صالح ثانية وكان قد تولاه في خلافة ابي جعفر كما تقدم . وفي ١٨ رمضان سنة ١٧٦ هـ بولى امارة مصر عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي اخو محمد بن زهير ثم صرف في رجب سنة ١٧٧ خلفه اسحاق بن سليمان من بني العباس فلما وصل مصر زاد في خراج المزارعين زيادة احجفت بهم نخرج عليه اهل الحوف فخاربهم فقتل كثير من اصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فعمد لهرثة بن اعين في جيش عظيم وبعث به فنزل الحوف فلقاه اياه بالطاعة واذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كله فسر الخليفة مما اتاه هرثة من النصر فصرف اسحاق ابن سليمان وولى مكانه هرثة في ٢ شعبان سنة ١٧٨ هـ وبعد قليل ارسل الرشيد هرثة الى افريقية وولى على مصر عبد الملك بن صالح اخا ابراهيم بن صالح على الصلاة وارسل معه عبد الله بن زهير على الخراج . وفي ١٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ابدل عبد الملك بن صالح بعبيد الله بن المهدي شقيق الخليفة وبعد قليل تمنحى هذا عن الامارة اوسى بن عيسى وهي المرة الثالثة لامارته . وفي سنة ١٨٠ هـ عادت امارة مصر الى عبيد الله بن المهدي

ثانية . وفي ٧ رمضان سنة ١٨١ هـ سلمت اماره مصر الى اسماعيل بن صالح وكان خطيباً بليغاً فقال فيه ابن عفير « مارأيت على هذه الاعواد اخطب من اسماعيل بن صالح »
وفي ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٨٢ هـ صرف الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل ابن عيسى العباسي ثم صرف هذا وولى الليث بن الفضل البيوردي من اهل بيوردي فقدم مصر في ٥ شوال سنة ١٨٢ هـ وخرج منها في رمضان سنة ١٨٣ الى الخليفة بالهدايا والمال واستخلف اخاه الفضل بن علي في مصر ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانية بالمال في ٢١ رمضان سنة ١٨٥ هـ واستخلف هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج ثم عاد في ١٤ محرم سنة ١٨٦ هـ فكان كلما اغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى امير المؤمنين هارون الرشيد مع الحساب

ثم بعث بمساح يمسحون الاراضي ومن جعلتها اراضي اهل الحوف فانتقض لهم من القصبه اصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع منهم فتجهزوا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث في اربعة آلاف من جنده مصر في شعبان سنة ١٨٦ هـ فالتقى بهم في رمضان فانهزم عنه الجند في ١٢ منه وبقي في نحو المائتين فحمل بن موه على اهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان النقاؤهم على ارض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأساً من رؤوس القيسية . ولما عاد الى الفسطاط عاد اهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فسار الليث الى الخليفة هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ هـ وطلب اليه الجيوش لانه لا يقدر على استخراج الخراج من اهل الحوف الا بجيش يبعث به معه وكان محفوظ ابن سليم بباب الرشيد فرغ محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخراج وصرف الليث بن الفضل عن صلاة مصر وخراجها . وفي ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٨٧ هـ عزل واقم مقامه احمد بن اسماعيل بن صالح . وفي ١٨ شعبان سنة ١٨٩ هـ ابدل بعبد الله بن محمد العباسي الملقب بابن زينة . وفي هذه السنة ابدل عبد الله المذكور بجسين بن جميل التختاخ وفي ايامه امتنع اهل الحوف من الخراج فبعث اليه الخليفة هارون الرشيد يحيى بن معاذ في امرهم . فنزل بلميس في شوال سنة ١٩١ هـ وصرف الحسين بن جميل عن اماره مصر في شهر ربيع الاخر سنة ١٩٣ هـ وولى مالك بن دهم وفرغ يحيى بن معاذ من امر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الثانية فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه فكتب الى اهل الحوف ان اقدموا حتى اوصي بكم مالك بن دهم وادخل بينكم وبينه في امر خراجكم . فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد اعد لهم القيود فامر بالابواب فأخذت ثم دعا بالحديد

فقيدهم وتوجه بهم في منتصف رجب. وفي السنة التالية عهدت الى الحسين قيادة الجيش والخراج فضلاً عن الامارة. وفي ١٢ ربيع آخرة سنة ١٩٢ هـ ابدل بمالك بن دهم وكان على الخراج الخصب بن عبد الحميد واليه تنسب مدينة منية خصيب واخيراً في ٤ صفر سنة ١٩٣ هـ عادت اماره مصر الى الحسن بن جميل الى ان توفي الخليفة هارون الرشيد في ٣ جمادى الآخرة من تلك السنة في طوس وسنه ٤٧ سنة ومدة حكمه ٢٣ سنة وشهر ١٩ يوماً. ولا حاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركه في سائر اطوارها فقد كان حازماً عادلاً تقياً باسلاً ودعياً محباً للعلم والفضل واهلها ولذينا من الاحاديث عن كرم اخلاقه ما يتحدث به العامة والخاصة فكتفى بانه جعل الخلافة علماً هو مساهداً فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في ايام الخليفة نفهم انه حصل في خلافة هارون الرشيد ومما يحكى عنه انه كان بينه وبين شلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء

وانه اهدى اليه اشياء كثيرة من اعمال الشرق منها الساعة الشهيرة المكتوب عليها بالحروف الكوفية. وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١ هـ (انظر ش ٣٤)



ش ٣٤ — نقود هارون الرشيد

خلافة محمد الامين

من سنة ١٩٣ — ١٩٨ هـ او من ٨٠٩ — ٨١٣ م

وفي يوم وفاة الرشيد خلفه ابنه محمد الامين اما المأمون فكان ابوه قبل وفاته قد وهبه جميع حله واسلحته الخصوصية وولاه خراسان بما فيها من العدة والرجال وان يكون عليها حاكماً مستقلاً عن اخيه الامين. فالامين عند استلامه زمام الخلافة انكر على اخيه وصية ابيهما ولم يسلمه شيئاً مما له الحق به ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع. فتنافر الاخوان والامين اشدهما ضعينة فارسل الى الكعبة فأتى بالكتابين الذين جعلهما الرشيد هناك بيعة الامين والمأمون فاحرقهما الفضل وجعل

ولاية العهد لموسى بن الأمين فلم يبق بعد ذلك باب للمصالحة بين الاخوين . وكان الأمين محباً للهو ومعاقرة الحمرة . اما المأمون فكان متيقظاً تحين اللصوص فدعا الى مبايعته بخراسان فاتفق حوله حزب كبير يدعون الى نصرته ارضاً فيه من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المأمون يجمع قواته ويستنصر دعائه واتخذ معه هرثمة بن اعين الذي كان اميراً على مصر قبل ذلك الحين فعظم الامر على الأمين فولى حاتم بن هرثمة على مصر سنة ١٩٤ هـ استعظافاً لابيه هرثمة ولكن ذلك لم يجده نفعاً لان هرثمة لم يتحول عن ولاء المأمون

وفي سنة ١٥٩ هـ انفذ الأمين جيشاً فيه اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة اخيه فلاقاهم طاهر بن الحسين قائد جند المأمون وارجعهم على اعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عموماً فبايعه اهل خراسان وتابعهم كثيرون . فلما رأى الأمين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثمة على مصر لم تجده نفعاً عزله وولى جابر ابن الاشعث في السنة عينها . وابتنى حاتم بن هرثمة في سفح جبل المقطم حيث القلعة الآن قبة عظيمة دعاها قبة الهواء بقيت الى انقراض دوله بني طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازور الأمين وطمع بالفوز على اخيه فجند جنداً آخر مؤلفاً من ٤٠ الفاً لمحاربتة وجنداً آخر انفذه من جهة اخرى تحت قيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الذي كان ابوه اميراً على مصر في عهد ابي العباس . اما طاهر بن الحسين فسار الى اقامتهم ولم يبال بتلك الجيوش لكنه لم يلتق بهم فتقدم الى الاهواز

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الأمين والمأمون قام السري بن الحكم غضباً للمأمون ودعا الناس الى خلع الأمين فاجابوه وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ . وقام في بغداد الحسين بن علي احد سراتها ودعا الناس الى خلع الأمين وتولية المأمون فاجابوه وبايعوا في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الأمين ووالدته زبيدة وادعتهما السجن موثقين . ثم تمكن الأمين ببعض الوسائط من تسليق كرسي الخلافة ثانية فبايعه من في بغداد فقط . اما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها . وعقد على مصر حاتم بن هرثمة بن اعين وارسل اليها عباد بن محمد نائباً عنه مؤقتاً

وفي سنة ١٩٧ هـ حمل طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين على بغداد وحاصراها نجواً من سنة فضجر الاهالي وملوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينظرون لها

نهاية فلم يروا لها حلاً الا يخلع الامين ثلثه المرة الثانية ففرّ وبعد قليل قبض عاينه وقتل وجيء برأسه واختم والقضيب والبردة الى المأمون ولم يكن عمر الامين عند موته الا ٢٩ سنة و٣ اشهر وبضعة ايام ومدة حكمة اربع سنين وثمانية اشهر وثمانية عشر يوماً وكفّت بموته الحروب وحقنت الدماء

خليفة عبد الله المأمون

من ١٩٨ - ٢١٨ هـ او من ٨١٣ - ٨٣٣ م

فبويج المأمون مبايعة قطعية في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ هـ يوم قتل اخيه الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينه نائباً في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبد الله الخزاعي . وبعد اشهر قليلة أبدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولى على مصر ثلاث مرات في ايام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ هـ تخلى العباس بن موسى عن امارة مصر فارسل المأمون عوضاً عنه المطلب بن عبد الله سلفه وبعد قليل أبدل بالسري بن الحكم . واخذت من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية الا ان الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم نبأ جديد

فان العلويين سلالة الامام علي بن ابي طالب لم يكفوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى . فاما علم المأمون بذلك وكان لا يزال في خراسان استشار وزيره الفضل بن سهل في الامر فنصح له ان يوصي بالخلافة بعد وفاته اعلي المذكور لان الفضل كان شيعياً . الا ان تلك السياسة لم تقدر الا زيادة الخرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من ايديهم الى العلويين فثاروا في بغداد سنة ٢٠٢ هـ ثورة شفت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي . اما سطوته فلم تتجاوز سور بغداد لانه لم يكن اهلاً للاحكام فخارت قواه دون ذلك فبعجز الذين اقاموه عن استبقائه اكثر من سنة وبضعة اشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ هـ وفرّ هارباً فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد اسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب الشافعي

وكانت وفاته في الفسطاط ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة . وتوفي ايضاً السري ابن الحكم امير مصر واقيم مقامه محمد بن السري بمبايعة الجند له بقطع النظر عن اوامر الخليفة بهذا الشأن . وفي سنة ٢٠٧ هـ توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد اقامه المأمون هناك حاكماً فقدم ابنه عبد الله ابن طاهر الى مصر واقام في بليس

ونظراً لما بين مصر ودار الخلافة من بعد المسافة اصبح الناس لا يعاؤون بالواامر التي كانت تأتيم منها . وزد على ذلك ان الدولة اصبحت في ضعف شديد لما كان يهددها من تمرد عمالها واحتقار رعيتها لها ولا سيما المصريين فانهم كانوا لا ينفكون عن خرق حرمتها ومخالفة اوامرها حتى عقدوا لعبد الله بن السري عليهم بمبايعة الجند كما تقدم وما زالوا على ذلك نحواً من خمس سنوات . وفي سنة ٢١١ هـ محسن عبد الله بن طاهر في بليس فالتفت عليه عصابة من اهلها وباعوه فاستفحل امره فسار الى الفسطاط في ربيع الاول من تلك السنة وانزل عبد الله بن السري وجعل على الفسطاط عباد بن ابراهيم . وفي سنة ٢١٢ هـ ابدل عباد بعيسى بن يزيد الجلودي

وفي سنة ٢١٣ هـ انفذ المأمون الى عبد الله بن طاهر ان يقف عند حده وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاختيه المعتصم واعطاه خمسمائة الف دينار وامر بمثل هذا المبلغ هبة لعبد الله بن طاهر للتعيش . ويقال انه امر بمثل ذلك ايضاً لابنسه العباس . فيكون جملة ما اخرج من خزينته في يوم واحد مليوناً وخمسمائة الف دينار وهذا منتهى السخاء

واستخلف المعتصم عمير بن الوليد التميمي على الصلاة في ١٧ صفر نخرج ومعه عيسى الجلودي لقتال اهل الحوف وكانت بينهم معارك عظيمة قتل فيها عمير فاستخلف مكانه عيسى الجلودي فحارب اهل الحوف بنية مطر ثم انهزم في رجب واقبل المعتصم الى مصر في اربعة الاف من اتراكه فقاتل اهل الحوف في شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط في ٢٢ منه وقتل اكابر الحوف ثم خرج الى الشام في اول محرم سنة ٢١٥ هـ في اتراكه ومعه جمع من الاسارى في حر وجهه شديد . وولى على مصر عبدويه بن جبلة على الصلات نخرج اهل الحوف في شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم . ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الى مصر في ٣ ذي الحجة ومعه علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ما له فلم يدفع اليه شيئاً فقتله وصرف عبدويه . وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولي من قبل المعتصم اول سنة ٢١٦ هـ على الصلاة فانتقضت

مصر السفلى عربها وقبظها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخالعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الآخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم وانرا منهم وقتلا . ثم رجع عيسى فسار الافشين الى الخوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم الخليفة عبد الله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى وحل نواءه واخذهُ بلباس البياض عقوبة له وقال له « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكنتمم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد » ثم ولى كيدر الصندي بالنيابة عن المعنصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انه كان عائداً من محاربة الروم فرأى ان مصر بحاجة لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغه من تمرد اهلها ونقض عمالها فدخلها وجعل يمر بقراياها يتفقد احوالها . ويقال انه كان يبني له في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ هـ وما زال يتحرى أصول الفساد ويقنعها الى ان برح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتر المأمون في اثناء تجواله بمصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخلتها وتأيد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناه اسامة في الروضة وبناء جامع فيه ومقياس آخر في بنينودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان برح المأمون مصر بلغه ان الدواوين في مضر سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الثمانيات وانتزاعها من كابد المشقة والتعب في اصلاحها واسماها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب . فلما علم بذلك انكره ومنع ارتكابه واصدر اوامره الصارمة باعفاء الكافة اجمعين والضمضاء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرى على الناس ينبههم فيه الى ما جاء في الكتاب العزيز « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود »

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البندنون في سلسيا ودفن في طرسوس وعمره ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة اشهر و١٣ يوماً

أما آثار المأمون فاجل آثار الخلفاء لانها تدل على ما بلغه العلم وما بلغت اليه الصناعة من السعة والاتقان . وقد كان اشدة تعلقه بالعلم والصناعة يتعاطاها بنفسه ويأخذ بناصرتها

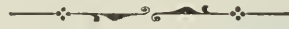
وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمها ولولاه لفات العرب كثير من المؤلفات التي كتبت بالفارسية او السريانية او اليونانية او الهندية او اللاتينية فهو الذي سعى في نقل اكثرها الى اللغة العربية ونشط رعيته لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضله من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي اوروبا عموماً مدينون له لانه حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لازالها يد الزمان كما ازلت غيرها مما نسمع به ولا نراه . وكان كلفاً بجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسه منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبه وملكه لكنه استدعى اليه جماعة من علماء انصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقرّبهم منه ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء . وكان اذا صرفهم انا يصرّفهم متأسفاً على مفارقتهم وهم اشد اسفاً منه على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالسته لما كانوا يشتمعون به من لطفه ودعته

وقد نبغ في ايامه علماء كثيرون من المسلمين وغيرهم بعلوم كثيرة كالفلك والهندسة والفلسفة العقلية وغيرها . منهم احمد بن كثير الملقب بالفرغاني وعبد الله بن سهل ومحمد بن موسى وما شاء الله اليهودي ويحيى بن ابي المنصور وقد اقام بواسطتهم الارصاد الكثيرة . وكان عالماً بالفلك فكان يعاونهم بالرصد احياناً في مرصد الشمسية قرب بغداد وحياناً في المرصد على جبل قيسون قرب دمشق . ومن الاطباء الذين كانوا يجالسونه سهل بن سبور وجبرائيل الذي بحث في الرمد على الخصوص ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان لانه ترجم الكتب الطبية من اليونانية الى العربية^(١)

ففي خلافة المأمون وأبيه بلغت دولة العباسيين مجداً عظيماً واتسع نطاق مملكاتهم فبلغت حدود الصين شرقاً فاستولوا على الهند ومنها شمالاً الى السواحل المتجمدة من البحر الشمالي الى اقصى عشائر الاتراك وساروا في بلاد اليونان الى البوسفور ومن الجنوب الى جبال الحيش العليا الوعرة المسلك الى القبائل البربرية في داخلية افريقيا ومن الغرب الى الجزائر فطرابلس الغرب ومنها شمالاً في اوروبا الى ما وراء الاندلس في ارض فرنسا . فكانت حدود تلك المملكة تلاطمها امواج الاوقيانوس الاندلسي العربي جنوباً وبكاد يمسيها الاوقيانوس المتجمد شمالاً . الا انها قبل وفاة المأمون اخذت بالانقسام على نفسها فانحطت شوكتها وابتداءً ذلك في غربيها فانصلت عنها الاندلس واستقلت بنفسها من زمن المنصور وتولتها دولة اموية جديدة . وتمرد طاهر بن الحسين في خراسان (قبل وفاته) فشق عصاً الطاعة واستقل بالحكم بنفسه وجعله ارثاً لنسله

(١) راجع الجزء الثالث من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي

من بعده بالاستقلال التام عن بغداد وتعرف دولتهم هذه بالدولة الطاهرة ومثل ذلك فعلت اكثر الامارات اقتداءً بن سار امامها فطابت كل منها استقلالها . اما مصر فقد كانت مقطعة للمعتصم وظلت تابعة لخلافة بغداد . وهي لم تبق الا لطمع المعتصم بالخلافة بعد المأمون



خلافة محمد المعتصم

من ٢١٨ - ٢٢٧ هـ او من ٧٢٣ - ٨٤٢ م

فلما توفي الخليفة المأمون خلفه اخوه محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو اول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبه فلقب نفسه المعتصم بالله وكان قد اقر اماره مصر لكيدر الذي كان نائباً عنه فيها ثم كتب اليه بامرہ باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ هـ توفي كيدر وتولى مكانه المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ هـ توفي المظفر وتولى مكانه موسى بن ابي العباس الملقب بالشيباني وبلقبه آخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ هـ استدعي موسى من مصر فاستخلف مالكاً الذي يلقبه بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالكندي وهو ابن كيدر المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٣٥ هـ عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى ابي جعفر اشناس وهو آخر من ولي مصر بامر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ هـ اصيب الخليفة المعتصم بحمى في سامراً وفي ١٨ ربيع اول من تلك السنة توفي . ومن الغريب ما لهذه الخليفة من الحظ في الرقم (٨) فان بينه وبين ابي العباس اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة سنة ٢١٨ وسنه ٣٨ سنة وثمانية اشهر ومدة حكمه ٨ سنين و٨ اشهر و٨ ايام وتوفي في ١٨ ربيع في السنة الثالثة والاربعين من عمره وترك ثمانية اولاد ذكور وثمانى اناث وحضر ثمانى مواقع حربية واخيراً وجد في خزينته عند موته ثمانية ملايين من الدنانير وثمانون الف درهم وقد قيل انه بناءً على هذا الاتفاق الغريب دعي « بالثمن »

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تقهقر دولة العرب ولعله كان السبب في ذلك التقهقر لانه كان ضعيف السياسة بعيداً من الفضائل والاداب امياً لا يعرف الكتابة لكنه كان قوي البدن يحمل ما وزنه الف رطل (ايزرا) ويمشي به خطوات وكان مع ذلك شجاعاً ومحباً على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيل الجياد والعساكر المنظمة وهو اول من جند الاتراك واستعان بهم في الحرب

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المعتمد سنة ٢١٩ للهجرة او ٨٣٤ للميلاد (انظر شكل ٣٦)



ش ٣٦ - نقود المعتمد بالله

مبدأ الدولة الطولونية

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية وبعضهم تنزرية وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بقعة من الارض في اسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين ويحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد . ونظراً لما بينها وبين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والادوية والانهار مما لا يسهل تخطيه كانت في مأمّن من غزوات العرب وفتوحهم وفي غنى عن معاهداتهم او غير ذلك مما يستدعي ارتباطها الواحدة بالآخرى . الا ان الشعوب التركية اخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلادها والعرب ايضاً كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتحون فيها حتى بلغوا حدود تركستان وما وراءها فافضى الامر الى تراحم هاتين الامتين فننازعتا فقامت الحرب بينهما سجلاً مدة طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئثار بينهما متبادلاً فكان العرب يرسلون باسراهم من الترك الى بلاط الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء وبدوونهم بالماليك

والماليك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالباً بالقوة البدنية والعقلية وكانوا يتقربون من اسبادهم شيئاً فشيئاً حتى استخدموهم في بلاطهم وقد كان الماليك في بادئ امرهم في ظلمات من الجهل والهمجية وعلى ابعاد من

الفضيلة وشعائر الدين لا يعرفون القراءة لكنهم بمخاطبتهم الامراء ورجال الدولة اصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئاً فشيئاً في شؤون الدولة فبرعوا في السياسة وتدير الاحكام وادارة الاعمال فعظموا في عين الخلفاء فلما كثر تمرد ولاية الامصار صار الخلفاء يعهدون اليهم ولاية الامصار فكثير انصارهم فاقاموا لهم احزاباً من ابناء البلاد يتجدونهم عند الحاجة . ولم يكن ذلك كل ما فعله الخلفاء لكنهم كانوا يبذلون المبالغ الوافرة في اتياعهم ينتقون منهم الممتازين جمالاً وقوة وذكاء ليدخلوهم في خدمتهم الخاصة . ومن ذلك ما فعله الخليفة المعتصم اذ رغب في تعزيز حاشيته فابتاع من اولئك المماليك الوفراً فوق ما كان عنده منهم وامر بتدريبهم على استعمال السلاح والحاقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصلح لبطانته فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيشون فيمن حولهم فكثرت التشكيكات في حقهم وكثر الهرج في بغداد حتى اضطر المعتصم الى بناء مدينة سامراً لاقامته معهم

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال له « طولون » من قبيلة الطغرغراحدى الاربعة والعشرين قبلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلته مقيمة في جوار بحيرة لوب في بخارا الصغرى فأسر في احدى المواقع الحربية وجيء به الى ابن اسد الصاهي وكان من عمال المأمون يدفع له جزية سنوية من المماليك والخيول التركية واشياء اخرى ففي سنة ٢٠٠ هـ كان طولون في جملة من ارسلهم ابن اسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فاعجب المأمون به فالحقه بحاشيته وما زال يراقبه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بامير الستر . وهذا المنصب لم يكن يناله الا من كان للخليفة ثقة خصوصية بامانته واخلاصه ليكون محافظاً على حياته الشخصية . وبعد ان صرف طولون نحواً من ٢٠ سنة في هذا المنصب في ايام المأمون والمعتصم اصبح ذا عائلة واولاد منهم احمد الذي لقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية . ولد في بغداد وقال آخرون في سامرا سنة ٢٢٠ هـ من والده تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراري . وقال آخرون انه ابن المهلبى خادم طولون وان طولون رباه صغيراً والله اعلم



خلافة الواثق بن المعتصم

من سنة ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ او من ٨٤٢ — ٨٤٧ م

وقبل ان يتعرع احمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنه هارون ابو جعفر فلقبوه بالواثق بالله وفي السنة الاولى من خلافته عزل القسم الاعظم من ولاة الامصار واحباب المناصب الذين كان قد ولاهم ابوه وكان في نيته اقالة اشناس من امارة مصر لكنه لم يكده يفعل حتى توفي اشناس في الفسطاط سنة ٢٢٨ هـ فأقام مقاهه علي بن يحيى الاردني وبعد نحو سنة ابدل بعيسى بن منصور المرة الثانية . وفي سنة ٢٣١ هـ توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذي الحجة وسنه ٣٤ سنة وهدة حكمه ٥ سنوات و٩ اشهر و١٣ يوماً

خلافة المتوكل بن المعتصم

من ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ او من ٨٤٧ — ٨٦١ م

وعند وفاة الخليفة توطأ وزيراه احمد بن ابي داود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على ان يبايعوا محمد بن الواثق وياقبوه بالمهتدي بالله الا انهم رأوا سنه لا يجيز له تعاطي الاحكام فعدلوا عنه الى جعفر بن المعتصم فبايعوه ولقبوه بالمتوكل على الله . وقد كان الواثق والمتوكل اخوين من اب واحد والدين والدة الاول جارية يونانية تدعى قراطيس ووالدة الثاني جارية تركية تدعى سرجه

وفي سنة ٢٣٢ هـ عقد المتوكل على مصر لهرثمة بن نصر الجبلي وفي السنة التالية ابدله بابنه المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٣٤ هـ تولاه حاتم بن هرثمة . وفي ايامه ثارت البجة في النوبة بعد ان كانوا عاهدوا المأمون على الصالح فانفذ المتوكل لحرهم محمد ابن عبد الله فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة على المراكب في النيل فاجتمع البجة في عدد عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فبعث اليهم محمد بن عبد الله كتاباً لفه بثوب فاجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفي اعناق الخيل الاجراس فانزعت جمال البجة ولم تثبت امام صلصلة الاجراس فركب المسلمون افضيتهم وانخروا فيهم وقتلوا كبيرهم فقام من بعده ابن اخيه وبعث يطلب الهدنة

فصالحوه على ان يطاء بساط امير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل وصوح على اداء الادوات والبقط واشترط عليه ان لا يمنع المسلمين من العمل بالمعدن وفي تلك السنة ابدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحيى الارمني (ثانية) وفي سنة ٢٣٥ ابدل هذا باسحق بن يحيى الجلي وفي هذه السنة اوصى المتوكل بالخلافة بعده لابنه المنتصر وبعده لابنه الثاني المعز بالله وبعده هذا لابنه الثالث المؤيد بالله وجعل مملكته حصصاً فولى المنتصر افرقية وكل المغرب من العريش الى آخر حدود المغرب بما فيه مصر واطاف الى ذلك قاسم بن سوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل البقاع التي يرويها دجلة وهكّة والمدينة واليمن وحضرموت والبحرين والسند وسامرا والسكوفة وكل توابعها. وولى المعز خراسان وطبرستان وفارس وارمينيا واذربايجان وولى المؤيد دمشق وحمص والاردن وفلسطين. أما المنتصر فلم يقنع بما قسم له وطمع بتوليته الخلافة قبل وفاة ابيه فاخذ يسعى في خلعه

وفي سنة ٢٣٦ هـ اقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحيى وفي سنة ٢٣٨ هـ ابدل بعنبة بن اسحق وفي سنة ٢٣٩ هـ أمر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون أخرى في دمياط وتيس وتولى بناءها عنبة وانفق عليها اموالاً طائلة وقاية من غزوات الروم اكنهم لم يكادوا يتحصنون حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال واهل الذمة فلما علم بذلك عنبة ركب اليهم يوم النحر في جيشه ونفر كثير من الناس فاخبروه ان الروم قد ساروا الى تيس وتحصنوا في اشمووم فلم يتبعهم عنبة فكتب يحيى بن الفضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الايات

أترضى بان يوطأ حريمك عنوة وان يستباح المسلمون ويحربوا
 حمار اتى دمياط والروم وثب بتانيس راي العين منه وأقرب
 مقبوم بالاشمووم يبغون مثاما اصابوه من دمياط والحرب ترتب
 فارام من دمياط شبراً ولادري من العجز ما يأتي وما يتجنب
 فلا تنسنا انا بدار مضيعه بمصر وان الدين قد كاد يذهب

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ هـ سار المنتصر الى ابيه في سامرا واخذ يسعى بالدسائس والتواطؤ مع المفسدين على ابيه واستخلف على مصر يزيد بن عبد الله. وفي سنة ٢٤٥ هـ خرج يزيد بن عبد الله الى دمياط مرابطاً ثم رحل فبلغه نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم. وفي سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد

سقط بزلزلة فاعاد بناءه فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد أو الكبير وهو المقياس الباقي هناك الى هذه الغاية . وجرت على العلويين في ايام يزيد شدة . هذا ما كان من امر يزيد

اما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ هـ انتقل الى دمشق على نية ان يتخذها مستقراً الى حين فتبعه المنتصر وما زال ساعياً بالمفاسد توصلاً الى بغيته حتى سنة ٢٤٤ هـ اذ قارب الفوز بغرضه الوخيم فنارت عصبه من الاثر الكائن للمجندين في دمشق على الخليفة بدعوى تأخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وبرز دمشق عائداً الى سامرا . وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنه فأمر به اليه فوجهه على مسمع من الناس . وفي يوم الاربعاء الرابع من شوال من السنة المذكورة ذبح المتوكل على فراشه في منتصف الليل بيد احد ضباط الحرس التركي المدعو بغا الصغير بدسيسة المنتصر وكان سن المتوكل عند موته



٤١ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة و ١٠ اشهر و ٣ ايام . وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (انظر شكل ٣٧)

ش ٣٧ — نقود المتوكل على الله

خلافة المنتصر بن المتوكل

من سنة ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ او من ٨٦١ — ٨٦٢ م

فاستوى المنتصر على منصة الخلافة قبل ان تفارق اياه رجفة الموت فلما استتب له الملك حدثته نفسه ان يحرم اخويه مما اوصى به ابوه لهما على ما امر بك . فحملها سنة ٢٤٨ هـ على ان يوقعا على صك بجرمانهما من الخلافة وما اوصى لهما به ابوهما من المدن . وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤه بقتل المتوكل مخافة ان يلقوا جزاء ما فعلته ايديهم اذا وصلت الخلافة الى احد الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن اقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانه اصاب بعد توليته بايام بداء اعيا الاطباء وما زال حتى ذهب بجيانه وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

خلافة المستعين بن محمد

من سنة ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ أو من ٨٦٢ — ٨٦٦ م

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فبين يجب ان يكون الخليفة عليهم فاجعوا على حرمان ابناء المتوكل ووقع اختيارهم على أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه يوم وفاة المنتصر ولقبوه بالمستعين بالله . ولم يكدهم ذلك حتى قامت عصبته يريدون استخلاف المعتز بالله الا انهم كانوا نفرأ سيرا ففترقوا ولم تكن النتيجة الا القبض على ولدي المتوكل وسجنهما

أحمد بن طولون

ومن ذلك الحين اخذ نجم أحمد بن طولون بالظهور في افق الاعمال السياسية فتوفي والده سنة ٢٣٩ هـ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك في أيام الخليفة المتوكل في الثماني السنوات الاولى فراى في احمد اللياقة ليخاف اياه على امارة الستر . وكان احمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان تقياً رضي الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدم وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرماً بمطالعة الحديث فاكتسب شهرة بالتقوى والعدالة فاحبه جميع الضباط الاتراك الذين كانوا في بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم برقوق فازوج احمد ابنته فحماه منها غلام دعاه عباساً

ومن الغريب أن أحمد بن طولون شب بين الدسائس والمفاسد ولم يصب اليها ولم تحده نفسه يوماً باتباعها بل كان يمجها وينفر منها . أما آدابه ومعارفه فكانت تتسع يوماً بالاختبار والمراقبة فقد كان على كثرة شواغله لا يترك فرصة تفوته في توسيع دائرة علمه فكان يسير من وقت الى آخر الى ترسوس في آسيا الصغرى للتعلم في مدارسها وكان لشدة كلفه بالعلم كلفاً بالعلماء . فالتمس من عبید الله بن يحيى رئيس وزراء الخليفة اذنًا بالتوجه الى ترسوس للازمنة دروسه فاذن له مع استبقاء مركزه واقببه ومرتبته كالعادة فسار اليها ثم دعت والدته ان يأتي اليها فحماه سامرا في خلافة المستعين بالله غير عالم بشيء مما حصل في غيابه من قتل المتوكل وتولية المنتصر

ويبنا كان عائداً من ترسوس هذه المرة وسنه ١٩ سنة هجم بعض اهل البادية على الركب الذي كان هو برفقته يريدون سابه وفيه مايساوي مبالغ وافرة كلها محمولة الى الخليفة المستعين بالله فخافت حامية الركب وكاد اللصوص يظفرون فدفعهم أحمد بعزم شديد واعادهم على اعقابهم القهقري . فلما بلغ الركب سامرا اخبروا الخليفة

بما كان من بسالة ابن طولون فنفضه بجائزة الف دينار وأنزله منزلة الامراء ووجهه احدى جواريه واسمها مية وهي التي ولدت له ابنه الثاني « خمارويه » سنة ٢٥٠ هـ وهي اول سني ظهور نجمه
وفي اثناء ذلك ثارت عصبية كبيرة تريد خلع المستعين وذلك ان المماليك الاتراك الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ماتقدم كانوا يزدادون عدداً وقوة منذ أيام المعتصم لتقايهم في المناصب العالية فامسوا وفي ايديهم ازدة الدولة يديرونها كيف شاؤوا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقتنعون بعزل وتولية الامراء والوزراء وقتل من شاؤوا ممن ليس على غرضهم لكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم الا التداخل في عزل الخلفاء وتولييتهم . فكانوا اذا لم يعجبهم خليفة سعوا في استبداله فيستنجدون احزابهم وينفذون ما يريدون . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس الخاص فاستاء البعض الآخر وجعلوا يسعون في خاذه نخلوه سنة ٢٥٢ هـ بعد ان تولى امره ثلاث سنوات و٨ اشهر

خلافة المعتز بن المتوكل

من سنة ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ او من ٨٦٦ - ٨٦٩ م

وبعد خلع المستعين بايعوا ابن عمه المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله واخو المنتصر وكان محروماً من حقوق الخلافة منذ قتل ابيه وعمره اذ ذلك ١٨ سنة وبضعة اشهر . وكان بعد ان فر من سجن سامرا مع اخيه المؤيد بالله قد اعادهما ابن عمهما المستعين الى القيود . فالاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل في قتل المتوكل فخلوا قيود المعتز وبايعوه يوم الجمعة في ١٤ محرم سنة ٢٥٢ هـ وجاؤا الى المستعين واجبروه على ان يتنازل ففعل فنقلوه الى قاعة وجعلوا عليه حراساً ثم ارسلوه الى واسط في سرب تحت قيادة احمد بن طولون فقتل في الطريق . ويقال ان الحاجب سعيداً هو الذي قتله بناءً على اوامر سرية من المعتز بالله . وقال البعض ان احمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيده . غير ان الجمهور اجمع على تبرئته من هذه الهمة الفظيعة

والاظهر ان الاحزاب التي دعت الى خلع المستعين واجباره على الاستقالة امروا بايعاده الى واسط ولم يريدوا ان يصحبه الا من لا يرتاب احد في امانته له واخلاصه

فلم يجدوا نسب من ابن طولون وكان الى ذلك العهد مكتسباً ثقة الطرفين فعهدوا اليه تلك المهمة فقام بها حق القيام . ثم ان الاحزاب في سامرا مع فوزهم بجلع المستعين وتولية المعتز اوجسوا شراً من بقاء الاول في قيد الحياة فوعزوا الى الثاني ان خلافته لا ترسخ الا بقتل المستعين . فكتبت فتيحة ام المعتز الى احمد بن طولون وهو في طريقه الى واسط تحثه على قتل المستعين وتعهده بولاية واسط مكافأة له فرفض ذلك احمد بنفس ابية فارس فتسلى حاجباً يدعى سعيداً وبيده اوامر الى احمد بن طولون مؤذنة بتسليم المستعين الى سعيد وعود احمد الى سامرة فاذعن احمد الى الاوامر فسلم المستعين الى سعيد . فسار به في الصحراء تبعاً للاوامر السرية التي كانت معه وذبحه في فسطاطه وعاد برأسه الى المعتز ورعى به الارض بين اقدامه

اما احمد بن طولون فدخل الى خيمة المستعين بعد ذهاب سعيد فرأى الجثة بلا رأس فعلم الدسيسة وتكدر من هذا الفعل الوحشي الذي قضى بقتل البريء . ثم همّ الى الجثة فغسلها وكفنها ونقلها الى سامرا حيث صلي عليها ودفنت . وقد قال احمد بن طولون عند استيلائه على مصر وسوريا ما مفاده « وُعدت بولاية واسط على ان اقتل المستعين فايبت محافظة على القسم الذي قسمته ومازلت في تقوى الله وقد كافأني من فضله بولاية مصر وسوريا ولا يفاح الظالمون »

وكانت مصر في اثناء جميع هذه الحوادث يتناهبها ما ينتاب غيرها من الامارات الاسلامية . فان يزيد بن عبد الله الذي كان استخلفه المنتصر على مصر اصبح عليها اميراً عند ما صار المنتصر خليفة . وبقي يزيد قائماً باعباء مصلحته طول مدة خلافة المستعين بالله . أما المعتز بالله فبعد ما جلس على دست الخلافة عزله في ٣ ربيع اول سنة ٢٥٣ هـ وولى مزاحم بن خاقان من اعيان الاتراك الذين ساعدوه في حصوله على الخلافة . ومن اعماله انه اكثر من الايقاع بسكان النواحي وولى الشرطة ارجوز فنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤمنين والنوائح . وفي رجب منها منع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع . ولم يزل اهل مصر على الجهر بها في الجامع منذ الاسلام الى ان منع منها ارجوز . واخذ اهل الجامع تمام الصفوف ووكل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد وامر اهل الحلق بالتحول عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي يستند اليها ومن الحصر التي كانت للمجالس في الجامع وامر ان تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح ولم يزل اهل مصر يصلونها ستاً الى رمضان سنة ٢٥٣ هـ ومنع من الثيوب وامر بالاذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد وان

يُغلس بصلاة الصبح ونهى ان يشق ثوب على ميت أو يسود وجهه أو يخلق شعر أو
 يُصيح امرأة وعاقب في ذلك وشدد فيه . وفي ٥ محرم سنة ٢٥٤ هـ توفي مزاحم فتولى
 ابنه احمد بن مزاحم . وفي تلك السنة استقال هذا فعين المعتز مكانه باكبك احد كبار
 الأتراك . وكان هولاء يتولون الامارات اسماً بلا رسم لانهم لم يكونوا يبرحون مجلس
 الخليفة . أما الاحكام في الامارات فكانت موكولة الى نواب يعهدون اليهم امرها .
 وكان عدد مثل هؤلاء النواب في مصر يكثر احياناً فقد يكون منها نائب في القسطنط
 وآخر في الاسكندرية وآخر في الصعيد الخ . وكان يستبد احدهم بالاعمال العسكرية
 والآخر بالاعمال الادارية والآخر بالقضاء وهكذا . ونظراً لما كان لاحد بن طولون
 من السمعة الحسنة انتخبه باكبك المتقدم ذكره وجعله قائداً للقوة العسكرية في
 القسطنط . أما الادارة المالية او الخراج فعهد بها الى احمد بن المدبر ودعا
 مفتش الخراج

ابن المدبر

وابن المدبر هذا لم يكن من التدبير على شيء بل كان عاتياً غشوماً فزاد الضرائب
 وشدد الوطأة خصوصاً على المسيحيين . وكان من دهاة الناس وشياطين الكتاب فابتدع
 في مصر بدءاً صارت مستمرة من بعده لانتقض فاحاط بالنظرون وحجر عليه بعد
 ما كان مباحاً لجميع الناس وقرر على الكلاء الذي ترعاه البهائم ملاً سماه المراعي وقرر
 على ما يطعمه الله من البحر ملاً سماه المصائد فانقسم مال مصر الى خراجي وهلاللي .
 أما الخراجي فهو ما يؤخذ مسانهة من الاراضي التي تزرع حبوباً ونخلاً وعبناً وفاكهة
 وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيره من طرف الريف . وأما
 الهلاللي فعلى نوعين سماهما بالرافقي والمعاون . وهو ما يؤخذ من الضرائب على مثل
 ما ابتدعه ابن المدبر كما تقدم . فكره الاهلون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى الكيد به
 وقد كان عالماً بذلك فجعل في حاشيته الخاصة نحواً من مائة غلام هندي ممتازين بالقوة
 والشجاعة كانوا يرافقونه الى حيث توجه

فلما قدم احمد بن طولون الى القسطنط ليستلم زمام القوة العسكرية فيها قدم احمد
 ابن المدبر بحاشيته للقائه واهدى اليه هدايا قيمتها عشرة الاف دينار وقدم معه شقير
 الخادم غلام فتبيحة ام المعتز وهويتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدي ابن المدبر مائة
 غلام قد تقدمت الاشارة اليهم وكان لهم خلق حسن وطول اجسام وبأس شديد عليهم
 اقبية ومناطق ثقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من
 فضة وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس . فاذا ركب ركبوا بين يديه

فيصير له بهم هيبة عظيمة في صدور الناس . فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردها عليه فقال ابن المدبر ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الاطراف نخافه وكره مقامه بمصر معه وسار الى شقير الخادم صاحب البريد وانفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير ايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول « قد كنت اعزك الله اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز ان يغتنم مالك كثرة الله فردناها توفيراً عليك ونحب ان نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم احوج منك » فقال ابن المدبر لا بلغته الرسالة « هذه اخرى اعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاعراض والاموال ويستهدي الرجال وينابر عليهم » ولم يجد بدءاً من ان يبعثهم اليه فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون فكتب ابن المدبر فيه الى الخليفة يغري به وبحرض على عزله فبلغ ذلك ابن طولون فكتب ما في نفسه ولم يبد

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاتراك في بغداد بمساعدة الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاعوز الى المعز وعمره اذذاك ٢٤ سنة ان يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الا ٤ سنوات و٦ اشهر فتنازل في ذلك اليوم فادعوه السجن وقطعوا عنه الغذاء فمات جوعاً بعد سنة ايام فاقاموا عوضاً عنه ابن عمه المهدي بالله بن الواثق وعمره ٣٧ سنة

خليفة المهدي بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل

من ٢٥٥ - ٢٥٧ هـ او من ٨٦٩ - ٨٧٠ م

وفي ايام المهدي بن الواثق ظهر لابن طولون عدو آخر في مصر هو ابراهيم الصوفي مأمور اقليم اسنا وكان قد وضع يده على البلاد التي حوله وقتل كل من كان يحاول مقاومته فانفذ اليه ابن طولون فرقة من جيشه فخاربهها وغلبها فرجعت متقهقرة الى قرب اخميم وهناك انتها مجدة احدث معها فتغلبت على جيوش ابن الصوفي ففر المذكور في البرية متنجساً الى الواحات في بطن الصحراء الكبيرة مع من بقي معه من الرجال

وكان احمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما مات وثب ابنه على الاعمال واستبد بها فبعث ابن المدبر بسبعائة وخمسين الف دينار

من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في اصحابه وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انه يريد مصر وفي رجب سنة ٢٥٦ هـ ذبح المهدي في سامرا وبويع المعتمد على الله وسنه ٢٥ سنة وهو ابن المتوكل الثالث فبايعه الجميع الا ابن شيخ فانه لم يدع له ولم يبايعه لاهو ولا اصحابه فبعث اليه بتقليد ارمينيا فوق ما معه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عملها فدعا حينئذ للمعتمد وبايعه ثم كتب الخليفة سرّاً الى ابن طولون ان يتأهب الى حرب ابن شيخ وان يزيد في عدته وكتب لابن المدير ان يطلق له من المال ما يريد فعرض ابن طولون الرجال واثبت من يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان وجهاز كل ما يحتاج اليه وخرج في احتفال عظيم وجيش كبير وبعث الى ابن شيخ يدعوه الى طاعة الخليفة ورد ما اخذ من المال فاجاب بجواب قبيح فسار احمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفاً اخاه موسى بن طولون على مصر ويدنا هو في الطريق ورد اليه كتاب الخليفة يدعوه الى العود فعاد الى الفسطاط ودخلها في شعبان واتى عوضاً عنه لمحاربة ابن شيخ اماجور التركي فلقيه اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه فخارهم اماجور فانهزموا منه وقتل قائدهم واستولى اماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بارمينيا وتقلد اماجور اعمال الشام كلها وهدأت الاحوال

القطائع

اما ابن طولون فلما عاد الى الفسطاط شرع في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان الى ذلك الحين يسكن القصر الذي كان يسكنه اسلافه من ولاة الاحكام ولم يكن هذا القصر داخل سور الفسطاط بل كان في ضاحية العسكر وكان العسكر اشبه بمدينة فيها الاسواق والشوارع والبناياب الجميلة وكان كافياً لسكنى رؤساء الجيوش وولاية الامور اما في ايام ابن طولون فضاقت ذراعاً عن سعة مهاته وعبيده وتحفه فاخذ يسعى في البحث عن محل آخر ينفي بالمقصود مع قرابه من الفسطاط فصعد الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الارض مساحتها نحو ميل مربع لاشيء فيها من العمارة الا بعض المدافن للنصارى واليهود فاخترها للبناء فأمر بجرث المدافن وهدمها واخطت في موضعها بناءً عظيماً دعاه القصر ومحلاً آخر بالقرب منه دعاه الميدان وتقدم الى اصحابه وغلمانه واتباعه ان يختطوا لانفسهم حوله فاخذوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ثم قطعت الى قطائع وسميت كل قطعة باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطعة مفردة يعرف بهم ولغلمان الروم قطعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطعة مفردة تعرف بهم

ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم وبني القواد مواضع متفرقة فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والافران وسميت اسواقها فقيل سوق العيارين وسوق الفامين وهكذا البقالين والشوايين الخ ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع المذكورة مدينة كبيرة اعمر واحسن من الشام . وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من اعلاه من يدخل ومن يخرج

واتسعت احوال ابن طولون وكثرت اصطبالاته وكراعه وعظم صيته فبلغ ذلك اما جاور والي الشام فاخذته غائلة الحسد وخشي من مد ساطة ابن طولون اليه فاخذ يسعى في خلعه فكتب الى الخليفة المعتمد على الله مانصه « ان قوات ومهيات ابن طولون اصبحت اعظم مما كانت لابن شيخ الذي لما ثار في سوريا لم تخضعه الا بعد شق الانفس وهذا ابن طولون قد كثرت حاشيته وقويت سطوته بالرجال والمال وصار يخشى منه والامر لاميير المؤمنين » . وكتب ابن المدبر مفتش الخراج ايضاً مثل ذلك وفي قلبه من احمد ما تعلم من الضغائن وتواطأ على ذلك مع كاتب سره شقير الخادم

فارسل المعتمد الى ابن طولون ان يتخاف عن مصر حالاً الى سامراً ويستخاف مكانه من يشاء فلما بلغ ابن طولون ذلك الامر همّ الى القيام به وهو لا يدري ما وراء الاكمة فجاء من ذويه من اطاعه على معنى هذا الاستدعاء الى سامرا فلما علم بدخيلة الامر جهز احمد الواسطي كاتب سره وصديقه وارسله مكانه الى سامرا بالهدايا الفاخرة الى الوزير فاستجلب خاطره فسعى امام الخليفة فالغى الامر السابق واصدر امراً آخر يزيد مدة ولاية ابن طولون في مصر ويصرح له بنقل عائلته جميعها اليها وقد كانت الى ذلك اليوم في سامرا . فسر ابن طولون بهذا الفوز وفرق في الناس الزكاة

وفي سنة ٢٥٧ هـ حكم على بابك امير مصر الاصيل الذي كان قد عين ابن طولون قائداً للقوة العسكرية بقطع الراس لجناية ارتكبها وعين مكانه برقوق حمو احمد بن طولون وهذا حالما استلم الامر بالامارة عهد الى صهره بالنيابة العامة ليس فقط على الفسطاط بل على سائر القطر المصري فامر عيسى بن دينار متولي الاسكندرية ان يسلم زمامها اليه فتوجه ابن طولون الى الاسكندرية وتسلم ادارتها ثم سامها لعيسى المذكور واقره عليها فاصبحت سياسة مصر جميعها بيد احمد بن طولون . وفي السنة التالية توفي برقوق فولي احمد مكانه والياً عاماً على القطر المصري

الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٧ - ٢٩٢ هـ او من ٨٧٠ - ٩٠٥ م

حكم احمد بن طولون

من سنة ٢٥٧ - ٢٧١ هـ او من ٨٧٠ - ٨٨٤ م

كان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقيق الخادم وكان الوزير قد ارسل اليه جميع الكتب الواردة منها بحقه . وبعد يسير توفي شقيق خوقاً وهم ابن طولون بعزل ابن المدبر لكننه عرف بعد ذلك ان اخاه على خزينة الخليفة فاغضى عنه اما ابن المدبر فكان قدم مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيد فطلب الى اخيه ان ينقله الى وكالة خراج سوريا ففعل وقبل تركه مصر اعاد صلات المودة مع ابن طولون فازوج ابنته لخمارويه بن احمد بن طولون ووهبه معها الاملاك التي كانت له في مصر ثم ارسل المعتمد يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابه لست اطيق ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليه فاصبحت جميع اعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيده فالغى الخراج الهلالي الذي وضعه ابن المدبر وقبل الغائه حسب مقداره فبلغ مائة الف دينار سنوياً فاحب ان يستشير بشأنه فمشاور مع عبد الله بن دسومة امين متولي الخراج وكان عاتياً طماعاً فقال ان امنني الامير تكلمت بما عندي فقال له قد امنك الله عز وجل فقل « ايها الاميران الدنيا والاخرة ضرثان والحازم من لم يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فيتلغ اعماله ويبطل سعيه وافعال الامير ايده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وايس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كئنا نثق بالنصر دائماً طول العمر اما كان شي عندنا آثر من التضييق على انفسنا في العاجل بعارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد امكنه وصار في يده تضييعٌ ولعل الذي حماه من نفسه يكون سعادة ان يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير ايده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالي في السنة بمصر دون غيرها مائة الف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمنتقلين في هذه السنة لانها سنة ظمناً توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفراً عظيماً فيضاف الى مال الهلالي فيضبط

نه الامير ايده الله امر دنياه وهذه طريقة امور الدنيا واحكام امور الرئاسة والسياسة وكل ما عدل الامير ايده الله الية من امر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا راى والامير ايده الله على ما عساه يراه »

فقال ابن طولون ننظر في ذلك ان شاء الله وشغل قلبه كلامه فبات تلك الليلة بعد ان قضى اكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامه رجلاً من اخوانه الزهاد في طرسوس وهو يقول « ليس ما اشار عليك من استشرته في امر الارتفاق والفسخ برأى محمد عاقبته فلا تقبله ومن ترك شيئاً لله عز وجل عوضه الله عنه فامض ما كنت عزمت عليه » . فلما اصبح انفذ الكتب الى سائر العمال بذلك فابطل الضرائب المتقدم ذكرها ونشرت في سائر الدواوين بامضائه . ثم دعا ابن دسومة واخبره بما كان فقال له « قد اشار عليك رجلان الواحد حي في اليقظة والاخر ميت في النوم وانت الى الحي اقرب وبضمانته اوثق » فقال له « دعنا من هذا فقد قضى الامر ولست قابلاً منك ما تقول »

وفي غد ذلك اليوم ركب احمد نحو الصعيد فلما امعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس احد غلمانه فسقط الغلام في الرمل فاذا بفتق فتتح فتقدم احمد وامرهم ان يحفروا هنا ففعلوا فاصاب فيه من المال ما كان مقداره مليون دينار وهو الكنز الذي شاع خبره وكتب الى العراق يخبر به المعتمد ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها فأذن له فبنى منه مستشفى وحصناً وسبيلاً وجوامع وفرق قسماً منه على الفقراء
اصلاحاته

واول جامع شاده ابن طولون جامع التنور ابتناه على قمة جبل المقطم في مكان كان يدعى تنور فرعون يقال انه سمي كذلك لانه على مرتفع فكانوا يضرمون فيه النار ليلاً فظن بعض المشايخ ان في ذلك المكان كنزاً فاخذ يحتفر فيه فام يظفر بشيء فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالا اكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك امر ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عفصة وابتنى ساقية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر ابن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

وفي سنة ٢٦٠ هـ اعاد احمد بن طولون حفر ترعة الاسكندرية وكانت قد سدت بالرمال المحمولة اليها وبنى في الاسكندرية اباراً مسقوفة بالبناء العقود واحواضاً تحت الارض لكي يأتي منها بالماء العذب النقي ما يكفي المدينة . وفي تلك السنة ركب مع رئيس خزنته ابي ايوب والقاضي بقال في جزيرة الروضة فراى المقياس محتسجاً الى اصلاح فأمر

باصلاحه اصلاحاً متقناً انفق عليه عشرة آلاف دينار . واقام ابو ايوب بعد يسير مقياساً
آخر في دار الاساحة في الجزيرة المذكورة حيث بنيت السجون ولكن لم يبق منها الى
ايام المقرزي الا اثر طفيف

وفي اواخر السنة المذكورة توجه احمد بن طولون الى الاسكندرية لتفتيش الاشغال
التي كان امر باجرائها واوصى بها لابنه البكر العباس ثم امر بترميم منارة الاسكندرية
واقام فوقها القبة ويقال ان هذه المنارة كان ارتفاعها خمسمائة قدم
وامر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) في العسكر وقد كانت الفسطاط قبله
مجردة من مثل ذلك وخصص لاجل النفقات اليومية للمستشفى والبنيات الاخرى اطياناً
واسعة تأخذ محصولاتها وخصص لها ايضاً دخل مبيع الرقيق وكان يأتي بنفسه لزيارة
المستشفى وتفقد سير الاطباء فيه وعيادة المرضى والمجاذيب . واتفق ذات يوم ان احد
المجاذيب في المستشفى هم بقتله ولولا القضاء لذهب بجيانه ولم يكن شيء من ذلك ليثني
عزمه عن العيادة . وبنى في العسكر حمامين وقد بلغ مقدار نفقات بناء المستشفى والحمامين
والجامع عند جبل المتطم ستين الف دينار . وبقيت هذه البنيات رغم التقلبات السياسية
التي كان يخشى ان تذهب بها ولا يزال كثير من آثارها الى هذه الغاية
مخارباته

قلنا ان ابراهيم بن الصوفي فرّ من وجه احمد بن طولون والتجأ الى الواحات
الكبرى في الصحراء فهذا تمكن بعد ذلك من التجنيد والتقدم نحو مدينة اشمونين
فبلغ ذلك ابن طولون فانفذ اليه جيشاً تحت قيادة ابن ابي الغيث وهذا لم يلتق بجيش
ابن الصوفي فسار لمحاربة عبد الرحمن العمري وكان معتدياً على حدود النوبة وبعد حرب
شديدة سار ابن الصوفي الى اصوان فلاقاه ابن ابي الغيث مغضباً عن ابي عبد الرحمن
وحاربه ففر من وجهه وسار من طريق عيناب الى مكة حيث قبض عليه وارسل الى
احمد بن طولون فلقاه في السجن مدة ثم صرفه مؤذناً له بالسكنى في المدينة وبقي فيها
الى ان توفاه الله

أما أبو عبد الرحمن العمري فاستفحل امره واقام الاستحكامات في النوبة فشق ذلك
على احمد ولم يستطع صبراً فانفذ اليه جيشاً آخر تحت قيادة شبه الببكي الى اصوان
فلما بلغها رأى ابا عبد الرحمن مشتغلاً بمقاومة جيوش زكريا ملك النوبة والحرب بينهما
قائمة فقال هذه فرصة لا يصح ضياعها فهجم على حصون ابي عبد الرحمن بدون ان
يستأذن من ابن طولون فلم يعبأ ابو عبد الرحمن بتكاثر الاعداء عليه فجعل رجاله
فرقتين وحارب الفتنين وتغلب على شبه واعاده على اعقابه صفر اليدين الى الفسطاط فلم

يصادف من ابن طولون الاحتقاراً وانتهازاً
وبعد ذلك بقليل قدم الفسطاط عبدان يحملان رأس أبي عبد الرحمن العمري
فرميا بين اقدام احمد بن طولون فسألهما عما أتى بهما اليه وما حملهما على قتل سيدهما
فاجابا ان لاغرض لهما الا الحصول على رضا امير القطر المصري . فقال لهما احمد « ان
ما ارتكبتموه تستوجبون عايبه عقاب الله وعقابي » وامر بقتلهما وغسل رأس أبي
عبد الرحمن ودفنه بما يلزم من الاحترام . وحقيقة الامر ان العبدین لم يقتلا سيدهما
بايديهما وإنما قتل بمكيدة محمد بن دارون شيخ قبيلة مضر فسولت لهما النفس ان يقطعا
راسه ويحملاه الى ابن طولون فينالوا جائزة عظيمة وما علما ان المروءة وكرم الاخلاق
تأبيان مثل ذلك

ثم ثار ابو نوعة صديق ابن الصوفي القديم فانضم اليه عصابة من الاتباع فجاهر
بالعصيان ضد ابن طواون فارسل اليه حملة فغلها فانجدها ابن طولون فغلبته وفر ابو
نوعة الى الواحات واضطر أخيراً الى التسليم

وبعد سنة من هذه الحادثة ثار محمد بن فاراب الفرغني وتابعه اهالي برقة جميعهم
فارسل اليهم احمد بن طولون لؤلؤاً وقال له نج المدينة من العصاة فتكون عليها والياً
فخاربهم لؤلؤ وفاز عليهم فيجعله ابن طولون والياً على برقة ومتعلقاتها
الموفق والمعتمد

وفي السنة نفسها اضطر ابن طولون الى محاربة شديدة كان يخشى عليه منها وهي
محاربة ابي احمد طلحة الملقب بالموفق بالله احد ابناء المتوكل على الله واخو المعتمد على
الله الخليفة . وذلك ان صاحب الزنج (بجوار زنجيار) ادعى انه من سلالة علي بن ابي
طالب فقدم البصرة سنة ٢٥٤ هـ واستولى عليها وعلى الكوفة وغيرها واستفحل امره
فانفذ امير المؤمنين المعتمد على الله يستقدم اخاه ابا احمد الموفق بالله من مكة وكان الخليفة
المهتدي بالله قد بعثه اليها منفيماً فقدم سنة ٢٥٧ هـ فاوصى المعتمد بالخلافة من بعده لابنه
المفوض وبعده للموفق وجعل غربي المهاييك الاسلامية للمفوض وشرقيها للموفق وكتب
بينهما بذلك كتاباً ارتهن فيه ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط

وكان الموفق يحسد اخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه اهلاً لها فلما جعل المعتمد
الخلافة من بعده لابنه ثم الموفق بعده شق ذلك عليه وزاد في حقه وكان المعتمد
متشاغلاً بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه فضاعت الامور وفسد تدبير
الاحوال وفاز كل من كان متقلداً عملاً بما تقاوه

وكان في الشروط التي كتبها المعتمد بين المفوض والموفق انه ما يحدث في عمل كل

واخذ منهما من حدث تكون النفقة عليه من مال خراج قسمه . واستخلف على قسم ابن المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى بن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب . وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق وتقدم المعتمد الى كل منهما ان لا ينظر في عمل الآخر وجعل كتاب الشروط بالسكينة

ولما كانت البصرة والكوفة واقعتين في حصة الموفق كان عليه محاربة الزوج ودفعهم فتأهب في جيش كبير وسار اليهم وناهضهم فطال زمن المحاربة حتى انقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يحمل في كل عام واحتجوا باشياء اخرى فدعت الضرورة الموفق الى ان كتب الى احمد بن طولون في مصر في حمل ما يستعين به في حروب صاحب الزنج وكانت مصر في قسم المفوض لانها من الممالك الغربية الا ان الموفقى شكاً في كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو في سبيله وبعث الكتاب مع تحرير خادم المنوكل ليقبض منه المال فما هو الا ان وصل تحرير الى ابن طولون واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيه بحمل المال اليه على رسمه مع ما جرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الطراز والرقيق والحليل والشمع وغير ذلك وكتب اليه ايضاً كتاباً بأسرياً يقول فيه « ان الموفق انما انفذ تحريراً اليك عيناً ومستقصباً على اخبارك وانه قد كاتب بعض اصحابك فاحترس منه واحمل المال اليها وعجل نفاذه »

وكان تحرير الخادم لما قدم الى مصر انزله احمد بن طولون معه في داره بالميدان فتمعه من الركوب والخروج من الدار التي انزله بها حتى سار من مصر وتلطف في الكتب التي اجاب بها الموفق ولم يزل بتحرير حتى اخذ جميع ما كان معه من الكتب التي وردت من العراق الى مصر وبعث معه الى الموفق الف الف دينار ومائتي الف دينار وما جرى الرسم بحمله من مصر واخرج معه العدول وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش وكان قد ارسل الى اماجور متولي الشام فقدم عليه بالعريش فاسلمه خادم الموفق والمال واشهد عليه بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر في الكتب التي اخذها من تحرير فاذا هي الى جماعة من قواده بانسألتهم الى الموفق فقبض على اربابها وعاقبهم حتى هلكوا في عقوبته

فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ومعها المال كتب اليه كتاباً ثانياً يستقل فيه المال ويقول « ان الحساب يوجب اضعاف الاحمات » وبسط اسانه بالقول والنس من معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضاً عن ابن طولون فلم يجد احداً عوضه لما كان من دعة ابن طولون وملاطفته وجوه الدولة

كتاب ابن طولون الى الموفق

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال « واي حساب بيني وبينه او حال
توجب مكاتبتني بهذا او غيره » وكتب اليه بعد البسملة « وصل كتاب الامير ايدى الله
تعالى وفهمته وكان اسعده الله حقيقاً بحسن التخيير لمثلي وتصويره اياي عمدته التي يعتمد
عليها وسيفه الذي يصول به وسنانه الذي يتقى الاعداء بحمده لاني دائب في ذلك وجعلته
وكدي واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء
كل منوعت بغنى وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلاة والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة
وذباباً عنها وحسماً لاطماع المشوفين لها والمحرفين عنها . ومن كانت هذه سبيله في الموالاته
ومنهجه في المناصحة فهو حري ان يعرف له حقه ويوفر من الاعظام قدره ومن كل
حال جليمة حظه ومنزاته . فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما امر به والجفاء في
المخاطبة بغير حال توجب ذلك ثم اكلف على الطاعة جعلاً والزم في المناصحة ثمناً وعهدي
بن استدعى ما استدعاه الامير من طاعته ان يستدعيه بالبدل والاعطاء والارغاب والارضاء
والاكرام لان يكلف ويحمل من الطاعة مؤنة وثقلاً وانني لا اعرف السبب الذي يوجب
الوحشة ويوقعها بيني وبين الامير ايدى الله تعالى ولا ثم معاملة تقتضي معاملة او تحدث
منافرة لان العمل الذي انابسيه لغيره والمكاتبة في اموره الى من سواه ولا انا من قبله .
فانه والامير جعفر المفوض ايدى الله تعالى قد اقتسم الاعمال وصار لكل واحد منهما
قسم قد انفرد به دون صاحبه واخذت عليه البيعة فيه انه من نقض عهده او اخفر ذمته
ولم يف لصاحبه بما اكد على نفسه فالامة بريئة منه ومن بيعته وفي حل وسعة من خلفه .
والذي عاماني به الامير من محاولة صرفي مرة واسقاط رسمي اخرى وما ياتيه ويسومنيه
ناقض لشروطه مفسد لهده . وقد التمس اوليائي واكثروا الطلب في اسقاط اسمه وازالة
رسمه فآثرت الابقاء وان لم يوثره واستعملت الاناة وان لم تستعمل معي ورايت الاحتمال
والكظم اشبه بذوى المعرفة والفهم فصبرت نفسي على احرم من الجبر وامر من الصبر وعلى
مالا يتسع به الصدر والامير ايدى الله تعالى اولي من اعانني على ما اوثره من لزوم عهده
واتوخاه من تأكيد عقده بحسن العشرة والانصاف وكف الاذى والمضرة وان لا يضطرنني
الى ما يعلم الله عز وجل كرهه له ان اجعل ما أعدده لحياطة الدولة من الحيوش المتكاثفة
والعساكر المتضاعفة التي قد ضرت رجالها من الحروب وجرت عليهم محن الخطوب
مصرفاً الى نقضها . فعندنا وفي حيزنا من يرى انه احق بهذا الامر واولي من الامير .
ولو امنوني على انفسهم فضلاً عن ان يعثروا في علي ميسل او قيام بنصرتهم

لاشددت شوكتهم واصعب على السلطان معاركهم . والامير يعلم ان بازائه منهم واحداً
قد كبر عليه وفض كل جيش انهضه اليه على انه لا ناصر له الا ليفب البصرة واوباش
عامتها فكيف من يجرد ركناً منيعاً وناصرأ مطيعاً وما مثل الامير في اصالة رايه يعرف
مائة الف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك فان يكن من الامير
اعتاب او رجوع الى ما هو اشبه به واولى والا رجوت من الله عز وجل كفاية امره
وحسم مادة شره واجرعنا في الحياطة على اجمل عاده عندنا والسلام »

فلما وصل الكتاب الى الموفق اغاظه غيظاً شديداً فاحضر موسى بن بغا وكان
عون الدولة واشد اهلها بأساً واقداماً فتقدم اليه في صرف احمد بن طولون عن مصر
وتقليدها اما جور فامتثل وكتب الى اما جور كتاب التقايد وانفذه اليه فلما وصل اليه
الكتاب توقف عن ارساله الى احمد بن طولون لعجزه عن مناهضته . ثم خرج موسى
ابن بغا عن الحضرة مقدرأ انه يدور عمل المفوض ليحمل الاموال منه ولما علم بتوقف
اما جور عن مناهضة احمد بن طولون كتب اليهما يأمرهما بحمل الاموال وعزم على
قصد مصر والايقاع بابن طولون واستخلاف اما جور عاها فسار الى الرقة

وبلغ ذلك ابن طولون فاققه ايس لانه يقصر عن مناهضة موسى بن بغا لكن
لتحملة هتك الدولة وان يأتي سيل من قاوم السلطان وحاربه وكسر جيوشه الا انه
لم يجرد بدأ من المحاربة ايدفع عن نفسه ما يكره فتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدها
لا تؤخذ الا من جهة النيل فاراد لكبر همته وتدبره ان يبني حصناً على الجزيرة التي
بين الفسطاط والجزيرة (جزيرة الروضة) يكون معقلاً لحرمه وذخائره وخاصة ثم
يشتمل بعد ذلك بحرب من يأتي من البر

وقد زاد فكره في من يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة
مركب حربي سوى ما يضاف اليها من العلابيات والحمام والعشاريات والسنايك
والزوارق وقوارب الخدمة وعمد الى سد وجه البحر الكبير وان يمنع ما يجي اليه من
مراكب طرسوس وغيره من البحر الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية
في وجه البحر الكبير خوفاً مما سيحي من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان
من بعده بلواده كانه ينظر الى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذب عن
هذه الجزيرة وانفذ الى الصعيد والى اسفل الارض لمنع من يحمل الغلال الى البلاد
ليمنع من ياتي من البر الميرة

واقام موسى بن بغا بالرقة عشرة اشهر وقد اضطرت عليه الاتراك وطالبوه

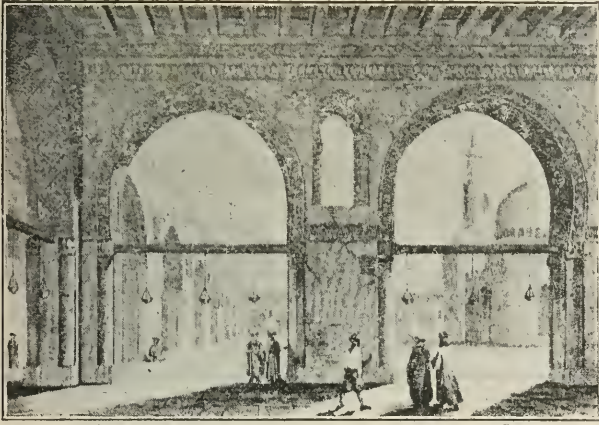
بارزاقهم مطالبة شديدة حتى استتر منهم كاتبه عميد الله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم تخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال الى الرجوع فعاد الى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ومات من علة في صفر سنة ٢٦٤ هـ

هذا واحمد بن طولون يجد في بناء الحصن على الجزيرة وقد الزم قواده وثقاته امر الحصن وفرقة عليهم قطعاً قام كل واحد بما لزمه من ذلك وكد نفسه فيه وكان يتعهدهم بنفسه في كل يوم وهو في غفلة عما صنعه الله له من الكفاية واللفي عما يعانيه . ومن كثرة ما بذل في العمل قدر ان كل طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح . ولما تواترت الاخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل وتصدق بمال كثير شكراً لله على ما من به عليه من صيانتة عما يقبح فيه عنه الاحدوثة وما راي الناس شيئاً كان اعظم من عظيم الجهد في بناء هذا الحصن ومباكرة الصناعات في الاسحار حتى فرغوا منه فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم في كل بكرة من تلقاء انفسهم من غير استحثاث لكثرة ما سخا به من بذل المال . فلما انقطع البناء لم ير احد من الصنائع التي كانت فيه مع كثرتها كأنما هي نار صب عليها ماء فطفئت لوقتها . ووهب للصنائع مالا جزيلاً وترك لهم جميع ما كان سلفاً معهم . وبلغت نفقات هذا الحصن ثمانين الف دينار ذهباً وقال سعيد بن القاضي من ابيات بشأن ذلك

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
تري اثرأ لم يبق من يستطيعه من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وان باد اهلها ومجد يؤدي وارثيه الى الفخر
اما الموفق فلما تفرق جيشه لم يعد يرى بدءاً من الاغضاء من مقاومة احمد بن طولون اغضاءً وقتياً

بناء الجامع

وكثر اتباع ابن طولون ورجال حاشيته وجنده حتى ضاق جامع العسكر ذرعاً عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليه ان يبني لهم جامعاً آخر اكثراً تساعاً فاستجاب التماسهم على ان يبنيه على جبل يشكروا كان لهذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكايم ناجى ربه عليه مراراً وانه اقتبل في ذلك المكان بعض الشرائع المقدسة وعزم احمد ان يجعل ذلك الجامع اعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد وان يقيمه على ثلثمائة عمود من الرخام . فقبل له ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه وانه اذا اصر على عزمه لا يترك للمسيحين ما يقوم ببناء معابدهم فتردد بين ان يتم مشروعه وان لا يجرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد



ش ٣٨ - جامع ابن طولون

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم ذكره ويسمى ابن الكاتب الفرغاني ومن ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصنعة البناء وقد اودع السجن اهمة توجهت نحوه بغير الحق . فلما بلغه ما كان من عزم ابن طولون وتردده كتب اليه من السجن انه قادر على اتمام مشروعه وانه لا يحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلها عمودي القبلة . فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب اليه ان يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنه فجاء كثير الشبه بجامع سامراً . فاعجب ابن طولون كثيراً وامر باطلاقه وخلع عليه وجعل تحت امره مائة الف دينار وقال له انفق وما احتجت اليه بعد ذلك اطلقناه لك . وامر ابن طولون ان يكون بناء الجامع من القرميد والجير ونهي عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلاً « ورجيتي من ذلك انه اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء ام بالنار فلا يكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع اخذ في زخرفته فيوضه وعلق فيه القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على افاريزه آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهراً الى هذا اليوم وفرش الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء . ويقال انه هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسه وجعلها منفصلة عنه برواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن سحن ثان خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الا ان الناظر اليها لا يسعه الا التعجب من عظمتها ويقال ان مجاه المنارة المذكورة الباب الكبير

وجعل للجامع ٣٣ شباكاً . واقام بجوار الجامع بناء دعاه دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جداره القبلي قرب المحراب والمنبر مزين بالسائر . وفي الدار المساند الجميلة والظنافس الثمينة . فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا ذهب الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه وفي موضعها الآن سوق الجامع

ومن يزر هذا الجامع اليوم يره خراباً مهجوراً وقد استعملته الحكومة مراراً منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قنطره فسدوها . وقد هدم بعض تلك القناطر وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضة ولا يزال اثر المنبر الخشبي باقياً وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلى احمد ابن طولون وذريته

وقد استغرق بناء هذا الجامع سنتين فانتهى في رمضان سنة ٢٦٣ هـ فاذن ابن طولون بالصلاة فيه ولكن الفقهاء لم يكونوا يدخلونه لثلاثاً يكون مبنياً بمال لم تكتسب بالحق والعدل فاقسم لهم انه لم ينفق عليه درهماً من الدراهم التي وجدها اتفاقاً فصدقوه فاحتفل بتدشينه في يوم الجمعة التالي وصار يرد اليه الجماهير من المسلمين . وتذكاراً لذلك الاحتفال نقشوا على الواح كبيرة من الرخام الابيض بعض الآيات من القرآن الكريم . وقال المقرئون انهم كانوا يحرقون اقراص الند في اثناء الصلاة فيعقب الجامع بدخانه والمؤمنون في الصلاة . وكان القاضي بكار بن قتيبة الامام الاول وربيع بن سليمان الخطيب الاول لهذا الجامع . وفي ذلك الحين انشأ محمد بن ربيع مدرسة في احدى غرف الجامع وكان ابن طولون واولاده وجميع حاشيته لا يتركون الجامع الا بعد ان يتم محمد تدريسه . وكانت دروس هذه المدرسة محصورة في الحديث . وممن كان يحضر عليه ابناء احمد بن طولون وكانوا يواظبون على الحضور والانصراف كسائر التلاميذ كل ذلك بأمر والدهم . وفي مساء يوم التدشين عاد ابن طولون الى دار الامارة لاعادة الوضوء وتغيير الثياب فكثت مدة طويلة في الجامع يصلي لله ويشكره على ما اولاه من النعم بنجاح اعماله ووهب للجامع عشرة آلاف دينار وخصص له رواتب تدفع من ماله ما بقي حياً . وبنى ابن طولون بجوار الجامع خارج صحنه حوضاً وفسقية للوضوء ثم بنى صيدلية يحضر فيها بأمره كل يوم جمعة طبيب يعالج الفقراء مجاناً ولا سيما الذين يأتون للصلاة . وحسبت نفقات البناء فبلغت مائة وعشرين الف دينار غير الاوقاف . ويقال ان احمد بن طولون وجد ما عدا الكثرين المتقدم ذكرها كنزاً ثالثاً من الذهب النقي ويقال ان هذا الذي جمعه يضرب الدينار الاحمدي الذي اشتهر بنقاوته والمفضل على سائر

انواع الذهب القديم للتذهيب به

وفي اثناء بناء الجامع توفي اماجور الذي كان حاكماً في سوريا فخلفه ابنه علي فاغتتم احمد بن طولون تلك الفرصة ليضم سوريا الى مصر والموفق مشغول عنه بمحاربة الزنج فانظر انه عازم على محاربة الروم جهاداً في سبيل الدين وجمع جيشاً جراراً فيه كثيرون من المتطوعين فكتب الى ابن اماجور يستنصره في تلك الحرب وان يبايعه على سوريا لان الخليفة اقطعه اباها فاطاعه

عصيان العباس

وفي غرة سنة ٢٦٥ هـ برح احمد بن طولون مصر مستخلفاً ابنه العباس وسنه اذ ذلك ٢٣ سنة وعهد بتدبير الاحكام الى وزيره احمد الواسطي . ولما احتشدت جيوش ابن طولون في فلسطين اتاه محمد حاكم الرملة خاضعاً فأقره في منصبه ولما بلغ دمشق رحب به علي بن اماجور وأمر بان يخطب باسمه فأقره في منصبه ايضاً . وهكذا فعل في حمص وعليها عيسى فآقره عليها ثم استولى على حلب وحماء وكانتا من اعمال انطاكية وحاكمها يدعى سيبا الطويل فكتب اليه احمد بن طولون يطلب مبايعته فوعده ولكنه لم ينف فأعاد الطلب فوعده ايضاً ولما تكرر منه الوعد والاختلاف تقدم احمد بجيشه الى اسكندرونه ثم هاجم انطاكية من جهة باب البحر فلم يقدر عليه لانه كان منيعاً فهاجمها ثانية وثالثة بلا فائدة وما زال حتى كاد يتولاه اليأس فاته بعض اهالي المدينة ينبئونه بباب آخر في الجهة المقابلة يدعى باب الفرس لجهة الجبال وقالوا انه سهل المأخذ فسار احمد بجيشه وهاجم المدينة من ذلك الباب وما طلع الفجر الا والمتاريس في يده . واما سيبا فدافع دفاعاً حسناً حتى قتل وجيء برأسه الى احمد بن طولون فشق عليه قتله لانه كان صديقاً له . واما المدينة فذهبت فريسة الفتك والنهب حتى نودي بالطاعة فسكنت الغوغاء ووضع احمد يده على باياس واطنة وطرسوس . وبينما هو بهم بالتقدم في فتوحه الى ما وراء ذلك جاءه من مصر ان ابنه العباس الذي استخلفه عليها قد شق عصا الطاعة ومد يده الى الخزائن والاحكام واستبد فيها فلم يرد احمد الرجوع الى مصر قبل اتمام عمله في سوريا فسار الى محاربة محمد بن اتمش صاحب الرقة ثم اخيه موسى فأسرهُ ولم يرجع الى مصر الا في نهاية سنة ٢٦٥ هـ بعد ان فتح الشام وبعض اسيا الصغرى واستخلف في الرقة غلامه لؤلؤاً

اما العباس فبعد ان نبذ طاعة والده انقياداً لذوي الاغراض شعر بخطائه وخاف سوء العقبي فجمع اليه الخزينة وفيها مليونان من الدنانير واستدان فوقها ٣٠٠ الف

دينار وفر بمن معه الى الجزيرة على ضفة النيل الغربية وساق معه احمد الواسطي وزير والده مغلولاً . ولكنه خشي ان لا يكون مكانه هناك اميناً فعهد بحكومته فيه الى اخيه ربيع مظهراً السفر الى الاسكندرية وسافر الى برقة

فلما وصل احمد بن طولون الى الفسطاط ونزل العسكر ورأى من امر ابنه ماراى احب استقدامه بالحسنى فكتب اليه كتباً كلها نصح واستعطف وارسلها مع بكر بن قتيبة فعاد بالانتيجة وكان ذلك بدسيسة من التف حوله وهم الذين اغروه على كل ما فعل وقد اصبحوا يخافون غضب ذلك الامير الخطير فأعزوا الى العباس ان يمن في افريقية . ففي سنة ٢٦٧ هـ جمع اليه رجال دعوته وسار في داخلية البلاد ساعياً جهده في اجتذاب مشائخ القبائل اليه فلم يفز الا مع القليل منهم فكتب الى ابراهيم بن الاعراب صاحب القيروان ان يبايعه على افريقية مدعياً ان الخليفة قدده اياها وكان سعيه مع هذا باطلاً ايضاً . ثم هاجم حصن لبدة ففتحت له ابوابها فدخلها وامعن اتباعه في النهب والقتل فاستاء الاهالي فكتبوا الى الياس بن منصور النفوسي رئيس الاباضية فوعدهم بالمساعدة وفي اثناء ذلك سار ابراهيم صاحب القيروان بجيش الى طرابلس الغرب لقتال العباس فقاتله في الليل وكان العباس مشهوراً بالشجاعة والحماسة وكان شاعراً ينشد الاشعار الحماسية في اثناء القتال ومما انشده قوله

لله دري اذا اعدو على فرسي	الى الهياج ونار الحرب تستعز
وفي يدي صارم افري الرؤوس به	في حده الموت لا يبقي ولا يذر
ان كنت سائلة عني وعن خبري	فها انا الليث والضمصامة الذكر
من آل طولون اصلي ان سألت فما	فوق المفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرمي بلبدة اذ	بالسيف اضرب والهجمات تتذر
اذاً اعابنت مني ما تبادره	عني الاحاديث والانباء والخبر

وفي الصباح التالي وصل الياس ومعه ١٢ الفاً من الاباضية مدداً لابراهيم فضمامها الى جيشه واستأنف الحرب وخسر العباس في هذه الواقعة اكثر ضباط جيشه واشجع جنوده وجميع المؤن والمهمات العسكرية التي اتى بها من مصر . اما هو فتمكن بهد الجهد من الفرار الى برقة فبلغ ذلك اباه فانفطر له قلبه رغم عصيانه ومناواته . وفي اواخر سنة ٢٦٧ هـ انفذ احمد جيشاً الى برقة وبعد بضعة ايام اتى بنفسه الى الاسكندرية في جند كبير قيل انه كان مؤلفاً من مائة الف رجل فاتاه احمد الواسطي وكان قد تخاص من العباس فافذه ابن طولون بجيش الي برقة ليهاجم من فيها .

العصاة فهاجمهم وقتل العدد الاعظم منهم . اما العباس فقبض عليه حياً وجاء به الى ابيه في منتصف سنة ٢٦٨هـ وبعد بضعة ايام عاد ابن طولون الى الفسطاط ومعه ابنه العباس ولما بلغ الفسطاط اعتقله في قصره .

وبعد ثلاثة اشهر وصلت الجيوش ومعهم الاسرى الباقون فاحضرهم والعباس معهم فأمره ابوه ان يقطع ايدي هؤلاء المفسدين وارجلهم بيده ففعل . ثم التفت اليه وعنقه بكلام تنفت له الحجارة ثم امر بان يضرب مائة جلدة امر بذلك وقلبه يقطر دماً . ثم اعاده الى الاعتقال وامر بقتل من بقي من العصاة والقاء جثثهم في النيل

اضطرابات خارجية

وما كادت مصر تتخلص من هذه الاضطرابات الداخلية حتى داهمتها اضطرابات خارجية اشد وطأة واصعب مراساً . فان الضغائن بين احمد بن طولون والموفق كانت لا تزال كامنة الى ذلك العهد وما اصاب الاموال من السلب وما تكبده ابن طولون على أثر ذلك من النفقات في الحروب حملته على الاقتصاد في النفقة والاعتدال بالسخاء فساء ذلك بعض الذين كانوا يتقربون منه طمعاً بالمال وفيهم غلامه لؤلؤ الذي كان غارقاً بانعامه وقد ولاه بلاداً واسعة فاضمر له شراً بايعاز كاتبه محمد بن سليمان الذي لم يكن ابن طولون يحبه . فامسك لؤلؤ عن اداء الخراج الى ابن طولون على ان يؤديه الى الموفق ويباعه على ما في يده فطار الموفق فرحاً . اما القواد الذين كانوا مع لؤلؤ فلم يكن بينهم وبين احمد بن طولون ما يوجب العداء فاعلموه بغيره فادرك العواقب الناجمة عن هذه الخيانة ولكنه اتخذ الحزم والتأني تبراساً فكتب الى لؤلؤ يدعوه الى طاعته بعبارات لطيفة فأبى

فنظر احمد في الامر نظراً بعيداً فرأى العاقبة محمودة فكتب الى المعتمد سراً يعلمه انه يخاف خيانة ربما كان فيها خطر على حياة الخليفة ويدعوه الى مصر قائلاً « ان لدينا هنا مائة الف مقاتل مستعدة للدفاع عن امير المؤمنين وقمع عدوه (يعني الموفق) واعادة السلطان اليه » وبعث مع هذا الكتاب هدية تساوي مائة الف دينار وسار في جيش جرار سنة ٢٦٩هـ وتقدم الى دمشق ومعه ابنه العباس واستخلف على مصر ابنه الثاني خمارويه وجاهر انه قدم لامر من انقاذ الخليفة المعتمد ومعاقبة لؤلؤ فلم يظفر بلؤلؤ لانه كان قد انضم الى الموفق في محاربة الزنج

وئارت في اثناء ذلك فرقة من الجنديكان قد ارسلها احمد الى سلسيا وعصت قائدها خلفاً فتمكن هذا من النجاة بحياته الى دمشق فاعتنم سكان طرسوس هذه الفرصة فخلع طاعة ابن طولون فابطلوا الصلاة باسمه فحمل عليهم اقتصاصاً منهم . ثم ورد اليه

كتاب من المعتمد اوقفه عن عزمه . وذلك ان الخليفة المشار اليه ادرك ان ليس في يده من الخلافة الا اسمها وان اخاه الموفق اضر بنفوذه ضرراً بليغاً . فلما جاءه كتاب ابن طولون قبله بسرور واجابه شاكراً له وشاكياً من تصرف اخيه . والتي اليه ان يتصرف بالامر بمقتضى حكمته وان يلاقيه في الرقة . فانفذ اليها ابن طولون جيشاً للملاقاة لان المعتمد احب ان يعتم اشغال اخيه بالحرب مع الزنج للقدوم الى احمد فتظاهر بالخروج في حاشيته للصيد . وسافر في جمادى الاولى حتى بلغ الى اسحق بن كنداج امير الموصل وما بين النهرين وكان قد كتب اليه وزير الموفق بما كان وامره ان يحتال في القبض على الخليفة . فاستقبل اسحق الخليفة باكرام واحترام وشيعة

فلما قارب عمل ابن طولون ارتحل الاتباع والعلماء الذين مع المعتمد وقواده ولم يترك ابن كنداج اصحابه يرحلون . ثم خلا بقواده عند المعتمد وقال لهم انكم قرب عمل ابن طولون والامر امره وتصيرون من جنده وتحت يده افترضون بذلك وقد علمتم انه كواحد منكم . وجرت بينهم في ذلك مناظرة حتى تعالي النهار ولم يرحل المعتمد ومن معه فقال ابن كنداج قوموا بنا نتناظر في غير حضرة امير المؤمنين فاخذ بأيديهم الى خيمته لان مضاربهم قد سارت فلما دخلوا خيمته قبض عليهم وقيدهم واخذ سائر من مع المعتمد من القواد فقيدهم . فلما فرغ من امورهم مضى الى المعتمد فعزله في مسيره من دار ملكه وملك آبائه وفراق اخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب كأنه يريد قتله وقتل اهل بيته وزوال ملكهم ثم حمله والذين كانوا معه حتى ادخلهم سامرا فعمل الموفق بذلك فسراً لكنه خشى ان يعود اخوه مرة ثانية الى قصده الاول فارسل اليه من يراقب حركاته ووهب اسحق جميع البلاد التي كانت من اعمال ابن طولون فاصبح حكمه ممتداً من بغداد الى اطراف افريقية واهداء سيفين واقبه بندي السيفين اشارة الى تسلطه على الشرق والغرب

فلما علم ابن طولون بذلك اشتد غيظه فجمع اليه من كان في دمشق من فقهاء بلاده وعلمائها واشرافها واعلمهم ان الموفق هتك حرمة الاخوة نحو اخيه وحاول الاستقلال بالدولة الاسلامية وان الخليفة امير المؤمنين قد اصبح في حالة يرثى لها يقضى نهاره بالاسف والكدر الشديدين . وما زال ينهض همتهم ويحرك عواطفهم حتى اقرؤا على ان يذكر الخطيب بعد صلاة الجمعة حالة الخليفة ويطلب الى الله ان يحفظه ويكتب اعداءه . وزادوا على ذلك ان الموفق عاص على الخليفة فهو محروم من حقوق الخلافة ثم زاد هو على هذا ان الموفق خلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب جهاده على الامة .

فاعترض بعض الحضور على ذلك ومنهم بكار وقال ان كتب الخليفة تخالف ما قررتوه لانه اوصى ان يكون الموفق وارثاً للخلافة قطعياً فاجابه ابن طولون ان الخليفة لم يكن حراً بما فعل . والتى بكاراً في السجن ريثما يرد من الخليفة الجواب على ذلك وانتهى الامر باقرار الجميع على ماسبق ذكره وان يحافظوا على كل كلمة فاهوا بها وان ينادوا بذلك في الجماهير بالصلاة كما تقدم

فلما بلغ الموفق ذلك اعز الى اخيه المعتمد ان يخلع ابن طولون . وما انفك حتى اجابه الى طلبه فجاهر على المنابر بعبارة ونصها : « اللهم العنه لعناً يفلُ حده ويتعس جدّه واجعله مثلاً للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين » فصرح ابن طولون بلعن الموفق في جميع بلاده وارسل جيشاً للاستيلاء على مكة فانفذ حاكمها هارون الى الموفق الخبر فارسل اليه مدداً تحت قيادة جعفر خاربوا المصريين في مكة فغلبوهم بعد ان قتلوا مائتي رجل منهم واسروا قائدهم فنودي بلعن ابن طولون في مسجد مكة

الا ان هذا جميعه لم يكن ليثني ابن طولون عن عزمه في اعماله الاخرى فانه سار الى سليسيا لاختاد الثورة ومقاصة المعتدين فرّ في طريقه بدمشق وبنى قبة فوق مدفن الخليفة معاوية كان قد هدمها العباسيون وزينها بالقناديل واقام فيها من يتلو القرآن ثم قدم اظنه لمقاصة بزمار حاكمها لامتناعه عن مبايعته وكان بزمار قد قبض على رسل ابن طولون فشق ذلك على ابن طولون فاسرع الى قتاله بفرقة من الجند فحوّل بزمار نهر سدانس على جيش ابن طولون وكانوا في منتصف الشتاء ففاضت مياهه وساعدها البرد القارس فاهلكا معظم الجند فاضطر احمد الى رفع الحصار وتأجيل الانتقام . فانتقل لنجدة جهات اخرى كان يهددها الروم فسار بفرقة من رجاله الى بياض فانطاكية حيث كان ينتظره القضاء المبرم . وذلك انه شرب فيها مقداراً كبيراً من لبن الجاموس فاضر في صحته فانذره الطبيب الذي كان معه واسمه سعيد بن ثيوفيل فاهمل انذاره وتغافل عن الاحتماء الصارم فاشتد مرضه كثيراً فاسرع الى مصر محمولاً على الاذرع في محفة لكن الضعف لم يسمح له بالاستقرار على هذه الكيفية فنزل عند الفرمانم حمل الى القسطنطينية في النيل فبلغها في آخر السنة وهو في حالة خطيرة . فنادى اليه الاطباء وهددهم بالقتل اذا لم يبذلوا الجهد في شفائه

حدث في مصر من القلاقل ما شغل ابن طولون عن الاهتمام بصحته . وذلك ان احد العلويين واسمه احمد بن عبد الله لما بلغه حال احمد بن طولون من المرض شق عصا الطاعة فانضمت اليه فرقة من رجال الصعيد فانفذ اليها احمد فرقة

من رجاله ففرقتها وعادت برأس قائدها وعاد معها الامن واستتبت الراحة

المصالحة

اما الموفق فبعد ان حارب الزنج طويلاً فاز بهم لكنه ملّ الحرب ومال الى السكينة وكانت شعائره العدوانية نحو ابن طولون اخذت على طول الزمن في الحمود فرغب في حقن الدماء واقامة الحدود . ولم تكن رغبة ابن طولون في المصالحة اقل من رغبة الموفق . والظاهر ان المرض اضعف منه حاسة الانتقام فمال الى صرف القلاقل . وكان الموفق اشد رغبة في صرفها فعهد الى سعيد بن محمد وجماعة من ذويه ان يكتبوا الى ابن طولون كتابة يوهونه انها منهم بغير علم الموفق يبينون له ان ما حصل انما كان من عواقب التسرع في الحكم وان يتفقوا معه على المصالحة ففعلوا كما امرهم . فلما اطاع ابن طولون على هذه الكتب علم انها من تدير الموفق . على ان ذلك لم يمنع قبوله بالمصالحة فوافقه على نسيان ما مضى من سوء التفاهم ووعد به باعادة الصلات الودية على ان يصرح الموفق جهاراً بتنازله عن شعائره الحقد او الانتقام . فعلم الموفق من مطالعة الكتاب ان ابن طولون كشف ضميره فلجابه انه آسف على ما فرط منه وعامل على استئصال جرائم الحقد وانه يرغب الى صديقه الجديد ان يقبل تلك المصالحة فقبل . اما المعتمد فسرّ جداً لما دار بينهما وكتب بخط يده الى ابن طولون يحمده سعيه ويطلب اليه ان يبقى مسالماً لاخيه الموفق واخبره انه قد ابطل لعنه . فلم تبلغ مصر رسالته الا بعد وفاة ابن طولون لان صحته كانت تتأخر يوماً فيوماً والام المعدي المتسبب عن افراطه من اكل لبن الجاموس يشده عليه مصحوباً بحمي شديدة وضعف عام ثم رافق ذلك زرب ذهب بما بقي من قواه

فلما احس احمد بدنو الاجل استغاث بصلوات شعبة على اختلاف معتداتهم . فصعد المسلمون بقرآتهم والمسيحيون باناجيلهم واليهود بتوراتهم الى المقطم فاقاموا فروض الدعاء الى الله ان يشفي ملكهم . وكان في جملة من حضر الاحتفال الفقهاء وطلاب العلم وكانت جوامع المدينة خاصة بالجماهير يقرؤون القرآن والحسنات تفرق في الفقراء بسخاء فانتفع الناس في موته كما انتفعوا في حياته . ولما تأكد قرب الساعة صلى قائلاً « اللهم ارحم عبدك وعلمه قدر نفسه لانه لم يعرف لها قدراً وانصفه برحمتك » واخذ بعد ذلك يكرر الشهادة الى ان قضى . وقبل وفاته بقليل اخرج بكراً من السجن لكنه لم يابث بعد وفاة ابن طولون الا اياماً حتى توفي ودفن في الفسطاط

ولا يزال مقامه معروفاً . وكانت وفاة احمد بن طولون يوم الاحد العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٧٠هـ (الموافق ١١ مايو سنة ١١٨٤ م) ودفن عند سفح المقطم على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى

ولما بلغ المعتد وفاة ابن طولون حزن حزناً شديداً وراثه بقصيدة تدل على ان المعتد كان شاعراً أكثر من كونه حاكماً . وحكم ابن طولون ١٨ سنة كلها حروب وظفر . ومن تأمل سيرة حياته يجد نغمة انما كان بكثرة المصائب وهي التي كانت تثير فيه الهممة وتحمله على توسيع نطاق مملكته وقد خلف ثروة قدرها عشرة ملايين دينار وعداداً كبيراً من الاسلحة والامتعة و٧ آلاف مملوك تحت السلاح و ٢٤ الف مملوك بغير سلاح وكثيراً من الخيل والبغال والجمال وحيوانات اخرى . ويقال ان غلة مصر بلغت في ايامه مائة مليون دينار سنوياً . وقال آخرون انها لم تبلغ عشر هذا القدر وهو الارجح وكان شجاعاً هماماً حليماً شفوفاً

مناقبه

ومن امثال شفقتة انه ركب في غداة باردة الى المقس في ضواحي الفسطاط فاصاب بشاطئ النيل صياداً عليه ثوب خلق لا يواريه منه شيء ومعه صبي في مثل حاله وقد التقى شبكته في البحر . فلما رآه رق لحاله وقال « نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً » فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسال الصبي عن ابيه فقال له هذا الغلام (و اشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقبله حتى وقع ميتاً . فقال فنشه يانسيم . فنزل وقتشه فوجد الدنانير معه بجهاها فحرض الصبي ان يأخذها فابى وقال هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتي . فاحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه في اصحاب الجرايات . وقال انا قتلت اياه لان الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتبه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينه

واحمد بن طولون اول من جلس في مصر للنظر المظالم فكان يجلس لذلك يومين في كل اسبوع في محل يقبل فيه التظلمات وينصف اصحابها . وكان تقياً يحترم الشعائر الدينية كثيراً فكان له في قصره حجرة جعل فيها رجالاً ساهم المكبرين بيئت منهم في كل ليلة اربعة يتناوبون الليل نوباً يكبرون ويسبحون ويحمدون ويهللون ويقراون

القرآن تجويداً بالألحان ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذنون اوقات الاذان ومن مناقبه الحميدة حبه لعمل الخير المجرد والتصدق على كل من طلب الصدقة . فكان ينفق في سبيل ذلك الف دينار شهرياً سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم . وسوى مطابجه التي اقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويفرق للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة لكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالزوج والاشنان الاخران مما في القدر وكانت تعمل في داره وينادى من احب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرته ذلك ويحمد الله على نعمته . ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطقان وكان متولياً تفريق الصدقات « ايد الله الاميرانا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فنخرج لنا الكف المحضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديد والكف فيها الخاتم »

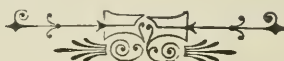
فقال « يا هذا من مد يده اليك فاعطه فهذه هي اللطيفة المشهورة التي ذكرها الله في كتابه فقال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف . احذر ان ترد يداً امتدت اليك » وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاته ٣٠ ولداً و١٢ ذكراً و١٣ انثى ولم يكن عمره عند وفاته اكثر من خمسين سنة . واوصى ان تكون الاحكام لبنيه من بعده ليكون له من نسله دولة تخلد ذكره . الا ان هذه الدولة لم تتمكث بعده الا

٢٢ سنة



وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد ابن طولون سنة ٢٥٢ هـ وعليها اسمه واسم الخليفة المعتمد (انظر شكل ٣٩)

ش ٣٩ — نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون



خارويه بن أحمد

من سنة ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ أو من ٨٨٤ — ٨٩٥ م

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنه خارويه حالاً في مكانه في ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ وسنه ٢٠ سنة واقب بأبي الجيش فسر الناس من توابته . واما العباس فكان لا يزال في السجن وقد كرهته الامة لما كان من عقوقه . وقال بعضهم ان اياه ناداه قبل وفاته وعفا عما كان منه واوصى له بامارة الشام تحت اماره اخيه خارويه لكانه مالمث ان اقيم اخوه على الاحكام حتى ذهبت حياته بأمره . ولم يشأ خارويه ان يجعل مركز حكومته في الفسطاط كما فعل ابوه فجعلها في القطائع التي كان قد بناها ابوه مقراً لرجالها واول شيء اتاه خارويه انه قرب قلوب الرعية اليه بنزاهته ونصرتة للحق . ذلك ان كنيسة الاسكندرية كانت سنة ٢٦٨ هـ تحت رعاية البطريك ميخائيل وكان هذا قد عزل الاسقف سكالسوء سيرته وتعاليمه فسار هذا الاسقف الى الفسطاط مضمرأ شراً فسعى الى احمد بن طولون فساداً وادعى ان البطريك وافر الثروة وهو لا يحتاج الى المال . وكان احمد اذذاك يتأهب للمسير الى سوريا وفي احتياج للنفقات فاستحضر البطريك المذكور وقال له « ان من كان في مكانك ايها البطريك لا يحتاج الى اكثر من الطعام واللباس وقد علمت انك ذو ثروة والبلاذ في احتياج الى نفقات كبيرة فادفع مالديك الى بيت المال » فاجتهد البطريك في رفع تلك التهمة عنه فذهب اجتهاده عبثاً . والتي في السجن ومعه احد شمامسته المدعو ابن المندر سنة كاملة فاخذيو حنا و ابراهيم ابنا موسى كاتب احمد بن طولون على عاتقهما ان يطلق البطريك بعد ان يدفع مبالغاً يجمعه من رعاياه المسيحيين . فيكتب على نفسه صكاً بمبلغ ٢ الف دينار يدفعه على دفعتين لكنه لم يستطع الدفعة الاولى الا بعد العناء الشديد والاستقراض وبيع اوقاف الكنيسة لان ما فرضه على ابناء الكنيسة لم يكن وافياً بالمطلوب . فاصبح البطريك في حالة اليأس وانزوى في دير القديسة مريم في قصر الشمع بجوار الفسطاط لا يعلم كيف يقوم بدفع المبالغ الباقي فاكثر الضرائب على الاسقفيات الى حد لم يكن في الامكان القيام بدفعه فنسب اليه الاستبداد وهو براء منه . ولما آن وقت الدفع لم يكن قادراً عليه فقيده ثانية الى السجن وبعد يسير توفي ابن طولون . فلما تولى خارويه رأى من العدالة ان يخلي سبيله ويبريء ذمته مما كان باقياً عليه ففعل وكان لذلك وقع عظيم عند الاقباط

حدائق خمارويه واصطبلاته

ثم أخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئاً مما كان في ايام ابيه فابقى ارباب المناصب كما كانوا فبقيت قيادة جيش الشام في يد ابي عبدالله وقيادة مابقي من الجيوش في يد سعيد الایسر. ولكي يتأكد مناعة الشام ارسل اليها مراكب حربية تطوف في مياهها . ولما اطمان باله من قبيل ذلك عكف على الداخية فاقبل على قصر ابيه وزاد فيه واخذ الميادين فجعله كله بستاناً وزرع فيه انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وانواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً منذهباً وجعل بين النحاس واجسام النخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه من الرياح المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهد البستاني بالقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وطعموا له شجر المشمش باللوز واشبه ذلك . وبنى في البستان برجاً من خشب الساج المنقوش بالقر النافر اي قوم مقام الاقفاص وسرح فيه من اصناف القهاري والدباسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت . وجعل فيه او كراماً تفرخ الطيور فيها وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها . وعمل في داره مجلساً في رواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد على احسن نقش وجعل في حيطانه صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياها والمغنيات اللاتي يغنينه بما عليهن من اللباس بالوانه وجعل عليهن من الحلي مثل ما اعتدن لبسه

وجعل امام هذا البيت فسقية ملاً هازبناً . وسبب ذلك انه شك الى طبيبه الارق فاشار عليه بالتغميز فانف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعاً طولاً في ٥٠ عرضاً وملاها من الزئبق وجعل في اركان البركة سكباً من الفضة الخالصة وجعل في السكك زناير من حرير في حلق من الفضة . وعمل فراشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحك حينئذ شده وبقي على تلك البركة وتشد زناير الحرير التي بجلق الفضة في سكك الفضة وينام على هذا الفراش ولا يزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه . ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه في عمل هذه البركة

وبنى ايضاً بالقصر قبة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيراً ما يجلس فيها ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميديناً آخر اكرم من ميدان ابيه . وبنى ايضاً في داره داراً للسباع « عمل فيها بيوتاً بازاج كل بيت يسع سبعاً ولبوته وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السباع سياساً يقومون بما تحتاج اليه من الطعام والشراب والتنظيف وكان من جملة

هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد انس بخارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً ويقام له بوظيفته من الغناء في كل يوم . فاذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه يلتقط ما يرميه اليه من فضلاتها . فاذا نام جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سر بر ربض بين يدي السرير واذ كان على الارض فيجانبه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة

واتسعت ايضاً اصطبلات خمارويه فعمل لسلك صنف من الدواب اصطبلاً مفرداً وعمل للخورداراً مفرداً ومثل ذلك للفهود والفيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجزيرة . وكان له ايضاً بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل حلبة السباق وللرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في ايامه تسعمائة الف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في ايامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغلماص على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجاسون للاعياد وكان له معرض للخيل فريد

وقد تقدم ان خمارويه قتل اخاه وكان ذلك بايعاز ابي عبد الله قائد جنود الشام ثم خاف ابو عبد الله ان يعود خمارويه الى الانتقام منه اذ يندم على قتل اخيه فعمد الى المكيدة فكتب الموفق يقول له « ان هذا الغلام خمارويه لا يفهم من امور الاحكام الا انها وسيلة للتمتع بالملاهي » وكتب اليه غير ذلك مما شوق الموفق الى الاستيلاء على مصر . واخذت العداوة تنمو بينهما من ذلك الحين . وفي سنة ٢٧١ هـ حصلت واقعة عظيمة بين احمد ابن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وخمارويه تدعى واقعة الطواحين

واقعة الطواحين

وتفصيل واقعة الطواحين ان احمد بن الموفق لولا ما كان في قلبه من البغض لخمارويه لم يستول على دمشق لان ابا عبد الله سلمه اياها بدون حرب . فلما علم خمارويه بذلك جرد جيشه قاصداً استرجاعها حتى بلغ الرملة ومعه سعيد الابر قائد الجنود المصرية العام فبلغ ذلك المعتضد بالله فسار من دمشق نحو الرملة الى عساكر خمارويه فاتاه الخبر بوصول خمارويه الى عساكره وكثرة من معه من الجموع فهم بالعود فلم يمكنه اصحاب خمارويه الذين صاروا معه . وكان المعتضد قد اوحش ابن كنداج وابن ابي الساج ونسبهما الى الجبن حيث انتظراه ليصل اليهما ففسدت نياتهما معه . ولما وصل خمارويه الى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين فلما كنه فمسيب الواقعة اليه . ثم وصل المعتضد وقد عي اصحابه وكذلك ايضاً فعل

خمارويه وجعل له كميناً عليهم سعيد الايسر . خملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهمزت . فلما رأى ذلك خمارويه ولم يكن رأى مثله قبله ولى منهزماً في نفر من الاحداث الذين لاعام لهم بالحرب ولم يقف دون مصر فزل المعتضد الى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر . فخرج الذب عن عليهم سعيد الايسر وانضاف اليهم من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بالنهب ووضع المصريون السيف فيهم فظن المعتضد ان خمارويه قد عاد فركب وانهمز ولم يلو على شيء . فوصل الى دمشق ولم يفتح له اهله ابوابها فغضى منهزماً حتى بلغ طرسوس وبقي العسكران يتضاربان بالسيوف وايسر لواحد منهما امير . فطلب سعيد الايسر خمارويه فلم يجده فاقام اخاه ابا العشائر وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وقال سعيد للعساكر « ان هذا اخو صاحبكم وهذه الاموال تنفق فيكم » ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشعب بالاموال . وسير بالبشارة الى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل لهزيمة غير انه اكثر الصدقة وفعل مع الاسرى فعلة لم يسبق الى مثاها قبله . فقال لاصحابه ان هؤلاء اضيافكم فاكرمهم ثم احضروهم بعد ذلك وقال لهم من اختار منكم القيام عندنا فله الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جهزناه وسيرناه . ففهم من اقام ومنهم من سار مكرماً وعادت عساكر خمارويه الى الشام ففتحتها اجمع فاستقر ملك خمارويه له . وهذه



الواقعة كانت الاخيرة بين خمارويه والموفق ثم عادت الصلات الودية بين الاثنين وضربا النقود وعليها اسماهما واسم المعتمد في وقت واحد كما ترى في الشكل الاربعين

ش ٤٠ — نقود عليها اسماء المعتمد والموفق وخمارويه

وفي سنة ٢٧٨ هـ توفي الموفق وبابق قواده بولاية العهد لابنه المعتضد بعد المفوض ابن اخيه . وفي اول سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ولاية العهد عن ابنه المفوض وجعلها للمعتضد . وفي تلك السنة توفي الخليفة المعتمد على الله بعد ان حكم ٤٣ سنة فبويج ابن اخيه المعتضد بالله فاعتنم خمارويه الفرصة لتوطيد العلائق بينه وبين الخليفة الجديد فانفذ الحسين بن عبد الله المعروف بابن القصار وفداً الى بغداد ومعه الهدايا الثمينة يعلن الخليفة ان مصر ستؤدي الخراج وقدره مائتا الف دينار . وانها ستدفع ايضاً عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار . فاجابه الخليفة بتثبته في امارته لمدة ٣٠ سنة على ما كان تحت امارته او اماره ابيه وارسل اليه ايضاً الخلعة والسيوف المختصين بهذا المنصب

فدفع خارويه الدفعة الاولى تماماً لكنه تأخر بعد ذلك رويداً رويداً على انه لم يكن يغفل عن توطيد علائق المودة بينه وبين الخليفة فأرسل اليه وفداً يعرض عليه زفاف ابنته قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بان يكون الزفاف له . وحصل ذلك على اعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت معها عمها العباسة بنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر اعمال مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وبنيت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر له السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سلطانه فامر طنج ابن جف امير دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر طرسوس الى بلاد الروم . ففعل وحارب الروم واستولى على عدة مدن وعاد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بزفاف قطر الندى سودت بموت خارويه مقتولاً في دمشق . وذلك انه نبي اليه ان بين بعض نساءه وبعض كبراء خدامه علائق حبية سرية فشق ذلك عليه فأخذ في تحقيق الامر وتأكد الجرم على فاعله ومقاصته بما يقتضيه العدل نخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع نساءه على قتله لينجوا كلهم من شره فقتلوه على فراشه في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في كيفية قتله غير ذلك . وبعد موته التي القبض على عشرين من الخدم الذين وقعت عليهم الشبهة بعد التحقيق تأكدت الجريمة على العشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقات جثة خمارويه الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة ابيه احمد . وكانت مدة حكمه ١٢ سنة و١٨ يوماً وكان من احسن الناس خطأ . وحال موته بويع ابنه جيش الملقب بأبي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشده

جيش بن خمارويه

من سنة ٢٨٢ — ٢٨٣ هـ او من ٨٩٥ — ٨٩٦ م

وفي سنة ٢٨٣ هـ ابى طنج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلاده وبعديسير ثارت الجيوش في مصر بدعوى انهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صيماً لم يبلغ رشده ولا يعرف شيئاً من امور الاحكام . وكان اذا ابدل رجلاً بآخر قالوا قد اختار من هو في سنه او على شاكلته . وبعد تسعة اشهر من حكمه ثار عليه الجميع وقتلوه ونهبوا قصره واحرقوا المدينة

هارون بن خمارويه

من سنة ٢٨٣ - ٢٩٢ هـ أو من ٨٩٦ - ٩٠٤ م

واقام زعماء الثورة اخاه هارون مكانه . وقيل ان المعتضد ثبته على مصر لانه وعده باليحمه اليه مقداره مليون من الدنانير . وفي السنة المذكورة توفي لؤلؤ وهو الذي كان يسعى بين احمد بن طولون والموفق سعيآ آلى الى حرب بين الفريقين . وكان لؤلؤ قد ضم جيشه الى جيش الموفق في محاربة الزنج الا انه لم يأت ذلك الضم بفائدة تذكر . ولما وصل احمد بن طولون الى الشام لم يستطع القبض على لؤلؤ نفسه فقبض على ما كان له في ومشق من الاهل وفيهن نساؤه واولاده وسراريه وابعهم في سوق الفسطاط . فلما بلغ ذلك لؤلؤاً اخذ منه الغيظ كل مأخذ فتوجه الى الموفق وطلب اليه ان يعطيه جنداً ليغزوه به مصر ويمتلكها وينتقم من ابن طولون . وكان الموفق قد عقد صلحاً مع ابن طولون كما تقدم ولم يشأ ان يجيب لؤلؤاً سلباً فوعده بنيل مرغوبه وكرر الوعد مرارا وانما فعل الموفق ذلك على نية ان يستبقه عنده لعله يحتاج الى مصالحة ابن طولون فيرسله اليه هدية . ولما توفي ابن طولون بقي لؤلؤ في خدمة الموفق ٣ سنوات واخيراً جرده من امواله وطرده من خدمته فأتى مصر حيث بيعت نساؤه واولاده وبقي فيها الى ان مات شرموتة

وفي سنة ٢٨٤ هـ اي بعد تنصيب هارون بسنة اخذ الاهلون ورجال الحكومة يقللون من الطاعة له ويحتفرون اوامره شيئاً فشيئاً حتى صاروا في استعداد كلي لنبتد الطاعة والمجاهرة بالعصيان . ورئيس هذه الثورة طعيج بن جف صاحب الشام . وفي سنة ٢٨٥ هـ علم المعتضد بما كان من تقسيم بلاد هارون وكره الرعايا له فراى ان يغتنم الفرصة لاسترجاع تلك البلاد لسلطانه كما كانت في عهد اسلافه . فتقدم نحو آمد فبايعه حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان مستقلاً بها ثم تقدم الى قنسرين وتملكها فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل وله من رعاياه اعداء الداء فكتب المعتضد انه مستعد لتسليمه البلاد التي هي قريبة من العيصان عليه وكتب ايضاً الى حكام قنسرين والعواصم جميعها ان يدعوا السلطة الخليفة المعتضد فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يده على تلك الاماكن فبايعه اهلها

القرامطة

وفي سنة ٢٨٩ هـ زادت القلاقل التي كانت تهدد هارون بانتشار القرامطة في سوريا. ومنشأ هذه الطائفة بالبحرين سنة ٢٨١ هـ ويقال في كيفية ظهورها ان رجلاً يعرف يحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلي بن حمدان مولى الزيايين وكان يغالي في التشيع . فظهر له يحيى انه رسول المهدي وانه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى امره وان ظهوره قد قرب . فوجه علي بن المعلي الى الشيعة من اهل القطيف فجمعهم وقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي اليهم من المهدي . فاجابوه انهم خارجون معه اذا ظهر امره . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فاجابوه وكان فيمن اجابه سعيد الجنابي وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ثم رجع ومعه كتاب يزعم انه من المهدي الى شيعته ونصه « قد عرفني رسولي ابن المهدي مسارعتم الى امري فليدفع اليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلاثين » ففعلوا ذلك ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب مفاده ادفعوا الى يحيى خمس اموالكم فدفعوا اليه الخمس . وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد لهم كتباً ويزعم انها من المهدي وانه ظاهر فيكونون على اهبة . وصار امر هؤلاء ينشر وعددهم يتعاظم حتى طمعوا بالغزو فباغوا الشام واستفحل امرهم حتى حاربوا طنج صاحب دمشق وحاصروها سنة ٢٩٠ هـ فاجتمع اليها جميع قوات الشام وهاجموا القرامطة وشتتهم بعد ان قتلوا شيخهم يحيى وفي سنة ٢٩٢ هـ كان على دست الخلافة العباسية الخليفة المسكتفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ما كان نواه سلفه في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى الشام تحت قيادة محمد ابن سليمان فتملكها حالاً وكانت له مباءة ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ عاصمتها (الفسطاط) فاستعد هارون للمدافعة ورجاله يتقصون يوماً فيوماً لما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء بعد كل وقعة . ولم يكن ذلك منتهى الشقاء فان معسكر هارون نفسه كان مرسحاً تتلاعب فيه الدسائس وينذو فيه الخصاص بين رجاله . واشتد القتال بينهم يوماً فركب هارون جواده واخذ في ردهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من احد المغاربة فسقط ميتاً في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها نعاسة وشقاء ويقال ان عمه شيان هو الذي قتله

شيبان بن أحمد

من سنة ٢٩٢ — ٢٩٢ هـ أو من ٩٠٤ — ٩٠٤ م

وانقضاء الدولة الطولونية

وفي يوم موته اقيم عمه شيبان مكانه الا انه لم يهنأ بالحكم لان الناس رفضوه بصوت واحد وخابروا محمد بن سليمان ان يعطيهم الامان فأمنهم ثم حرضوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل الباسة فلقبه طغيح في اناس من القواد كثيرين فساروا به الى الفسطاط عوا قبل اليهم عامة اصحاب شيبان

ولما راي شيبان اصرارهم على ذلك ولم يبق لديه احد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فاعطاهم الامان فبايعوه . اما شيبان فلم يكن بأمن من سكنة في مدينة اقام فيها مغتصبها منه ففر من المعسكر ليلاً فبعث محمد بن سليمان من يقبض عليه فلم يظفر به وقال آخرون انه لم يفر ولكن قتل جزاء قتله هارون بعد عشرة ايام من قتله . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد ان حكمت ٣٧ سنة وبضعة اشهر

ويوم الخميس اول ربيع اول من تلك السنة التي محمد بن سليمان النار في القطائع ونهب اصحابه الفسطاط وكسروا السجون واخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا واهتكوا وفعلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك . واخرجوا ولد احمد بن طولون وهم عشرون انساناً واخرجوا قوادهم ولم يبق في مصر منهم احد يذكر . وخت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الايام . ثم سيق اصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه . وقتل من السودان سكان القطائع خلق كثير وهكذا بادت دولة بني طواون فرثهم الشعراء والكتباء . وقد وقفنا على قصائد لكثير من الشعراء المعاصرين للدولة المذكورة يرثونها بها ويبالغون في الاسف عليها منهم احمد بن محمد الحبيشي واحمد بن يعقوب واسماعيل ابن ابي هاشم وسعيد بن القاضي واحمد بن اسحاق الجفري ومحمد بن طسويه وغيرهم . فما قاله سعيد بن القاضي من قصيدة طويلة قد مر بعضها قوله

جرى دمه ما بين سحر الى نحر ولم يجز حتى اسلمته يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا اسي يبيت على جمر ويضحى على جمر

وغدر من الايام والدهر ذو غدر
 ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
 امرٌ على الاسلام فقدأ من القطر
 جميل الحيا لا بيت على وتر
 واشراقها في عصره ليلة القدر
 محلقة بين السماكين والغفر
 يخبر عنه بالجلي من الامر
 له مسجد يغني عن المنطق الهذر
 على جبل عال على شاهق وعر
 ويهدي به في الليل ان ضل من يسري
 وعين اجاج للرواة وللظهر
 لقليل لقد جاءت بمستفزع نكر
 وتوسعة الارزاق للحول والشهر
 الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
 من الناس في بدو البلاد ولا حضر
 كما قام ايث الغاب في الاسل السمر
 فاصبح مسلوباً من النهي والامر
 كذلك ابو الاشبال ذو الناب والهصر
 ولكن جيشاً كان مستقصر العمر
 على كظظ من ضيق باع ومن حصر
 عقاربه من كل ناحية تسري
 لفقدهم فليك حزناً على مصر
 فبورك من دهر وبورك من عصر

تتابع احداث يضيعن صبره
 اصاب على رغم الانوف وجدعها
 ووقد بني طولون في كل موطن
 وكان ابو العباس احمد ماجداً
 كأن ليالي الدهر كانت لحسنها
 يدل على فضل ابن طولون همة
 فان كنت تبغي شاهداً ذاعدالة
 فبالجبل الغربي خطة يشكر
 وتصور فرعون الذي فوق قلة
 بني مسجداً فيه يروق بناؤه
 وعين معين الشرب عين زكية
 بناء لو ان الجن جاءت بمثله
 ولا تنس مارستانه واتساعه
 وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً
 ترى اثرأ لم يبق من يستطيعه
 وقام ابو الجيش ابنه بعد موته
 اتته المنايا وهو في امن داره
 وورثت هارون ابنه تاج ملكه
 وقد كان جيش قبله في محله
 فقام بامر الملك هارون مدة
 وما زك حتى زال والدهر كاشح
 فمن يبك شيئاً ضاع من بعد اهله
 ليبيك بني طولون اذ بان عصرهم

اما القرامطة فاغتموا غياب الجيوش لمحاربة مصر وعادوا الى ما كانوا عليه في سوريا
 فعلم محمد بن سليمان بذلك فسافر الى بغداد مستخلفاً في مصر حاميتها وجيش الخليفة .
 الا ان الامور لم تكن قد سكنت تماماً فنار ابن قلندج وضم اليه عصابة سببت اضطراب
 الراحة فاستدركها ابن كيغلع حاكم سوريا فترك دمشق ومعه جيش الخليفة الذي كان

تحت قيادته وجاء لاجتماع ثورة مصر فاغتنم القرامطة فرصة اخرى واستولوا على دمشق وتقدموا الى طبريا فهبوها واكدتهم لم يتجاوزوها مخافة ان تلاقىهم الجيوش التي كانت في مصر فعادوا قاصدين الكوفة وكان هناك من المواقع ما لا علاقة له بهذا التاريخ

الدولة العباسية للمرة الثانية

من سنة ٢٩٢ - ٢٢٣ هـ او من ٩٠٥ - ٩٣٤ م

خلافة المكتفي بن المعتضد

من ٢٩٢ - ٢٩٥ هـ او من ٩٠٥ - ٩٠٨ م

فعدت مصر الى ساطة الدولة العباسية في خلافة المكتفي فاقام عليها عيسى النوشري . وبعد ٣ سنوات توفي المكتفي يوم الاثنين في ١٣ ذي القعدة سنة ٢٩٥ هـ وعمره ٣١ سنة ٣ اشهر بعد ان حكم ٦ سنوات و٧ اشهر و٢٢ يوماً

خلافة المقتدر بن المعتضد

من ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ او ٩٠٨ - ٩٣٢ م

وفي يوم وفاة المكتفي بويج اخوه جعفر المقتدر بالله وعمره ١٣ سنة . فام يحدث في الامارات تغييراً يذكر فافر عيسى النوشري على مصر . على ان هذا اضطر بعد حين ان يتخلى عنها محمد بن الحليج ولم يلبث بضعة اشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات وفي شعبان سنة ٢٩٧ هـ توفي فابدل بتكين الخزري ابي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ هـ فأقيل واقام مقامه زكا الرومي ابو حسن الاعور . فتول مصر خمس سنوات ومات في ربيع الاول سنة ٣٠٢ هـ فأعيد تكين ثانية . وبعد

ايام توفي تكين تاركاً ولداً يدعى محمداً . وهذا وضع يده على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . اما الخليفة المقتدر فقتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ وعمره ٣٨ سنة بعد ان حكم ٢٤ سنة و ١١ شهر و ١٦ يوماً

خلافة القاهر بن المعتضد

من ٣٢٠ — ٣٢٢ هـ او من ٩٣٢ — ٩٣٤ م

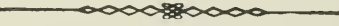
فبويح اخوه القاهر بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاصَّ محمد بن تكين على جسارته فولى على مصر ابا بكر محمد بن طغح ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا مدة من الزمن عرفت بالدولة الاخشيدية

مبدأ الدولة الاخشيدية

وكان ابو بكر محمد ابن طغح في ذلك الحين حاكماً في دمشق واصله من اولاد ملوك فرغانة . وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جاب اليه من فرغانة جماعة من اقوياء الرجال ووصفوا له جف (جد ابي بكر محمد) وغيره بالشجاعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم من احضرهم . فلما وصلوا اليه بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع في سامراً وفي جملتها قطائع جف فاقام جف في سامراً (او سر من رأى) وجاءته الاولاد وتوفي في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل الاربعاء في ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ وخرج اولاده الى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معاش . واتصل طغح بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو اذ ذلك مقيم بديار مضر (في ما بين النهرين) فاستخدمه على ديار مضر ثم انحاز طغح الى جملة اصحاب اسحق بن كنداج . فلم يزل معه الى ان مات احمد بن طولون وجرى الصلح بين ابنه خمارويه وبين اسحق بن كنداج . ونظر ابو الجيش خمارويه الى طغح بن جف في جملة اصحاب اسحق فاعجب به واخذته من اسحق وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق او طبرية ولم يزل معه الى ان قتل ابو الجيش فرجع طغح الى الخليفة المكتفي بالله نفاع عليه وعرف له ذلك . وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فسام طغح ان يجري بالتزلف مجرى غيره .

فكبرت نفس طغخ عن ذلك فاغرى به المكتفي فقبض عليه وحبسوه وابنه ابا بكر محمد ابن طغخ المذكور فمات في السجن وبقي ولده ابو بكر معه محبوساً مدة ثم اطلق وخلع عليه . ولم ير اسل العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى اخذ بثار ابيه هو واخوه عبيد الله في الوقت الذي قتله فيه حسين بن احمد بن حمدان

وخرج ابو بكر واخوه عبيد الله في سنة ٢٩٦ هـ وهرب عبيد الله الى ابن ابي الساج . وهرب ابو بكر الى الشام واقام متغرباً بالبادية سنة ثم اتصل بابي منصور تكين الخزري فكان اكبر اركانها . ومما كبر به اسمه سريته في البعث الى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم سنة ٣٠٦ هـ وهو حينئذ يتقدم عمان وجبل الشراة من قبل تكين المذكور وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من امرهم بقتل من قتله واسر من اسره وشرد الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت فانفذ اليه خلعاً وزاده في رزقه . ولم يزل ابو بكر في صحبة تكين الى سنة ٣١٦ هـ ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك وسار الى الرملة فوردت كتب المقتدر اليه بولاية الرملة فاقام بها الى سنة ٣١٨ هـ فوردت كتب المقتدر اليه بولاية دمشق وسار اليها ولم يزل بها الى ان ولاء القاهر بالله ولاية مصر في رمضان سنة ٣٢١ هـ لكنه لم يذهب الى مصر لاستلام المنصب المشار اليه ولم يلقب به الا مدة شهر فقط . ثم عين الخليفة مكانه احمد بن كيغخ سنة ٣٢١ هـ وحصل في تلك الايام اضطرابات في الخلافة باغ صداها القطر المصري



خلافة الراضي بن المقتدر

من سنة ٣٢٢ — ٣٢٣ هـ او من ٩٣٤ — ٩٣٤ هـ

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ هـ عزل القاهر بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و ٦ اشهر وستة ايام وفي اليوم الثاني بوبع ابن اخيه الراضي بالله بن المقتدر و حال توليته الخلافة عزل ابن كيغخ عن مصر وولى مكانه محمد بن طغخ فقدم لاستلام الامارة فامتنع ابن كيغخ من تسليمه وتخاصم حتى عمدا الى السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغخ وفر احمد بن كيغخ بمن معه من ذويه الى برقة ومنها الى القيروان

مبدأ الدولة الفاطمية

وكانت القيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن العباسيين تدعي الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين وهم من كتامة بالقرب من فاس في الطرف الغربي من افريقية ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة اخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها لقبهم . ويلقبون ايضاً بالاسماعيليين والعبديين والعلويين وكانوا قد اخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩هـ في شمالي افريقيا وغربها في احزاب من الاغلبة والادريسيين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني امية في الاندلس

وفي سنة ٢٨٠هـ استولى زعيم الفاطميين ابو محمد عبيد الله على القيروان . وفي سنة ٢٩٦هـ رأى من نفسه القوة فادعى الخلافة فبويغ ولقب بالخليفة عبيدالله المهدي وانه آخر الأئمة العلويين الذي يدعي انه منهم وانه احق من سواه بالخلافة . فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منها خليفة يدعي الاحقية بالخلافة وهم بنو امية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في القيروان . فلما سمع عبيد الله المهدي زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي عليه من الثروة والخصب تآقت نفسه اليها واخذ يسعى في الاستيلاء عليها

وبعد خلافته بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١هـ بعث الى مصر اربعين الف مقاتل في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها . فعلم الخليفة المقتدر بالله بما نواه المهدي فجهز جيشاً لدفع هذه الرزية عن مصر فحرت بين الفريقيين وقائع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية . فعاد الفاطميون على اعقابهم وطاردهم المصريون حتى اخر جوفهم من حدود مصر . فرأى عبيد الله بعد هذا الفرار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولكنه رأى ايضاً حصونه غير كافية فاسس مدينة دعاها المهدي نسبة اليه على ان تكون عاصمة وقتية ريثما يفتح مصر فيجعل عاصمتها عاصمته . لانه كان مصمماً على افتتاحها الا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيد الله ولا لخلفه الاول ولا الثاني . وفي سنة ٣٢٢هـ توفي عبيد الله المهدي وسنه ٦٣ سنة بعد ان تولى الخلافة الفاطمية ٢٦ سنة فتولى ابنه ابو القاسم محمد الملقب بالقيام بامر الله وكان اكثر تشوقاً للافتتاح من ابيه

وفي ايام القائم هذا جاء احمد بن كيغلع مطروداً من مصر يطالب ماجاً عنده وجعل يحثه على السير الى مصر وافتتاحها فرأى القائم ان في افتتاحها عظمة وفخراً فجهز اليها علم محمد بن طغج ذلك فحصد الحدود الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية . لكن ذلك

لم يمنع من نزول القضاء لان الفاطميين فتحوا الاسكندرية وبعد ان مكثوا قدمهم فيها تقدموا بجيوشهم حتى دخلوا القسطنطينية واحتلوا قسماً كبيراً من الصعيد . ثم رأى القايم بأمر الله ان جنده لايقوون على افتتاح العاصمة فاجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليه افتتاحها
 اما الدولة العباسية فكانت في غاية الضعف لان اماراتها اخذت تستقل عنها شيئاً فشيئاً . قاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون على خراسان والامويون على الأندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على ما بين النهرين وديار بكر وبنوبويه على بلاد فارس ولم يبق للعباسيين الا بغداد وبعض ضواحيها ومصر

الدولة الاخشيدية

من سنة ٢٢٣ - ٣٥٨ هـ او من ٩٣٤ - ٩٦٨ م

محمد الاخشيد

من سنة ٣٢٣ - ٣٣٤ هـ او من ٩٣٤ - ٩٤٦ م

فلما رأى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ما كان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على متقدم طلب نصيبه من تلك القسمة فصرح باستقلاله في مصر سنة ٣٢٤ هـ فاضطر الخليفة الى تسيته وملاكه فوق ذلك سوريا مع انها لم تكن بيده . وفي ٣٢٧ هـ لقبه بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانة وهو من اولادهم ومفاد هذه اللفظة في لغتهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانة لقبوه بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم كسرى والروم قيصر والترك خاقان واليمن تبع والحبيشة النجاشي الخ . ومن سلالة ابي بكر هذا جاءت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة امر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجزيرة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٢٨ هـ اعطى الخليفة الراضي بالله لقب امير الامراء لمحمد بن رائق صاحب فلسطين وكان مستقلاً عنه . فلاح له ان يغزو الشام وعليها الامير بدر بن عبد الله الاخشيدى من قبل الاخشيد فخاربه فهرب بدر فهرض محمد الاخشيد لانجاده مستخلفاً

في مصر اخاه الحسن وعسكر في الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت الى هناك فتوسط بعض الامراء في الامر فانصرفت النازلة بالتي هي احسن وتصالحا . فعاد محمد الاخشيد الى القسطنطينية وما بلغها حتى انبىء ان محمد بن رائق برح دمشق وفي نيته ان يهاجم مصر . فاسرع الاخشيد حالاً الى ما كان عليه فعاد بجيشه الى الشام فالتقى بمقدمة جيش ابن رائق في العريش فحصلت واقعة شفت عن انهزام جيش محمد بن رائق الى دمشق . فوضع محمد الاخشيد يده على الرملة واسر خمسمائة رجل من جيش ابن رائق وفي هذه الواقعة قتل حسين اخو الاخشيد . فما كان من ابن رائق مع ما كان بينه وبين الاخشيد من العدوان الا انه انفذ اليه ابنه مزاحماً ومعه كتاب يعزي الاخشيد فيه على فقد اخيه ويعتذر مما جرى ويخلف انه ما اراد قتله وانه قد انفذ ابنته ليفديه به ان احب ذلك . فلما بلغ مزاحم محمد الاخشيد اكرم مثواه وخلع عليه واصطلحوا على ان تكون البلاد من الرملة الى حدود مصر للاخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق ويحمل اليه الاخشيد عن الرملة ١٤٠٠٠٠ دينار كل سنة . وبعد ان اتم محمد الاخشيد هذه المعاهدة عاد بجيشه الى مصر سنة ٣٢٩ هـ

وفي ٦ ربيع اول من هذه السنة توفي الخليفة الراضي بالله وعمره ٣٢ سنة وشهور ومدة حكمه ست سنوات و١٠ اشهر وعشرة ايام فبويغ اخوه ابو اسحاق ابراهيم الملقب بالمتقي لله

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٨ هـ كما ترى في شكل ٤١



ش ٤١ - نقود الراضي بالله

وفي سنة ٣٣٠ هـ اقر المتقي لله محمد الاخشيد على مصر . ثم اتصل بمحمد الاخشيد ان محمد بن رائق قتله الحمدانيون فنهض لاسترجاع البلاد التي كان اقام بينه وبين ابن رائق المعاهدة عليها فدخل الشام مسرعاً ولم يعد الى مصر حتى استولى على دمشق وما جاورها . وسنة ٣٣١ هـ تأكد محمد الاخشيد ثبوت قوته فأوصى بالحكم من بعده لابنه ابي الفاسم محمود الملقب بانوجور

وفي سنة ٣٣٢ هـ حصل شغب في بغداد وسببه ان لقب امير الامراء الذي كان يهبه الخليفة لكبار الاتراك اصبح في نظرهم اشرف من الخلافة فثاله توزون وجعل يقاوم

الخليفة في احكامه حتى اضطر الخليفة الى ترك بغداد وهاجر الى الموصل. فاستجار هناك بناصر الدولة وسيف الدولة من بني حمدان واستنصرهما فنصراه وجردا جيشاً قوياً وسارا ومعهما الخليفة الى بغداد فهاجموا توزون فغلبهم وعادوا على اعقابهم الى الموصل فنخلع الخليفة على كل من الاميرين الحمدانيين خاتمة الشرف وهي غاية ما كان للخلفاء ان يهبوه في ذلك العهد. ثم سار الخليفة من الموصل الى الرقة فلاقاه كتاب توزون يدعوه للعود الى بغداد. فلما رأى الخليفة ان نصراه من بني حمدان عجزوا عن نجاته لاح له قول مادعاه اليه توزون وقبل ان يهم بذلك جاءه محمد الاخشيد من مصر يدعوه اليها مباء له فرفض فألح عليه الاخشيد وعاهده ان يقوم بكل ما يحتاج الخليفة اليه من النفقات والارزاق بشرط ان لا يعود الى بغداد وباقي نفسه بين ايدي توزون. فتردد الخليفة بين الامرين. فلما رأى توزون المذكور تمنع الخليفة عن القدوم الى بغداد خشى ان يكون على ثقة ممن ينصره عليه فجاءه بنفسه وترامى على قدميه والى عليه ان يتوجه معه الى بغداد زاعماً انه لا يعرف احداً غيره خليفة على المسلمين. فسار معه ولم يكذب يبلغ تلك العاصمة حتى خلعه في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ بعد ان حكم ٤ سنوات و١١ شهراً وولى مكانه ابا القاسم عبد الله بن المكتفي ولقب بالمستكفي بالله. وفي ٢٢ جمادى الثانية سنة ٣٣٤ هـ عزل المستكفي بعد ان حكم سنة و٤ اشهر ويومين. فبويغ مكانه الفضل ابن المقتدر ولقب المطيع لله وتوفي هذا على دست الخلافة ٣٠ سنة وهو آخر من كانت له السيادة على مصر من الخلفاء العباسيين



وعدته صورة النقود التي ضربت على عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٥٣ هـ كما ترى في شكل ٤٢

ش ٤٢ - نقود الخليفة المطيع لله

اما محمد الاخشيد فلما رأى الخليفة المنقبي ميالاً الى مطاوعة توزون في المسير الى بغداد مكث في دمشق بضعة ايام ثم عاد الى مصر. فسار سيف الدولة الى حلب وكان حاكمها يانس المونسي من قبل الاخشيد فخاربه فاستولى عليها. ثم سار متعقباً ابراهيم الأوكيلي قائد الجيوش المصرية وغلبه بين سرمين والمعرة واستولى على دمشق وكانت الى ذلك العهد في حكم محمد الاخشيد. فارسل محمد الاخشيد في الحال كافوراً الى الشام وكان من مواليه وله فيه الثقة التامة وارسل معه جيشاً كبيراً وكان كافور عبداً أسود خصباً مثقوب الشفة السقلى بطيناً قبيح القدمين معتل البدن

جلب الى مصر وعمره عشر سنين فما فوقها في سنة ٣١٠ هـ فباعه الذي جلبه لمحمد بن هاشم احد المتقبلين للضياع . فباعه لابن عباس السكاتب واتفق ان ابن عباس السكاتب ارسله يوماً الى الامير ابي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهو يومئذ احد قواد تكين امير مصر فأخذ كافوراً ورداً الهدية فترقي عنده بالخدمة حتى صار من اخص خدمه . فلم يكن باسع من ورود الخبر من دمشق بان سيف الدولة علي بن حمدان اخذها وسار الى الرملة حتى خرج للملاقاة فالتقى الجيشان يوم الجمعة فاعتذر بنو حمدان انهم لا يحاربون في هذا اليوم المبارك فتركوا معسكرهم وساروا يطوفون في الخلاء المجاور فهجم كافور على معسكرهم وسلب مؤنهم ففر سيف الدولة الى حمص فتبعه كافور فسار الى حماه ومنها الى رستو فتبعه كافور وكان سيف الدولة في انتظاره هناك بقدم ثابتة فلما قدم جيش كافور وجد بينه وبين العدو نهر العاصي فاضطر الى عبوره بجيشه فاغتم سيف الدولة فرصة في غاية المناسبة والعساكر المصرية ساجحة في الماء وهجم عليهم فأخذ منهم خمسة آلاف اسير وجميع امتعتهم وفرّ كافور الى حمص ومنها الى دمشق

فلما بلغ ذلك محمد الاخشيد سار من مصر بجيش كبير حتى اتى العرة . فعلم سيف الدولة بمجيء الجيوش المصرية بقيادة الاخشيد فباله الامر ولكنه لم يشأ الفرار فعزم على ان يهاجم العدو مهاجمة اليأس . فارسل خزائنه وعبئده وحرمه الى ما بين النهرين وتقدم بجيشه امامة الاخشيد فالتقيا في قنسرين فقسم محمد الاخشيد جيشه الى فرقتين جعل الراحة الى الامام وسار هو في عشرة الاف رجل من نخبة الرجال الى الورا . فهاجم سيف الدولة الفرقة الامامية وشدها اما فرقة الاخشيد فكانت راسخة القدم فلم يقدر سيف الدولة على تشديتها تماماً ولكنه استولى على بعض متاعها . فافترق الجيشان ولم تنه الغلبة لاحدهما . وسار سيف الدولة الى منبج فعبر بحيرتها قاصداً ما بين النهرين . فرض في الرقة وكانت جيوش محمد الاخشيد هناك ويفصل الجيشين نهر الفرات وبقيا عدة ايام بدون حرب . ثم اصطالحا على ان تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة ومن حدود حمص الى حدود بلاد العرب تبقى لمحمد الاخشيد . وحضروا خندقاً بين جوشنا ولبوه حدّاً فاصلاً بين المقاطعتين حيث لا يوجد لها حدود طبيعية . وتأيداً لهذا الصلح تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد وعاد كل منهما الى بلاده . الا ان المصالحة المذكورة لم تلبث حتى نقضت وحصل بين الاخشيد وبني حمدان مواقع آلت الى استرجاع حلب للاخشيد

وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي محمد الاخشيد في دمشق في ذي الحجة وعمره ستون سنة ومدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر ويومان ودفن في القدس الشريف . وكان ممتازاً بصفات حميدة اخصها البسالة والتدبير في الحرب فكان ملكاً حازماً شجاعاً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته حسن التدبير مكرماً للجند شديد العزل لا يكاد يجز غيره قومه . وكان له ثمانية آلاف مملوك يجرسه في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم اذا سافر ثم لا يثق حتى يمضي الى خيم الفراشين . وكان لا ينام ايامين متواليتين في مكان واحد فله يكن احد يعلم بمكان نومه . على ان المؤرخين لم يطلعونا على شيء صريح عن حدود مملكته باختلاف الازمان وان قالوا انها نحو المملكة الطولونية في زمانها اي انها تشمل مصر وفلسطين وسوريا الى الفرات وقسماً كبيراً من بلاد العرب . وقد شكى المسيحيون من جوره . فكان اذا جرد حملة واحتاج لاعانة اخذها منهم ولو باعوا اثاث بيوتهم او كنائسهم في سبيل ذلك . وقال احد المؤرخين المعاصرين ان محمد الاخشيد كان يرد لهم ما يأخذونه في سبيل الاعانة . ومما يرى ساحة الاخشيد انه ظفر بمخباة في بعض الآثار القديمة اصاب فيها اشياء تساوي مبالغ وافرة فلم يكن والحالة هذه في حاجة الى سلب مال الاهلين

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد محمد الاخشيد سنة ٣٣٢ هـ كما ترى في الشكل ٤٣



ش ٤٣ — نقود محمد الاخشيد

انوجور بن الاخشيد

من ٣٣٤ — ٣٤٩ هـ او من ٩٤٦ — ٩٦١ م

وتولى بعد محمد الاخشيد ابنه ابو القسم محمد الملقب بانوجور . وكان صغير السن ضعيف الرأي فعهد بتدبير الاحكام الى كافور وزير ابيه . وكان كافور يعمل لابي القسم بامانة ونشاط يستوجب عايمها المدح . فعزل ابا بكر محمداً جابي الخراج لتعدد الشكايات وثبوتها عليه واقام مقامه رجلاً من ماردين يقال له محمد كان عفيفاً مستقيماً . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيد وسفر ابنه الى مصر فشحخص هو الى دمشق

واستولى عليها . واسرع كافور بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادماً من دمشق والتحم الفريقان فانهمز سيف الدولة الى الرقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ هـ اغار ملك النوبة على مصر حتى اتى اصوان فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد بن عبد الله الخازن عن طريق البر وانفذ عمارة بحرية في النيل وفرقة سارت في البحر الاحمر فزات على سواحله ومنها الى ما وراء النوبة اتسد على النوبيين السيل . فتضايح النوبيون وفروا يطالبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم (على ١٥٠ ميلاً وراء اصوان) في ايدي المصريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ هـ توفي انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة ايام وولي مكانه اخوه علي الملقب بابي الحسن

ابو الحسن علي بن الاخشيد

من ٣٤٩ - ٣٥٥ هـ او من ٩٦١ - ٩٦٦ م

وحكم ابو الحسن علي مصر خمس سنين وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع اخيه انوجور . وفي سنة ٣٥١ هـ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم لاري . وكان في السنة التالية اقل ارتفاعاً ثم هبط بغتة والارض لم ترتو فحصل في مصر جوع شديد تعاقب القحط بعده ٩ سنوات رافقه اضطراب آل الى الانشقاق بين ابي الحسن وكافور

وفي اثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم روم القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور نيسوفورس فوكاس الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فاستولوا حلب وكانت لاتزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتقوا بسيف الدولة فخاربه فتنجد صاحب دمشق تحت رعاية الاخشيديين واسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة آلاف رجل وعلم نيسوفورس بمجيء هذا المدد فاختر الرجوع

كافور الاخشيدى

من ٣٥٥ — ٣٥٧ هـ او من ٩٦٦ — ٩٦٨ م

وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ توفي ابو الحسن علي نخلفه كافور وتلقب بالاخشيدى وطاب من الخليفة المطيع لله ان يثبتته في مصر ففعل . وهكذا عادت سلطة العباسيين الى مصر . وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها .
وبقي كافور في منصبه هذا سنتين و٤ اشهر . وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فاخذوا في مد ساطتهم رويداً رويداً الى سائر الصعيد .
وتوفي كافور في ١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ هـ ودفن في القرافة الصغرى . وقبته معروفة هناك

احمد ابو الفوارس بن علي

من ٣٥٧ — ٣٥٨ هـ او من ٩٦٨ — ٩٦٩ م

نخلف كافوراً احمد ابو الفوارس بن ابي الحسن علي بن محمد الاخشيد ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احدى عشرة سنة فلم يثبتته خليفته في الحكم . اما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسيناً الاخشيدى الا انه ما لبث ان استتب له المقام حتى جاءه القرامطة واخذوا البلاد من يده ففر الى مصر قاصداً اغتيالها من احمد ابي الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيدية على نفسها قرب حين انقراضها شأن الممالك والدول . فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين اعضاء الاسرة الحاكمة ملوا الانتظار فساروا يستجدون الفاطميين وكانوا قد تملكوا قسماً عظيماً من مصر فابوا الدعوة ففرَّ حسين الى سوريا واستولى على دمشق . واما احمد ابو الفوارس فعزل من مركزه وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيدية وبعزله انتهت ايام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و٢٤ يوماً

الدولة العاطمية

من سنة ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ او من ٩٦٩ — ١١٧١ م

خلافة المعز لدين الله

من سنة ٣٥٨ — ٣٦٥ هـ او من ٩٦٩ — ٩٧٥ م

وكانت الدولة الفاطمية اذ ذاك في خلافة معد ابي تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بامر الله وقاعدتها المهديّة وسلطتها منتشرة على افريقية (يراد بها شمالي افريقية من برقة الى مراکش) ومالطة وسردينيا وصقلية واكثر جزائر البحر المتوسط . وما فتئ هذا الخليفة منذ جلوسه على دست الخلافة يمد سطوته في القطر المصري وقد حاول افتتاحه غير مرة ولم يفرز . حتى اذا كان الخلاف بين ابي الحسن علي وكافور تقدم . فلما تولى كافور على هذه الديار بنفسه توقف المعز قليلاً . وعند نهاية حكم كافور جرد جيشاً ارسله تحت قيادة جوهر

وجوهر هذا مملوك رومي رباه المعز لدين الله وكناه بابي الحسن وعظم محله عنده . وفي سنة ٣٤١٢ هـ صار في رتبة الوزارة فصيده قائداً للجيش وبعثه في صفر منها في جيش الى تاهرت فوقع في عدة اقوام وافتتح مدناً وسار الى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئاً فرحل الى سجلماسة ومنها الى ان باغ البحر المحيط (الانلانتيكي) واصطاد منه سمكاً وجعله في قلة ماء وبعث به الى مولاد المعز واعلمه انه قد استولى على كل ما مر به من البلدان والامم حتى انتهى الى البحر المحيط . ثم عاد الى فاس والح عليها بالقتال حتى افتتحها عنوة . ثم عاد في اخريات هذه السنة وقد عظم شأنه وبعد صيته

ولما قوي المعز عزم على تسيير الجيوش لاخذ مصر وقد تهيأ امرها . فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديه اكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه كل يوم ويخلو به ويتداول معه سرّاً واطلق يده في بيوت امواله فاخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه . ويحكى ان المعز خرج يوماً فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلن مصر بالاردية من غير حرب ولتزلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » وامر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان وامر اولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر اهل الدولة ان يمشوا في خدمة جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجلوا مشاة في خدمته . فلما قدم برقة افتدى صاحبها ترجله ومشيه في ركابه بخمسين الف دينار ذهباً فابى جوهر الا ان يمشي في ركابه ورد المال فشى

ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع اول سنة ٣٥٨ هـ ودعه اهله .
ومما قاله محمد بن هانئ بهذا الشأن قوله :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع
غداة كأن الافق سدّ بمثاه
فلم ادر اذ ودعت كيف اودع
ومنها قوله :

اذا حلّ في ارض بناها مدائناً
تحلّ بيوت العز حيث محله
رحلت الى الفسطاط اول رحلة
فان يك في مصر ظمأ لمورد
وان سار عن ارض غدت وهي بلقع
وجم العطايا والرواق المرفع
بايمن فال بالذي انت تجمع
فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

فما زال جوهر في طريقه الى مصر برّاً حتى دخلها وسار نحو الصعيد واسرع جنوباً ليرد هجمات ملك النوبة الذي كان نازلاً نحو مصر ولم يدركه جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح اهباها واستعبد من بقي حياً وعاد الى بلاده . أما جوهر فكان قد تملك الصعيد كله

ولما توفي كافور ووقع الخلاف بين ابي الفوارس وحسين كان جوهر على حدود الفسطاط فاتاه الاهاون والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة

في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ والتقوا بالقائد ونادى مناد فزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وساموا عليه واحداً فواحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه . ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد . ودخل جوهر بعد العصر وطبوله وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مثقل وتحتة فرس اصفر ونزل في ماهو موضع القاهرة اليوم . ثم نزل الى الفسطاط بمن معه وخطب في جامع عمرو باسم المعز لدين الله وازال الشعار الاسود العباسي والبس الخطباء الثياب البيض فبايعه الناس . وبعد يسير اصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون مقاومة فكتب لمولاه المعز بما اتاه الله من الفتح

وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة امر جوهر ان يزداد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . اللهم وصل على الائمة الطاهرين اباة المؤمنين » وفي ايامه صار يذكر بالادان حي على خير العمل

فساد الاحكام في الدولة العباسية

وكانت الدولة العباسية لا تزال في قبضة المطيع لله وقد فسدت الامور وذهب نفوذ الخليفة واصبح النفوذ ضائعاً بين الوزراء والقواد وكلاهما لا يرجون من وراء عنيتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير مايكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم فاصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لا يهجمه غير الكسب من اي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بالفاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خبز من وقوفها على الصواب » وانته الخلفاء الى مطامعهم فاصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخذوا امواله . ثم عمّت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية . واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى انشأوا المصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

فلما فسدت الاحكام على هذه الصورة واستبد الوزراء والقواد اراد العمال في الولايات ان يجترئوا من ذلك في ولاياتهم فانخذوا يستقلون فتشعبت المماكة العباسية

الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والأتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ما جاءها للتغاب من الخارج ففتحها كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون . وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي

فلم يأل القائد جوهر جهداً في تثبيت قدم هذه الدولة في الديار المصرية وقد اخذ على عاتقه صلاحها وخراجها وكان قد هجرها النظام منسد داخل بهما الفساد وساد فيهما الخصاص الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فاخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترع فارتوت الارض فزادت غلتها فشبع الزارع وربح التاجر فاستتب النظام وساد الامن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ٣ ٤٠٠ ٠٠٠

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزاها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها بالقاهرة . وكان تشييد المدن سنة عمومية في ملوك الاسلام اذ ذاك فكانوا يبتنون المدن وينقلون اليها عظمتهم والغالب ان يكون سبب بنائها ان يجعلوها حصناً لهم تقيم فيه رجالهم وجندهم ثم يبني حولها الناس . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية . ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط . حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكره وذكر مولاة فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين ايفاخرها بغداد عاصمة العباسيين

بناء القاهرة المعزية

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاخطت بقعة من الارض حيث اناخ جماله يوم جاء لفتح الفسطاط فانه نزل الى شماليها بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رمالاً ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الا بساتين قابلة منها بستان كافور الاخشيدي شرقي الخليج وميدان الاخشيدي ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيه بئر تعرف ببئر الجامع الاقمر وتسميها العباءة بئر العظمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصر الشوك ثم عرف بعد ببناء القاهرة بقصر الشوك . فامر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابتنى فيها قصرين احدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلهما لاقامة المعز عند قدومه الى مصر . وكانهما الآن محل المحكمة الشرعية المعروف بيت القاضي يتصل اليه من شارع النحاسيين

ففي نحو ثلاث سنوات تم بناء القاهرة (في اواخر سنة ٣٦١ هـ) وقد بني حولها السور وفيه الابواب ولم يزل بعض اثارها باقياً الى هذا العهد . فبعث جوهر الى مولاه المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها ابوه وسار قادماً الى عاصمته الجديدة مستخلفاً على افريقية وزيره يوسف بن زيري فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى صقلية قضى فيها بضعة اشهر يتفقد احوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب فالاسكندرية فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وكان دخوله اليها باحتفال عظيم من باب زويلة يصحبه يعقوب بن يوسف بن كلس . وكان ازويلة باباً متلاصقاً بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش . فدخل المعز من الباب الملاصق ولم يبق له اثر الا ان فتيا من الناس به وهجروا الباب الاخر حتى جرى على الالسنه ان من مرّ به لا تقضى له حاجة

تاريخ القاهرة المعزية

كانت عاصمة الديار المصرية يومئذ مدينة الفسطاط (بين القاهرة ومصر القديمة الآن) فلما جاء جوهر بجنده سنة ٣٥٧ هـ نزل شمالها في البقعة التي تقدم ذكرها وفيها اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وشارع النحاسين وخان الخليلي وما جاورها من المنازل والاسواق بين المقطم والخليج الذي ردموه اليوم واجروا فوقه قطر الترمواي بين جنوبي القاهرة وشمالها

وكانت تلك البقعة ما عسكر فيها جوهر رمالاً يمر بها المسافر من الفسطاط الى المطرية . فلما فتح جوهر الفسطاط بنى القاهرة في تلك البقعة وسماها القاهرة المعزية نسبة الى مولاه . وكانت مرعة الشكل تقريباً يحدها من الشرق الجبل ومن الغرب الخليج وطول هذا الحد ١٢٠٠ متر يسير فيه السور بموازة الخليج وعلى بعد ٣٠ متراً منه نحو الشرق . ومن الشمال خط يمتد من الخليج قرب باب الشعرية الآن على موازة سكة مرجوش الى الجبل وطوله ١١٠٠ متر . ومن الجنوب خط نحو هذا الطول يبدأ بباب الخلق عند التقاء الخليج بشارع محمد علي الآن قرب محافظة مصر ويسير شرقاً الى الجبل . ومساحة هذه المدينة بين هذه الحدود ٣٤ فداناً او ١٤٢٨٠٠٠ متر مربع بنى فيها قصرأ سماه القصر الكبير الشرقي شغل خمس هذه المساحة وشغل ما بقي بالجامع الازهر والقصر الغربي ومسكن الجند والاسطبلات ونحوها . وقد دلنا على مكانها في الخارطة ببقعة بيضاء . وظلت الاسواق واماكن

البيع والشراء ومسكن الاهالي في مدينة الفسطاط . اما الارض خارج المدينة حيث
الآن الفجالة والظاهر والمهمشة والعباسية والازبكية والتوفيقية والاسماعيلية وبولاق
فكان اكثرها بساتين ومزارع وبركاً

ولم تنسح القاهرة في اثناء مدة الفاطميين الا قليلاً فصارت مساحتها على عهد امير
الجيوش في اواخر القرن الخامس للهجرة ١٦٨٠٠٠٠ متر. حتى اذا دالت هذه الدولة
ودخلت مصر في حوزة الايوبيين وتمسكها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ اباح
للناس سكنى القاهرة وبنى القلعة في سفح المقطم له ولجنده يعتصم بها من اعدائه لانه
كان يخاف الشيعة الفاطمية على ملكه . فا قدم الناس على بناء المنازل جنوباً خارج
القاهرة بينها وبين الفسطاط وغرباً بينها وبين النيل وامر ببناء سور كبير يحيط بها
وبالقلعة وبالفسطاط جميعاً اكمله من جاء بعده فبلغ طوله نحو ٢٤٠٠٠ متر في شكل كثير
الاضلاع وبلغت مساحة القاهرة ضمنه ١٩٤٨ فداناً او ٦٠٠٠ ١٦٦١ متر مربع

وتولى بعد الايوبيين السلاطين المماليك وتغير شكل القاهرة في ايامهم ثم نقصت
مساحتها واستنزفت عمراتها في ايام الامراء المماليك ولكنها عادت في زمن الاسرة المحمدية
العلوية الى النهوض فبلغت مساحتها في اواخر ايام محمد علي باشا ٩٠٠٠٠٠٠ متر مربع
وحدودها من الشرق الجبل المقطم ومن الغرب شارع باب الحديد وشارع عابدين بخط
منحرف نحو باب اللوق ثم يعود الخط شرقاً الى قرب عابدين ويسير جنوباً حتى يقطع
الخليج قرب باب غيظ العدة ومن هناك الى باب السيدة زينب . وكان يحدها من الشمال
شارع الفجالة وما بعده شرقاً الى باب الشعرية فباب النصر وباب الفتوح الى الجبل .
ويحدها من الجنوب خط ممتد من باب السيدة زينب فباب طولون الى باب القرافة
وقد دللنا على مكانها في الخارطة بخطوط متقاطعة والقاهرة المعزية في داخلها

واتسعت مساحتها في عهد الخديويين بعد محمد علي حتى صارت سنة ١٨٨٠ قميل
الحوادث العربية ١٢ ١٨٠٠٠٠ متر . واسرعت في الاتساع بعد الاحتلال الانكليزي
حتى صارت مساحتها الآن اكثر من ستة اضعافها قبله واكثر من خمسين ضعفها لما
بناها القائد جوهر بما دخل في حدودها من الضواحي العامرة عما بعد عام

دخول المعز قصره

وفي يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ دخل المعز لدين الله قصره بالقاهرة وعند
دخوله خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه واستقر في قصره
باولاده وحشمه وخوادم عبيده والقصر يومئذ بهجة وكله تحف ومثمنات وبعد ذلك

باسبوع اذن بدخول من يريد مقابلته للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولاً الاشراف ثم اذن بعدهم اللاوياء وسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائماً بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم . وبعد وصوله يسير امر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيها اجداده الذين استحضروهم معه بتواييت من بلاد المغرب . وصارت بعد ذلك مدفناً يدفن فيه الخلفاء واولادهم ونسأؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث خان الخليبي الآن . فلما انشأ الامير جهاركس الخليبي خانه اخرج ماشاء من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد يعقوب بن يوسف بن كلس بخراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهودياً جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في ايام كافور الاخشيدي واسام طمعاً بالدنيا فاحبه كافور ورقاه . واشترك مع يعقوب في امر اخراج عسلوج بن الحسن وكتب المعز لها سجلاً بذلك تجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات (الانزام) وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب ونظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاثفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حد يفوق التصديق



الجامع الازهر من داخله

ثم ابني جوهر جامعاً دعاه الجامع الازهر وهو اقدم جوامع القاهرة الجامع ابن طولون واكثرها اتساعاً ولذلك لقب بالجامع الكبير . واقام جوهر في الجامع المذكور بامر الملك العزيز الاتي ذكره مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الافاق وكان

القصدي الرئيسي من بناء هذا الجامع اقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في الدولة الاسلامية من ذلك العهد . وكانت هذه الشيعة قد قاست الامرين تحت سيطرة العباسيين من قتل ونفي . فلما تأتى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دولتها وانشأت القاهرة معقلاً لجندها والجامع الازهر لتأييد مذهبها لان العامة لا تحكّم بمثل الدين . وكان المصريون يؤمنون على مذهب الامام الشافعي لان هذا الامام قضى اخريات ايامه بمصر ومات فيها وقبره معروف في ضواحي القاهرة . وكان الفاطميون يعترفون بهذا المذهب ايضاً واما العباسيون فكانوا على مذهب ابي حنيفة . فتوافق الفاطميون والمصريون في المذهب فهاتف على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فقرّبوا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر اقطار العالم الاسلامي واجروا عليهم الارزاق وفرقوا فيهم الاموال . وكانت مجالسهم تعقد في الازهر على عادة الفقهاء في ذلك العهد فتراحمت فيه الاقدام وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بانية ينشئونها بجانبه ويوسعون دوره حتى اصبحت سعته الان نحو ١٢٠٠٠ متر مربع . وكانت اقل من نصف ذلك . وتضاعفت اساطينه مراراً وكان عددها يوم بني ٢٦ اسطوانة متفرقة في اجزائه . وصارت ابوابه تسعة

وكانت اعطية الخليفة للفقهاء في اول الامر على غير قياس او ميقات . فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ هـ امر وزيره يعقوب بن كلس ان يرتب للفقهاء ارزاقاً معينة وان يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع . وكانوا يأتون المسجد في بادئ الرأي لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة فتدرجوا من القراءة الى التعليم حتى اصبحت الجامع مدرسة كبرى اكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والامراء ويقدر دخله السنوي اليوم بعشرين الف جنيه

علوم الازهر و بناؤه

ظل الازهر مدرسة شيعية طول خلافة الفاطميين (نحو مئتي سنة) حتى غلبهم صلاح الدين الايوبي على مصر سنة ٥٦٧ هـ وكان سني المذهب وليس له بدئ من مبايعة خليفة يثبت في منصبه فبايع الخليفة العباسي في بغداد وخطب له في الجامع الازهر . وكان صلاح الدين على مذهب الامام الشافعي فلم يضطر لتبديل كثير من طرق التعليم وقبل الناس سلطته على اهون سبيل . على انه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب ابي حنيفة وراى بحكمته وسداد رايه ان يكتسب ولاء سائر المسلمين فاجاز تعليم المذاهب الاربعة كل مذهب يحضره اهله . قال ذلك الى اتساع

شهرة هذه المدرسة وتقاطر اليها الطلاب من اربعة اقطار المسكونة . ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ولكنه تناول شيئاً من الرياضيات والديجوم وبعض العلوم الطبيعية

وما زال ذلك شأنها في ايام السلاطين الايوبيين ومما يليهم حتى جاء السلطان سليم العثماني وفتح مصر في اوائل القرن العاشر للهجرة . ثم استبد الامراء المماليك في الحكومة واشتغل الناس عن العلم . وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر المملكة الاسلامية الا في مصر لان مدرسة الازهر كانت اكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية لتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم واهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات

على ان فضل الازهر في احياء اللغة العربية لم يكن قاصراً على نشرها في الديار المصرية او ما جاورها من البلاد العربية لكنه شمل سائر البلاد الاسلامية . فقد كانوا يفدون على مدرسته من بلاد الترك والمغرب والشرق واليمن وزنجبار والهند وافغانستان وغيرها . وقد رغب الناس فيه لانه كان يعلم الطلبة مجاناً يقوم بنفقاتهم من الطعام واللباس والمأوى فضلاً عن امتيازه بمهارة الاساتذة . فكان اعظم العلماء المسلمين في الاجيال الاسلامية الوسطى ينبغون من مدرسة الازهر . وكان الممتخرج في هذه المدرسة مزية وفضل على الممتخرين في سائر المدارس الاسلامية وطلابه الان يتجاوزن عشرة الاف طالب

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغير فيه كثير من الملوك والامراء الذين تولوا مصر بعد المعز . وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس قايت باي والغوري من سلاطين المماليك . والسيد محمد باشا من ولاة الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كخيا من امراء المماليك . وعبد الرحمن كخيا المذكور جدد فيه اشياء كثيرة وجعل فيه مدفناً له دفن فيه . واخيراً سعيد باشا بن محمد علي باشا سنة ١٢٧٢ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيه شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد

نسب الفاطميين

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية في الشرق يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة له وحرمان الاخر منها . ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابه لفاطمة بنت النبي . وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواه على انه قلما كان

يعتمد على شرف الحسب والنسب . وما يحكى عنه انه لما كان قادماً الى القاهرة وخرج الناس للقاءه اجتمع به اناس من الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فنقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » . فقال له « سنعقد مجلساً نجتمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

والا استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال « هل بقي من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبق معتبر » فسل نصف سيفه وقال « هذا نسبي » ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعاً سمعنا واطعنا ولم يسكن المعز لدين الله قصره طويلاً فتوفي بعد ثلاث سنوات من حكمه بمصر (الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ) وسنه ٤٥ سنة ومدة حكمه جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلاً حازماً اديباً حسن النظر محباً للنجامة شاعراً وينسب اليه من الشعر قوله :

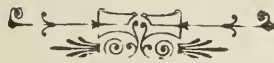
لله ما صنعت بنا تلك المهاجر بالمعاجر
امضى واقضى في النفوس من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في الهواجر
وينسب اليه ايضاً :

اطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك انظلاً
وكأن الجمال خاف على الور د جفافاً فسد بالشعر ظلاً



ش ٤٤ — نقود المعز لدين الله

وترى في الشكل الرابع والاربعين صورة نقود المعز مضروبة بعد دخوله القاهرة بسنة واحدة



خلافة العزيز بن المعز

٣٦٥ — ٣٨٦ هـ أو ٩٧٥ — ٩٩٦ م

فلما توفي المعز بويع ابنه نزار بن معد أبو منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوه بعضهم العزيز بدين الله ومولده المهديّة في إفريقية واتسعت المملكة في أيامه حتى اتصلت بمكة . ولم يكن سن العزيز عند مبايعته الا ٢١ سنة فترك أزمة الجند لجوهر . وفوض ليعقوب بن كاس النظر في سائر الامور وجعله وزيراً له في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٣ هـ امر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضي الاوامر باسمه واهداه كثيراً من الفلماصن والاموال . فرتب يعقوب الدواوين فجعل ديواناً للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر للمستغلات وجعل في كل منها كتاباً ورؤساء كتاب . وكان يجلس في مجلسه الادباء والشعراء والفقهاء وارباب الصنائع وخصص لكل منهم الارزاق والنف كتيباً في الفقه والقراءات وكان يجلس في كل جمعة يقرأ مصنفاً على الناس بنفسه . وكان له مجلس في داره للنظر في رقايع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيده في الرقايع ويخاطب الخصوم بنفسه . وتوفي الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وهو اول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وتزوج العزيز بالله امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتمت نفوذاً عليه فكان يراعي ابناء طائفتها ويرفق بهم اكراماً لها حتى اتخذ طبيبه الخاص منهم واسمه منصور بن مقشر وكان يحترمه فاعتل الطبيب يوماً عن الركوب فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب وآتم النعمة عليه . وصات الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . اقلك الله العثرة واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته »

هفتكين الشرايبي

وقدم الى الشام في ايام العزيز هفتكين الشرايبي من بغداد لغزو دمشق . وهفتكين هذا يقال له الفتكين ابو منصور التركي الشرايبي غلام معز الدولة احمد بن بويه رتي الخدم حتى غلب في بغداد على عز الدولة مختار بن معز الدولة وكان فيه شجاعة وثبات

في الحرب ، فلما سارت الاتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين . الا ان اصحابه انهزموا عنه وصار في طائفة قليلة فسار بمن معه من الاتراك وهم نحو الاربعمائة الى ان قرب من حوشبة احدى قرى الشام وقد وقع في قلوب العربان منه مهابة . وما زال ينتقل من محل الى اخر ويجمع اليه الاحزاب ومنهم القرامطة حتى غزا القسم الاعظم من سوريا الى دمشق ونزل على السواحل فعلم بذلك العزيز بالله فارسل اليه جيشاً تحت قيادة جوهر فبلغ هفتكين ذلك وهو في عكا . اما القرامطة فكانوا في الرملة ولما بلغهم قدوم جوهر وجيوش العزيز فروا عنها فزها جوهر وسار من القرامطة الى الاحساء التي هي بلادهم جماعة وتأخر عدة . اما هفتكين فسار من عكا الى طبرية وقد علم بمسير القرامطة وتأخر بعضهم فاجتمع في طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الاقوات من بلاد حوران والثنية وادخلها الى دمشق . ثم سار اليها وتحصن فيها فعلم جوهر بذلك فسار الى دمشق . ونزل على ظاهرها في ٢٢ ذي القعدة وبنى على معسكره سوراً وحفر خندقاً عظيماً وجعل له ابواباً

فتجمع هفتكين برجاله لقتال جوهر وطال الاخذ والرد الى ١١ ربيع اول سنة ٣٦٦ هـ . وعند ذلك اختل امر هفتكين وهم بالفرار . ثم انه استظهر ووردت الاخبار بقدوم احمد القرمطي الى دمشق فطلب جوهر الصلح على ان يرحل عن دمشق من غير ان يتبعه احد . وذلك انه رأى امواله قد قلت وهلك كثير ممن كان في عسكره حتى صار اكثر جنده رجالة واعوزهم العلف وخشي فوق ذلك قدوم القرامطة . فاجابه هفتكين وقد عظم فرحه فرحل جوهر في ٣ جمادى الاولى وجد في المسير الى ان بلغ طبرية وكان قد قرب القرامطة فتمعنوه اليها فسار منها الى الرملة فبعث القرامطة بسرية كان لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب . ثم طال الكفاح ١٧ شهراً ففر جوهر الى عسقلان فغنم هفتكين شيئاً كثيراً . ثم سار فحاصر عسقلان فبلغ ذلك العزيز فاستعد للمسير ليمد جوهرأ

اما جوهر فلما طال حصاره راسل هفتكين يطلب اليه تقرير الصلح على مال يحماله اليه وان يخرج من تحت سيفه فعلق هفتكين سيفه على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معه من تحته وسار الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز يريد المسير . فساروا معه وما زالوا حتى نزلوا الرملة وكان هفتكين في طبرية فسار للقاء العزيز ومعه عدة من رجاله فالتقى الجيشان . فلم يكن غير ساعة حتى انهزم جيش هفتكين وفاز العزيز فطلبوا

هفتكين فاذا هو قد فر على فرس بمفرده فقبض عليه احد العرب وجاء به الى العزيز وعمامته في عنقه فامر به فطيف به على العسكر على جمل فاخذ العسكر يلطمونه ويهزون لحيته

ثم سار العزيز بهفتكين والاسرى الى القاهرة فاستخدمه ومن معه واحسن اليه غاية الاحسان وانزله في دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله وتطوفي اليه بما غمرني من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة « يا عم والله اني احب ان ارى النعم عند الناس ظاهرة وارى عليهم الذهب والفضة والجواهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وان يكون ذلك كله من عندي » وما زال هفتكين يرتقي في ظل العزيز الى ان توفي سنة ٣٧٢ هـ فظن العزيز ان يعقوب بن كلس سمه (وكان لا يزال حياً) لانه كان يلاحظ بينهما منافسة في التقرب من الخليفة فاعتقله مدة ثم اطلقه

مناب العزيز بالله

وفي ١٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ توفي العزيز بالله في بليس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وعمره ٤٢ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته ٢١ سنة وخمسة اشهر ونصف فقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع آباءه . وكان العزيز كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة وكان اسمر اللون اصهب الشعر اشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريباً من الناس لا يؤثر سفك الدماء محباً للصيد ولا سيما صيد السباع . وكان اديباً قاضياً

ويحكى ان احد الشعراء نظم قصيدة هجا بها وزيره وكاتب سره فرفعا الشكوى اليه وطلبا عقاب الشاعر . فطاع على القصيدة فراى فيها محجواً به ايضاً فقال لها « بما اني شاركتكما باحتمال هذه الالهانة فشاركاني بالعفو عن هذا الشاعر »

والعزيز اول من اتخذ وزيراً اثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه واول من لبس الخفين واول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد واول من رمى منهم بالشباب واول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح . واول من اقام طعماً في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان . واول من اتخذ الحمير لركوبه اياها

وكان للعزيز رغبة في اقتناء الكتب مجارة لناظرهم من العباسيين فجمع

منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات المهمة في التاريخ والادب والفقہ ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او اكثر — ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة بخط الخليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمئة دينار . ومئة نسخة من كتاب الجهرة لابن دريد وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عددها من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٦٠٠٠٠٠ كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجاة والروحانيات والكيمياء منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة غير ادوات الهندسة والفلك

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون بنحو ٢٠٠٠٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزان الكتب . لان العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فانشأوا مثلها في قصورهم . فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠٠ مجلد او كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته يتعهد بها بنفسه حيناً بعد حين وقدرت لها قياً يتولى شؤونها ويجالسه ويقراً له الكتب ويناديه . ومن تولى ذلك ابو الحسن الشابشي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ

ومن آثاره انه اسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم اتمه



خلافة الحاكم بامر الله بن العزيز

من سنة ٣٨٦ — ٤١١ هـ او من ٩٩٦ — ١٠٢١ م

والتوفي العزيز خلفه ابنه المنصور ابو علي فبويغ ولقب بالحاكم بامر الله ولكننا سنرى انه لم يحكم الا خلافاً لامر الله . وكان عمره عند مبايعته احدى عشرة سنة فكان الوصي عليه الوزير ارجوان فاستأثر بانفوذ حتى تجاوز الحد وكانت مدة حكمه نحو ٢٥ سنة ثارت في اوائلها عصبة ادعى زعيمها انه من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وجرى بسبب ذلك خصام وحروب كان النصر فيها متبادلاً وفي المرة الاخيرة قبض على زعيم العصاة والتي في السجن وهرب اتباعه . ثم اراد الحاكم ان يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فاركبه جملًا واركب وراءه قرداً وطوّفه في المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على رأسه الى ان مات شرموة

وفي سنة ٣٩١ هـ امر الحاكم الناس بان يوقدوا القناديل على الحوانيت وابواب الدور والمحال والسكك الشارع وغير الشارع ولازم الركوب في الليل . وكان ينزل في كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة يصلون اليهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء . وكان اذا مشى في موكبه امر حاشيته ان لا تمشي بقربه وزجرهم وقال ابعدوا ولا تمنعوا احداً مني فكانت تقرب الناس منه وتحقق به وتكثر من الدعاء له

اطوار الحاكم

وبعد يسير اصيب الحاكم بتغيير في عقله لم يفارقه حتى فارقه الحياة . وظهر في اثناء ذلك مذهب يدعى ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية . ثم توفي الزعيم وخلفه احد تلاميذ المدعو حمزة بن احمد الملقب بالهادي . وسنّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد والتعويض عن الحج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن . ومن شرائعهم انهم اباحوا الزيجة بين الاخ واخته واب وبناته والام وابنائها . وجاؤا بامور كثيرة تخالف او تناقض ما جاء في القرآن فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وافتتن بها فتبعها ونسي ديانة ابيه وجده . وكان يصعد كل صباح منفرداً الى الجبل المقطم حيث ادعى انه يناجي الله كما كان

يفعل موسى . وبعد ان كان اشد نصير للديانة الاسلامية نادى جهاراً بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة . وسعى في ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فخبطت مساعيه فاحتقرته الرعية ولم تعد تعباً بمدعياته فعاد الى نصرته الاسلام فاضطهد النصارى واليهود

وكان السبب الرئيسي في ذلك الاضطهاد تقدم النصارى في ايامه حتى صاروا كالوزراء وتعاضموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فزادت مكابدهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين فغضب الحاكم بامر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيباغ غضبه الى حد الجنون . فامر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فامرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعائين والتظاهر بما كانت عاداتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وادخله الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن به لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون

وقد سوَّغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ فاخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتمم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده . وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز الذين بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً فعظمه تعصبه وحمقه فامر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم اموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المنشورات بمنعهم من اكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير او منعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق والامر بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الاوامر التي تدلُّ على اختلال في عقله . على اننا قلنا نراه اتى امراً الا لسبب وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن ابي سفيان عدو

الشيعة كان يجبرها والدول الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة ام المؤمنين ومنعهم من اكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من اعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقع لان علي بن ابي طالب يكرهه . وقس على ذلك سائر ضروب الحماق والغرابة . ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد لسبب طفيف او بلاسبب وامر ببناء تلك الكنائس وخير النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثيرون منهم — وقد تقدم ان ذلك كان في ايام ابنه الظاهر . ومن اعماله الغريبة انه ابنى المدارس وجعل فيها الفقهاء المشايخ ثم قتلهم واخر بها والزمت الناس باغلاق الاسواق نهائياً وفتحها ليلاً فظل الناس على ذلك دهنراً طويلاً . فمن كانت هذه اعماله لا يستغرب منه اضطهاد ولا يعد اضطهاده عاراً على الدولة او الامة

فكان هذا الحاكم حملاً ثقيلاً على عاتق المصريين والسوريين ولم يستطع احد مقاومته فكان كل منهم يكظم غيظه وهو يسمع باذنه رنة السهم في قلبه ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكل منها من نهاية فعلمت اخت الحاكم وقائد جيشه ان الحاكم ينوي قتلها فعمدا الى اغتياله قبل ان يغتالها فاخذها الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١١ هـ قتلاه على جبل المقطم وبعد موته صار النفوذ الى اخته ونادت بابنه علي ابي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله وريثاً له فاستلم زمام الاحكام فبايعوه وبقيت الاحكام في يده ١٧ سنة

جامع الحاكم

ومن آثار الحاكم بامر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع اساسه على يد وزيره يعقوب بن كلس فاتم الحاكم بنائه وانفق في سبيل ذلك اربعين الف دينار ودعا جامع باب الفتوح لجاورته له وجعل فيه المفروشات الثمينة والاواني الفضية والذهبية . وكان هذا الجامع عند بنائه خارج سور القاهرة . ثم لما جاء امير الجيوش وجدد الاسوار كما سيأتي وابنى باب الفتوح حيث هو اليوم اصبح الجامع داخل السور . ثم تهدم بعضه بزلزلة حصلت في ١٣ ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ فانتدب الامير ركن الدين بييرس الجاشنكير لترميمه وجعل فيه دروساً اربعة لتعليم الفقه على مذاهب الأئمة الاربعة ودرساً لاقراء الحديث وجعل فيه مكتبة نفيسة وصهاريج للماء واما كن اخرى . ثم جدد هذا الجامع وبلط جميعه في ايام الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٦٠ هـ على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس . ويقال ان الشيخ المشار اليه وجد في الجامع حجراً مكتوباً عليه هذه الايات لغزاً في الحجر المسكرم

ان الذي اسررت مكنون اسمه وكتته ككيا افوز بوصاه
 مال له جذر تساوى في الهجا طرفاه يضرب بعضه في مثله
 فيصير ذاك المال الا انه في النصف منه تصاب احرف كله
 واذا نطقت بربعه متكلماً من بعد اوله نطقت بكاه
 لا نقط فيه اذا تكامل عدده فيصير منقوطةً بجملة شكله

دار الحكمة

ومن اثار الحاكم في خدمة العلم انه انشأ مكتبة سماها دار العلم او دار الحكمة وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بامر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف لها اما كن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على ابوابها وممراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون اي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلاؤها فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد

وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم اقام بها القراء والمنتجمين واصحاب النحو واللغة والاطباء واجرى لهم الارزاق واباح الدخول اليها الى سائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقروا او ينسخوا ما شاؤوا . وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخضع عليهم الخلع . وقد اباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدل الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لابتوائه فاضطر الافضل بن امير الجيوش في اوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للأسباب . فلما توفي الافضل امر الخليفة الأمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي فاعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية وان يكون متوليها رجلاً دينياً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠٠٠٠ كتاب . ولما افضت الدولة الى صلاح الدين الابوبى هدم دار الحكمة وبنها مدرسة للشافعية



وهذه صورة النقود الذهبية التي ضربت في أيام الحاكم بامر الله (انظر شكل ٤٥)

ش ٤٥ : نقود الحاكم بامر الله

خلافة الظاهر بن الحاكم

من سنة ٤١١ — ٤٢٧ هـ او من ١٠٢١ — ١٠٣٦ م

وفي أيام الظاهر (سنة ٤٢٢ هـ) توفي الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد اقيم سنة ٣٨١ هـ خلفاً للطائع واقيم مقامه في بغداد القائم بامر الله . وكان سن الظاهر لما تولى الخلافة ١٦ سنة نخرج الى صلاة العيد وعلى راسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس في المصلى وعاد فكتب بخلافته الى الاعمال وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفخار واكل الملوخية وجميع الاسماك فاقبل الناس على اللهو

المجاعة

وكان الظاهر ضعيف الرأي منصرفاً الى اللهو فافضى النفوذ الى بضعة من رجال دولته وقرروا ان لا يدخل على الظاهر غيرهم . فاصبحوا يتصرفون بامور الدولة ويمنعون اهل النصح من الوصول الى الخليفة . واخذوا في الاستئثار بالاموال فضاقت ابواب الرزق ومنع الناس من ذبح الابقار لقتها وعزت الاقوات بمصر وقات البهائم كلها حتى بيع الراس البقر بخمسين ديناراً وكثر الخوف في ظواهر البلد وكثر اضطراب الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجارة فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتحاسد زعماء الدولة فقبض على العميد محسن وضرب عنقه . واشتد الغلاء وفشت الامراض وكثر الموت في الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج . وعز الماء فعم البلاء من كل جهة وعرض الناس امتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الحب واخذت اموالهم وقتل منهم كثير وعاد من بقي فلم يجمع احد من اهل مصر . وتفاقم الامر من شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر « الجوع الجوع يا امير المؤمنين لم يصنع بنا هذا ابوك ولا جدك قاله الله في امرنا » وطرقت عساكر ابن جراح الفرما ففرّ اهلها الى القاهرة واصبح الناس بمصر على اقبح حال من الامراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الاقوات وكثر الخوف من الذعار التي تكبس حتى انه لما

عمل سماط عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السماط وهم يصبحون الجوع ونهبوا سائر ما كان عليه . ونهبت الارياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت امور من العامة قبيحة واحتاج الظاهر الى القرض فحمل بعض اهل الدولة اليه مالا وامتع اخرون واجتمع نحو الالف عبد لنهب البلد من الجوع فنودي بلبن من تعرض له احد من العبيد فليقتله . وندب جماعة لحفظ البلد واستعد الناس فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الى ان خندقوا عليهم خنادق وعملوا الدروب على الازقة والشوارع وخرج معضاد في عسكر فطردهم وقبض على جماعة منهم ضرب اعناقهم . واخذ العبيد في طلب وجوه الدولة فخرسوا انفسهم وامتعوا في دورهم واتقضت السنة والناس في انواع من البلاء

وفي سنة ٤٢٧ هـ توفي الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الاحد منتصف شعبان بعد

ان تضععت الدولة فبويع ابنه معد ابي تميم
خليفة مكانه ولقب بالمستنصر بالله

وهذه صورة نقود الظاهر لاعزاز دين الله

ضربت في القاهرة سنة ٤٢٥ انظر ش ٤٦



ش ٤٦ — نقود الظاهر لاعزاز دين الله

خلافة المستنصر بن الظاهر

من سنة ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ او من ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م

ولم يكن سن المستنصر عند مبايعته اكثر من سبع سنوات وأمه جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمه ابو سعيد سهل بن هارون التستري . فلما رأته انها في هذا المنصب انت بسيدتها الاصلي وولته الاستشارة . وكانت مدة خلافة المستنصر اطول من مدة كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع

ففي سنة ٤٢٩ هـ عقد المستنصر هدنة مع امبراطور الروم وكان لا ينفك عن مهاجمة التخوم الاسلامية حتى اخضع حلب وتبعها سائر الشام فساد الامن بعد الهدنة الى ان كانت سنة ٤٣٤ هـ بويلاتها فتارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل اسمه سكين كان يشبه الحاكم بامر الله فادعى انه الحاكم وقد رجع بعد موته . فاتبعه جمع ممن يعتقد رجعة الحاكم فاغتنموا خلودار الخليفة بمصر من الجند وقصدوها مع سكين نصف النهار

فدخلوا الدهليز فوثب من هناك من الجند فقال لهم اصحابه انه الحاكم فارتاعوا لذلك ثم ارتابوا به فقبضوا على سكين ووقع الصوت واقتتلوا فترجع الجند الى القصر والحرب قائمة فقتل من اصحابه جماعة وأسر الباقون وسلبوا احياء ورماهم الجند بالنشاب حتى ماتوا

ثم سعت ام الخليفة فساداً في الاحكام فغيرت في الوزارة ونقلت زمام الامور من يد احمد بن علي ليد حسن بن الغنبري ومنه الى صدقة العلاجي وهذا قتل سلفه سنة ٤٤٠ هـ فحكم عليه بالقتل فابدل بحسين الجرجراي وفي شوال سنة ٤٤١ هـ قبض عليه ونفي الى سوريا واقيم مقامه ابو الفضل بن مسعود والقاضي اليازوري وقد حاز هذا الاخير على رضا المستنصر فقربه منه بحيث انه كان يعطيه الالقاب الخاصة بالخليفة ويضرب النقود باسمهما

وفي اثناء ذلك اضطرت الخارجية بسبب معز الدولة وكان قد ولاه الخليفة على حلب سنة ٤٣٦ هـ فحاول الاستقلال بها فانفذ اليه الخليفة جيشاً بقيادة ناصر الدولة ابن ابي الهيجاء فكسره . فاسترجعه وارسل عوضاً عنه الاميرين طرفاً ورفيقاً وتحتهما جيوش مصرية فلم ينالا اكثر مما نال . ولحسن الطالع اعتاض معز الدولة عن الهجوم على مصر بعد ما رأى من انتصاره على جيشها بعقد الصلح . فانفذ ابنه وزوجته ليعقدا صلحاً مع المستنصر وكانت زوجته بديعة الجمال فاخذت بمجامع قاب المستنصر فوافقها في التنازل عن حلب لزوجها

المعز بن باديس

وما انتهت هذه المعضلة في الشرق حتى نشأت معضلة اخرى في الغرب وذلك ان المعز بن باديس تمرد في افريقية لمكاتبات عدوانية حصلت بينه وبين الوزير اليازوري فابطل الخطبة للمستنصر واستعاض عنه باسم الخليفة العباسي القائم بامر الله . ووردت الخلع والتقليد من القائم بامر الله الى المعز مع كتاب قال فيه « من عبد الله وولاه ابي جعفر القائم بامر الله امير المؤمنين الى الملك الاوحد ثقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الانام ناصر دين الله قاهر اعداء الله ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ابي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي امير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف امير المؤمنين وهو طويل » وارسل اليه سيفاً وفرساً واعلاماً على طريق القسطنطينية فوصل ذلك يوم الجمعة فدخل به الى الجامع والخطيب ابن الفاكاة على المنبر يخطب الخطبة الثانية . فدخلت الاعلام فقال « هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم

واستغفر الله لي ولكم « وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت واحترقت الاعلام . وكان المستنصر مشتغلاً في اثناء ذلك بالاضطرابات الداخلية بين قبياتين من العرب بني زابج وبني رياح فراى الوزير ان يستدرك الخطب الداخلي قبل الخطب الخارجي وان يستخدم العدو الواحد لآخرة فاصالح بين القبيلتين وحرصهما على المعز بن باديس على ان يجعل لهما في مقابل ذلك برقة وطرابلس الغرب

فاستعد ابن باديس للملاقاة اعدائه بجيش مؤلف من ٣٠ الف فارس ولم يكن الاعراب اكثر من ٣ آلاف مقاتل . فلما التقوا بجيش المعز هابوه فطلبوا الفرار فناداهم قائدهم مونس ان يجادلوا في القتال فاجابوه « اين نطعن هؤلاء المكسوفين بالخوذ والدروع » فقال « في عيونهم » ومن ذلك الحين لقب مونس بابي العيون . وعادت رجاله وقد تارت فيهم الحمية العربية وما زالوا حتى انتصروا على المعز في تلك الواقعة . ثم بقيت الحرب سجلاً بين الفريقين ست سنوات وكانت الغلبة طوراً لهؤلاء وطوراً لهؤلاء

أما المستنصر فعمد الى تزيين القاهرة وبناء البنائات الجميلة فيها فاعاد تذهيب جامع عمرو سنة ٤٤١ هـ وبني فيه منبراً من الخشب الثمين قائماً على عمد من خشب الصندل واقام فيه منارة جديدة وخصص لهذه الترميمات مالاً من خزينته الخاصة وفي سنة ٤٤٢ هـ توفي في مصر اميرتان من اغنى امراء مصر وهما راشدة وعبدة وكلاهما ابنتا الخليفة المعز لدين الله فتركت الاولى ثروة مقدارها مليونان وسبعمائة الف دينار والثانية مثل ذلك . وكان الخلفاء الفاطميون ينتظرون موتهما ولم يروه فكانت ثروتهن غنيمة بارة للخليفة المستنصر

الفتنة بين الخلفائين

وفي سنة ٤٤٤ هـ وصل القاهرة نبأ أن مختلفان . الاول ان الخليفة العباسي في بغداد اصدر منشوراً الى العالم الاسلامي يقترح فيه بانتساب الخلفاء الفاطميين الى علي ابن ابي طالب . والثاني ان امير اليمن علي بن محمد الصالحى امر ان يخاطب باسم المستنصر في الصلاة وارسل اليه هدايا . فسر الخليفة المستنصر لهذين الخبرين اللذين يوازن احدهما الآخر ولم يبد حراكاً لاشتغاله بخطط عظيم نتج عن تقصير النيل تلك السنة فاشتد الجوع . وكان قد احتكر الحنطة وكان يخزن منها كل سنة بمائة الف دينار يحفظها في خزائنه ليبيعها عند الحاجة بالاثمان الغالية فاذا كانت سنة رخاء كان الوزير اليازوري يستبدل تلك الحنطة بقيمتها من الخشب او الحديد او ماشا كل . ففي سنة ٤٤٦ هـ لم يف النيل ولم يكن في خزائن الحنطة ما يكفي لغير الخليفة واهله وحاشيته

قوتاً ضرورياً فغلا العيش فبلغ ثمن الكيس الصغير من القمح ثمانية دنانير واخذ الجوع يتزايد وتبعه الطاعون وامتد الاثنان الى سوريا حتى بلغا بغداد وتبع هاتين الضربتين ضربة ثالثة نعني الحرب . وسببها ان الخليفة المستنصر لما اشتد الجوع في بلاده ارسل الى القسطنطينية يستنجد امبراطورها بالحنطة فرضي الامبراطور ان يرسل له اربعمائة الف اردب ولكنه مات قبل ارسالها . فلما تولت الامبراطورة وليسة العهد اوقفت الارسال على ان يعقد لها المستنصر معاهدة (عجومية ودفاعية) فلم يرض فلم ترسل الحنطة فاستشاط غضباً وامر بالجهاد فانفذ ناصر الدولة لفتح اللاذقية وانطاكية فقبض عليه وتفرق جيشه . فتعاظم غيظ المستنصر واشتد انتقامه فامر بالحجز على كل ما في كنيسة القيامة في القدس الشريف من الاموال والادوات الثمينة فاضطربت العلاقات الودية بين الروم ومصر

وزاد المصريين رعباً مندب طويل ظهر في سماء مصر في ١٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٥ هـ ولم يغب الى ١٥ رجب منها . غير ان الوزير لم يأل جهداً في تدبير الامور بحكمة ورزاة نخف المصائب واستجاب القوات الى البلاد رويداً رويداً . على ان سلطة المستنصر كانت تزداد في الخارج يوماً فيوماً حتى ان البساسيري قائد جند الخليفة العباسي القائم بامر الله لما كبر شأنه خاع خليفته وبايع للمستنصر الفاطمي ورفع العلم الابيض على منابر بغداد سنة ٤٥٠ هـ واقتدى به اهل واسط والكوفة وسائر المدن الشرقية الكبرى

فامتدت سلطة المستنصر الدينية الى خراسان وفارس . فرأى السلطان طغرل بك هناك ان تسلط العلويين يضر بغرضه فسار بجيشه الى بغداد واعاد القائم بامر الله الى منصبه ونصب العلم العباسي واعاد الخطبة للخليفة القائم في ٢٦ ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ وكان المستنصر قد ارسل الى البساسيري مدداً من الرجال وخمسمائة الف دينار ومؤناً وذخائر وثياباً وخيلاً ولكن لما علم باعادة بيعة الخليفة العباسي خاف ولم يعد يمهده واكتفى بالتحايد المحتاط لمنع تقدمه ولولا ذلك لانتشرت سلطة الدولة الفاطمية الى اقصى ما بلغت اليه الدولة العباسية في عزها

حروب واضطرابات

وجرت في خلال ذلك في سوريا حروب آت الى ضعف سطوة المستنصر . وذلك ان حلب كانت الى ذلك الحين لمعز الدولة والعرب من بني كلاب يهاجمونها فاقلقوا راحتهم وطمعوا به فلم ير طريقة للتخلص منهم الا اللجوء الى المستنصر

فكتب اليه انه لم يعد قادراً على البقاء في حلب على هذه الحال . وطلب اليه ان يرد هذه المدينة الى العباسيين وان يوليه بدلاً منها مدينة لا يكون للعربان يد اليها . فاعطاه مدن بيروت وعكا وجبيل وجعل على حاب مكين الدولة احد قواده فخصنها في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ . ثم سافر معز الدولة الى مصر وعقد فيها معاهدة مع المستنصر على المدن التي اعطيت له . وكان مكين الدولة لطيف المعاملة حليماً فسعد الشعب ايامه فرخصت الاسعار واستتبت الراحة الا ان بني كلاب لم ينفكوا عن مناواته بقيادة الامير محمود الكلابي ابن اخي اميرهم الاول وكان قد عنف عمه على تسليم ارضهم للخليفة فجاء مدينة حلب وغزاها وقتل حاميتها ودخلها فسلمت له في ٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٢ هـ . اما مكين فكان محاصراً في قلعتها ولم يسلم فارسل الى مصر يستنجد المستنصر فأجده بناصر الدولة أبي محمد الحسين بن الحسن بن حمدان الامير بدمشق واوعز اليه ان يسير بمن عنده من العساكر الى حلب يمتعها من محمود . فسار الى حلب فلما سمع محمود بقربه منه خرج من حلب ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبها . ثم ان الحرب وقعت بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب واشتد القتال بينهم فانهمز ناصر الدولة وعاد مقهوراً الى مصر وملك محمود حلب وقتل عمه معز الدولة واستقام امره بها وهذه الواقعة تعرف بوقعة الفينديق فلما وصل ناصر الدولة الى مصر راي الخليفة ان يكافئه على فشله فولاه دمشق . وفي سنة ٤٥٥ هـ ابدله ببدر الجمالي وهو ارمني المولد كان مملوكاً لجمال الدولة ومنه لقبه وتقلب في مناصب عديدة اظهر بها مايدل على ثباته وحزمه . ولم تمض على سور يامدة تحت ولايته حتى ساد فيها الامن لان الخليفة اذن للامير محمود ان يتولى حلب ولقبه بامير الامراء وعضد الدولة وسيف الخلافة

اما مصر فكانت اقل طمانينة من غيرها لان الوزير اليازوري كان يضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً ويسومهم اشد العذاب وكان يثير ضدهم الاحزاب في المديرات والتي القبض على البطريرك كريستودول وبعض الاساقفة وساقهم الى القاهرة . اما الخليفة فلم يكن راضياً بذلك فامر باخلاء سيلهم بكل احترام فشق ذلك على الوزير فامر باقتال جميع الكنائس المسيحية في مصر من يعقوبية وملكية فثار مسيحو القطر فتدارك الخليفة الامر بالقبض على الوزير ونفيه الى تديس ثم قتله

فتشاءم المسيحيون من تلك الحوادث ورافقها ظهور الشفق الشمالي وكسوف تام للشمس فكان منظر السماء مهيباً استمر ٤ ساعات اشتد فيها الظلام حتى شوهدت النجوم واوت الطيور الى اعشاشها رهبة . وولى الخليفة مكان اليازوري ابا الفرج البالي

وبعد شهرين ابدله بعبدالله بن يحيى ثم بغيره حتى قلب على وزارة مصر ٣٥ وزيراً في ١٢ سنة ولم تكن تزيدها هذه التقلبات الا تعقيداً . كل ذلك والنشكيات ترد الى الخليفة ترى من رجال الدولة والرعايا فتجبر في امره ولم يكن يعلم مصدر هذه القلاقل فجمع رجالاً من جميع الطبقات وكلمهم ملياً واستطلعهم حقيقة الامر فلم يظهر له شيء مما كان يسمعه . ثم ازداد نفوذ السوق على رجال الدولة فيكانوا اذا اجتمعوا على امر انفذوه ولو كان مناقضاً لاوامر الخليفة . فازداد الخليفة اضطراباً والاخبار ترد عليه متناقضة فلا يعلم ايها يتبع . ورجال القضاء بدلاً من ان ينظروا في التقارير كانوا يقضون اوقاتهم وقواتهم في المدافعة عما كان يتقدم في حقهم من النشكيات . فاشتد خوف الناس في الاقاليم حتى هاجروا منازلهم فازدادت الفوضى وكثر اللغظ

وكان المستنصر يحتال في امر الحج فيذهب في زمرة من الحجاج على الجمال مظهرأ للحج فاذا بلغ بهم محطة بركة عميرة حيث اعتادوا المبيت في ذهابهم الى الحج واياهم منه ثم دعيت بركة الحج ينزل بهم هناك فتدار عليهم الخمر بدل الماء ثم يعودون الى القاهرة

تاريخ الجند في الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة ادوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فقد كان نفوذ السكامة في الدولة العباسية باوائها مشتركاً بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في اولها مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك

والبربر قوم اشداء مساكنهم في شمالي افريقيا وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق . وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل وقد قابى المسلمون في اخضاعهم عنداً شديداً لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة وشبوا فيها كلها على المسلمين . ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في اواخر القرن الاول . ولما نقم الناس على بني امية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتناولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصية فنصروا العلويين نكابة فيهم . — الامن اصطنعهم الاندلسيون بالمال — وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك في نشره باواسط آسيا الى الهند والصين .

لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقيا الغربية فشرخوا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من انصارها ولا سيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا بساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عميد الله المهدي اول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ هـ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلموا كذلك في خلافة ابنه القائم بامر الله (سنة ٣٢٢ هـ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٣ هـ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ هـ) وساعدوهم في تملك المغرب كله واخرجه من البيعة العباسية . وفي ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقربهم فاشترطوا ان يتولى امورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم فاستبد في امور الدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلياً وقد تافت نفسه الى الولاية فاغراهم باين عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة ابيه وجده فتضعع البربر وقوي الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف . ومال الى الاتراك والمشاركة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت امه امة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى باغوا الف عبد اسود . وكان هو يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ . قال التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار الشام فاتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا المتقدم ذكره كاسيحيء فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنداً من الارمن وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهاً واكابر اهلها

الفننة بين العبيد والأتراك

ففي سنة ٤٥٤ هـ بينما كان الخليفة ومعه الحجاج في المكان المتقدم ذكره افرط احد الاتراك بالشرب حتى سكر فجرد سيفه على احد العساكر العبيد من حرس الخليفة فهجم رفاقه على التركي وقتلوه فاغتاز الاتراك وتجمهروا بكثرة واتوا الى المستنصر وقالوا « اذا كان قتل هذا برضاك فالسمع والطاعة والا فلا نرضى به » فاجاب الخليفة انه حصل بغير رضاه فانقض الاتراك على السودانيين وكانوا كثيراً . فتخاصم الفريقان طويلاً وبعد واقعة هائلة انتهى الامر بعقد صلح على ان يكون القاتل تحت امر الاتراك ثم عادوا الى القاهرة . على ان الضغينة كانت تزايد يوماً فيوماً . ولم ينفكوا عن الخصام . وكان السودانيون يطبعون الوزير فيأوون الى نكبتهم . اما الاتراك فما فتئوا يضمون اليهم جماعات من العرب يتفقون معهم على المشاركة في السراء والضراء . واخيراً اقاموا عليهم ناصر الدواة الذي فشل في حملته على الشام وكان قد عزل من منصبه في دمشق واضمر للخليفة ووزرائه شراً واقام في القاهرة يترقب الفرصة للانتقام . فقبل تلك القيادة آلة لتنفيذ ما ربه . ثم علم السودانيون انهم يعجزون عن مناوأة الاتراك فهاجروا الى الصعيد فانضم اليهم كثيرون من اهله فاشتد ازهرهم وكثر عددهم حتى بلغ خمسين الف مقاتل فنزلوا الى القاهرة والاسكندرية وهاجموا الاتراك في كوم شريك على الشاطيء الغربى لفرع رشيد من النيل (وقد اشتهر هذا البلد بعدئذ في الحملة الفرنسية حيث غلبت المماليك) . وكان الاتراك عشرة الاف وقد كمنوا لاعدائهم حتى اذا جاءت الساعة هجموا على السودانيين وهم على الشاطيء فالتقوا بعضهم في الماء وذبجوا البعض الاخر وفر الباقيون وقدر بعض المؤرخين جملة من قتل وغرق منهم بثلاثين الفاً

وكانت والدة الخليفة قد تظاهرت جهاراً بنصرة السودانيين مواطنيها فشق عليها انكسارهم فغضبت على الاتراك وحقدت عليهم لانهم قتلوا احد اصدقائها المخلصين فانفذت الى السودانيين مدداً ساعدهم على الدفاع فجرت وقائع شديدة في اماكن مختلفة في جوار القاهرة وفي مصر العليا والسفلى . والتشكيكات ترد الى الخليفة في امور مختلفة وجوابه الوحيد عليها قوله « ان ما حصل انما حصل بدون علمي فما انا مطالب به » وبعد طول الخصام ضعف الفريقان فضعفت فيهم ساحة الانتقام فعادوا الى السكينة والقلوب لا تزال على غل . وعدد الاتراك يزداد كل يوم وقد صارت اليهم اعمال الحكومة فالتقوا الخليفة بطلب زيادة مرتباتهم . وكانت قد نفذت ثروته ولم يعد قادراً

على اشباع مطامعهم وقد اصبح عبداً لأولئك العبيد الذين ربوا في كنفه ولم يجتمعوا الا لحماية شخصه . وكانت والدة المستنصر تزيد في الطين بلة فتأنيه كل يوم ببناء جديد تطلب اليه اموراً ما انزل الله بها من سلطان وتصرُّ عليها فضايق المستنصر ذرعاً حتى اضطر سنة ٤٥٧ هـ الى الفرار على قدميه الى جامع عمرو ويظهر الرغبة عن الملك الى العبادة فلما علم ارباب دولته بمكانه حملوه على العدول عن قصده فعاد قانطاً من الحيل

وفي سنة ٤٥٩ هـ قويت شوكة الأتراك وزاد طمعهم في المستنصر وأصر واعلى طلب الزيادة في مرتباتهم وضائق احوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقل مال الخليفة واستضعف جانبه فبعثت ام المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالأتراك فاجتمعوا بالجزيرة وخرج اليهم الأتراك بقيادة ناصر الدولة فاقتملا مراراً ظهر في آخرها الأتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ناصر الدولة الى القاهرة وقد عظم امره وكبرت نفسه واستخف بالخليفة

اما السودانيون فاجتمعوا بعد هذا الانهزام وتكاثروا حتى صاروا نحواً من ١٥ الف مقاتل فاستولوا على الصعيد وارادوا النزول الى القاهرة ونزل بعضهم الاسكندرية والبعض الآخر في الفسطاط . فهاج الذين في الفسطاط بدسيسة والدة المستنصر فاستشاط ناصر الدولة غضباً وعزم على قطع دابر السودانيين من القطر المصري او ان ينفصل الامر اماله واما عليه . فجمع رجاله وحارب السودانيين في الفسطاط فظهر عليهم وانخن في قتلهم واسرهم

ثم صار الى الصعيد فخاربهم وشتمهم ثم تحول الى مصر السفلى فاخرجهم منها ومن الاسكندرية واقام فيها من يثق به . ثم عاد الى القاهرة فنظفها من آثامهم وقتل من وصلت اليه اخباره ودخلت سنة ٤٦٠ هـ والمستنصر يحاول اعادة نفوذه عبثاً فاستشار ذوي شوره فلم يجدهم نفعاً لانهم هم انفسهم لم يكونوا يرون فيه الاياقة لهذا المنصب وكانت الصعيد لاتزال في حوزة السودانيين ومصر السفلى لاتخضع الا لناصر الدولة ولا سيما بعد استيلائه على الاسكندرية . وكانت الفسطاط والقاهرة ايضاً تحت سيطرته واما اوامر المستنصر فكانت لاتكاد تجري على حاشيته . وقد استفحل الأتراك واستهانوا بالخليفة واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر اربعمائة الف دينار بعد ما كان ٢٨ الفاً

حال المستنصر

تلك حال المستنصر في مصر اما في الخارج فلم تكن اصلح لان بدر الجمالي المتقدم ذكره اغتم الفرصة واستقل بالشام والصالحى امير اليمن كان قد بايع الفاطميين فقتله احد قواده ودخلت مكة واليمن في حوزة الخلفاء العباسيين والفتن قائمة على الحدود بين امراء الاقسام ومن يعتدي عليهم فيخرجونهم من اماكنهم ويحتلونها فيلجأ أولئك الامراء الى القاهرة . وفي ختام الاضطرابات جاهر الروم بالحرب وزاد الطين بلة ان المستنصر لسوء تصرفه افسد العلائق بينه وبين الامير محمود صاحب حلب وقد تقدم انه حصل على رضاه حتى لقبه باشرف الالقب . فلما طلب الروم الحرب كتب اليه المستنصر يستنجده بالنقود لحرب الروم واخراج الاتراك من بلاده فاجابه محمود « اما النقود فلا وجود لها عندي لاني اقترضت المسال لاسترجاع حلب لسلطاني واصحاب المال يظالبوني . اما الروم فقد عقدت معهم صلحاً فاقروضوني مالاً لسد حاجتي واخذوا ابني رهناً عليها فلا ارى معاداتهم . اما الاتراك فانهم اقوى مني فاذا اردت طردهم طردوني » فاستشاط المستنصر غضباً لهذا الجواب وكتب الى بدر الجمالي صاحب الشام يعهد اليه للاقتصاص من امير حلب العاصي فلم يصدق بدر الجمالي ان جاءه هذا الامر فجنده الى حلب

وخرج ناصر الدولة في اثناء ذلك من القاهرة لمحاربة السودانيين في الصعيد فلاقى منهم مقاومة لم يلاق مثلها فحاربهم مراراً وقد غلبوه في كل مرة فكتب الى الخليفة يشنكي امر السودانيين وباقى التبعة على والدته بانها تهيجهم وتمدهم بالعدة والمال سرّاً على يده . فاجاب الخليفة انه لا يعلم شيئاً عن امه وانما يتكلم عن نفسه ويقسم انه لم يدخل في هذا الامر اولاً ولا آخراً . فاشتد ناصر الدولة ورجاله وضمو اليهم مدداً وعادوا فهاجموا مهاجمة اليأس ففازوا بهم وانحنوا فيهم فن نجساً من القتل لم ير سبيلاً للنجاة الا في الفرار فنبعثروا وتلاشت قوتهم من ذلك الحين

فاصبح ناصر الدولة حملاً ثقيلاً على عاتق الخليفة واتم ذلك النصر اسباب ضعفه فعدا وقد ذهبت هيئته ونفوذه من عيون رجاله الاتراك فلم يعودوا يكثرثون بادامه ولا بشخصه واصبح صلوكهم يقول عليه بكل سوء ونجمهروا يطلبون زيادة مرتباتهم فانزعج الخليفة لذلك . ولم يكن يأمن على حياته ولا يرتاح في اكله ولا شربه ولا نومه حتى ولا في صلواته واصاب الوزراء نحو ذلك فتنازلوا عن الوزارة

منهوبات قصر الخليفة وخزانة الكتب

وكانت مطالب الاتراك تحكماً منهم لانهم نالوا الزيادة اللازمة فبلغت مرتباتهم الشهرية اربعمائة الف دينار كما تقدم . فضلا عن قلة المال فبعثوا يطالبونه فاعتذر بعبثه فلم يعذروه وقالوا «بع ذخائرک» فاخرج كل ما كان في القصر من الذخائر الثمينة التي اشتغل الفاطميون بجمعها منذ تأسيس دولتهم وصاروا يقومون ما يخرج اليهم باقل الامنان يأخذون ذلك مما لهم واقتسموها بينهم كما تراءى لهم لافرق في كونه حقاً او تعدياً . وكان الخليفة ووزير ماليته ينظرون الى المزداد قائماً على امتعتهما بلا قياس ولا يبديان حراكاً . وقد بالغ المؤرخون في تقدير تلك الامتعة الثمينة وقد ذكرها المقرئزي وهي : قبة العشاري وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير احمد بن علي الجرجاري في سنة ست وثلاثين واربعائة وكان فيه مائة الف وسبعة وستون الفاً وسبعمائة درهم فضة نقرة وان المطلق لصناع الصاغة عن اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصة الفنان وسبعمائة دينار وعمل ابو سهل التستري لوالدة المستنصر عشارياً يعرف بالفضي وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة الف وثلاثون الف درهم ولزم ذلك اجرة الصناعة ولطلاء بعضه الفنان واربعمائة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل وانفق على العشاريات التي برسم النزهة البحرية التي عدتها ستة وثلاثون عشارياً بالتقدير بجميع آلتها وكساها وحالها من مناطق ورؤس منجوقات واهلة وصفريات وغير ذلك اربعمائة الف دينار ولما نهبوا القصر على ما تقدم كفوا عن مطالبته بزيادة المعاش بعد ان علموا انه لا يملك شيئاً لكنهم دخلوا مدفن اجداده واخرجوا منها كل ما وجدوه بها من التحف ثم عمدوا الى خزانة الكتب فاخرجوا منها آلافاً من الكتب في جملتها ٢٤٠٠ ختمة قرآن في ربعاته بخطوط منسوبة محلاة بنذهب . وذكر بعض الذين شاهدوا النهب سنة ٤٦١ هـ قال « فرابت فيها خمسة وعشرين حملاً موقرة كتباً محمولة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق في الدين بايجاب وجبت لها عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبلين وان حصة الوزير ابي الفرج منها قومت عليه من جاري بمالكة وغلمانه بخمسة آلاف دينار . وذكر لي من له خبرة بالكتب انها تبلغ اكثر من مائة الف دينار ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سارمه من الوزير ابي الفرج وابن ابي كدينة وغيرهما هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة مع ماصار الى عماد الدولة ابي الفضل

ابن المحرق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتله الى المغرب. وسوى ما ظفرت به لواته محمولاً مع ما صار اليه بالابتياح والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة احدى وستين واربعائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدر المعلوم المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي اخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يابسونه في ارجلهم واحرق ورقها تأولاً منهم انها خرجت من قصر السلطان وان فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتاف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح فصار تلالاً عرفت بتلال الكتب وفي سنة ٤٦١ هـ لم يكتف ناصر الدولة بما حط من نفوذ الخليفة السياسي فعمد الى ان يحط من نفوذه الديني ويقيم من يخلفه ولم يكن ذلك ممكناً ان لم يأت بحجة تمنح المستنصر فلبث يترقب الفرص فاتفق وهو خارج من بيت الوزير ان رجلاً طعنه بخنجر فهم به ناصر الدولة وخنقه حالاً لان جرحه لم يكن بليغاً. ورأى تلك فرصة لا يحسن ضياعها فادعى ان الخليفة المستنصر اغرى هذا الرجل على قتله وان مثل هذا الخليفة الغارق في الملاهي والمسكرات لا يستحق الخلافة. وكان ناصر الدولة قد اتفق مع الشريف ابي طاهر - وكان بدر الجمالي قد طرده فأتى الى القاهرة وجمع اليه عصابة يشد بها ازره وكان معروفاً بالتقوى والتدين. فوعده ناصر الدولة ان يوليه الخلافة بعد المستنصر بشرط ان يقتل بدر الجمالي صاحب الشام قبلاً وكان هذا مستقلاً هناك وناصر الدولة يخاف قدومه الى مصر. فانضم الى الشريف ابي طاهر اميران من عرب سوريا فاخذ من ناصر الدولة اربعين الف دينار للتفقات وسافر الثلاثة الى الشام والتف حولهم عدد وافر من الاحزاب. وكان بدر الجمالي ساهراً على حكومته فلم يلبث المؤامرون ان قابلوا حصون بدر الجمالي حتى قبض عليهم واخذت امتعتهم وقتل الشريف ابو طاهر سلخاً

ناصر الدولة

أما ناصر الدولة فلم ينفك ساعياً في مراده. واصبحت القوة العسكرية شطرين الواحد على غرض ناصر الدولة وهم الاتراك والآخر على غرض الخليفة. فلم ير الخليفة بدءاً من خطة الدفاع باظهار القوة. فكتب الى ناصر الدولة ينذره وينصح اليه بما نصه « تقربت منا وطلبت حمايتنا غميناك وبدلنا لك العناء فكافأتنا بالعقوق وما زادك حامنا الا قحة فافسدت بين جيوشنا وتواطأت مع ذوبك على مناواتنا فالآن اخرج من بلدنا ونحن نضمن لك الامان ونؤذن لك بان تحمل معك ماشئت الى حيث شئت

وان لم تدعن اوقعنا بك عقاباً صارماً » فاجابه ناصر الدولة ساخرأ فبعث المستنصر الى قواد الاتراك الذين كانوا من حزبه وبينهم دكر وهو من الد اعداء ناصر الدولة (مع انه حموه) وجاء معهم قواد المغاربة وامراء كتامة وطاب اليهم مبايعته ثانية فبايعوه فرأى ناصر الدولة عدد رجاله قليلاً فبرح القاهرة الى الجيزة ونهبوا داره ودور حواشيه وقتلوا كثيرين منهم . ثم ركب المستنصر جواده ولبس درعه واحاطت به الاعلام فر من تحتها جميع من في القاهرة من الاتراك وفيهم عدد عظيم من رجال ناصر الدولة . وسار الموكب حتى اتى بين القاهرة والفسطاط فنودي بالانصر للخنيفة المستنصر . أما ناصر الدولة فلما رأى ما كان من قلة رجاله ونفاد ماله فرّ الى الاسكندرية وتحصن فيها وبعث الى اهله ان يقدموا ثم عمل على بث اغراضه في مصر السفلى بمساعدة بعض القبائل الاعراب فحمل الناس على خلع المستنصر ومبايعه القائم بامر الله العباسي

الجماعة والغلاء

أما الفسطاط والقاهرة فلم تكونا في معزل عن تلك القلاقل لان الجوع تمكن منهما لتقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات . وامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ وكان معظمه سنة ٤٦٢ هـ . ومنذ سنة ٤٥٧ هـ لم يكن وفاء النيل كافياً للري . ثم تواتت القلاقل التي اقتضت الاسراف بالحبوب ورافق كل ذلك اشتغال الحكومة بسياستها الداخلية عن الزراعة . فكل هذه الاسباب جعلت الخنطة نادرة جداً فبلغ ثمّن الاردب الواحد مائة دينار والقطة ٣ دنانير والكب ٥ دنانير ان وجدت . ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين فلم يبق من يزرع . وشمل الخوف من في العسكر ووافق ذلك ثورة العبيد فانقطعت الطرقات برّاً وبحراً الا بالخطارة الكثيرة . واما استفحل امر الجوع جاء المستنصر الى والي القاهرة وانذره مقسماً برأسه انه اذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة قطع عنقه . وكان الوالي علماً بمخابئ كثيرة من الخنطة ولكنه لم يكن يعلم مقرّها فاخرج بعض المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام والبسهم ملابس الاغنياء ووقفهم في رحبة عمومية وامر بقطع رؤوسهم بدعوى انه لم ير سبيلاً لتخفيف وطأة الجوع الا بقتل الاغنياء . وقال انه لن ينفك عن القتل حتى يشبع الناس نخاف الاغنياء الذين كانوا قد اخفوا الخنطة وفتحوا مخازنهم وفرقوا الزاد على العباد

وكان ناصر الدولة قد حصر حبوب مصر السفلى ومنع شحنها الى القاهرة وجهاتها وجاء القاهرة وحاصرها بعد ان احرق كل ما مرّ به من القرى والمدن فاضطر الخليفة

بعد طول المقاومة ان يفتح ابواب المدينة لناصر الدولة واتباعه . ولما دخل ناصر الدولة القاهرة زاد قحة وطمعاً فعاد الى مطامعه وادعى ان له على الخليفة مرتبات متأخرة وبالغ في احتقاره

ويحكى ان ناصر الدولة بعث مرة الى الخليفة فرآه الرسول في قصره جالساً على حصير بال ليس عنده من الفرش غيره وقد اصبح لا حاشية عنده الا ثلاثة خدم نصف عراة فطالب الرسول دفع المتأخر فانتفت اليه الخليفة قائلاً « أما يكفي ناصر الدولة ان أجاس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟ فليأخذ اذن هذا الحصير وهؤلاء العبيد وهذه الاثواب التي لا تكاد تستر عورتى ولينصرف عني » فبكى الرسول ورجع الى ناصر الدولة واخبره فتأثر من هذا القول واحمرّ خجلاً وتنازل عن طلبه وخصص للمستنصر مرتباً يومياً ينفقه على حاجات بيته

وفي سنة ٤٦٥ هـ تصالح ناصر الدولة مع حميه دكر ولكن هذا لم يزل في ريب من مقاصد صهره فعمد الى الايقاع به فاصطحب بعض خاصته وجاؤا الى دار ناصر الدولة التي تعرف بمنازل الغز وهي على النيل . فدخلوا من غير استئذان الى سخن داره فخرج اليهم ناصر الدولة في رداء لانه كان آمناً منهم . فلما دنا منهم ضربوه بالسيف فسيهم وهرب منهم يريد الحرم فاحرقوه وضربوه حتى قتلوه واخذوا راسه . ومضى رجل منهم يعرف بكوكب الدولة الى نحر العرب اخي ناصر الدولة وكان نحر العرب كثير الاحسان اليه فقال لا حاجب « استأذن لي على نحر العرب وقل صنيعتك فلان بالباب » فاستأذن له فأذن له وقال لعاه قد دهمه امر . فادخل عليه اسرع نحوه كانه يريد السلام عليه وضربه بالسيف على كتفه فسقط الى الارض فقطع رأسه واخذ سيفه . وكان ذا قيمة وافرة واخذ جارية له اردفها خافه وتوجه الى القاهرة . وقتل اخوهما تاج المعالي وانقطع ذكر الحمدانية بمصر

بدر الجمالي امير الجيوش

على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخاص من شر ووقع في آخرا لآن دكر لم يكن اقل معا كسقه من صهره فالتجأ المستنصر الى بدر الجمالي حاكم سوريا المتقدم ذكره فكتب اليه سرّاً ان يأتي بجيشه الى مصر ليوايه عليها فقبل بدر مشروطاً ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من اهل الشام

سافر بدر الجمالي من سوريا في عصابة من رجال قد اختبر شجاعتهم وامانتهم طويلاً وسار الى عكا ومنها بجرأاً الى مصر . وكانت الريج جيدة على غير المعتاد في مثل

ذلك الفصل لانه برح عكا في اول دسمبر (كانون الاول) وبلغ مصر ولم يشعر احد به ونزل بين تينس ودمياط . فاستقبله سايمان كبير اهل البحيرة وتوجهوا نحو القاهرة فنزلوا في قايبوب وبعثوا الى الخليفة ان يقبض على دكز قبل دخولهم فقبض عليه واعتقله في خزانة البنود . فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكن للامراء علم باستدعائه فما منهم الا من اضافه . فلما انتضت نوبهم في ضيافته استدعاهم الى وليمة اعدوا لهم في منزله وبيّنت مع اصحابه « ان القوم اذا اجنهم ليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء فن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك » واكل بكل واحد واحداً من اصحابه وانعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الامراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى اصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديه . فقويت شوكته وعظم امره وخلع عليه الاستنصر بالطيئسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم . فصارت القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يده وزيد في القابله لقب « امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهاذي دعاة المؤمنين » . وتبع المفسدين فلم يبتغ منهم احد حتى قتله . وقتل من امثال المصريين وقضاةهم ووزرائهم جماعة . ثم خرج الى الوجه البحري فاسرف في قتل من هناك من لواتة واستصفي اموالهم وازاح المفسدين وافناهم بانواع القتل وصار الى البر الشرقي فقتل منهم كثيراً . ونزل الى الاسكندرية وقد نار بها جماعة مع ابنه الاوحد فحاصرها اياماً من محرم سنة ٤٧٧ هـ الى ان اخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الاول سنة ٤٧٩ هـ ثم سار الى الصعيد فحارب جهينة والتعابية وافنى اكثرهم بالقتل وغنم من الاموال ما لا يعرف قدره كثرة فصلح حال الاقليم بعد فساد

وكان يسعى جهده في اسعاد المصريين لينسيهم ما قاسوه طويلاً فنشط الزراعة وابعاح الارض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت حال الفلاحين واغنوا . وسهل سبل التجارة فتقاطر التجار الى مصر اكثر عدله . بعد نزوحهم منها في ايام الشدة . وامر بانشاء البنايات العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وشاد الجوامع في الاسكندرية والقاهرة وجزيرة الروضة قرب المقياس . وكان المقياس قد اختل فاصلحه اصلاً صح ان يقال فيه انه بناء ثانية . وبنى دار الوزارة الكبرى ودعيت بالدار الافضلية وسكنها ولم يزل يسكنها بعده من يلي امرة الجيوش الى ان انتقل الامر الى بني ايوب فاستقر سكن الملك الكامل في قلعة الجبل خارج القاهرة وأسكنها

السلطان الملك الصالح ولده . ثم ارصدت دار الوزارة ان يرد من الملوك
ورسل الخليفة

وعادت سلاوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة الى
مبايعة المستنصر بعد ان قضت خمس سنوات تخطب للخليفة النائم بامر الله العباسي في
بغداد. ورفعوا الغطاء الاسود عن الكعبة ووضعوا مكانه الغطاء الابيض^(١) وعليه اسم
المستنصر بالله ولقبه . وبقيت مصر بعد ذلك ٢٠ سنة لم يحدث فيها ما يهيم التاريخ ذكره
— وائل الامم ذكراً في التاريخ اسعداً

اما سوريا فان الامير اتسز احمد الاراء التركمانيين اغتتم غياب بدر الجمالي
فقدم اليها غازياً فاستولى على بيت المقدس وطبرية وما بعدها حتى دمشق . ثم
تحول الى مصر في ٢٠ الف مقاتل وعسكر في سهل مجوار القاهرة . وكانت الجيوش
المصرية مشتغلة في اخاد ما بقي من نيران الثورة في الصعيد فاضطرب اهل القاهرة ولم
ير بدر الجمالي بدءاً من مصالحة اتسز التركماني على ١٥٠ الف دينار يدفعها له بعد
خروجه من مصر . فقبل اتسز بتلك الشروط لكنها لم تدم اكثر من ٥٠ يوماً تمكن
امير الجيوش في انائها من حشد جيوشه من الصعيد واجتذاب قلوب بعض كبار
العربان الذين تتألف منهم معظم خيالة اتسز وبعض رجال التركمان الذين اتوا معه . فلما
صارت الجيوش المصرية بقرب القاهرة كتب امير الجيوش الى قافلة كانت تهبأت
الى الحج كتاباً ونصه : « ان الجهاد اعظم ثواباً عند الله من الحج فانضموا الى
جيوشنا » فطاعوه ففرق فيهم المال والسلاح . فلما تكامل عدد رجاله جمعهم وهجم على
اتسز ذات صباح بغتة واحكم في رجاله السيف فانهزموا وقد قتل جانب كبير منهم
فتبعهم الاعراب والمصريون الى مسافة بعيدة . ثم عادوا الى معسكرهم فوجدوا فيه نحواً
من عشرة آلاف ولد بين اناث وذكور قد اسرهم التركمان من مصر . وخسر التركمان
على اثر تلك المعركة جميع البلاد التي افتتحوها في سوريا فدخلت في حوزة الخليفة
المستنصر . ومات اتسز في دمشق اشقى موتة

اصلاحات امير الجيوش ومناقبه

فلم يعد امام بدر الجمالي من يخالف امره ويقف في سبيل ارادته في اصلاح البلاد
وكان سور القاهرة قد تهدم بعضه فشرع في ترميمه وتقويته فزاد فيه الزيادات التي بين بابي
زويله وباب زويلة الكبير وبين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن .

(١) اللون الابيض يختص بالفاطميين والاسود بالعباسيين والاخضر بالامويين

وزاد عند باب النصر ايضاً جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر . وجعل السور من لبن واقام الابواب من حجارة . وبنى باب زويلة وعلى ابراجه ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من ان يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر في وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة . لكنه جعل في بابه زلاقة من حجارة صوانية عظيمة حتى اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان . فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مروره من هناك فاختل فرسه وزلق به واحسبه سقط عنه فامر بقتلها فنقضت وبقي منها شيء يسير . وكان احدها في ايام المقرزي لا يزال موجوداً قرب قبو الخرنفش . وبعد بضع سنين اضطرب القطر من عصابة ثارت تحت قيادة ابن بدر الجمالي لكنها لم تكفد تأتي بضرر حتى انكسرت شوكتها

وفي سنة ٤٨٣ هـ احصى امير الجيوش الاراضى المصرية ومقدار خراجها وقابله بما كان يحصله الحكام قبله فرأى ان الخراج الذي كان يستخرج منها قبله لم يتجاوز مليونين وثمانماية دينار اما في ايامه فتجاوز ثلاثة ملايين ومائة الف دينار لاعتناءه الخصوصي بالزراعة وتنشيط التجارة وكناترا رائجتين في ايامه . وما زال عاملاً بنشاط الى اوائل ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ فتوفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد ان حكم في مصر عشرين سنة حكماً مطلقاً . وكان الجميع يحترمونه وفي يده ازمة الاحكام يديرها بحكمة ودراية وثبات فتكاثر ثروة البلاد وخصبها الى حد لم تبلغه قبلاً . وكان ينشط الزراعة والتجارة والعلم والادب على السواء . وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة قيل انه قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها . منها نحو عشرين الفاً من البحيرة ومثل ذلك من اهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد واصوان والقاهرة الا انه عمر البلاد واصلاحها بعد فسادها باتلاف المفسدين من اهلها . ولا يزال امير الجيوش معهوداً لدى المصريين بمنزلة عمر و بن العاص واحمد بن طولون

وكان محباً للادباء يقرب الشعراء ويطرب لسماع الشعر . ومن الشعراء الذين مدحوه علقمة بن عبد الرزاق الفليسي وقد حدث بعضهم عنه قال « قصدت بدر الجمالي بمصر فرايت اشرف الناس وكبراهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه - قال - فبينما انا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد فخرج علقمة في اثره واقام الى ان رجع من صيده فلما قاربه وقف على نشز من الارض او ما يرقعة في يده وانشأ يقول

نحن التجار وهذه اعلاقنا * درر وجود يمينك المتباع

قلب وقتشها بسمعك انما * هي جوهر تختاره الاسماع
 كسدت عايتنا بالشام وكلما * قل النفاق تعطل الصناع
 فثناك يحملها اليك تجارها * ومطيها الآمال والاطماع
 حتى اناخوها ببابك والرجا * من دونك السمسار والبياع
 فرهبت مالم يعطه في دهره * هرم ولا كعب ولا القعقاع
 وسبقت هذا الناس في طلب العلا * فالناس بعدك كلهم اتباع
 يابدرا قسم لوبك اعتصم الوري * ولجوا اليك جميعهم ماضعوا

وكان على يد بدر بازي فالتقاء وانفرد عن الجيش وجعل يسترد الابيات وهو ينشد
 الى ان استقر في مكانه. ثم قال لجماعة غلمانة وخاصة «من احبني فايخلع على هذا الشاعر»
 فخرج من عنده ومعه سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وامر له بعشرة آلاف درهم
 فخرج من عنده وفرق كثيراً من ذلك على الشعراء «ولما مات بدر قام بما كان اليه
 ابنه الافضل

سقلية

وبعد وفاة امير الجيوش ببضعة ايام توفي الخليفة المستنصر في ١٨ من الشهر نفسه
 وسنه ٦٧ سنة وخمسة اشهر قضى منها ستين سنة في منصب الخلافة ولم يكن اهلاً
 لادارة الاحكام لضعفه وقصر حبه وتصديقه كلما يقال له مهيا كانت حقيقته. فكان لقب
 الخلافة له اسماً غير مسمى. ومع طول مدة خلافته لم يحدث فيها غير تلك الضيقات
 العظيمة. ولم تكن مصر وحدها في ذلك العذاب فان صقلية كانت من اغنى بلاد الفاطميين
 تربة وكانت قبلاً في حكم الاغلبة ونظراً ابعداها عن كرسي الخلافة لم تكن فيها فائدة.
 وكان الولاة الذين يرسلون اليها يحاولون الاستقلال. ففي ايام الخليفة المعز لدين الله كان
 على هذه الجزيرة وال يقال له احمد راي الخليفة منه ميلاً عن الطاعة فنفاه الى افرقية
 واقام مقامه غيره وغيره وساروا كلهم على خطة واحدة. فتعددت القلاقل وانقسم اهل
 الجزيرة على انفسهم فلم يعد في امكانهم دفع من بغزوهم من الافرنج وزد على ذلك ان
 جيرانهم الافرنج سكان الجزيرة نظراً لما كانوا يعاملون به من الاستبداد كانوا يودون
 الخروج من سلطة المسلمين فجعلوا يكتبون ابنا ملتهم من الدول الاخرى. وكل هذا
 جرى في ايام المستنصر وانتهى بخروج تلك الجزيرة من سيطرة المسلمين
 وذلك ان مسلمي هذه الجزيرة كانوا حزبين متضادين يرأس احدهما ابن تمامة
 فتحارباً فانهزم ابن تمامة برجاله والتجأ الى مدينة كانان وكانت في حوزة الفرنسيين

من سنة ٣٧٢ هـ فاستمشر الفرنسيون بقدمه فاكرمو وافادته وامتدوه بالعدة والرجال اما الحزب الآخر فكان قد استمد المعز بن باديس فامده بفرقة من افريقية فجرت بين الحزبين واقعة احتمدت نارها على الخصوص بين الاحزاب المساعدة وهم رجال المعز بن باديس من الجهة الواحدة والجيوش الفرنسية تحت قيادة روجر الاول من الجهة الاخرى . وانتهت بانتصار ابن تمامة ورجال روجر وانهمزام من كان في الجزيرة من المسلمين فدخلها روجر وقد نفذ سهمه . فاخذ يسمى في تمكين قدمه فبايعه اهله سنة ٤٥٣ هـ وهكذا خرجت هذه الجزيرة من سلطة الفاطميين . وما زالت صقلية في حوزة روجر حتى مات فخلفه ابنه ولقب روجر الثاني سنة ٤٩٥ هـ فمتبع خطوات ابيه في اصلاح شأن الجزيرة فتقدمت في ايامه تقدماً عظيماً لم يتناه في سائر ازمائها فنسيت الازمان التي مضت عايتها وهي غارقة في التقلبات والتحزبات وسفك الدماء . اما المسلمون الذين اختاروا المكوث في الجزيرة فظلوا متمتعين بجميع حقوقهم المدنية والسياسية والدينية



وترى في الشكل السابع والاربعين صور النقود التي ضربت على عهد ملوك صقلية الاقدمين في باليرم عاصمة ايطاليا اذذاك

ش ٤٧ : نقود ملوك صقلية القدماء ضرورية في باليرم

وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفي المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرون من بني العباس . وفي الشهر الاخير توفي المستنصر ووزيره الباسل امير الجيوش كما تقدم . وكانت وفتهما خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدة قوية على الخلافة . وترى في الاشكال ٤٨ و ٤٩ صور النقود الذهبية التي ضربت في ايام الخليفة المستنصر بالله فالاولى ضربت



في القاهرة سنة ٤٢٨ هـ والثانية ضربت سنة ٤٦٥ هـ . ولم يغفل بدر الجمالي قبل موته عن النظر في مستقبل المملكة فأوصى بتدبيره الولد الثاني شاهين شاه (لان الاول كان عاصياً كما تقدم) اما هذا فنكان فضلاً حكيماً وكان قبل وفاة ابيه لايفك عن ش ٤٨ : نقود المستنصر رضرت سنة ٤٢٨ هـ

ملاصقته والافتداء بمناقبه فتدرب على يده وكان يساعده في ارائه فرأى فيه ابوه رجلاً



يلتقى بادارة الاحكام واستلام زمام الامور . ولما تولى شاهين شاه الوزارة لقب بالافضل وبجميع الالقاب والامتيازات التي كانت لابي امير الجيوش

ش ٤٩ : تود المستنصر ضربت سنة ٤٦٥ هـ

خليفة المستعلي بن المستنصر

من سنة ٤٨٧ - ٤٩٥ هـ او من ١٠٩٤ - ١١٠١ م

اما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنه الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل ولدي المستنصر فجاء اليه فاذا اخوهما قد جلس على سرير الخلافة فامتعضا لذلك وشق عليهما . فأمرهما الافضل بتقبيل الارض وقال لهما « قبلا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعاه فهو الذي نصّ عليه الامام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده » فامتعا من ذلك وقال كل منهما ان اباه قد اوصى له بالخلافة وقال نزار « لو قطعت يدي ما بايعت من هو اصغر مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وانا احضره » وخرج مسرعاً ليحضر الخط فضى لايدري به احد وتوجه الى الاسكندرية . فلما ابطأ بجيئه بعث الافضل اليه ليحضر بالخط فلم يعام له خبراً فانزعج لذلك انزعاجاً عظيماً

نزار واقكين

وكان الافضل حاقداً على نزار لاسباب منها انه دخل يوماً من باب وهو راكب فصاح به نزار « انزل يا ارمي » . فحقدها عليه وصار كل منهما يكره الآخر . فلما مات المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانه كان رجلاً كبيراً هماماً وله حاشية واعوان فعمد الى مبايعة اخيه احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوفهم من نزار وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه . وكان من جماتهم محمود بن مصال

فبعث الى نزار واعامه بما كان من اتفاق لافضل مع الامراء على اقامة اخيه احمد وادارته لهم عنه ثم كان استدعاء الافضل له ولاخيه مبايعة اخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية ابيه له بالخلافة سار من القصر متكرراً ومعه ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة افتكين احد ممالك امير الجيوش بدرالجمالي ودخلا عليه ليلاً واعاماه بما كان من الافضل وتراهما عليه ووعده نزار بأن يجعله وزيراً مكن الافضل فقبلهما اتم قبول وباع نزاراً واحضراهل الثغر لمبايعة فمبايعوه وناعمته بالمصطفى لدين الله

فباغ ذلك الافضل فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨ هـ بعساكره الى الاسكندرية فبرز اليه نزار وافتكين وكانت بين الفريتين وقائع شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بن معه منهزماً الى القاهرة . فقوي نزار وافتكين وصار اليهما كثير من العرب . واشتد نزار وعظام واستولى على الوجه البحري واخذ الافضل يتجهز ثانية لمحاربتهم ودس الى الكابر العربان ووجوه اصحاب نزار وافتكين ووعدهم . وسار قاصداً الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصاراً شديداً والح في مقاتلتها

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله وفر في البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وافتكين اليه يطالبان الامان فامهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وافتكين وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فإنه قتل في القصر بان اقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما . واما افتكين فقتله الافضل بعد قدومه فعاد السلام الى المملكة فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخات في حوزة دولة الارتقين

دولة الارتقين

وكيفية نشوء هذه الدولة ان الساجوقيين خرجوا من بلاد التتر قبل ذلك الحين بنصف قرن فافتتحوا بلاد فارس وكانت تابعة للدولة العباسية ثم التقوا في غربيها بقبايل من التركمان عائشين على تربية المواشي لا معرفة لهم بالحروب فاخرجوهم من ضواحي بحر قزوين وساقوهم الى حدود سوريا . فلما بلغوا ذلك المكان اضطروا لتنازع البقاء ان يقاوموا من يمنعهم من نيل رزقهم فاستخدموا قوتي الهجوم والدفاع حتى اصبحوا كغيرهم من المحاربين ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا كذلك حتى كانت الدولة الساجوقية قد امتدت الى حيث هم فدفعتهم امامها فتهقروا الى غربي سوريا

وانتشروا فيها وفي فلسطين . فامير التركمانيين المتقدم ذكرهم كان يدعى ارتق بن اكسك استولى على اورشليم فاسس دولة عرفت بدولة الارتقيين . وفي سنة ٤٨٤ هـ توفي ارتق عن ولدين الغازي وسقمان فحكما معاً في بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا وكانت جميع هذه البلاد في قبضة الخلفاء الفاطميين . ففي ايام شاهين شاه الافضل كان الارتقيون على ما تقدم والساجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا

وفي سنة ٤٩١ هـ سار اير الجيوش الافضل لانقاذ بيت المقدس من الارتقيين فطلب اليهم التسليم فابوا فضررها بالمنجنيق فهدم بعضها فسهت وفرّ الارتقيون الى شرقي سوريا . فسار سقمان الى الرها واقام لنفسه حكومة فيها وضم اليها ديار بكر واستولى الغازي على العراق العربي وانشأ مملكة في ماردين

الحروب الصليبية

ثم كانت الحروب الصليبية اذ ذاك في اول نشأتها نعي ايام التعصبات الدينية العمياء التي ينجل التاريخ من ذكرها . فكم اهرقت من الدماء وكم احرمت الناس من الراحة - ان ذلك التعصب ساق اهل اوربا من بلادهم بالعدة والرجال لمحاربة سوريا وفلسطين ومصر ولم تكن النتيجة الا اهلاك العباد المقصود انقاذهم . فمن نجا من السيف لم ينج من الاستعباد . وانا لنسك القام من الخوض في هذا الموضوع الذي يسود القلوب ويشوته وجه الانسانية

فتأمل الحالة التي كانت البلاد الاسلامية فيها من الارتباك وما كان في طريقها من العقبات كيف كانت منقمة بينها . فقام اهل اوربا جميعاً وجاهروا بمحاربتها واحتشدوا في القسطنطينية بامر الامبراطور الكس كيون الاول والساجوقيون يزحفون في آسيا يفتتحون البلد بعد الآخر حتى بلغوا الاناطول فاصبحوا يهددون المسلمين في مصر كما يهددون النصارى في القسطنطينية . وما زالوا سائرين نحو القسطنطينية حتى ادركوا شاطئ البوسفور الشرقي فلم يبق بينهم وبين القسطنطينية الا ذلك البوغاز . وكان اذا ذكر اسم الله في معسكر المسلمين وقت الصلاة يسمعه المسيحيون في كنيسة اياصوفيا على الجانب الآخر

ثم قطعت جيوش النصارى البوسفور وعددهم عظيم . فقابلهم السلطان قليج ارسلان الساجوقي بن سليمان شاه مؤسس الدولة الساجوقية فخاربهوه

وارجعوه وجيشه الى الورا واستولوا على نيقية ثم انطاكية . نجاء المسلمين مدد من كتبوغا امير الموصل ودقاق امير دمشق وجناح الدولة امير حمص . ومع كل منهم فرقة من الرجال فاحاطوا بالصليبيين وضيقوا عليهم فتجمع هؤلاء ودافعوا دفاع اليأس ودفعوا قوات المسلمين وفرقوها فلم يبق ما يوقفهم عن التقدم . فاستولوا على المعرة بمد حرب ودخلوا حمص بدون حرب وانتشر جنودهم في جميع انحاء سوريا الغربية وفلسطين كالاه واج المتلاطمة فلاقها جيوش مصر هناك . وكانت بيت المقدس في حكم الخليفة المستعلي الفاطمي دند استخاصها من الارتقيين فحاصرها الصليبيون اربعين يوماً ثم افتتحوها عنوة ودخلوها يوم الاربعاء في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (يوليو «تموز» سنة ١٠٩٩) بعد مذبحة استمرت اسبوعاً فاصبحت الجثث متراكمة في الاسواق فجعلوا يجمعونها في الجامع الاقصى . وقيل انه قتل في تلك المعركة نحو من ٧٠ الف نفس واغتم الصليبيون غنائم كبيرة وساروا لفتح مصر

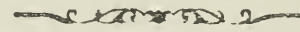


ش ٥٠ — قتال بين الصليبيين والمسلمين في القرن الحادي عشر للميلاد

تقلاً عن صورة مرسومة على زجاج نافذة بكنيسة القديس ديس

فاضطربت مصر لتلك الاخبار واصبحت نحشى ان يصيبها مثل ذلك فحشد امير الجيوش لمحاربة الصليبيين جنداً وافراً تحت قيادة سعد الدولة . فساروا وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فخاربوها فارجعوها على اعقابها . فلما رأى الصليبيون انفسهم خارج حدود مصر لم يعودوا يطمعون فيها فوجهوا مطامعهم شرقاً الى ما بين النهرين . فالتقت فرقة منهم بكمشتكين امير ملاية وسيواس فكسرها ولم يوقفهم عن مرادهم . فساروا من الجهة الواحدة نحو ديار بكر الى سروج ومن الجهة

لاخرى حتى استولوا على ارسوف وقصرية
ومرت سنتا ٤٩٣ و ٤٩٤ هـ في مثل هذه المناوشات . وفي يوم الثلاثاء ١٧ صفر
سنة ٤٩٥ هـ توفي الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد ان حكم ٧ سنوات وشهرين وله
والد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره فكان شاهين شاه وصياً عليه كما كان وصياً
على ابيه قبله . وكان قد عهد اليه ان يلقبته عند مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل



خلافة الأمر بن المستعلي

من ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ او من ١١٠١ — ١١٣٠ م

وكان الصليبيون في اثناء ذلك لا يزالون في فتوحهم بسوريا وقد فازوا لانقسام
الدول الاسلامية . وكان الواجب في مثل هذه الحال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة
اعدائهم لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتتت القوات فكانت تلك فرصة
لجماعة الصليبيين لم يضعوها لان الكونت سنجيل بعد ان استولى على طرسوس وحصص
وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٦ هـ وحاصرها براً وبحراً . وكانت
عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه
اتباع امير الجيوش . وطال امد الحصار حتى ملّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة
ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها . وفرّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر
ووصل الى مصر في ذلك الحين ايضاً الامير خلف بن ملاعب الكلابي . وكان
والياً على حمص اخرجه منها تناش صاحب دمشق زوراً سنة ٤٨٥ هـ فأتى مصر وعرض
نفسه لخدمة الخلفاء الفاطميين . وكان قد طاف انحاء المملكة الاسلامية لاستطلاع
احوالها شأن الحب لمعرفة حقائق الاشياء . فوصل مصر والخليفة في احتياج الى خدمته
وذلك ان ابامه في غربي سوريا كان قد تملكها السلطان رضوان نخر الدولة الساجوقي واقام
عليها والياً من قبله . فكتب هذا الوالي لامير الجيوش سرّاً انه مستعدّ لتسليم المدينة لمن
يرسله خليفة مصر . فتقدم الامير خائف لهذه المهمة فقبل فسار الى ابامه وتملكها . ولم
ترسخ قدمه فيها حتى نبذ الطاعة ووقف دفع الجزية فاراد الخليفة معاقبته فلم يستطع
لما كانت عليه سوريا من القلاقل والفتن . فانف قاضي تلك المدينة واعيانها من البقاء
على تلك الحال . فبعثوا الى والي حاب يطالبون حمايته فغهم فسلموا له المدينة وقتلوا
خلفاءً وبعض اهله . لكن الدهر لم يدم لهم لانهم ذهبوا غنيمة للصليبيين في سنة ٤٩٩ هـ

واول من قتل منهم القاضي المتقدم ذكره

وفي اثناء ذلك كان الكونت سنجيل محاصراً طرابلس الشام وقد شخص اميرها الى بغداد يستمد الخليفة المقتدر العباسي والسلطان ملك شاه الساجوتي فلم يمداه بشيء فاستجار اهلها بخليفة مصر فاجارهم وبعث الافضل احد اوليائه الى طرابلس فتملكها باسم الخليفة الامر وارسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع الصليبيين عنها فتأخر وصولها لمعاكسة الريح لها . وفي ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ (يوليو سنة ١١١٠ م) فتح الصليبيون طرابلس الشام عنوة وقتلوا بعض اهلها واستعبدوا البعض فسببوا بدخولهم اليها من الخسائر ما لا يمكن ان تسببه الحرب

ففي سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين وجعلوا بيت المقدس قسبة ملكهم . أما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث على الحياد الا المدافعة عند الحاجة . وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات اولئك الصليبيين وكل ذلك بتدبير الافضل امير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ امر الافضل ببناء خليج سماه بحر ابى المنجا لان الذي ناظر على حضره هو ابو المنجا ابو شعيا اليهودي . وانشأ الافضل ايضاً مرصداً عظيماً كلفه مشقات جسيمة . وجعل مركز ذلك المرصد على مرتفع في جوار المقطم كان يعرف قديماً بالجرم ثم لما اقيم فيه المرصد صار يعرف بالمرصد

البدوية وان عمها

على ان الهمة التي كان يبذلها الافضل امير الجيوش في سبيل مصالح البلاد لم تكن تحرك من الخليفة الامر باحكام الله ساكناً . وكان نغمساً باللماهي لا يسمع بغانية جميلة الا استقدهما . وكان له شغف خصوصي بالجوارى البدويات . ومن اقاصيله انه بلغه ان في الصعيد جارية من اكمل العرب واطرف نساءهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا بزى بداء الاعراب وصار يجول في الاحياء حتى انتهى الى حبيها وبات هناك في ضائفة وتحايل حتى عاينها فما ملك صبره ان يرجع الى مقر ملكه وسرير خلافته فارسل الى اهلها ليخطبها فاجابوه الى ذلك وزوجوه بها . فاما صارت الى القصور شق عليها مفارقة ما اعتادته واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها داخل اسوار المدينة فبنى لها البناء الذي اشتهر في الجزيرة بالهودج . وكان على شاطئ النيل بشكل غريب . الا ان البدوية بقيت متعلقة الخاطر بابن عمها ريت معه يعرف بابن مياح فكتبت اليه وهي في قصر الخليفة الامر تقول :

يا ابن مياح اليك المشتكى
 كنت في حيي مرءاً مطلقاً
 مالك من بعدكم قد ملكا
 ناءلاً ما شئت منكم مدركا
 لا ارى الا حبيساً ممسكا
 حيث لا نخشى علينا دركا
 وتلاعبنا برمات الحمى
 حينما شاء طليق سلكا

فاجابها

بنت عمي والتي غزبتها
 بحت بالشكوى وعندى ضعفها
 بالهوى حق عالا واحتكما
 لو غدا ينفع منا المشتكى
 مالك الامر اليه يشتكى
 هالك وهو الذي قد هلكا
 شأن داود غدا في عصرنا
 مبدياً بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الأمر فقال « لولا انه اساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حيه

وزوجتها به »

وفي اواخر سنة ٥١١ هـ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح اهاها واحرق جوامعها . وهم بمصر فداهمه مرض حمه على العود حالاً فعاد الى بيت المقدس فأت قبل ان يدرك العريش فنزعوا احشاءه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في ارض رملية واقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامنا باسم رمال بردويل . اما جنته فحملوها الى بيت المقدس . وبموت بردويل نجحت مصر من فتح عظيم . وبقى الصليبيون سع سنوات اخرى لا يستطيعون مناهضة مصر لاشتغالهم بهجمات المسلمين من شرقي سوريا . ففي سنة ٥١٨ هـ اتى الصليبيون صور واخذوها صلحاً واذنوا للمسلمين ان يخرجوا منها بكل ما يستطيعون حمه . وكانت صور اذ ذلك تابعة لمصر تخاف خليفتها من تقدم الصليبيين الى مصر نفسها وكانوا قد كفوا عن الفتوح فنبههم اليه الارتقيون وعماد الدين زنكي في شرقي سوريا والعراق

وفي اثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثر من تدخين الحشيش وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان رئيسهم يتصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية مشغولة بالحرب في انحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجميلة بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة وبصالحهم اخرى الى ان انتهى الامر فاقام حكومته بين ظهرانيهم واجتني حصوناً

منيعه ارهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع الجزية وقاية من
فتكهم بجيادهم فانه كان متفناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة . وفي سنة
٥٢٤ هـ سعى امير الباطنيين في قتل الامر باحكام الله فانفذ اليه بعض دهاته فقتلوه في ٢
ذى القعدة من السنة المذكورة وهو في طريقه الى زيارة معشوقته البدوية وسنه ٣٥ سنة
وحكمه ٣٠ سنة تقريباً



وترى في شكل ٥١ صورة نقود الامر باحكام
الله ضربت بالاسكندرية سنة ٥١٢ هـ (انظر
شكل ٥١)

ش ٥١ : نقود الامر باحكام الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الحافظ بن محمد

من ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ او من ١١٣٠ — ١١٤٩ م

ولم يكن للامر اولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم
ابن محمد واكن ارملة الخليفة كانت حاملاً فاقب عبد المجيد بنائب الملك ريثما تلد ويرون
ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويبع عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله . فاستوزر
احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثرت
حساده فقتلوه . فاستوزر وزيراً اخر اختبر فيه الدراية والحكمة واسمه بهرام لكنه
لم يلبث ان قتل في اواخر سنة ٥٤٣ هـ فعزم الخليفة بعد ذلك ان يتولى اعباء
الوزارة بنفسه

وفي خلال ذلك لم يكن في مصر اضطراب الا من حيث مشاركتها سوريا بالحروب
الصليبية على انها ما فتئت ساهرة تخشى غائلة تلك التعصبات لكنها لم تكدر تراح من
حروبها في الشرق حتى ظهر لها عدو هائل في الغرب فاصبحت الدولة الفاطمية حجراً
بين مطرقتين : فعدوها في الشرق الصايبيون واما في الغرب فملك صقلية روجر الثاني .
وقد تقدم انه تولى هذه الجزيرة بالارث وكان الفاطميون قد علموا بنهايتها من ايديهم
فلم يأسفوا عليها بعدها عن مركز حكومتهم . فلم يفتن روجر بما ناله فحملته مظامعه

ان يطلب الفتح فجرد عمارة من مائتين وخمسين شراعاً وتقدم نحو افريقية سنة ٥٣٩ هـ واستولى على برصة وقتل كل من كان فيها من الرجال واستعبد النساء . وفي سنة ٥٤١ هـ وضع يده على طرابلس الغرب واستولى في سنة ٥٤٣ هـ على المهديّة مهد الخلافة الفاطمية وكان قد هجرها اهاها لجوع مدقع حل بهم . ثم تقدم روجر من هناك قاصداً الاسكندرية . فوقعت مصر في حيرة وقد اصبح هذا العدو في عينها اشد وطأة من الصايبيين لاشتغال هؤلاء عن مصر بما كان يهددهم به زكي واتباعه محمود الملقب بالملك العادل نور الدين

وفي اثناء ذلك توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ هـ بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها . فعمل له موسى الطيب النصراني طبيل القولنج وهو عبارة عن طبيل مركب من سبعة معادن عاينه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه خرج الریح من مخرجه ولهذا الخاصية كان ينفع في القولنج . وكان سن الحافظ عند موته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكتفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا التوقيع على الاوامر في تشييب الامراء على اماراتهم شأن الدول عند وشك انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض

الاهتمام في الاحكام . وترى في شكل ٥٢ صورة نقود الحافظ لدين الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٤ هـ وهي السنة التي توفي فيها



ش ٥٢ : نقود الحافظ لدين الله



خلافة الظافر بن الحافظ

من ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ أو من ١١٤٩ - ١١٥٤ م

واستخلف الحافظ ابنه اسماعيل ابا المنصور فبويغ ولقب بالظافر بأمر الله لكنه لم يكن مطابقاً لذلك الاسم . وكان عمره ١٧ سنة وهو اصغر اولاد ابيه سناً وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجوارى واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود صقاية من جهة الغرب والصليبيين من الشرق وكل منهما يقترب رويداً رويداً من قاعدة المملكة الفاطمية والظافر مشعر بقرب سقوط خلافته ولا يدي حراكاً

وفي السنة الرابعة من خلافته وهي سنة ٥٤٨ هـ حاصر الصليبيون عسقلان وكانت من اعمال الفاطميين ونظراً لوقوعها على حدود مملكتهم كانت عرضة لهجمات الصليبيين وكان الوزراء في ايام الخلفاء السالفين يعززونها بمهمات الدفاع . وفي اوائل خلافة الظافر توفي وزيره ووقع الخلاف بين ذوي شوره فشغلوا بذلك عن صيانة البلاد فاهملوا امر عسقلان فاغتم الصليبيون تلك الفرصة وحاصروا المدينة وضيقوا عليها حتى سلمت . فجاء خبر سقوطها الى القاهرة مع خبر آخزاشد وطأة منه وهو ان العارة الصقلية نزلت على سواحل مصر واحرقت مدينة تنيس في بحيرة المنزلة ونهبت الفرما لكنها لم تتقدم اكثر من ذلك فأخذت ما أمكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أنت

ومن سنة ٥٤٩ هـ انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمه معاً وسبب موته انه كان منهمكاً بالشهوات الوحشية مشتغلاً عن مهام الدولة فشقق ذلك على وزيره العباس فأوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجى البلاد من شره ويتخلص مما كان يتقول الناس في عرضها من معاشرته اياه فاستدعاه الى دار ابيه سرّاً ولم يعلم به احد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيوفية فقتله بها واخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فأتى نصر الى ابيه العباس واخبره بذلك من لياته . ولما كان الصباح اقبل العباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة واظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن احد القصر قد علموا بقتله بعد لانه خرج من عندهم خفية وما علم احد بخروجه فدخل الخدم الى موضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخاوا الى قاعة الحرم فتقيل لهم انه لم يبت هنا فنتطابوه في جميع مظانه في القصر فلم يتعوا له على خبر فتحققوا قتله . فأخرج العباس

اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما « انما قتلتما امامنا . وما نعرف حاله الا منكما فاصراً علي الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلتما حالاً لينفي التهمة عن نفسه وعن ابنه



وترى في شكل ٥٣ صورة نقود الظافر
بامر الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٥ هـ

ش ٥٣: نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الفائز بن الظافر

من ٥٤٩ - ٥٥٦ هـ أو من ١١٥٤ - ١١٦٠ م

فاستدعى عباس الفائز بن الظافر وتقدير عمره خمس سنوات وقيل سنتان فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان يدخل الامراء فدخلوا فقال لهم « هذا ولد مولايكم وقتل عماء اياه وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل » فقالوا بأجمعهم « سمعنا واطعنا » وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كنف عباس وسموه الفائز وسيروه الى امه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج

الملك الصالح

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد واما اهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر واخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنه فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني - وهو ابو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ له الامام انه سيتولى مصر بناءً على رؤيا رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقي في الخدم حتى ولي منية خصب (المنيا)

فلما صار اهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه اطلع من حوله من الاجناد وتحدث معهم في المعنى فأجابوه الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا الى القاهرة وقد لبسوا السواد

فلما قاربوها خرج اليهم من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده فخرج عباس في ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيرة من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . أما الصالح بن رزيك فانه دخل القاهرة بدون قتال وما قدّم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفّه به وقام البلاطة التي كانت عليه واخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح واخلى قدما الجنائز الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر احواله . وأما عباس فان اخت الظافر كآبت صليبي عسقلان بشأنه وشرطت لهم مالاً جزيلاً اذا امسكوه فخرجوا عليه والتقوا به فتواقفوا وقتلوا عباساً واخذوا ماله وولده وانهمزم بعض اصحابه الى الشام وفيهم ابن منقذ فساموا . وسير الصليبيون نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطه من المال فاخذوا نصراً وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة ثم انزلوه يوم عاشوراء سنة ٥٥١ هـ واحرقوه

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا ست سنوات . وفي سنة ٥٥٥ هـ توفي . وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف حتى انه كان يؤدي الاموال الطائلة ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

خلافة العاضد بن يوسف

من سنة ٥٥٦ - ٥٦٧ هـ او من ١١٦٠ - ١١٧١ م

وبعد وفاة الخليفة الفائز اخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخاً من الاسرة الفاطمية لم يكن ثم احق منه للخلافة فهم بمبايعته فجاء احد اصدقائه وهمس في اذنه « ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانه لم يسام نفسه خليفة عمره اكثر من خمس سنوات » فرنت هذه العبارة في اذن الوزير

فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغاً رشده . فبايعه واقبسه بالعاقد لدين الله . وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر له ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعباداً من سلفه فلقب وزيره الصالح بلقب الملك . ففتحت اعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمه الخليفة . فعزمت على قتله فارسلت اولاد الراعي فكمنوا له في دهايز القصر وضربوه حتى سقط الى الارض على وجهه وحمل جريحاً لايعي الى داره فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ وكان شجاعاً كريماً جواداً فاضلاً محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقلٌ وسياسة وتدير . وكان ذا هيبه في شكاه عظيماً في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلاة وفرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع صنّف كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على اهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن ابي طالب والسكلام على الاحاديث الواردة في ذلك . وله شعر كثير يشتمل على مجادين في كل فن فنه في اعتقاده :

يا امة سلكت ضلالاً بيناً حتى استوى اقرارها ووجودها
 ماتم الى ان المعاصي لم يكن الا بتقدير الاله وجودها
 لو صح ذا كان الاله بزعمكم منع الشريعة ان تقام حدودها
 حاشا وكلاً ان يكون الهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدنا

ولم يمت الصالح الا بعد ان انتقم من عمه الخليفة بامر الخليفة نفسه لانه لم يكن يجبره . ثم استوزر ابنه محي الدين رزيك واقبته بالملك العادل وكنيته ابو شجاع وهذا الاستاخذف شاور

مشهد الحسين

ومن اعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك انه علم بوجود مشهد الحسين في عسقلان . وكان امير الجيوش اثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن راس الامام الحسين في تلك المدينة فابتنى فوقه مشهداً فلما علم طلائع بوجود ذلك المشهد في تلك الجهة خاف عليه من الصليبيين فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاه جامع الصالح نسبة اليه على ان يجعل فيه المشهد . فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه لايليق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة واني الا ان يجعله في بعض اجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك وفي سنة ٧٤٠ هـ احترق المشهد فأعيد بناؤه مراراً واخيراً اقيم في جواره جامع

حتى اذا كانت ايام الامير عبد الرحمن كخيا احد امراء المماليك فاعيد بناء المشهد الحسيني في اواخر القرن الثامن عشر الميلاد وبعد ذلك اعيد بناؤه برمته في ايام الخديوي اسماعيل ولم يبقَ من البناء القديم الا القبة المغطية لمقام الامام فاصبح على مانشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين في السكة الجديدة بالقاهرة

ضرغام

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيق قد انشأ في وزارته امراء يقال لهم البرقية . وجعل في مقدمتهم ضرغام ابا الاشبال . فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب . فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبه اياها فجمع رفقته . وتخوف شاور وجمع اليه رجاله . فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور . وبعد تسعة اشهر من وزارة شاور اي في رمضان سنة ٥٥٨هـ ثار ضرغام وصاح على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام . وكذلك فعل الوزير رضوان بن وحشي فانه كان رفيقاً له في تلك الكرة . واستقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور وتلقب بالملك المنصور . فشكر الناس سيرته لانه كان فارس عصره وكان كاتباً جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلاً كريماً لا يضع كرمه الا في سمعة ترفعه او مواراة تنفعه الا انه كان اذناً مستحيلاً على اصحابه فاذا ظن في احد شيئاً جعل الشك يقيناً أو عجل بالعقوبة . فبلغه بعد حين ان رفاقه البرقية يسعون في خلعه واعادة الوزارة الى شاور فعلى عادته من التعجل ارسل اليهم وكانوا نحواً من سبعين اميراً سوى اتباعهم واحضروهم الى دار الوزارة ليلاً وقتلهم بالسيف صراً فذهبت لذلك رجالة الدولة واختلت احوالها وضعفت اكبرها وفقد اصحاب الرأي والتدبير منها

اسد الدين شيركوه وصلاح الدين

وفي اثناء ذلك قصد الصليبيون بلاد مصر فخرج اليهم همام اخو ضرغام وحوار بهم فغابوه ونزلوا على حصن بلبليس وملكوا بعض السور ثم عادوا الى بلادهم . وعاد همام عوداً رديئاً فما هو الا ان قدم رسل الصليبيين على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة في كل سنة وهو ٣٣ الف دينار

ثم جاء الخبر بقدم شاور ومعه اسد الدين شيركوه بن شادي — وهو كردي الاصل من قبيلة الروادية من اشهر قبائل الاكراد من مدينة دوين من اعمال اذربيجان .

وكان شيركوه هذا واخوه نجم الدين ايوب في خدمة الاتابك نور الدين صاحب دمشق منذ مدة طويلة واظهرا من اللياقة مامكن ثقته فيهما . فلما سار شاور الى دمشق استنجد اتابك نور الدين ليرجع الوزارة الى يده . فنور الدين لم يغفل عن هذه الفرصة التي تجعل له يداً بامور مصر فارسل معه اسدالدين شيركوه في كثير من المماليك (الغز) وسار معها يوسف ابن اخيه نجم الدين بن ايوب وكان صغير السن ولم يكن ابوه راضياً بسفره في هذه الاخطار لصغر سنه . ولعل التقدير ساقته الى مصر ليكون سلطاناً عليها فان هذا الغلام صار بعد ذلك البطل الذي يلهج التاريخ بذكره السلطان صلاح الدين الابوي . اما مولده فقلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ . وسار الاتابك نور الدين بنفسه مشياً جيوشه الى حدود مصر وقصده من ذلك ايها الصليبيين الذين في طريقه انه آت لمحاربتهم فأنحسروا في مدينهم ومر جيشه بامان ولا معارض حتى اتى مصر

قتل ضرغام وعود شاور الى الوزارة

فلما علم ضرغام بقدوم شاور ومن معه ومطالب الصليبيين اضطرب واصبح الناس في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ خائفين على انفسهم واموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر في اول جمادى الآخرة فسار الى بلبيس وكانت له وقعة مع شاور انهزم ضرغام فيها . وصار الى شاور واصحابه جميع ما كان مع عساكر همام واسروا عدة ونزل شاور بمن معه الى التاج (قليوب) بظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جمادى الآخرة

فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية من الجنود بداخل القاهرة وشاور مقيم في التاج اياماً ثم سار شاور ونزل في المقس (الازبكية) فخرج اليه عسكر ضرغام وحاربه فانهزم هزيمة قبيحة وسار الى بركة الحبش ونزل بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك مدينة مصر (الفسطاط) واقام بها اياماً

فاخذ ضرغام مال الايتام الذي كان بمودع الحكم فآمره الناس واستعجزوه ومالوا مع شاور فتمسك منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له . ونزل شاور في ارض اللوق خارج باب زويلة وطارد رجال ضرغام وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار في منطرة اللؤلؤة وما حولها من الدور وعظمت الحروب بينه وبين اصحاب ضرغام وفني كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوه انهم عون له فأنحل امر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالسكف عن الرمي فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جلته وفترت همة اهل القاهرة واخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى

شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول ماشاء الله من فوق الاسوار فلم يخرج اليه احد وتفرق عنه الناس فسار الى باب الذهب من ابواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع اليه واقسم عليه بأبائه فلم يجبه احد وظل واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها « خذ نفسك وانج بها » واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور فمر ضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليه واعنوه وتخطفوا من معه وادركه القوم فاردوه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسة واحتزوا راسه في غاية جهادى الاخرة وفر منهم اخوه الى جهة المطرية فأدركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل اخوه الاخر عند بركة الفيول وبقي ضرغام ماقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وكانت وزارته ٩ اشهر وكان من اجل اعيان الاسراء واشجع فرسانهم واجودهم لعباً بالكرة واشدهم رمياً بالسهم وكان له مع ذلك خط ابن مقلة وكان ينظم الموشحات الجميدة . ولما جيء براسه الى شاور رفع على قفاء وطيف به فقال الفقيه عمارة

ارى جنك الوزارة صار سيفاً يحز بحمده جيد الرقاب
كأنك رائد البلوى والا بشير بالمنية والمصاب

وهكذا اعيدت وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع للاتابك نور الدين ثلث محصولاتها مقابلته لما بدله في اعادتها اليه . الا ان الاتابك لم يكن هذا حد مطامعه في مصر فقد كان له بتلك الحملة غرضان الاول ان يقضي حق شاور لانه قصده مستنصراً والثاني ان يستعلم عن احوال مصر لانه كان يباغها انها ضعيفة من جهة الجند وحوالها في غاية الاختلال فقصده الكشف عن حقيقة ذلك

شاور وشيركوه

ولما اقيم شارو على مصر عقد بينه وبين اسد الدين شركوه اتفاقاً سرياً بشأن تسليم مصر الا ان الشيطان وسوس لشاور انه قادر على دفع جيوش نور الدين فينال السلطة انفسه فكتب الى شيركوه ان يسير الى سوريا . فاعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه . فلما راي ذلك ارسل الى نوابه فتسلخوا مدينة بليس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الصليبيين يستقدم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكانوا قد ايقنوا بالهلاك ان تم ملكة لها . فلما ارسل شاور يطلب منهم ان يساعده على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية

دعوته ونصرته وطمعوا في تملك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر اشده . فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقيين الى مصر . وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الصليبيين في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعانوا بهم فاعانوهم فسار بعضهم معهم واقام بعضهم في البلاد لحفظها . فلما قارب الصليبيون مصر فارقتها اسد الدين وقصد مدينة بليس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والصليبيون ونازلوا اسد الدين شيركويه بمدينة بليس وحصره بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جداً وايس لها خندق ولا ما يحميها وهو يغاديرهم القتال ويرأوهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً . فبينما هم كذلك اذ انهم اخبر بهزيمة الصليبيين على حارم وتملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس . فحينئذ سقط في ايديهم وارادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عنده وخرج من بليس في ذي الحجة

فلما وصل الى الشام اقام على حاله في خدمة نور الدين الى سنة ٥٦٢ وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير . فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الاخر في جيش قوي وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم التي فارس وكان كارهاً لذلك ولكن لما راى جد اسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعاً خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام . فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الصليبيين الى يمينه . فوصل الديار المصرية فقصد اطيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل القسطنطينية وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفاً وخمسين يوماً

وكان شاورلما بلغه مجيء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الصليبيين يستنجدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها وخوفاً من ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين . فالجاء كان يقودهم والخوف يسوقهم . فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبايين وسارت العساكر المصرية والافرنج وراءه بها فأدركوه في

الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والصليبيين جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه فعزم على قتالهم . الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عطيهم فيه اقرب من سلامتهم لقله عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق . فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا له « ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى اين نلتجىء وبمن نحتسئ وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا »

فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب الشقيف وكان شجاعاً وقال « من يخاف القتل والاسر فلا يجدم الملوك بل يكون في بيته مع امراته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعدر فيه لياخذن مالنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما اخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقول تأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مصر الى الكفار والحق بيده » فقال اسد الدين « هذا الراى وبه اعمل » وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت السكامة على القتال

فقام اسد الدين بمكانه حتى ادركه المصريون والصليبيون . وهو على تعبئة وجعل الاثقال في القلب يتكثرت بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد . وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولئن معه « ان المصريين والصليبيين يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم اني فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا في اعقابهم » واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين ايديهم غير متفرقين . فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على المسلمين من الصليبيين الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأتخن واكثر القتل والاسر . فلما عاد الفرنج من اثر المسلمين راوا عسكرهم مهزوماً والارض منهم قفراً فانهزموا ايضاً وكان هذا من اعجب ما يورخ ان الفتي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

ولما انهزم المصريون والصليبيون من اسد الدين بالبايين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما في القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة

من اهلها سلموها اليه فاستتاب بها صلاح الدين بن اخيه . وعاد الى الصعيد فملكه وجبى امواله واقام به حتى صام رمضان

واما المصريون والصليبيون فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عساكرهم وجمعوهم وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصر اهلها على ذلك وسار اسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من معه من التركان فوصل رسل الصليبيين والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين الف دينار سوى ما اخذه من البلاد فاجاب الى ذلك وشرط على الصليبيين ان لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا منها قرية واحدة فاجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة

الصليبيون في القاهرة

واما الصليبيون فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار - هذا كله استقر مع شاور لان العاضد لم يكن له معه حكم وقد حجز عليه وحجبه عن الامور كلها . وعاد الصليبيون الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان السكامل شجاع بن شاور قد ارسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويعرض الدخول في طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا وبذل مالا يجمه كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلاً فبقي الامر على ذلك الى ان قصد الصليبيون مصر سنة اربع وستين وخمسة

مضت على ذلك سنتان والافرنج (الصليبيون) لهم شحنة (ضابطة) في القاهرة وقد تساموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبهم بالاذى العظيم . فلما راوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردم ارسلا الى ملكهم بالشام وهو مرى ولم يكن للصليبيين منذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء يستدعونه لملكها واعلموه خلوها من موانع وهو اتوا امرها عليه بقصدها وتملكها فقال لهم « الراي عندي اننا لائقصدها ولا طمعة لنا بها واموالها تساق اليها تقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسمونها اليها ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الصليبيين واجلاؤهم من ارض الشام» فلم يقبلوا

قوله وقالوا له « انها لامانع فيها ولا حامي . والى ان يتجهز عسكر نور الدين ويسير اليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ يتمي نور الدين منا السلامة » فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع ايضاً يجمع عساكره

وجد الصليبيون في السير الى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر سنة ٥٦٥هـ ونهبوها وقتلوا فيها واسروا . وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الصليبيين ووعدوهم النصره عداوة لشاوور . منهم ابن الخياط وابن فرجلة فقوي جنان الصليبيين وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة في ١٠ صفر وحصرها تخاف اهلها ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس . فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقتلوا دونه وبدلوا جهدهم في حفظه . فلو ان الصليبيين احسنوا السيرة في بلبيس لمكوا الفسطاط والقاهرة . ولكن فشلهم في فتحها عاد على الفسطاط بالدمار لان شاوور امر باحراقها تاسع صفر المذكور وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد . فانقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمتهم قبل نزول الصليبيين عليهم بيوم خوفاً من ان يملكها الصليبيون فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً

شاوور والصليبيون

وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين وارسل في الكتب شعور النساء وقال « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الصليبيين » فشرع نور الدين في تسيير الجيوش . واما الصليبيون فانهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على اهلها وشاوور هو المتولي للامر والعساكر والقتال فضاقت به الامر وضعف عن ردهم . فاخذ الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الصليبيين يذكر له مودته ومحبتة له قديماً وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد واما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح واخذ مال لثلاثين الف دينار واربعة وعشرون الف دينار . فاجابه الى ذلك على ان يعطوه ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار مصري يعجل البعض ويمهل البعض . فاستقرت القاعدة على ذلك . وراى الصليبيون ان البلاد قد امتنعت عليهم وربما سلمت الى نور الدين . فاجابوا كارهين وقالوا « نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين فعجل لهم شاوور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فحلوا قريباً . وجعل شاوور يجمع لهم المال من اهل القاهرة

ومصر (الفسطاط) فلم يتحصل له أكثر من خمسة آلاف دينار لان اهل الفسطاط كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرّون على الاقوات فضلاً عن الاقساط . واما اهل القاهرة فالاغلب على اهلها الجند وغلما نهم فلهدا تعذرت عليهم الاموال . وهم في خلال هذا يرسلون نور الدين بما الناس فيه وبنداوا له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيماً عندهم في عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم

وكان نور الدين لما وصله كتاب العاضد بحلب فارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج الرسول في طلبه فلقبه على باب حلب وقد قدمها من حصص وكانت اقطاعه . وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته ايضاً في المعنى . فسار الى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتفاءل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك . وحكمه في العسكر واخذ ائمن واختار من العسكر التي فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها آخر صفر ورحل الى راس الماء . واعطى نور الدين كل فارس مئتين مع اسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكته وازاف الى اسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلعج وشرف الدين برغش وعين الدولة الباروتي وقطب الدين ينال بن حسان المنجي وصلاح الدين يوسف بن ايوب اخي شيركوه على كره منه وعسى ان تكرر هو شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم - احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب يته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعاده وملكه وسيرد خبر ذلك

مقتل شاور

وسار اسد الدين شيركوه من راس الماء مجدأ منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الصليبيون الى بلادهم بخفي حين خائبين مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وامر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق بمشرين بذلك فانه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها . واما اسد الدين فانه وصل القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة . ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه راي العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه . وشرع يماطل اسد الدين في تقرير ما كان

بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه وبمده ويمنيه . ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الصليبيين فنهاه ابنه الكامل وقال له « والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه » فقال له ابوه « والله لئن لم تفعل هذا لنقتل جميعاً » فقال « صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الصليبيون فانه ايس بينك وبين عود الصليبيين الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد » فترك ما كان عزم عليه

ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور. فنهاهم اسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله

فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام وكان قد مضى ليزور قبر الشافعي فلقبه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي . فقال نمضي اليه . فساروا اليه جميعاً فسار به صلاح الدين وجرديك والقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذ اسيراً فلم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا اعدوا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه . وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه راس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل راسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الاخر . ودخل اسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم « امير المؤمنين (يعني العاضد) يأمركم بذهب دار شاور » ففترق الناس عنه فنهبوا وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة واقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يشق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم . فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاءً لصنيعه

حضارة الفسطاط

قد علمت ما كان من احراق الفسطاط بامر شاور فيجدر بنا ان نذكر ما كانت عليه من الحضارة والثروة . وقد تقدم سبب بنائها على يد عمرو بن العاص وهي اول مدينة اسلامية بناها المسلمون بمصر . واخذت تتسع وتزداد عمارة كلما رسيخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠٠ شارع مسلك و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة وال عمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احن الى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ان لا يحل بها القطر

وهل في الحيا من حاجة لجناها وفي كل قطر من جوانبها نهر

تبنت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

و بلغ من تزاحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة باع بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ نفس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم لخارويه

واشتهر من تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مظلة على النيل باع من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربعائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقات المظلة على النيل باع عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ب بكر واطناب لها ترخي وتملا . وذكر رجل دخلها في اواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خارويه بن احمد بن طولون قال « طابت بها صانعا يخدمني فلم اجد فيها صانعا ممتنعاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها ٢٠ (كذا) صانعا قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »

وفي ذلك دليل على غنى اهل الفسطاط وترفعهم . ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتني احدهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلاً من اهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون اغناهم - قال القاضي ان قطر الندي ابنة خارويه كان في جملة جهازها الف تامة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة

آلاف دينار. ناهيك بتأنيهم في المآكل والمشرب مما يطول شرحه وقد فصله المقرئزي وغيره في كلامهم على القسطنطين

موت اسد الدين ووزارة صلاح الدين

فسر الخليفة العاضد جداً انجائه من شاور . فاستلم اسد الدين الوزارة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع اول سنة ٥٦٤ هـ وفرق العطايا في جيوشه التي رافقته الى مصر وامر النصارى بشد الزناير على اوساطهم ومنعهم من ارشاء الذوابة التي تسمى بالعدبة فكتب المهذب بن ابي المليح زكريا وكان مسيحياً الى اسد الدين بقوله :

يا اسد الدين وهن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفي غياراً شد اوساطنا فما الذي اوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطابته ولا مكنه من ارشاء الذوابة وعند ما يتس من ذلك اسلم ولم تطل مدة وزارة اسد الدين فعاجلته المنية في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ ولم يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة ايام فقط . ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول . وكان شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة . وكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته . وكان يعد نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمصب الوزارة باسمه . وبعد وفاته احب العاضدان يبين حبه له فولى مكانه ابن اخيه يوسف صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً

وذكر ابن الاثير في سبب مجيء صلاح الدين الى مصر : «تلا عن صلاح الدين نفسه قال : لما كتبت العاضد الى نور الدين يستغيث به من الافرنج ويطلب ارسال العساكر احضرتني واعلمني الحال وقال «تمضي الى عمك اسد الدين بمحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير» ففعلت . وخرجنا من حلب فما كنا على ميل منها حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى فامرهم نور الدين بالسير . فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي الي فقال لي « تجهز يا يوسف فقلت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساها ابداً » فقال لنور الدين « لا بد من مسيره معي » فامرني نور الدين وانا استقيل . وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين « لا بد من مسيرك مع عمك » فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكاننا أساق الى الموت فسرت معه وملكها . ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطعم في بعضه . اه

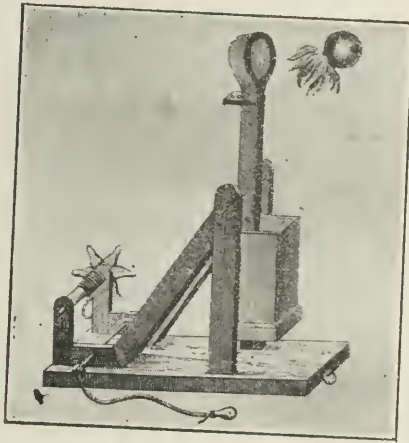
واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر ولاية الوزارة العاضدية بعد اسد الدين فهم عين الدولة الباروقي وقطب

الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين . وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه ليغالب عليها . فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه . وكان الذي حملاه على ذلك ان اصحابه قالوا له « ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سناً من يوسف والراي ان يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف او نخرجه » فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له « ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما » ثم قصد الحارمي وقال « هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك » قال اليه ايضاً . ثم فعل مثل هذا بالباقيين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروي فانه قال « انا لا اخدم يوسف » وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء . فثبت قدم صلاح الدين — ومع هذا فهو نائب عن نور الدين . وكان نور الدين يكتبه بالامير الاسفلسار ويكتب علامته على راس الكتاب تعظيماً عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرد بكتاب بل يكتب « الامير الاسفلسار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا » واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فقالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد . ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله . فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك . واخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاهم اهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة

مؤتمن الخلافة وصلاح الدين

فلما اجتمع المصريون على حب صلاح الدين ظهر حساده واكبرهم مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد واليه الحكم فيه والنقدم على جميع من يجويه . فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكتبة الصليبيين واستدعائهم الى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه . وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فاقه انسان تركاني فرأى معه نعاين جديدين فاخذهما منه وقال في نفسه « لو كانا مائلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهية » وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه . وكان غرض مؤتمن الخلافة ان يتحرك الصليبيون الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج

صلاح الدين في العساكر الى قتالهم فيشور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والصليبيون من بين يديه فلا يبقى لهم باقية . فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودي فاحضر فامر بضربه وتقريره فاسلم واخبره الخبر . واخفى صلاح الدين الكتاب لكن مؤتمن الخلافة استشعر فلأزم القصر ولم يخرج منه خوفاً واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين ولا يظهر له شيئاً من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للنتزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه . وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش . وهو خصي ابيض وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير الا بامره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فشدوا وجعوا فزادت عدتهم على خمسين الفاً . وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضاً وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل في الفريقين



ش ٤٤ : آلة رمي قارورة النفط مشتعلة للاحراق

وكان العاضد في هذه الواقعة يشرف من المنظرة . اما اهل القصر فلما رأوا كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغزمن اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكروا فيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون . فامر حينئذ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة النفاطين واخذوا في تطيب قارورة النفط ووضعوها في الآلة وصوبوا

بها على المنظرة التي فيها العاضد يخاف العاضد على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عال « امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويتول دونكم والعبيد الكلاب اخر جوههم من بلادكم » فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا . حمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم افضيتهم الى ان وصلوا سوق السيوفيين فقتل منهم كثير واسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق عليهم . وكان في دار الارمن قريبا من بين القصرين خلق عظيم من الارمن كلهم رماة ولهم جار في الدولة يجري عليهم . فعند ما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً . ومروا الى العبيد فصار هؤلاء كلما دخلوا مكانا أحرق عليهم وقتلوا فيه . الى ان وصلوا الى باب زويلة فاذا هو مغلق فحصروا هناك واستمر فيهم القتل يومين . ثم بلغهم ان صلاح الدين احرق المنصورة التي كانت اعظم حاراتهم واخذت عليهم افواه السكك . فيقنوا انهم قد اخذوا لا محالة فصاحوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت في ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا الى الجيزة . فعدا عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا باموال المهزومين واسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد . وثلاثي من هذه الواقعة امر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبني القاهرة يدعى جوهرأ والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى ايضاً جوهرأ الملقب بمؤمن الخلافة

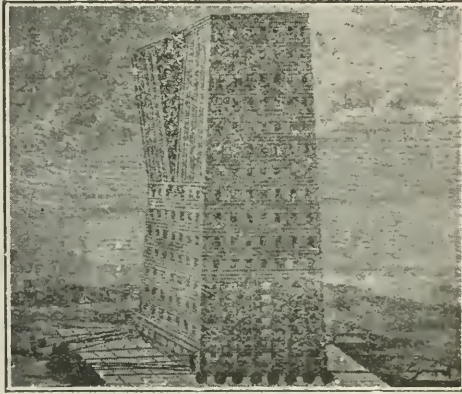
فلما انتهت هذه الواقعة واستتصت جرتومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكن فولى اخاه طوران شاه قوص واصوان وعيناب مكافأة لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد . وجعل البلاد المذكورة له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة ٢٦٦٠٠٠ دينار . وفي سنة ٥٦٨ هـ خرج طوران شاه لغزو بلاد النوبة وفتح قلعة ابريم فسبي وغنم ثم عاد بعد ان اقطع ابريم بعض اصحابه . وفي سنة ٥٦٩ هـ خرج الى بلاد اليمن وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم طوران شاه

حصار دمياط

وكانت وزارة صلاح الدين في مصر سبباً لاضطراب الصليبيين . اما نور الدين فركب عمارة مصرية وجعل يطوف البحر المتوسط عند شطوط سوريا ليمنع مرور الوافدين الى الارض المقدسة ويستولي على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر . فتشاور الصليبيون في شأن ذلك فاقروا على ارسال بطريك صور فريدريك مع يوحنا اسقف

عكا لاستمداد ملوك فرنسا وانكترا وصلية وغيرهم من الامراء المسيحيين فلم ينجح مساعهم . غير ان امبراطور القسطنطينية ارسل عمارة من مائة وخمسين شراعاً مملوءة بالخار والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بجند عسقلان وساروا برّاً وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما جدوا السير حتى اتوا دمياط فعمسكروا بينها وبين البحر في صفر سنة ٥٦٥ هـ

وكانت هذه الحملة تحت قيادة الملك امري فظن انه يقدر على اخذ دمياط بالهجوم لكنه راي منها مقاومة ودفاعاً الزمها على اقامة الحصار فاقامه ولم يكن اكثر فائدة له من الهجوم لان اهل دمياط كانوا كثيرين ولم يبالوا بعمدة الصايبيين وعددهم وطال الحصار حتى نفدت مؤونة الصايبيين فارادوا العبور في النيل ليأتوا بالزاد فوقفهم سدّ اقامه المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد



ش ٥٥: برج من ابراج الحصار

مشدود بتاريس دمياط والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب من ابراج الحصار . وكانت الامدادات ترد لحامية دمياط من القاهرة بسهولة اما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً فانشر الجوع في معسكرهم وقام الشقاق بين الفرنسيين منهم وهم الذين كانوا في سوريا والروم الذين اتوا بالمدد من الاستانة . واشتد ذلك الاختلاف حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة ويضعون افئان النخيل . ومازاد شقاءهم تكاثر الامطار وهبوب الزوايع على معسكرهم بدون انقطاع حتى اصبحوا كأنهم في طوفان عظيم . وحصل من تكاثر الاعصار نوباً في النيل اسرع جريه فتراحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها

ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادتين الريح من جهة ومجرى النيل من جهة اخرى فتكسر معظمها ثم انتشبت النار فيها فاحرقت ما بقي منها فلما شاهد الافرنج ذلك لم يروا بدءاً من العود على اعقابهم الى سوريا صفر اليمين بعد ان تعاقدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم . وكان صلاح الدين قد اعد في القاهرة جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية مراكزها فشق عليه ذلك وعنف الامراء الذين سمحوا لهم بالرجوع ثم عاد الى القاهرة

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين على سوريا لمحاربة الذين ضافوه السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم امري وهو في عسقلان انه حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى على قمة جبل وعمر على اربع اميال من غزة اتخذه الصليبيون معقلاً فاسرع الملك امري لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان صلاح قد علم الدين بقدمه فسار للملاقاة فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزة فاستولى عليها . واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اکتفوا بها اخذاً بالثأر فتركوا في غزة حامية وعادوا الى مصر فبلغوا القاهرة في اواخر السنة المذكورة ثم بلغ صلاح الدين ان الافرنج احتلوا ايلة ونحسوا فيها فسار اليها ومعه عصابة من رجاله الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة ينقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند ايلة ركب تلك المراكب وانزلها البحر وهاجموا ايلة في ربيع الاول من السنة المذكورة برّاً وبحراً وما زالوا عليها حتى فتحوها وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقافته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى القاهرة وكان لصلاح الدين نفوذ عظيم في مصر ولم يكن الخليفة العاضد الا اسماً لغير مسمى ولم يعد لديه الا السلطة الدينية . فلاح لنور الدين ان يتخلص من سلطة الفاطميين فاعزز الى صلاح الدين ان يقطع خطبتهم ونحطب للخليفة العباسي

الخطبة العباسية بمصر

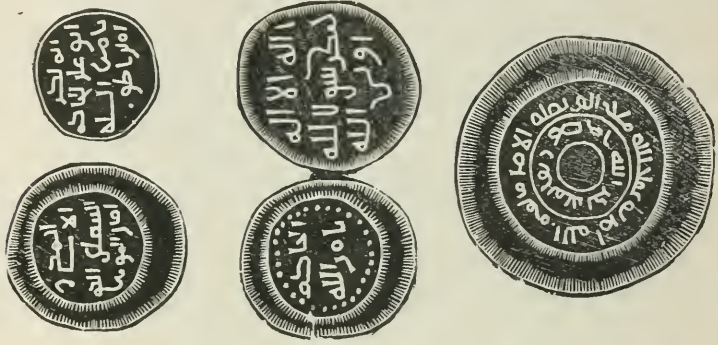
وفي سنة ٥٦٧ هـ جعل صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العباسي بدلاً من الفاطمي . ومعنى ذلك في اصطلاحهم ان مصر عادت الى سيطرة العباسيين السنيين وخرجت من سلطة الفاطميين الشيعة وكان صلاح الدين سنياً . وكيفية البيعة ان صلاح الدين لما ثبت قدمه بمصر وازال الخالفين له وضعف امر الخليفة العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وكان من اعيان الامراء الاسدية وكلهم يرجعون اليه .

فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة للمستضيء بالله العباسي . فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام اهل الديار المصرية ليأتيهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية ويأخذها منه . فكان يريد ان يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عنده والح اعياه بقطع خطبته والزمه الزاماً لافسحة له في مخالفته لانه على الحقيقة نائب نور الدين . واتفق ان العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً . فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار امراء فتنهم من اشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافهم الا انه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمي يعرف بالامير العالم فلما راي ما هم فيه من الاحجام وان احداً لا يتجاسر بخطب للعباسيين قال « انا ابتدىء بالخطبة له » فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بالله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عزان . وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا

موت العاضد وانقضاء الدولة الفاطمية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعالجه احد من اهله واصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفعجه بمثل هذه الحادثة قبل موته . فتوفي يوم عاشوراء ولم يعالجه بقطع الخطبة . ولما توفي جلس صلاح الدين للجزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش وكان قد رتبته قبل موت العاضد فحمل جميع ما فيه الى صلاح الدين وكان من كثيرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم — فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او سبعة عشر مثقالاً واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله . ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير . ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ . فلما راوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فسخروا من العاضد وكسروه ثم علموا انه طبل قوائج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك . وكان في القصر من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه . ونقل اهل العاضد الى موضع من القصر وكل بهم من يحفظهم واخرج جميع من فيه من امة وعبد فباع البعض واعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كان لم يبق بالامس . وكان العاضد لما مرض ارسل الى

صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يرض اليه فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه ويقول بعض المؤرخين الصليبيين ان صلاح الدين قتل العاضد بيده الا ان الجمهور على خلاف ذلك . على اننا لا يسعنا الا لومه لتطرفه في احتقار الخليفة وتجرده اياه من ذات يده ومن متاعه . وقد بالغ بذلك حتى انه علم بجواد كريم كان يركبه الخليفة لترويح النفس في حديثه فطلبه منه فلم يسع الخليفة الا اعطاؤه اياه والتوقف عن الرياضة التي لم يبق لديه من ثروة الخلفاء سواها . وكان الخليفة العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة واذا رأى شيئاً استحل دمه . وترى في الشكل الخامس الخمسين صورة نقود زجاجية ضربت في عهد الدولة الفاطمية ايام احتياجها للمال وقلة الذهب وحلما تولى صلاح الدين الغاها وضرب نقوده المعروفة بالنقود الناصرية نسبة اليه



ش ٥٦ : نقود زجاجية مضروبة على عهد الدولة الفاطمية

مضارة الدولة الفاطمية

انقضت هذه الدولة بموت العاضد الفاطمي والخطبة للمستضيء العباسي سنة ٥٧٦ فيجدر بنا ان نأتي على ما كان من مبلغ حضارتها لولا ما نخافه من التطويل وقد افاض المقرئ في ذكره مفصلاً فنأتي على مثال من بذخهم وترفهم وقد ذكر شيء من ذلك ادوات الترف

كان الفاطميون يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في اسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد نضج واخذت الدولة العباسية بالتقهقر ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاناث والرياش والثياب فارت العباسيين رصعوا عصاب نساءهم وخفافهن بالجواهر ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا

كوز الزير من البلور مرصعاً بالجواهر وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس وتألقوا في المصوغات حتى أخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها أشكال الصور الأدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها مع مولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عايمها المسكال باللؤلؤ والياقوت والزرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة ينهها عنبر معجون كخليفة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده . وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخود وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حراوان وهو على فرسته وأشكال من سائر الوحوش . واصناف تشد من المرسين المسكال باللؤلؤ شبه الفاكهة

وكان للفاطميين في القاهرة دور يخزنون بها ادوات النرف يسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للنبود وآخر للسلاح وآخر للسروج أو الدرق أو الكسوات أو الادم أو الشراب أو التوابل أو الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها يجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة

الحلى والمجوهرات عند الفاطميين

فما اخرجوه من خزانة الجوهر في ايام الشدة على عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها ويبة جوهر قال الصياغ ان لاقيمة له واصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠٠ دينار ببيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجروود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجرأة بالميناء وغير المجرأة المنقوشة بانواع النقوش و ١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحريز محلاة بالذهب . ونحوه ثمة كاس بادزهر واشتباها على اكثرها اسم هارون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابتها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من

الذهب والفضة والصنديل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت الواناً و ١٠٠ قاطر مزين مملوءة كافوراً قيصورياً ومعلمات بجواهر من ايام المعز . وبيت هارون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس . ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزانة مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير الذي حمت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون وصوان من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة او العاج او الابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة اقل ثمنال منها وزنه ١٢ مناً ومن تماثيل الخليفة مالا يحد . والكلوثة المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلاً . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على الواح ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه ابيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجوز يقعد عليها جماعة قوائها مخروطة . ونحلة ذهب مكالة بالجواهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لاقيمة لها . وكوز زبر بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكالة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من اصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ١٠٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها منذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣٠٠٠٠ قطعة خسرواني احمر مطرز بأبيض من هديها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطععه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المحمل والديباج والخز وسائر انواع الحرير وعماها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف

الوانها واطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله . و ٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة او الحرير وقد كتب في آخره « بما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدينة والحضارة وكم تكون قيمتها لو وجدت الان وكم يدفع المتمولون من المال في الحصول عليها

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ففي خزانة السلاح سيف الحسين ابن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار الى سبعة الاف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمحمل والخسرواني والديباج المكي والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مئة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام السادجة والمطرزة وغيرها

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بامر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمرابها ذهب منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة او هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصراشهرت في الاعصر الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشهر المصريين بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف

وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه وراى هذه التحف راى العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره - قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الجبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او ١٧ مثقالاً انا لا اشك فيه لاني رايتة ووزنته والؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير »



ش ٥٧ : السلطان صلاح الدين الايوبي



الدولة الايوبية

من سنة ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ او من ١١٧١ - ١٢٥٠ م

سلطنة صلاح الدين يوسف

من سنة ٥٦٧ - ٥٨٩ هـ او من ١١٧١ - ١١٩٣ م

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يده على القصر . وكان قد عهد الى بهاء الدين قراقوش ان يخفي التحف التي كانت قد جمعت . ثم التى القبض على جميع من بقي من الاسرة الفاطمية وهم الامير داود بن ولي العهد وينعت بالحامد لله واخوانه ابو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنه ابو القاسم . وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب ابن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن ابي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن ابي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعلهم تحت الحجر في مكان بعيد من القصر . اما عماليك العاضد وعبيده فباع بعضها وفرق البعض الآخر في ارباب دولته هكذا كانت نهاية دولة الفاطميين فقد غادروا القاهرة وفيها من آثارهم بنايات عظيمة وقصور ومناظر منها القصر الكبير الذي بناه جوهر عند ما اتاخ في موضع القاهره والقصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور اخرى جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر داخل سور القصر كان يقال لها القصور الزاهرة

ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر باما كن مختلفة من القاهرة . وقاما بقي من تلك الآثار على حاله . ولكن هناك اثرأ عظيماً لا يمحوه مرور الايام نعي به القاهرة فانها من بنائهم كما علمت . وللفاطميين احاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة وكيف كان مجالسهم ارباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر انواع الاتباع وكيفية صلاتهم في المساجد وما يجري في ذلك من الاحتفال فمن احب الاطلاع عليه فليطالع في خطط المقرزي

ويقال ان صلاح الدين وجد بين تلك الخرائن مكتبة تحتوي على .مئة الف مجلد منتخبة من احسن المؤلفات . ولا يزال قسم منها الى الآن في مكتبة ليدن بلاندا

نور الدين وصلاح الدين

ثم أسرع صلاح الدين الى تبليغ اتابك نور الدين انه انفذ امره وان الخليفة مات .
واصل هذان الخبران ببغداد فاصبح خليفةها منفرداً بالخلافة على سائر المشرق . فخلع
على اتابك نور الدين وبعث اليه سيفين اشارة الى توليته على سوريا ومصر . وخلع ايضاً
على صلاح الدين وبعث اليه بالاعلام السوداء يجعلها على المنبر . وبعد ان كانت القاهرة
عاصمة من عواصم الاسلام امست كغيرها من المدن وتحولت العظمة جميعها الى بغداد
فلما رأى نور الدين نفسه سيداً على سوريا كلها تقريباً وعلى بعض جزيرة العرب
وعلى اسيا الصغرى وما بين النهرين عزم على الاستقلال بها وبمصر . اما صلاح الدين فكان
في نيته الاستقلال بمصر بنفسه منذاول توليته فيها وكان بينه وبين نور الدين مكاتبات سرية
ما لها المحافظة على سلطة الخليفة العباسي الدينية ريثما يتأتى لهم الاستقلال فكان صلاح
الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتقر ساعياً في اتمام مقاصده التي
كانت تحت طي الخفاء . فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من
الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك . فشعر نور الدين فبعث اليه
على اثر وفاة العاضد يستقدمه وفرقة من رجاله مظهراً استنجاهه على الصليبيين في
الكرك . وقصده الحقيقي ان يخرج من مصر ويبقيه عنده تحت مراقبته فياً من طائفة
فادرك صلاح الدين غرضه الحقيقي لكنه لم يستصوب مخالفة امره لثلاث تنافر القلوب
فتتفرق مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره برح القاهرة في فرقة من الجند
للملاقاة جند نور الدين في الكرك . فوصل نور الدين اليها ولم يجد فيها احداً فانتظر
فلم يقدموا . ثم ورد اليه كتاب من صلاح الدين بانه برح القاهرة بجنده يطلب الكرك
فعرض له في الطريق ما الجأ الى العود حالاً الى مصر

دهاء نجم الدين ايوب

فعلم نور الدين انها ماطلة مقصودة فاقرب على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال
بصلاح الدين عن الصليبيين . لكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يهدده بالاعزل اذا
لم يبادر الى ما امر به فجمع صلاح الدين اهله وفيهم ابوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب
الدين الحارمي وسائر الامراء . فلما تكامل الجمع اعلامهم بما كان بينه وبين نور الدين
وما بلغه من عزمه على الهجاء اليه واستشارهم فلم يجبه احد . فهض تقي الدين عمرو
ابن شاهين شاه اخي صلاح الدين فقال « ان الراي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه

من البلاد « ووافقه غيره من اهلهم . فشقهم نجم الدين ايوب والد صلاح الدين واستعظم اقوالهم وشتم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين « انا ابوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هؤلاء من يحبك ويخلص لك اكثر منا ؟ » قال لا . فقال « اعلم يا يوسف اننا والله لو راينا نور الدين لم نمكث ان نقتل بين يديه ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا ؟ وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم يجسروا على الثبات على سروجهم وهذا البلاد له ونحن ممالكه ونوابه فيها فان اراد سمعنا واطعنا . والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتك نديلاً ويأخذني اليك وما هنا من يمنع »

وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا . ثم خلا ايوب بصلاح الدين فقال له « باي عقل فعلت هذا ؟ اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزنا على منعه ومحاربتة جعلنا اهم الوجوه اليه وحينئذ لانقوى عاينه ؟ واما الآن اذا بلغه ما جرى وما اظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عمها . ووالله لو اراد نور الدين قسبة من قصب السكر لقاتته انا عاينها حتى امنعه او اقتل » ففعل صلاح الدين ما اشار به ابوه

فلما جاء كتاب صلاح الدين الى نور الدين كما نصه ابوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر وعاد للاهتمام بامر الصليبيين وكانوا قد امنعوا في سوريا ولم تعد اخبارهم تصل لنور الدين بالسرعة اللازمة لاتساع ايالاته فاستخدم الحمام لنقل الاخبار فكانت تأتية بها بزمن قريب

وثوب المصريين بصلاح الدين

اذعن المصريون لصلاح الدين وفي قلوبهم غل فتأمر جماعة من اصحاب الخلفاء الفاطميين على الوثوب به وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن ابي الحسن البجلي الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر ووافقه جماعة من امراء صلاح الدين وجنده - اتفق رأيهم على استدعاء الصليبيين من صقاية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء بدلوة لهم من المال . فاذا قصدوا البلاد وخرج صلاح الدين بنفسه اليهم ناروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الصليبيين . وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ناروا

به واخذوه اخذاً باليد لعدم الناصر له . وقال لهم عمارة « وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفاً من ان يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده »

فارسلوا الى الصليبيين في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الصليبيين . وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين ادخلوا معهم زين الدين علي بن نجبا الواعظ والقاضي المعروف بابن نجمة ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة . الا ان بني رزيك قالوا ان الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا . فلما علم ابن نجبا الحال حضر عند صلاح الدين واعلمه حقيقة الامر فامرهم بملازمتهم ومخاطبتهم ومواطبتهم على ما يريدون ففعله وتعريفه ما يتجدد اول باول . ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه

ثم وصل رسول من ملك الصليبيين بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن الى اولئك الجماعة . وكان صلاح الدين يرسل اليهم بعض النصارى تأييدهم رسلهم فاتاه الخبر من بلاد الصليبيين بجملة الحال . فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته . فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة ومنهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم

وقيل في كشف امرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا اتى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يخدمه ويتقرب اليه فاقه يوماً فلم يلتفت اليه . فقال القاضي الفاضل « مادنا الالاسب » وخاف ان يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فاحضر علي بن نجبا الواعظ واخبره الحال وقال « اريد ان تكشف لي الامر » فسعى في كشفه فلم يراه من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل واعلمه . فقال « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنبئ الحال اليه » فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع فذكر له الحال . فقام واخذ الجماعة وقررهم فاقروا فامر بصلبهم وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من ايام العاضد وقبلها فلما اراد صلبه قام القاضي الفاضل وخطب صلاح الدين في اطلاقه ووطن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين « يامولانا لاتسمع منه في حقي » فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة « انه كان يشفع فيك » فقدم ثم اخرج عمارة ليصايب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فاغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في اجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى اراضي الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من اهله واما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا اعلمهم انه علم بمخالهم واما الصليبيون فكانوا يتألفون عصباً ويتقدمون في سوريا يفتتحون مدنها وما زالوا في خطتهم هذه حتى لم يعد امامهم الا عدوان كبيران وهما نور الدين وصلاح الدين . وكان هذا الاخير يتربص الفرص لبلوغ مرامه فكان يغتم فرصة اشتغال نور الدين بالحاربة في ما بين النهرين ويسير الى غز وسوريا وحلماً يعلم بقدمه اليها يعود الى مصر حالاً

وفاة نور الدين ومناقبه

قال ذلك الى النفور الشديد بين هذين الرجلين وهم نور الدين مجاهد الجيوش وتسييرها الى مصر لاجراج صلاح الدين منها واقامة حامية لحماية الحدود التي يخشى هجوم الصليبيين عليها . وبينما هو على اهبة الرحيل فاجأته المنية بعلة الخوانيق فمات في دمشق في شوال سنة ٥٦٩ هـ وسنه ستون سنة و٥٤٠ حكمه ٢٩ سنة . وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسماً من سوريا الغربية ومصر والموصل وديار الجزيرة . وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلوا العينين . وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن . وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنمية ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . واتقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو عشرين ديناراً . فلما استقانتها قال « ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك » وكان يصلي كثيراً بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما احسن الحراب في الحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب ابي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طلباً للاجر . واما عداه فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً بل اطاقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها . واحضره انسان الى مجلس الحكم فضى معه اليه وارسل الى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول « قد جئت محاكماً فاسلك معي ماتسلك مع الخوصم » وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي احضره وقال « اردت ان اترك له ما يدعيه انما خفت ان يكون الباعث لي على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته

ما يدعيه « وبنى دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم من الظالم ولو انه واده او اكبر امير عنده . واما شجاعته فاليها النهاية وكان في الحرب ياخذ قوسين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه « بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان اصبحت في معركة لا يبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف » فقال له نور الدين « ومن محمود حتى يقال له هذا أمن قبلي من حفظ البلاد والاسلام ؟ ذلك الله الذي لا اله الا هو » واما مافعله من المصالح فانه بنى اسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فنهض دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعليك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق وبنى الخانكاهات في جميع البلاد ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة وكان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلسهم معه ويتبسط معهم ولا يرد لهم قولاً ويكاتبهم بخط يده وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه

استقلال صلاح الدين بمصر والشام

فانتقلت مملكته بعد موته الى ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشرة من العمر . فأقيم شمس الدين محمد بن المقدم نائباً له في تدبير المملكة . فاستخف الناس به لصغر سنه حتى هم افراد أسرته بتزليه اكنهم لم ينجحوا وحاول الملك امري غزوه فعاد خائباً . اما الامراء الذين كانوا على الامارات في مملكته فحاول كل منهم الاستقلال بذاته فأحب نائب الملك ان يسير الى صلاح الدين يستجدة فأوقفه اولئك الامراء . وفي خلال ذلك ورد اليهم والي نائب الملك كتب من صلاح الدين تقول بوجود الخضوع التام لخليفة نور الدين كما كان له وارسل نقوداً مضروبة في مصر باسم السلطان الجديد . ومما كتبه للامراء قوله « لو علم نور الدين ان فيكم من هواكثير اهلية وامانة مني لولاية مصر فلا اشك انه كان يعهدا اليه وهي اجمل واخصب ولاياته واعلموا ايضاً انه لو لم يفاجئه القضاء لاقامني وصياً على ابنه وارى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني ساذهب الى دمشق بنفسي واقدم عبوديتي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالافضال العظيمة التي حملتها ابوه اما انتم فساء عملكم بمقتضى تصرف كل واحد منكم لاني اعدكم من اهل الفتنة »

وجاء صلاح الدين الى دمشق بعد وصول كتبه بقليل واخرج منها سيف الدين غازي بن اخي نور الدين . وكان قد وضع يده عليها واعادها للملك الصالح ثم اسرع

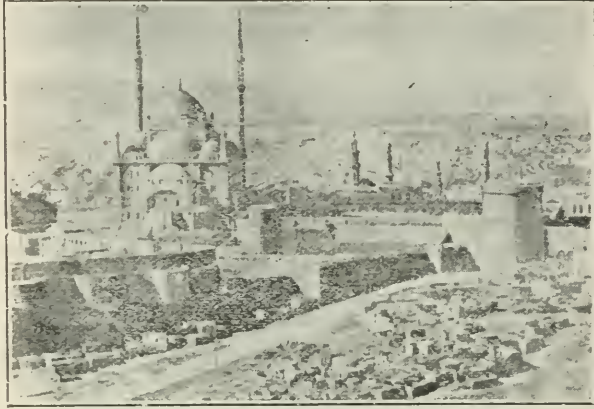
في استرجاع الاماكن التي كان قد استقل بها بعض الامراء الصغار من اسرة نور الدين في سوريا الشرقية استخفافاً منهم بسلطة الملك الصالح . فاسترجع منهم حمص وحماة وبارين وسلامية وتل الخاطب وبعابك والرها . الا ان هذه الفتوح لم تجد الملك الصالح نفعاً لانها دخلت في سلطة صلاح الدين ولم يعط منها شيئاً للملك الصالح . فاستنكف منه وخافه . ثم حاول صلاح الدين الاستيلاء على حلب وكانت في حوزة الملك الصالح على نية ان يخرجها الى شرقي البلاد السورية . واستنجد الملك الصالح ابن عمه سيف الدين غازي وكان قد ولاه الموصل فأمدّه . فاتحد الجيشان وهاجما صلاح قرب في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ فتغلب عليهم وسلب منهم امتعتهم واستولى على حلب وابطل الخطبة للملك الصالح وخطب لنفسه

فراى صلاح الدين اذ ذلك من قواته والاحوال المحيطة به ما يؤهله لبلوغ ما طالما كان يتمناه من الاستقلال بالملك . فصرح بسلطانه في مصر وسوريا وكان كذلك . فاصبح الصليبيون اعداءه مباشرة . اما هم فاعتقدوا اشتغاله في جهات حلب وحملوا على البلاد الغربية من سوريا وجعلوا يفتكون باهلها ويسومونهم سوء العذاب يقتلون بعضهم ويأسرون البعض . فخاربه طوران شاه اخو صلاح الدين فلم يوق عليهم . فبلغ ذلك اخوه وكان قد استقدم جنداً مصرياً . فانفذ بعضهم فارجعوا الصليبيين على اعقابهم فعاد الى اتمام فتوحه فخارب سيف الدين غازي وفاز به واستولى على بوزاع ومنبج وعيراز حيث قبض على اثنين من الباطنيين وقتلها بيده وكانا مرسلين من قبل امير الباطنيين ليقتلاه . وختم صلاح الدين فتوحه بمعاهدة عقدها مع سيف الدين غازي والملك الصالح تقضي باستبقاء جميع البلاد التي فتحها تحت سلطته وان لا يكون للملك الصالح دخل فيها

اصلاحت صلاح الدين بمصر

وعاد صلاح الدين الى مصر في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢ هـ بعد ان استخلف اخاه طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيره الى الشام قد استخلف على مصر وزيره الامير بهاء الدين الاسدي الخصي الفارسي الذي تقدم ذكره . فعهد اليه تدبير الاحكام وامره ان يقيم البنائات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها . فانفذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيره ونشاط وكانت الجسور المبنية لتنظيم مجرى النيل عند الفيضان قد اهمل شأنها منذ تولى الخلفاء الفاطميون فاذا فاض النيل طغت مياهه على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع فهمد الطرق واحتفر الترغ واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك بعض حجارة

الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من ابنية المصريين القدماء .
وانشأ طريقاً يمتد طويلاً على ضفة النيل فيقيها من صدمات المياه وتسهل علائق العاصمة
بمصر العليا والسفلى . وشاد فوق التربة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً
عظيماً مؤلفاً من اربعين قنطرة



ش ٥٨ : قلعة القاهرة الآن

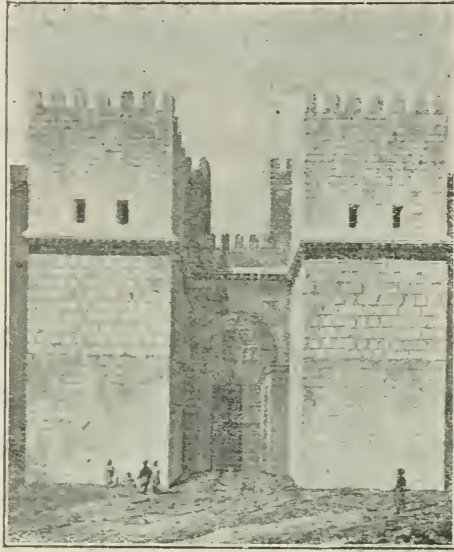
ولم يكن لصالح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا لالخليفة والوزير
السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلاً لامراء الدولة وقواد الجند وبنى في
الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا
العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه . وكان في ذلك المسكن بناء قديم من عهد الدولة
الطولونية يعرف بقبة الهواء فهدمه واقام القاعة في مكانه واتى بججارتها من خرائب
منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وابس في القاهرة
بناءً آخر ارفع موقعاً من القاعة وهي لا تزال باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل
وقاعة القاهرة . واحتفر بهاء الدين في القلعة بئراً نفراً في الصخر عميقة جداً تسع
كل ما تحتاج اليه الحامية من اناء ولا تزال البئر والقصر الى هذه الغاية يعرفان باسمه
فالبر تدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انها سميت هكذا نسبة الى يوسف الصديق
ابن يعقوب والصحيح نسبتها الى يوسف صالح الدين الذي امر باحتفاراها . والغالب
ان هذه البئر كانت محفورة من ايام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال فعاد صالح
الدين حفرها وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف او ديوان صالح الدين .

وابتني هذا الوزير ايضاً حواصل كبيرة في الفسطاق لخزن الغلال التي ترد من الاعمال سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعضهم انها من بناء فرعون في زمن يوسف الصديق

سور القاهرة

وبعد ان فرغ بهاء الدين من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة اخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان قد ابتدا بعمارته السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ على وزارة العاضد فلما عهد الى بهاء الدين اتمامه عمل له رسماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاق وقصر الشمع وما يذنها من الارض. الا انه استعظم بناء بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه هذا الى هدم جوامع وبيوت وقبور كثيرة كانت في مكان السور. ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وبعضهم لا يزال متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش اي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يعبرون بهذا الاسم عن الاستبداد والعسف وينسبون اليه احكاماً عجيبة في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي له كتاب لطيف سماه الغاشوش في احكام قراقوش وفيه اشياء يبعد وقوع مثلها منه. والظاهر انها موضوعة فان صلاح الدين كان معتمداً في احوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية امير الجيوش وفي الثالثة بناه بهاء الدين بامر صلاح الدين فزاد فيه القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعيرية ومن باب الشعيرية الى باب البحر. وبني قلعة المقس وهي برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع اولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الذهاب من وجه البركة الى محطة السكة الحديد. وانقطع السور من هناك. وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب من الصوة تحت القلعة والى الآن آثار الجدر ظاهرة للتمائل فيما هو آخر السور الى جهة القلعة. وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ من الازرع الهاشمية وقاعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير صاحب شمس الدين عندما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هـ وجعل في مكان ذلك البرج حديقة. وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من

باب الفتوح الى المقس . ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بابرّاج مبني بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ودم الا في بعض الاماكن



ش ٥٩ : باب النصر كما هو الان

وفي سنة ٥٧٣ هـ عاد الصليبيون الى التعدي فخصات بينهم وبين صلاح الدين واقعة في الرملة كان الفوز فيها للصليبيين الا ان ذلك الفوز لم يلبث حتى انقلب عليهم ما حدث بين رؤسائهم من الانشقاق

وفي ٥ صفر سنة ٥٧٦ هـ توفي شمس الدولة طوران شاه في نجر الاسكندرية وكان قد جاءها من دمشق فنقلته اخته ست الشام بنت ايوب الى دمشق ودفنته في مدرستها التي انشأها بظاهر دمشق فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين بن اسد الدين شيركويه صاحب حمص وكانت قد تزوجته بعد لاجين

وفي سنة ٥٧٨ هـ حمل صلاح الدين على سوريا حملة ثانية وسببها ان الملك الصالح كان قد مات واستخلف عز الدين ملك الموصل فاراد هذا ان يخرق المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين فاتصل ذلك بصلاح الدين واتصل به ايضاً ان امراء

الموصل تأمروا عليه سرّاً مع الصليبيين فأسرع الى سوريا فجاء حلب وحاصرها فسلمت ثم استولى على الرها والرقّة ونصيبين وسروج وخابور وسنجار وحران ثم اتى فعاسكر امام الموصل ولم يبق غيرها للملك الصالح فحاصرها وبعد اخذ ورد سلمت سنة ٥٨١ هـ واصيب فيها صلاح الدين بمرض شديد فانتشر ذلك في انحاء سوريا ثم بعث عز الدين يطلب المصالحة وكانت المصالحة النهائية لانهم جعلوا لها حيثية دينية ومن مقتضاها الخطبة لصلاح الدين في الموصل وسائر البلاد التي ارجعت للاتابك الملك الصالح . وان يعترف صاحب الموصل انه تابع لصلاح الدين وعليه تقديم العدة والرجال عند الحاجة لمحاربة الصليبيين

واقعة حطين

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ كانت بداية واقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيراً ما يحاولون لقاء عدوهم يوم الجمعة عند الصلاة تبرئاً كعادتهم المسلمين والخطباء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديه من الجند على اتم نظام وحط رحاله عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على امل ان الافرنج اذا بلغهم نزوله هناك يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بارض عكا فلم يتحركوا من منزلتهم . فسار صلاح الدين في جريدة من جيشه الى طبرية واستلمها بساعة بعد القتل والنهب الا ان القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل في طبرية فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد للملاقة العدو فالتقى به على سطح جبل طبرية الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الصليبيين الافرنج منهم تحصنت في تل يقال له تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقهم المسلمون واشعلوا حولهم النيران فاشتد بهم العطش الى ان الجأهم الامر للقتال ياساً فاسرت مقدمتهم وقتل الباقون

وكان في جملة المأسورين الملك جفري واخوه البرنس ارباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهما من القواد والامراء . فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وامر بتحضير الاسرى بين يديه فاحضروا وفيهم الملك جفري فامر له بشربة من جلاب نلج فشرها وكان في غاية الظم ثم اعطى البرنس ارباط اخاه فشرب وقال السلطان للترجمان « قل للملك انت الذي سقيته اما انا فاسقيته » اذ كان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من اسره امن . فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك جفري قد

امن اما اخوه فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط لسابق تعديه على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سامية لغير داع فسبق من السلطان قسم انه اذا ظفر بهذا الامير قتله . فبعد ان شر با ارسلهما للمائدة فاكلام اعيدا الى السلطان فاخذ بيده سيفاً وتقدم الى البرنس ارباط قائلاً « ها انا انتصر لمحمد » ثم عرض عليه الاسلام فابى فضربه بالسيف فحل كتافه وتم قتله من حضر ورميت جمته على باب الخيمة . فلما راى جفري ذلك وقع الرعب في قلبه . فكلمه السلطان وطيب خاطره وقال له « لم تجر العادة ان يقتل الملوك الملوك اما هذا فقد تجاوز الحد وتجراً على الانبياء » وفي اثناء هذه الحروب التقى صلاح الدين بريكاردس قلب الاسد



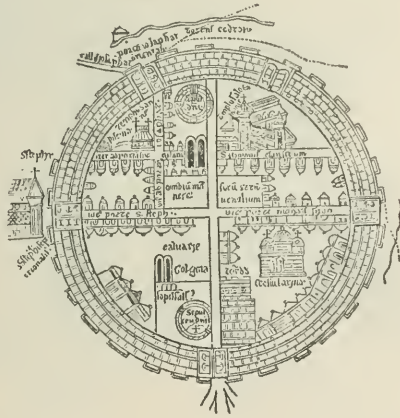
ش ٦٠ : ريكاردس قلب الاسد

وفي اليوم التالي نزل السلطان على طبرية فاستلم قاعها ثم رحل طالباً عكا فبلغها يوم الاربعاء غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وانقذ من كان فيها من

اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠ واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق السلطان صلاح الدين جيشه فرقاً في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرية . وسار هو يطلب تبينين فنزلها يوم الاحد ١١ جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فحاصرها اسبوعاً ونصب عليها المنجنيق حتى فتحها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزوله ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جمادى الآخرة وسارت سرية من رجاله الى جليل من اعمال لبنان فاستلمها . ثم حول شكيمة فتوجه جنوباً قاصداً عسقلان فر على مواضع كثيرة كالرملة والدارون فاستولى عليها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقتاتها قتالاً شديداً حتى تسلمها ثم بعث من رجاله من استلم غزة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

فتح بيت المقدس

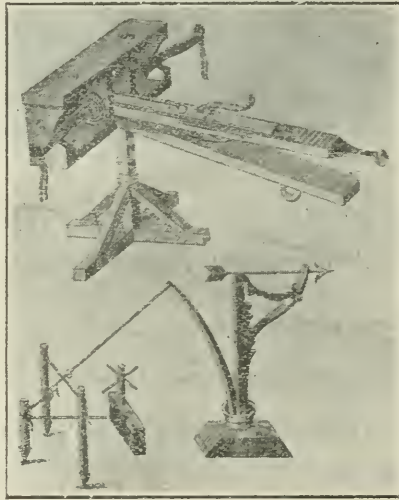
والا تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجد في المسير اليه فجمع جنده وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى اتى بيت المقدس يوم الاحد ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان به البطريرك المعظم عندهم وهو اعظم شأناً من ملكهم . وبه ايضاً بايان بن يبرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم



ش ٦١: شكل بيت المقدس واسواره لما حاصره صلاح الدين

تقارب مرتبة الملك . وبه ايضاً من خالص من فرسانهم من حطين . وقد جمعوا وحشدوا واجتمع اهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت ايسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس وياخذوه منهم ويرى

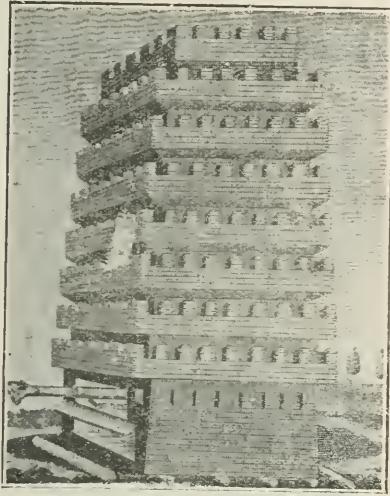
ان بذل نفسه وماله واولاده بعض ما يجب عليه من حفظه . وخصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلاً . وصعدوا على سورهم وحديدتهم مجتمعين على حفظه والدفاع عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا الدنو منه والنزول عليه . ولما قرب صلاح الدين منه تقدم امير في جماعة من اصحابه غير محتاط ولا حذر فاقبه جمع من الصليبيين قد خرجوا من القدس فقاتلوه وقتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه . فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس في منتصف رجب . فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سورهم من الرجال ما هاهم وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين يقاتلها لانها في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عاينها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون فانقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها . ونصب



ش ٦٢ : منجنيقات لرمي النبال

الصليبيون على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا اشد قتال رآه احد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحقماً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمتنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يزدجرون . وكان خيالة الصليبيين كل يوم

يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين . وممن قتل من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مائك وهو من اكابر الامراء وكان ابوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطي القتال بنفسه كل يوم فقتل . وكان محبوباً الى الخاص والعام . فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك واخذ من قلوبهم غموا حملة رجل واحد . فازالوا الصليبيين عن مواقعهم فادخلوهم بلدهم . ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحملونهم والمنجنيقات توالي الرمي اتكشف



ش ٦٣ : آلة لنقب الاسوار وهي برج يجر على محادل او عجل نحو السور . وفي اسفله رجل ينقبون السور بعمود طرفه كراس الكيش وفي البرج رجل يشنون حماة السور بري النبال

الصليبيين عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب . فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقبين من النقب وانهم قد اشرقوا على الهلاك اجتمع مقدمهم يتشاورون فيما يأتون ويندرون . فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم بيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان . فلما ذكروا ذلك للسultan امتنع من اجابتهم وقال « لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها » . فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل بايان بن بيزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره . فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم

يرحه . فلما آيس من ذلك قال له « ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا راينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغفنون منا ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخرجنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قائلناكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحيث لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله ونهت اعزاء او نظفر كراما »

شروط التسليم

فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن اي شيء تنجلي وقالوا « نحسب انهم اسارى بايدنا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم » فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ووزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن ادى ذلك في اربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ماعليه فقد صار مملوكاً . فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسامت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب . وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على اسوارها ورتب صلاح الدين على ابواب البلد في كل باب اميناً من الامراء ليأخذوا من اهله ما استقر عليهم . فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه الامانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت ايدي سبا . ولو اديت فيه الامانة لملأ الخزان وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون الف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان . ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والدارون والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس . وكان الانسان لا يقدر ان يمشي . ومن الادلة على كثرة الخلق ان اكثرهم وزن ما استقر من القطيعة . واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر الف رجل وزن عنهم ثلاثين الف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ويعطي واخذ اسيراً ستة عشر الف آدمي ما بين رجل وامرأة . ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلبهم ويأخذ قطيعتهم

وكان جماعة من الامراء يلبسون الصليبيين زي الجند المسلمين ويخرجونهم
ويأخذون فيهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الصليبيين
فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم . وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل . وكان بالقدس بعض
نساء الملوك من الروم وقد ترهبت واقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خاق
كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الامان لنفسها ومن معها
فامنها وسيرها . واطلق ايضاً ملكة القدس التي كان زوجها الذي اسره صلاح الدين
قد ملك الصليبيين بسببها وكان يقوم بالملك نيابة عنها . واطلق ماها وحشمها واستأذنته
في المسير الى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس فاذن لها فأتته واقامت عنده
واتته ايضاً امرأة للبرنس ارباط صاحب الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده في
حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين « ان سلمت الكرك اطلقتك »
فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الصليبيون ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه اطلق
ماها ومن تبعها . وخرج البطريرك الكبير الذي للصليبيين ومعه من اموال البيع منها
الصخرة والاقصى وقامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله . وكان له من المال مثل ذلك فلم
يعرض له صلاح الدين فقيل له لياخذ ما معه يقوي به المسلمين فقال « لا اغدر به » ولم
ياخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور . وكان على راس
قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم
الى اعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدها صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد
ومن ظاهره المسلمون والصليبيون . اما المسلمون فكبروا واما الصليبيون فصاحوا ففجعاً
وتوجعاً فسمع الناس صيحة كادت الارض ان تميد بهم اعظماها وشدها
فلما ملك البلد وفارقه الصليبيون امر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم
فان الداوية بنوا غربي الاقصى ابنية يسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هري
ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى في ابنتهم فاعيد الى حاله الاول . وامر بتطهير
المسجد والصخرة من الاقدار والانجاس ففعل ذلك اجمع . ولما كانت الجمعة الاخرى
رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان
الخطيب والامام محي الدين ابن الزكي قاضي دمشق . ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً
واماماً يرسم الصلوات الخمس وامر ان يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محموداً كان
قد عمل بمنبراً امر الصناعات بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال « هذا قد عملناه
لينصب بالبيت المقدس » فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الاسلام مثله فامر

باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على
عشرين سنة

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بهارة المسجد الأقصى واستنفاد
الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذي لا يوجد
ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه وقد ادخر على طول
السنين . فشرعوا في عمارته ومحو ما كان في تلك الابنية من الصور . وكان الصليبيون
فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوا قاصر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان
القسيسين باعوا كثيراً منها للصليبيين الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا



ش ٦٤ : كنيسة القيامة بالقدس عند فتحها

يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها . وكان احدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له
الكنيسة وجعله في مذبحها . نخاف ملوكهم ان تفتى قاصر بها ففرش فوقها حفظاً لها .
فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف والربعات ورتب القراء وادر عليهم
الوظائف الكثيرة

واما الافرنج من اهل بيت المقدس فانهم شرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من
امتعتهم وذخائرهم واموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بارخص الثمن . فاشترى
التجار من اهل العسكر واشترى النصراني من اهل القدس الذين ليسوا من الصليبيين
فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية
فاجابهم الى ذلك . فاستقروا فاشترى حينئذ من اموال الصليبيين وترك الصليبيون

ايضاً اشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبيات وغير ذلك وتركوا ايضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله من الاساطين والالواح وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا

تهاني الشعراء بالفتح

وكانت ليلة المعراج وكان يوم نحر لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما اتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وقالوا اخطب على الجماهير وسالت اقلام الكتّاب وفاضت قرائنهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً يحمده الله ويمدح الفتح او مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش المسلمين وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد الدين الاصبهاني . ومن انشد في هذا الشأن عبد الرحمن بن بدر النابسي فقال

قصيدة منها

هذا الذي كانت الايام تنتظر	فليوف لله اقواماً بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت	في سالف الدهر اخبار ولا سير
الآن قرت جنوب في مضاجعها	ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يا بهجة القدس اذا ضحى به علم الا	سلام من بعد طي وهو منتشر
يا مالك الارض مهدها فما احد	سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثمراً	الا لتعلو به اعلامك الصفر
انحى بنو الاصفر الانكاس موعظة	فيها لاعدائك الآيات والندر
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة	على الوري يتقيها البدو والحضر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم	وملكهم ياموك الارض فاعتبروا
ولا اصرح باسماء البلاد فقد	اسهبت والقائل المنطيق يختصر
ينغيبك اجمال قولي عن مفصله	في لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئه بالفتح

فتح سائر سوريا

وبعد فتح بيت المقدس سار صلاح الدين لفتح صور فجاء عكا فنزل فيها ونظر في امورها ثم سار عنها الى صور في يوم الجمعة ١٥ رمضان فنزل قريباً منها وارسل لاحضار آلات القتال ولما تكاملت نزل عليها وقاتلها براً واستقدم اسطول مصر ليقاتلها بحراً ثم ارسل من حاصره هونين فسلمت . اما الصوريون فاسلوا اسطولهم الى اسطول المسلمين فاسروا منه خمس قطع وقتلوا كثيراً من المسلمين فعظم ذلك على السلطان وضاق صدره

وكان الشتاء قد هجم وتراكت الامطار. واستشارهم فيما يفعلون فاشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال ويجمعوا للقتال فساروا وحملوا من الات القتال ما امكن واحرقوا ما بقي منها وسارت كل جماعة الى بلادهم وسار صلاح الدين الى عكا

وبقيت الهدنة الى ان دخلت سنة ٥٨٤ هـ وعند ذلك نزلوا على حصن كوكب وكان منيعاً فاخذوه بعد قتال شديد ثم سار السلطان الى دمشق وبقي فيها خمسة ايام . ثم باغته ان الافرنج قصدوا جبيل فسار نحوهم ثم علم انهم رحلوا عنها فتوقف وسار قاصداً اتمام فتح سوريا فجاء ترسوس في ٦ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ وكان قد انضم اليه رجال من سنجار والموصل تحت قيادة عماد الدين زنكي ومظفر الدين بن زين الدين ففتح ترسوس ثم سار الى جبلة ففتحها ومنها توجه الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى فاخذها في يوم واحد الاقلعتها على انها اضطرتنا اخيراً للتسليم . ثم رحل من اللاذقية الى صهيون فنزل عليها في ٢ جمادى الآخرة فصالحه اهلها على ان يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والصغير دينارين . ثم سير من رجاله من استولى على عدة قرى منها بلاطس وغيرها من الحصون المنيعه . ثم رحل عنها واتى بكاس وهي قلعة حصينة على نهر العاصي ففتحها عنوة وهدم قلعتها وتوجه بعدئذ الى قلعة برزنة الشهيرة ففتحها وفتح غيرها من القلاع

وفي ٣ شعبان ارسل اهل انطاكية يطلبون الصالح فصالحهم ثم توجه الى حلب في ضيافة ابنه الملك الظاهر ثم الى حماه في ضيافة عمر ابن اخيه فبات في حماه ليلة واحدة ثم سار على طريق بعلبك ودخل دمشق . وسار في اوائل رمضان يريد صفد فخار بها واستولى عليها بالامان وفي هذا الشهر سلمت الكرك ايضاً

ثم نزل في الغور واقام بالخيم بقية الشهر واعطى الجماعة دستوراً وسار مع اخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع اخيه لانه كان متوجهاً الى مصر فدخل القدس في ٨ ذى الحجة وصلى بها العيد وسار منها الى عسقلان في ١١ منه ينظر في امورها فاخذها من اخيه العادل وعوضه عنها الكرك . ثم مرّ على بلاد الساحل يتفقد احوالها ثم دخل عكا فاقام بها معظم الحرم من سنة ٥٨٥ هـ واصلاح امورها ورتب بها الامير بهاء الدين قراقوش والياً وامره بعمارة سورها وسار الى دمشق فدخلها في مستهل صفر واقام بها الى ربيع اول ثم خرج الى شقيف اريون وهو موضع حصين نخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في ١٧ ربيع اول . واقام اياماً يباشر قتاله كل يوم والعساكر تتواصل اليه فتضايق صاحب الشقيف فنزل الى صلاح الدين بنفسه وطلب الامان

ووعده انه يسلم المسكان بشرط ان يعطى له موضع يسكنه في دمشق . لانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الصليبيين واقطاع تقوم به وبأهلها وشروطاً غير هذه . فاجابه الى ما طلب وفي اثناء ذلك وصله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليها اناساً يحاصرونها مدة سنة كاملة الى ان نفذ زاد من كان فيها فسلموا

ثم ظهر بعد ذلك للسلطان ان جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فسيره مهاناً الى دمشق . ثم ظهر له ان الصليبيين قصدوا عكا ونزلوا عليها في ١٣ رجب سنة ٥٨٥ هـ فسار اليها حالاً ونزل فيها بغتة ليقوي قلوب من بها وارسل يستدعي النجيدات من الانحاء وكان عند الصليبيين نحو الف فارس و ٣٠ الف راجل . ثم تكاثروا واستفحل امرهم واحاطوا بعكا وحاصروها في آخر رجب فضاقت صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق اليها لتستقر السابلة بالنجدة فتدكن وانفتح الطريق وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكا وجرى بينه وبين الصليبيين مناوشات في عدة ايام . ثم تأخر المسلمون الى تل العياضة وهو مشرف على عكا . وفي هذه المنزلة توفي الامير حسام الدين طمان

وما زالت الحال كذلك والصليبيون يتشددون بما كان يأتهم من المدد بجرأ الى ان قواوا على فتح المدينة ودخلوها والسلطان خارجها فعظم ذلك عليه جداً . ثم بلغه ان الصليبيين سيخرجون من عكا الاستيلاء على عسقلان فأتى السلطان الرملة وتشاور وذوي شوره في امر عسقلان وهل الصواب اخرابها ام بقاؤها فاتفقت اراؤهم ان يبقى الملك العادل قبالة العدو وان يسير صلاح الدين بنفسه لاخترابها خوفاً من وصول العدو اليها فيأخذ بها القدس فسار وشرع باخرابها بكل نشاط رغم ارادته لانه قال « لأن افقد ولدي جميعهم احب اليّ من ان اهدم منها حجراً ولكن اذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة المسلمين فما الحيلة » وهاجر اهالي عسقلان الى الشام ومصر وغيرهما حزاني تاركين اراضيهم وبيوتهم ومواشيهم بحالة يرثى لها . وبينما كان الاخراب قائماً اتى من الملك العادل ان الصليبيين يتحدثوا معه بامر الصلح طالبين جميع البلاد الساحلية . فرأى السلطان ان موافقتهم على طلبهم هذا افضل لما رأى من الضجر الذي خامر قلوب المسلمين من المشاق المتوالية فكاتب اليه يأذنه في ذلك وفوض الامر الى رأيه واصر على حريق عسقلان ففوض ذلك الى احد اولاده الافضل وسار الى الرملة ومنها الى اللد واشرف عليها وامر باخرابها واخراب قلعة الرملة ثم دار حول قلعة البترون وهي قلعة منيعة فامر باخرابها

وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بين صلاح الدين وكبير الصليبيين بعد مداولات ومخبرات بطول شرحها ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور . وكان يوماً مشهوداً سرّت به الطائفتان وعادت الصلوات الى مجاريها وعادت التجارة وجعل الزائرون يفدون الى بيت المقدس من كل صوب . وتوجه السلطان الى تلك المدينة يتفقد احوالها . وسار اخوه الملك العادل الى الكرك وابنه الملك الظاهر الى حلب وابنه الافضل الى دمشق وبقي السلطان صلاح الدين في القدس مدة يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير الى الديار المصرية . وكان في عزمه السفر للحج لكنه لم يستطع

ولما سار ملك الصليبيين الى بلاده رأى السلطان ان يعود لتفقد القلاع السورية ففعل وسار منها الى دمشق فوصلها في ١٦ شوال وفيها اولاده الافضل والظاهر والظافر المعروف بالمشمر واولاده الصغار . وكان يجب تلك المدينة ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد . ثم قدم الملك العادل من الكرك قاصداً البلاد الفراتية . فنزل دمشق واجتمعت هذه العائلة على رغد وسلام . وقد نسي السلطان صلاح الدين عزمه الى مصر وعرضت له امور اخرى غير ما تقدم

وفاة صلاح الدين ومناقبه

على ان المنية مع عجزها عن مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين اولاده واخوانه . ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان ملاقاته الحج فعاد الى منزله كسلاً ثم غشيتته حمى صفراوية . ثم اصبح في اليوم التالي اكثر كسلاً وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً الى ان توفاه الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين وغشي القامة والملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم . وكان عمره عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة في مصر و١٩ سنة مع سوريا . فخصر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان مقيمها فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص لانه لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة . ولم يجدوا في جميع صناديقه اثراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك لما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالاً كثيرة جاد بها على آله وذويه

ومن آثاره في العدل والرفق ان الاموال الهلالية كانت قد اعيدت الى مصر في اثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمكوس . فلما تولى السلطان صلاح الدين امر باسقاطها وكانت مداخيلها عظيمة جداً تبلغ مائة الف دينار سنوياً الا انها كانت مضروبة على جميع انواع الاطعمة والابسة والحيوانات من ماشية وخيول وغيرها . وعلى الحوانيت والاشباب والمصنوعات والمزروعات والابنية والاقشة الى غير ذلك . جميع هذه امر صلاح الدين بالغائها . ورأى ان كثيرين من الاهالي لا يزالون مثقلين بالديون بسبب تلك المظالم فدايهم بما كان عليهم . وكان بالغاً قدرأ عظيماً جداً من الدنانير والغلال وكان بين اقارب السلطان صلاح الدين رجل يدعى عز الدين موسك كان من حفظة القرآن ومحبي اهل العلم فابتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ولما تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والصليبيين اباح لهم ان يستوطنوا مصر وكان هو اول من فعل ذلك فجاء منهم بعض الباعة واستوطنوا في جهات الموسكي لانها خارج سور المدينة وافتتحوا حوانيت لمبيع الادوات الافرجية . ثم اخذ شارع الموسكي بالظهور على تماذي الايام حتى وصل الى ما هو الآن

وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً . واثى واحدة اسمها مؤنسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل فلما توفي صلاح الدين اقتسم اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية لان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء فنلقب اول اولاد صلاح الدين المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبنياص وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح غازي بالملك الظاهر غياث الدين فاخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل ياسر وعيراز ومنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر

ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلبية ودمشقية والمصرية . أما ما بقي من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين الا انهم تحت سلطة هؤلاء الثلاثة . فسيف الدين ابو بكر الملقب بالملك العادل بن ايوب واخو صلاح الدين كان حاكماً في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميراً على حماه والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الاجمد حفيد شاهين شاه



ش ٦٥ : نقود صلاح الدين
« ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ »

ايضاً كان ملقباً بملك الرها . وشمس الدولة
طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن
بامر ابيه سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة .
وكان اخوه توغتن حاكماً فيها تحت اسم
الملك المعز



ش ٦٦ : نقود صلاح الدين «ضربت سنة ٥٨٤»

وترى في الاشكال ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ صور
النقود التي ضربت في ايام الساطان صلاح
الدين على احد وجهيها اسمه وعلى الوجه
الآخر اسم الامام الناصر الخليفة العباسي
لذلك العهد . فالصورة الاولى نقود ذهبية



ش ٦٧ : نقود صلاح الدين

ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ هـ والثانية نقود
نحاسية ضربت سنة ٥٨٤ هـ . والثالثة مثل
ذلك

سلطنة الملك العزيز بن يوسف

من سنة ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ او من ١١٩٣ - ١١٩٨ م

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبه . وبعد يسير
نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة الانتقام منه لقهره اياهم . فلما لم
يستطيعوا ذلك في حياته قاموا على خلفائه واجمعوا على محاربتهم . فاجحد الايوبيون في
بادئ الرأي دفعاً لمناهضيتهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد اتقياداً للمطامع
واصغافاً لذوي المفساد فاصبحوا بما بينهم في شاعل عن دفع مهاجمتهم
ففي سنة ٥٩٢ هـ راى الملك العادل صاحب الكرك والشوبك ان حصته قليلة
ومنصبه حقير بالنسبة لغيره من الاسرة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان

مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عليها وفعلاً ذلك بسهولة . ففرَّ الملك الافضل من دمشق الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين لله العباسي . وكان كلاهما شاعراً ماجداً . فكتب الافضل الى الامام الناصر :

مولاي ان ابا بكر وصاحبه
وهو الذي كان قد ولاه والده
نخلفاه وحلاً عقد بيعته
فاجابه الامام الناصر بقوله :

وافي كتابك يا بن يوسف معلناً
غصبا علياً حقه اذ لم يكن
فابشر فان غداً عليه حسابهم
بالود يخبر ان اصلك طاهر
بعد النبي له يثرب ناصر
واصبر فناصرك الامام الناصر

الا ان الملك العادل لم يلبث ان بكتته ضميره فاعاد الملك الى ابن اخيه الافضل وتنازل ايضاً عن حصته الاصلية . الا ان العزيز لم يتمتع بالملك مدة طويلة فتوفي في القاهرة في ٢١ محرم سنة ٥٩٥هـ وكان ملكاً مباركاً كثيراً الخير واسع الكرم محسناً الى الناس يقرب ارباب الخير والصلاح . ولكنه كان ضعيف الرأي سهل الانقياد قليل التروي . وكان له عشاء من ذوي الخفة فاشاروا عليه يوماً ان يهدم اهرام الجيزة . فامر بهدمها حالاً وبعث اليها بالعملة فابتدأوا بالهرم الثالث منها وهو اقلها متانة ويعرف بالهرم الاحمر . قال عبد اللطيف البغدادي وقد زار مصر على اثر ذلك « وحينما شاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت لو بذل لكم الف دينار على ان تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؟ فاقسم بالله انهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم اضعافه » وقد شوها وجه الهرم تشويهاً ولم يهدموا منه الا قسماً صغيراً جعل في الهرم خرقاً لا يزال ظاهراً فيه

ثم ارتأى الملك العزيز مشروعاً آخر جاء بنتيجة اقبح من تلك . وذلك ان ايام الفيضان في مصر وخصوصاً في القاهرة تعد من ايام الزهة لجران المياه في الترع والخلجان ولاسيما خليج مصر فانه يجري مخترقاً المدينة . فكان الناس يخرجون في ذلك الحين في صغار القوارب للزهة في مجاري المياه ليلاً ونهاراً يتمتعون بنعمة ربهم فيقيمون الولائم ويضربون الموسيقى . وكان الحاكم بامر الله قد حاول مرات عديدة ابطال هذه العادة فلم يقدر لان الناس ابوا الا التمتع بما وهبتهم الطبيعة من اسباب السرور . فامر الملك

العزیز سنة ٥٩٤ هـ بالامتناع عن هذه الاحتفالات امتناعاً كلياً واستخدم لتنفيذ امره هذا طرقاتاً خشنة . فاسترحم الناس الغناء هذه الاوامر مرات عديدة فلم يجحوا فجاهروا بالعصيان . ثم عاجلت المنية الملك العزیز فقطعت جھيزة قول كل خطيب ومما اتاه الملك العزیز في سلطنته من المظالم انه اعاد اليها المكوس الظلمة التي كان قد اغاها ابوه وزاد في شناعتها وزادت في ايامه المنكرات وترك الانكار لها وكثر شرب المسكر واباحه اولو الامر والنهي . وتفاحش الامر فيه الى ان غلا سعر العنب لكثرة من يعصره . واقامت في حارة المحمودية مطحنة لطحن الحشيش المزروا فردت برسمه وحمت بيوت المزرو واقامت عليها الضرائب الكثيرة . فمنها ما انتهى امره في كل يوم الى ١٦ ديناراً . وحملت اواني الخمر على رؤوس الاشهاد في الاسواق فداهمهم غلاء الجبوب لوقوف زيادة النيل جزاءً لفحشهم . وآل الامر الى وقوف وظيفه الدار العزیزية من خبز ولحم بحيث لم يعد لهم ما يأكلون . وكثر فجيجهم وشكواهم فجعل الملك العزیز يغتصب الارزاق ويضمرها الى اقتيات عائلته . وصارت الاهالي في حال صعبة زادها ارتكاب المنكرات والمظالم صعوبة . الى ان جاءت المنية منصفة المظلوم من الظالم وسبب موته انه توجه الى الفيوم فساق فرسه وراء صيد فتقنطر به فاصابته الحمى فحمل الى القاهرة فتوفي في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هـ

سلطنة الملك المنصور بن العزیز

من ٥٩٥ - ٥٩٦ هـ او من ١١٩٨ - ١٢٠٠ م

وخلف العزیز ابنه ناصر الدين محمد وعمره ٨ سنوات فلقبوه بالملك المنصور ثم استقدموا عمه الملك الافضل من سوريا ليكون وصياً على ملكهم الجديد . فقبل وجاء القاهرة ونودي به اتابكاً اي وصياً على ابن اخيه الا انه لم يتمتع بهذا المنصب لان عمه الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبين حقوقه بالتوصية بناء على انه جد الصبي الحاكم وعمه وصيه . فحاول الافضل مقاومته فلم ينجح . فحاصره في قصره في القاهرة ثم فرّ راجعاً الى حكومته في دمشق مكتفياً بما قسم له



وترى في الشكل ٦٨ صورة النقود النحاسية التي ضربت على عهد الملك المنصور ابن العزیز

سلطنة الملك العادل بن ايوب

من ٥٩٦ - ٦١٥ هـ او من ١٢٠٠ - ١٢١٨ م

ولما خلا الجول للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهراً . وتولى سلطنة مصر وسوريا بنفسه وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جملتهم ابن اخيه الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصاً الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد .

بجاعة سنة ٥٩٧ هـ

وفي السنة التالية حدثت بمصر المجاعة الشهيرة التي وصفها عبد اللطيف البغدادي في رحلته فقال « وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد واشعر اهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا ومزقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند زول الشمس الحمل وبيء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث . ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل . ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد احضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهما ابواه فأمر باحراقهما

« ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فاكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم — ومثل هذا اعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح . وحين ما نشم الفقراء في اكل بني آدم كان الناس يتناقلون اخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعاً لامرءه وتعجباً من ندوره ثم اشتد قرمهم اليه وضاوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطية ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له

« واقدراً يت امرأة مشحجة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه واهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم ارفيهم من يعجب لذكر

ذلك او ينكره فعاد تعجبي منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتي صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه . ورايت قبل ذلك بيومين صيياً نحو الرهاق مشوياً وقد اخذ به شابان اقرا بقتله وشبهه واكل بعضه

» وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فينما هو الى جانبها اغتفت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعات تأكل منه نيئاً . وحكى لي عدة نساء انه يتوثب عليهن لاقتصاص اولادهن وبجامين عنهنم بمجهدن

» ورايت مع امرأة فطيماً حليماً فاستحسنته واوصيتها بحفظه فحكت لي انها ينما تمشي على الخليج انتقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فزامت على الولد نحو الارض حتى ادر كما فرس وطرده عنها وزعمت انه كان يهم بكل عضو يظهر منه ان يأكله وان الولد بقي مدة مريضاً لشدة تجاذبه المرأة والمفترس

» وتجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيلا ولا حارس منبئين في جميع اقطار البلاد وازقة الدروب كالجراد المنتشر ورجال الفقراء ونساءهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم في الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

» واكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما ظن العلة فيه الا ان النساء اقل حيلة من الرجال واضعف عن التباعد والاستتار . ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر انها اكلت جماعة فرايت امرأة قد احضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي فضربت اكثر من مائتي سوط على ان تقر فلا تحير جواباً بل تجدها قد انخلت عن الطبايع البشرية ثم سحبت فماتت « اه

عود الصليبين الى الحرب

وفي سنة ٥٩٨ هـ ارسل الملك العادل ابنه ابا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف مظفر الدين الى الرها فتملكها ثم اضيفت اليه حران وكان الاشرف رجلاً محبوباً من الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ هـ حصات بينه وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر له

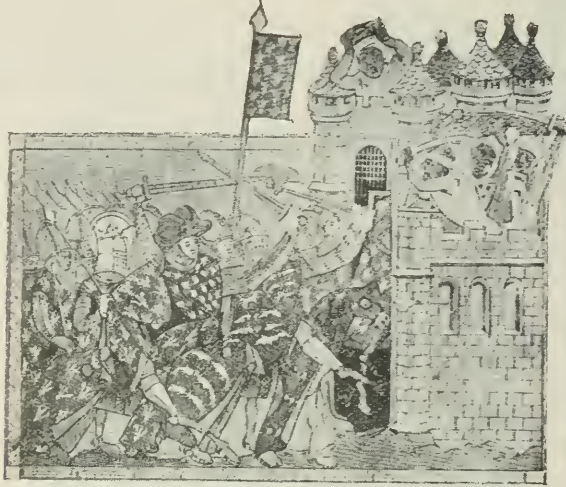
وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتنوا الفرصة لاعادة سلطتهم فاكثروا من الجند وجاهروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم . وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيهم الامدادات واملاك المسامين منتسمة وكمتمهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنهما لم تصل اليهم الا بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين خاربهم

فعادوا على عقابهم وقد حبط مسعاهم فتمتعهم نحواً من شهر فجاءه مخبر يخبره بمحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص واسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين . وهذه هي الزلزلة التي هدمت اسوار صور سنة ٦٠٠ هـ . وكانت تهدد مصر زلزلة اخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوه على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب العادل لهذين الخبرين فاسرع للملافاة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن يافا ويسحب من كان في اللد والرملة من المسلمين فاجلى الصليبيون من مصر لانهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الا ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماه والاستيلاء على ما بطريقهم اليها . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبرح مصر في جيش للمدافعة عن حماه فخلصت بينه وبينهم مواقع كثيرة وبيناهم في ذلك جاء الخبر بقدم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها البابا وحطت رحالها عند عكا وغيرها فهرع الملك العادل الى نابلس ليقم فيها حصناً فطردوه منها فرجع الى برج الصفر . فقطع الصليبيون الخبايا مع مصر حتى جاؤا على نهاية الحروب الصليبية في سوريا فحولوا اعينها الى مصر

حصار دمياط

فجاؤا اليها مجراً وحاصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ هـ وهم نحو ٧٠ الف فارس و ٤٠٠ الف راجل فحفروا في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقاً واقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجا منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول الى ديار مصر في النيل . وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلين تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة انكسر ذلك الجسر فاغتم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وانزلوا اليه اقوى رجالهم واحسن عدتهم وساروا في النيل لهاجمة برج المسلمين . فلما رأى المسلمون ذلك تجمهروا من البرج والسور واخذوا برمي السهام والحرايب والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين

فلعبت النار به نخاف الذين فيه ثم انطفأت حالاً وتشدد الصليبيون حتى استولوا على
برج المسلمين وطعموا بالاستيلاء على دمياط



ش ٦٩ : دخول الصليبيين برج المسلمين عنوة

فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف اباه الملك العادل على ديار مصر
نخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بنجر نزول الصليبيين وامر والي الغربية
بجمع العربان وسار هو في جمع كبير بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط
وامتدت عساكره الى دمياط لتمتع الصليبيين من السور والقتال مستمر اربعة اشهر
والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء حتى تكاملت عنده واشتد

خوفه من نزول الصليبيين على دمياط فرحل
من مرج الصفر الى عالفين فزل به المرض
ومات في جمادى الآخرة فكتم الملك المعظم
عيسى موته وحمله في محفة وجعل عنده خادماً
وطيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار

ش ٧٠ : نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر



يصلح الشراب ويحمه الى الخدام فيشر به ويوهم
الناس ان السلطان شر به الى ان دخلوا به الى
قلعة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات
فاعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان

ش ٧١ : نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر



معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق

وترى في الاشكال ٧٠ و٧١ و٧٢ صور

المقود التي ضربت في عهد الملك العادل بن
ايوب فالاولى والثانية عليهما اسم الملك العادل
من الجهة الواحدة والخليفة الناصر لدين الله
من الجهة الاخرى والثالثة لا يظهر عليها الا

اسم الملك العادل فقط

ش ٧٢ : تقود نحاسية للملك العادل

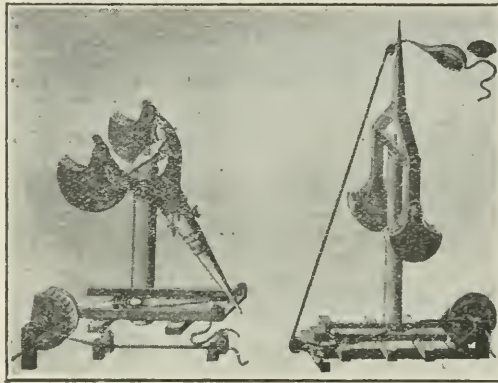


سلطنة الملك الكامل بن العادل

من سنة ٦١٥ — ٦٣٥ هـ او من ١٢١٨ — ١٢٣٨ م

وبلغ الملك الكامل موت ابيه وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون
فالحوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت
تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد . فنصب الملك الكامل
بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان
قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينيف على سبعين الف دينار
وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال
واعمال الحيلة في مكافحة الاعداء فامر ان تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين من
سلوكهم فيه فعمد هؤلاء الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً حفروه
وعمقوا حفروه واجروا فيه الماء الى البحر المالح واصعدوا مراكبهم فيه الى بؤرة على
ارض جزيرة دمياط . مقابل المنزلة التي فيها السلطان ليقاتلوه من هناك . فلما صاروا في
البؤرة قاتلوه في الماء وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل . ولم يتغير على اهل
دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وابواب
المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر . وكانت العربان تخطف
الصليبيين في كل ليلة حتى منعوهم من الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في
الصليبيين حتى صاروا يخطفونهم نهاراً وياخذون الخيم بمن فيها . فكمن لهم الصليبيون
عدة كمناء وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن ذلك . ثم ادرك الناس الشتاء وهاج

البحر على تخيم المسلمين واغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم والح الافرنج في القتال حتى كادوا يملكون . كل ذلك والملك الكامل يرسل الرسل الى الجبهات ينادي باخوته ممدداً ويستنجد اهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غابة الافرنج ولا من مجيب وفي اثناء ذلك ظهر في رجال الملك الكامل ثورة زعيمها عماد الدين احمد بن المشطوب احد كبراء رجاله على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطاناً بعد ابيه وكان ذلك باتفاق مع اخيه الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيرة واوجس خيفة على مركزه ولم يرَ من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشومون طناح) فاصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يقفوا لاختذ شيء من خيامهم وذخائرهم واموالهم واسلحتهم



ش ٧٣ : منجنيقات لرمي الحجارة في الحرب كما ترمى القنابل المدافع اليوم

كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ بلغهم ما كان من امر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين بغير منازع وغنموا ما في عسكر المسلمين مما تركوه من امتعتهم وغيرها خارج المدينة وكان شيئاً لا يحيط به الوصف وحاصروا دمياط واهلها يرمونهم عن اسوارها بالنبال وهم يرمون اسوارها بالحجارة الضخمة من المجانيق . فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهم عظيم وكاد ان يفارق البلاد لانه لم يعد يثق بنفسه ولا بمن حوله اما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها الحصار برّاً وبحراً وكانت سنة ليس اشد منها وطأة على المسلمين وقد اخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً . وهم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام تحت قيادة الملك المعظم عيسى اخي

الملك الكامل وكان قد تولى دمشق بعد ابيه العادل فلما علم بما حصل لجيوش ابيه بعد وفاته اتى في عدة من رجال الشام فاطلعه الكامل على صورة الحال سرّاً واسرّاً اليه ان راس هذه الطائفة ابن المشطوب نجاء الملك المعظم يوماً على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج اليه فقال له « اريد ان تحدث معك سرّاً في خلوة » وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم « اتبعونا » ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء الى شيء حتى ابعدته عن المعسكر ثم قال له « يا عماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبها لنا » ثم اعطاه شيئاً من النفقة وقال لاوائك المجردين « تساموه حتى تخرجوه من الرمل » فلم يسعه الا امتثال الامر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال . ثم عاد المعظم الى اخيه الكامل وعرفه صورة ما جرى . ثم جهز اخاه الفائز المذكور الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فأت بسنجار وكان ذلك خديعة لاجراجه من البلاد . فلما خرج هذان الشخصان من المعسكر تحللت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

وبعد سير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في احوال رعيته . ثم خشى من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم فتقوى سلطتهم فامر بهدم اسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار . هذا والصليبيون قد ضيقوا على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سورا . واهل دمياط يقاتلونهم اشد القتال ويمانعونهم وقد غلت عندهم الاسعار لقلّة الاقوات . والملك الكامل كان لا يزال في اشمون ينظر الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها . وخشي اخيراً ان يأس اهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب احد الجاندارية المدعو شمائل للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانقاذ . فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى اهل دمياط فيوصل اليهم الاخبصار ويطمئنهم ويعود . وبقي على ذلك مدة فخطي عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنتسب خزانة شمائل بالقاهرة . وفي اثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس فهدمها المسلمون لثلاثين عاماً في الاسكندرية من اجلاها فيتخذونها حصناً لانها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة . وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال آثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري

فتح الصليبيين دمياط

ثم دخلت سنة ٦١٦ هـ وقد غلت الاسعار في دمياط بما يفوق الحد فباغت البيضة عدة دنانير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى اهل دمياط بحميل محتلفة مثل ان يأتوا بحمّل ويشقوا جوفة ويملاوه فراخاً وفاكهة وبقلاً وغير ذلك ثم يخيطون عليه ويرمونه في النيل فيسير منحدرأ مع المجرى فاذا جاء امام دمياط نزل من فيها اليه واخذوه واقتاتوا على ما في جوفه . وكان الافرنج احياناً يظفرون بهذه الحيلة فيأخذون تلك المؤن . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلات مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً . فدخلوها واحكموا السيف فيمن بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابجرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ما يلحق الاحياء بهم . وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعاً وليس من يسعى في دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

مدينة المنصورة

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل قبالة طانخا على رأس مجراشوم وراس مجردمياط ليمنع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر مجراً وحيز في محلة المنزلة واقام معسكره هناك . اما الافرنج فخصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وبثوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون وبأسرون وبعثوا جميع من اسروا من المسلمين الى عكا مجراً . اما الملك الكامل فاخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق وصارت تدعى بعد ذلك الحين «المنصورة» اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الافرنج واخراجهم من ديار المسلمين اما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الان وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذلك نحو مائتي الف راجل وعشرة الاف فارس . فقدم المسلمون شوانتهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة . فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر انحاء القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان

الى القاهرة . ونودي بالتفكير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحواف الشرقي فاجتمع عالم لايقع عليه حصر . وانزل السلطان على ناحية شار مساح الف فارس في الاف من العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على راس بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر وفي اثناء ذلك اتت النجيدات للملك الكامل من الشام والشرق بتقديمها للملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقها الملك المعظم عيسى . فقتلها الملك الكامل وانزلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الآخرة . وتتابع محيي الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو اربعين الف فارس فحاربوا الصليبيين في البحر والبر واخذوا منهم ست شوان واسروا منهم الفين ونيفاً . فتضعض الافرنج وضاق بهم المقام فحاربهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبله واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا الشوبك والكرك لانهما اصبحتا ملكاً خاصاً له نالهما بالارث من السلطان صلاح الدين وطاب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري فأصر الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك . ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرّاً من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى اغرقت جميع الارضين التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه . ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طناسح فعبرت العساكر عليها وملك تلك الطريق فاضطرب الصليبيون وضافت عليهم الارض

انسحاب الصليبيين من دمياط

وانفق محيي مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفروا بها . فاتصل ذلك بالافرنج فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطلبوا لذلك مقابلاً فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الصليبيون ملك عكا ونائب البابا رهناً واعطى

الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء . فسار الصليبيون الى دمياط وساموها الى المسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد جاهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر . وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين . ولما بلغ الصليبيون مكانهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى ابيه فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم ثم عاد الى المنصورة وجلس في قصره فيها وبين يديه اخواه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب بلاد الشرق وغيرهما من اهله وخواصه وهم في سرور واحتفال وبين يديهم المغنون فامر الملك الاشرف جاريته فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه وجاء الى مصر ليفسد في الارض
اتى نحوهم موسى وفي يده العصا فانقرقهم في اليمّ بعضاً على بعض
فطرب الاشرف وقال لها بالله كرري . فشق ذلك على الملك الكامل واسكتها
وقال لجاريته غني انت . فاخذت العود وغنت :

ايا اهل دين الكفر قوموا تنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا
اعبءاد عيسى ان عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمداً
وهذا البيت من قصيدة اشرف الدين بن حبارة اولها (ابى الوجد الان ايت مسهدا) فاعجب ذلك الملك الكامل وامر لسلك من الجاريتين بجائزة
ثم نهض القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة . وكان من جملة
الجلساء وقال :

هنيئاً فان السعد جاء مخداً وقد انجز الرحمن بالنصر موعداً
حبانا الله الخلق فتحاً لنا بداً ميبناً وانعاماً وعزاً مؤبداً
تهلك وجه الارض بعد قطوبه واصبح وجه الشرك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضم باهله الط سفاة واخفى بالمرآك مزبدا
اقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلاً كما سل الحسام المهندا
فلم ينج الاكل شلو مجدل ثوى مبهم او من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعاً عقيرته في الخافقين ومنشدا
اعبءاد عيسى ان عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمداً
فكانت هذه الليلة بالمنصورة من احسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد

السلطان الى مقر ملكه في القاهرة . وانتقل من دارالوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن في قاعة الجبل واطلق جميع من كان في مصر من الاسرى . وكان منهم من له من ايام السلطان صلاح الدين . وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان اقلعوا عنها ثلاث سنين واربعة اشهر و١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر واربعة وعشرون يوماً

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر اخرج زعماء الثورة منها وطهر البلاد منهم حتى لم بعد لديه من ينازعه في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتماً فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنه من الاغتيال باخويه اللذين لولاهما لم تقم له قائمة في مصر فاغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال باخيه الملك المعظم واستخراج دمشق من يده فقدم هذا الامبراطور الى عكا فاتصل به خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنصيب ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود مكانه . فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على الشوبك وبيت المقدس وغيرهما مما هو من مملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمه الاشرف وكان متسلطاً على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءه حالاً في جيش كبير ولكن بدلاً من ان يدافع عنه ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

اما فريدريك فسار توجاً من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح اولاً صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تحاصفاً انتهى بموت الملك الاشرف . فخلا الجو للملك الكامل واصبح الوارث لـكلا الملكين فاتي سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥هـ ودفن في قلعته . وكان محباً للعظمة والافتخار متمسكاً بالسنة النبوية محباً للعلماء حسن الاعتقاد معاشراً لارباب الفضائل حازماً في اموره لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يبيت عنده كل

ايمة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم كواحد منهم . تولى سلطنة مصر وخفض ضرائبها نحو الثلث واقام فيها الزينة وترى في الشكلين ٧٤ و ٧٥ صور النقود

التي ضربت في ايام الملك الكامل بن العادل على احد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى



ش ٧٤ : نقود الملك الكامل
وعليها اسم المستنصر



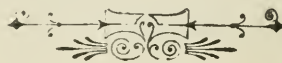
ش ٧٥ : نقود الملك الكامل

الآخرا سم الامام المستنصر بالله الخليفة السادس
والثلاثين من بني العباس . فالاولى نقود ذهبية
ضربت في القاهرة سنة ٦٢٧ هـ والثانية نحاسية
ضربت في حلب

سلطنة الملك العادل بن الكامل

من سنة ٦٣٥ - ٦٣٧ هـ او من ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م

ولما علم المصريون بوفاة الملك الكامل بايعوا ابنه سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك العادل (الثاني) وكان قد استخلفه ابوه على مصر عند ما سار الى سوريا . واقاموا الامير يونس الملقب بالملك الجواد اميراً على سوريا تابعاً لمملكة مصر الا ان امارته هذه لم تطل لانه اتفق في السنة النائية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات . فاتي الملك الصالح الى سوريا وسار الامير يونس الى ما بين النهرين . وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي في اختلاس الملك من اخيه فتنبأ الملك العادل بذلك واوجس خيفة فسار بجيوشه الى بليس ليوقف سير اخيه اذا حاول المجيء الى مصر . فلما وصل بليس نزل فيها وما اصبح الا وهو في قبضة امرائه مقيداً وذلك يوم الجمعة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ وفي الحال خاعوه واستقدموا اخاه الملك الصالح وبايعوه على مصر فدخل القاهرة في ١٠ كعب حافل واصوات الترحاب والدعاء مائة الجوفانتت سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها سنتين



سلطنة الملك الصالح بن الكامل

من سنة ٦٣٧—٦٤٧ هـ او من ١٢٤٠—١٢٤٩ م

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمه فيها فامر السنة التالية بالقبض على الامراء والماليك الذين ساعدوه على خلع اخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر امانتهم نحوه . ثم عزل الملك الجواد يونس من امارته وحظر عليه القدوم الى مصر فاعتاظ هذه المعاملة فالتجأ الى الصليبيين في عكا فقبلوه من اجل ثروته راجين التقرب بواسطته من اسماعيل امير دمشق . وقد كانت تلك فرصة ثمينة لهم فتحالفوا مع امير دمشق والملك المنصور ابراهيم امير حمص وامير الكرك وتعهدوا لهم بمحاربة مصر وقهرها على ان يأخذوا في مقابل ذلك مدن الصعيد والشقيف وطبرية وعسقلان واورشليم . ولما تم التحالف المذكور احتل الصليبيون تلك الاماكن واخذوا في ترميم حصون طبرية وعسقلان ثم اخذوا يهتمون بمحاربة مصر وفي خلال ذلك نشأ في شرقي سوريا مخاوف كثيرة سببها ان قبيلة الخوارزميين لما طردهم جنكيز خان من شرقي اسيا في اثناء فتوحه هناك جاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلاً عقدوا معهم صلحاً وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وامراء سوريا الذين على دعوتهم . فتنجد الخوارزميون واخترقوا سوريا الى ان بلغوا غزة فخاربوا الصليبيين عند اسوارها وامجدهم سلطان مصر . من الجهة الثانية فانهمز الصليبيون فتبعوهم حتى استولوا على غزة وبيت المقدس باسم الملك الصالح . فارسل هذا الى مصر شيئاً كثيراً من الاسرى ورؤوس القتلى . ثم جمع مدداً وسار الى اسماعيل امير دمشق والى امير حمص وحاصرهما وحارب محاربات اخرى شغلته من سنة ٦٤٥ الى ٦٤٧ هـ وشفقت عن خضوع دمشق . اما حمص فكانت لا تزال تدافع الى ذلك العهد فضجر من طول هذه المحاربات فسار بنفسه لقيادة جندها ففاجاه مرض ثقيل وهو تورم في مابضه تكون منه ناصور ففتح وعسر بروءه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق . فجاءه منبئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر واخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت اليهم النجدات من اخوانهم في اوربا وكانت هذه التجربة الصليبية السابعة على الاسلام . وكان يهولاء الافرنج قد خجلوا لكثرة انكساراتهم امام جيش المسلمين بعد ان جردوا اليهم اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً فاقرروا المرة السابعة على تجريد قوة عظيمة يراسها ملك

فرنسا لويس التاسع وهي مؤافة من خمسين الف مقاتل ومعهم من العدة والسلاح شيء كثير وعدد عديد من المراكب المذخرة وضباطها انتخبوهم من اشد رجال اوروبا فلما علم الملك الصالح بقدم الصليبيين وهو في ما تقدم من المرض لم يسعه الا الخروج من دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طنح في اول سنة ٦٤٧هـ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاساحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجري على دمياط ماجرى في ايام ابيه . واعدت اسطولاً من دار الصناعة بمصر وجعل فيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الى جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد بقيادة حامية هذه المدينة الى الامير نضر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ففي صباح يوم الجمعة في ٢٠ صفر من تلك السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جمعوهم وحال وصولهم بعث ملكم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً يقول فيه :

« أما بعد فانه لم يخف عليك اني امين الامة العيسوية كما انه لا يخفى عليّ انك امين الامة المحمدية . وغير خاف عليك ان عندنا اهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونحلي منهم الديار وانا قد ابديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وادخلت علي الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلاً اليك وقاتلك في اعز البقاع اليك . فاما ان تكون البلاد لي فياهدية حصلت في يدي واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيديك العاين تمتدة الي . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تمايلا السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء »

فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب . « بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه اجمعين . اما بعد فانه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد ابطالك فنجن ارباب السيوف . وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولو رات عينك ايها المغرور حد سيفونا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريننا ديار الأواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعض على اناملك بالندم ولا بد ان تزل بك القدم في يوم اوله لنا وآخره عليك فهناك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا

فتكون فيه على اول سورة النحل اتى امر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة (ص) ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبعيك يصرعك والى البلاء يقبلك والسلام »

وفي اليوم التالي حصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين وفي المساء فرَّ الامير نخر الدين لغير داع فتبعته بنو كنانة وخرجوا من المدينة فنبههم الاهلون في الليل على وجوههم لا ياتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فنحلت المدينة للصليبيين فدخلوها بامان في ٢٢ صفر واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والزخائر والاسلحة وعدة الحرب فخرس سلطان مصر بذلك خسارة لاتعوض . فاستشاط الملك الصالح غيظاً وجمع اليه بني كنانة وعنفهم لانهم ازمهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان راينا الامير نخر الدين فاراً ومن ورائه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

وفي ٢٤ صفر عسكر في المنصورة وحصنها الا انه لم يعش بعد ذلك كثيراً فتوفاه الله في ١٤ شعبان وسنه اربعون سنة . وكان رجلاً مهيباً قليل التكلم يهابه من يجلس في مجلسه . وكان عنده عدد من المماليك لم يسبقه اليه احد قبله ولم يوص قبل موته بمن يأخذ السلطان بعده ولم يكن له من البنين الا غياث الدين طوران شاه وكان قد تركه في سوريا وكان من جملة جوارى الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدر مربية غياث الدين فتواطأت مع الامير نخر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها . ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام في اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفي الملك الصالح كتبت امر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة « ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الامير نخر الدين اتابكاً لادارة الاحكام » فبايع جميع الامراء . ثم ارسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد واعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك محتومة بتحم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

اما الصليبيون فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا في اثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي

تحت قيادة الامير فخر الدين فخار بيسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقاً اليها غير النيل . فأتى اليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة . وكان الامير فخر الدين في الحمام فآتته الاخبار بهجوم الصليبيين على المحلة فبغت ونادى في رجاله وخرج للدفاع فادركه بعضهم فقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا مماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانتهت الواقعة وقد اعيى الفريقين التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادماً من سوريا فاشتد عزم المسلمين به وهاجموا النصارى في البر والبحر فاسروا منهم ٣٢ مركباً . فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم طلبوا المصالحة على ان ياخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط . فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفذ زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط . وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ عزموا على التقهقر فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم غربي فرسكور فاستاحموهم وأثنخوا في قتلهم . ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ ألفاً واسروا الملك لوبس التاسع وكثيراً من ضباطه وكبار جيشه وكانوا قبل ان قبض عليهم قد فروا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

سلطنة الملك المعظم بن الصالح

من سنة ٦٤٧—٦٤٨ هـ او من ١٢٤٩—١٢٥٠ م

فلما تأكد الفوز للمصريين شهروا وفاة الملك الصالح ومبايعة الملك المعظم طوران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالاً لمبايعته وانتصاره معاً . ثم عزل كل من كان في يده ازمة الحكومة من المصريين وولى مكانهم رجالاً ممن جاؤا معه من بين النهرين لانه كان اشد ثقة فيهم فشغب الناس وتحذثوا في ذلك كثيراً . وفي غاية محرم ثار عليه المماليك وهموا بقتله وفي جانبهم مملوك يدعى بيبرس . ففر الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد اقامه للحصار في فرسكور . فاحرقوا البرج فاتى بنفسه الى النيل لعله يجد قارباً يركبه فينجو بحياته . فادركه المماليك وقطعوه ارباً ارباً

وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من ملك من الاسرة الايوبية وبموته انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

دولة المماليك الاولى

من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ او من ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

منشأ المماليك ومبدأ امرهم في السلطنة

قد تقدم الكلام عن اصل استخدام المماليك الاتراك في الدولة في ايام المعتصم عند كلامنا عن مبدا الدولة الطولونية . اما السلاطين المماليك فلهم تاريخ آخر في منشئهم وذلك انهم من قفجاق من شمالي اسيا . وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عايتها ولاة من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا . فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة بانوخان حفيد جنكيز خان اخرجوا منها سكان الولايات القزوينية والقوقاسية فتشتت قبائلهم وتفرقوا في القارة . فالحوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وحطوا رحالهم هناك . اما ما بقي من تلك القبائل التائهة فلم يجدوا لهم مقراً يقيمون فيه . فجعلوا يطوفون البلاد باولادهم ونساءهم لا يستقرون على حال وكانت تجارة الرقيق في ابانها فاغتمت تجارها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من ابناء اولئك المساكين اجملهم صورة واقواهم بنية وانورهم عقلاً ويبيعونهم ببيع السلع . اما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا يندجونهم . فاكثر امراء سوريا وملوكها من اقتناء اوائك الارقاء البيض ودعوهم بالمماليك

فالملك الصالح من سلاطين الدولة الايوبية كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولته وخاصة بطانته والمحيطين بدهليزه . ودعاهم بالحلقة اشارة الى انه لا يبرح محاطاً بهم كيفما توجه كما فعل الخليفة المعتصم العباسي بالاستكثار من المماليك الاتراك

وكانت مماليك الملك الصالح صفوفاً يميز كل منهم بعلامات خصوصية يجعلونها على ثيابهم واسلحتهم . فكانت علامة بعضهم الورد وعلامة البعض اشكال الطيور . وكانوا

يتنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فتألف منهم جيش مخصوص تسبب عنه قلاقل في سائر المملكة المصرية . وقد كانوا بالواقع ميالين الى الاستقلال بالحكم لا يمكنهم الرضوخ لسلطان من السلاطين باختيارهم لانهم كانوا كثيري العدد والعديد . وكانت اهم المناصب في ايديهم وامنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقراً لهم حتى اذا ضاقت ذرعا عن الاحاطة بهم ابتنوا بامر الملك الصالح قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس . وقد زادها مركزها الطبيعي مناعة وجمالاً لان النيل يتفرع هناك الى فرعين . وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر اعظم اتساعه فسمي هؤلاء بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزاً لها من دولة المماليك الشراكسة وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوماً فيوماً الى انهم طمعوا بجمع السلطان وتولي الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم آخر سلاطين بني ابوب وكان على ما كان عليه من الاستبداد انفت نفوسهم من اعماله فسعوا بما سعوا الى ان قتلوه على ما تقدم . وكان الملك لويس التاسع والذين معه لا يزالون اسرى في البرج الخشبي الذي التجأ اليه الملك المعظم قبل قتله . ولما اعبت النار بالبرج فر الملك لويس ومن معه ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم واقبلوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم . ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاعي حاملاً قلب الملك المعظم واعطاه الملك لويس وطاب اليه ان يكافئه على قتل عدوه . وقال بعض المؤرخين ولا اراه في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طابوا الى لويس المذكور ان يتولى زمام الاحكام مكانه فرفض

سلطنة شجرة الدر

سنة ٦٤٨ هـ او ١٢٥٠ م

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها . وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامر شجرة الدر بعد ان رات ما حل بالملك المعظم وتبصرت في امر من يجب ان يخلفه فرأت حزب المماليك اعز جانباً من الجميع . ونظراً لكونها من ابناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل في الاسلام

ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع . وكيفية ذلك انها تواطأت مع ابيك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذاً وكان بينهما علاقات ودية منذ ايام الملك الصالح . ويقال انه من قسلة الملك المعظم فتمكنت بذلك التواطؤ من مبايعة جميع الاعيان لها ولقيت بعصمة الدين ام خليل في ١٠ صفر . وكانت توقع بما مثاله « والدة خليل » ونقشت اسمها على النقود بما هو « المستعصمة الصالحة ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة امير المؤمنين » وخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة وهذه صورة الخطبة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح



ش ٧٦ : الحمل المصري

نجم الدين ايوب » وعينت عز الدين اتابكاً عندها لتدير المماليكة . ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وتخفف الضرائب . الا ان جميع هذه المساعي لم تأتأها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها . فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في امر هذه الملكة . فكتب اليهم يقول : « من بغداد لامراء مصر . اعلمونا ان كان ما بقي عندكم

في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « لا افلح قوم ولوا امرهم امرأة » فاستمسك ممالك مصر بهذه الفتوى وثار رفاقاؤهم في دمشق وخلعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول وقتلوا كل من في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر . ومثل ذلك فعل اهل بعلبك وشميس وعجلون . فنشأ بسبب ذلك خصام بين ممالك سوريا وممالك مصر آل الى وقائع حربية . فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقه والجا الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . وهي اول من ارسل الحمل من مصر الى مكة ولا يزال ذلك جارياً الى الآن

سلطنة ايبك الجاشنكير والاشرف بن يوسف

من سنة ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ او من ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م

وفي سنة ٦٤٨ هـ بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالح وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبه الى حزبه واحتفلوا بتوليته السلطنة على جاري عادتهم في الاحتفالات الكبرى فركب هو بشعار وحملت على راسه القبة والطيور ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب وجلس على سرير الملك وجميع الامراء قبلوا الارض بين يديه . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك والصالحين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ . ففاز الصالحيون وطلبوا ان يكون السلطان عليهم من سلاله الايوبيين وقالوا « لا بد لنا من واحد من ذرية بني ايوب نسلطنه علينا » وكان المتكلم يومئذ من الامراء الامير بلباي الرشيد والامير فارس الدين اقطاعي والامير بيبرس ركن الدين البندقاري والامير سنقر الرومي وغيرهم جماعة من المماليك البحرية فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز ايبك بان يحضروا بشخص من بني ايوب يقال له مظفر الدين يوسف من اولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق

فاعتزل ايبك السلطنة وبايع مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن وعمره نحو عشرين سنة فبايعه في ٥ جهادى الاولى وبايعه الناس ولقبوه بالملك الاشرف وتعين

عز الدين اتابكاً له غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشراف الا اسماً
بلا رسم ومن الغريب تأنف هذه السلطنة المزدوجة من احد سلالة الاسرة الايوبية
واحد ممالكها . واغرب من ذلك ان يخاطب لهما معاً

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ
بشار الملك المعظم فدعى اليه اقرباءه امراء الاسرة الايوبية للتعاقد على ذلك وتأكيده
لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا على ان يعيده في
مقابلة ذلك بيت المقدس . فارسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهباً لعقد المعاهدة وانفذ
الى المماليك في مصر مندوباً يطلب اليهم التحويل عن نكث المعاهدة التي عقدوها مع
الصليبيين وكان من مصلحتهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطالبه
واطلقوا عدداً كبيراً من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وارفقوهم بمندوبين
لتجديد المعاهدة . فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الثلاثة الاتي ذكرها وهي :

اولاً ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانياً ارجاع جميع الاولاد الذين كانوا قد اجبروا على الاسلام

ثالثاً التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة

المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوه فوقها فيلاً جميلاً وكان هذا اول فيل ارسل
الى فرنسا ووعده ان يعيدوا اليه بيت المقدس اذا تغابوا على سلطان دمشق . فاقبل
امر تلك الخبايا بسلطان دمشق فانفذ عشرين الف مقاتل تحرجل دون اتحاد الجبشيين
فعتروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فاجدهم الفارس اقطاي
فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا . ثم تشدد السوريون وعادوا بمدد كبير تحت
قيادة شمس الدين لولو صاحب دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسه فالتقوا بالمماليك تحت
قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسة وتقاتلا
فانكسر المصريون اولاً فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهما نحو
سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجاله فقتلاه
وشتت رجاله فاشتد ازرها فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرذمة
قائلة من الجند . اما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضطر
السلطان الى الفرار بنفسه فقتل فلم يدركه فعادا الى مصر فرايا الجيوش السورية قد
دخلت القاهرة وخاف اهلها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا

ان الفقهاء لم يوافقوا على المبايعة شخصياً على انهم لم ينجوا من انتقام ابيك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وابطلوا مبايعة ناصر الدين . اما هذا فلما راي امر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه استئناف الحرب فصالح المصريين على ان يتخلى لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس وقدرىخ من الجهة الثانية ما كان برومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين

خراب دمياط

ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من مسير الافرنج اليها مرة اخرى فسيروا اليها الحجارين والنفعلة فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ ومحيت اثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابنتها بعض الفقراء للسكن في قبايلها ودعوا ذلك المكان المنسية . اما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتيت على انقراض تلك فبلغت جمالاً فائقاً وقد ساعدها على ذلك حسن مركزها الطبيعي واهميته للتجارة وقد بالغ المقريري في وصفها لانها كانت في ايامه ازهى واعمر مما هي الان فنظم في مدحها قصيدة اقتطفنا منها هذه الايات

سقى عهد دمياط وحياه من عهد	فقد زادني ذكراه وجراداً على وجد
وبشنيها الريان بحكي متمياً	تبدل من وصل الاحبة بالصد
فقام على رجليه في الدمع غارقاً	يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الاقدام تحسب انه	لطول انتظار من حبيب على وعد
كان التقاء النيل بالبحر اذ غدا	مليكان سارا في الحجاقل من جند
وقد نزل للحرب واحتدم اللقا	ولا طعن الا بالثقفة الملد

وعظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبه احزابه بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لانصال جبل قرباها بالعائلة الملوكية فاجس ابيك شراً من نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى في التخلص منه وكان الفارس زعيماً لحزب من المماليك الصالحين وكانوا يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشراف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار بعد ذلك ملكاً . اما الفارس اقطاي فقتله ابيك وهو داخل بسراي القاعة ثم خشي الوقوع في شر اعماله فامر باقتال القلعة وابواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الامراء الصالحيون تحت رئاسة بيبرس وتجمهروا على ابواب القلعة وطلبوا الفارس

اقطاي وهم يحسبونه مأسوراً فرمى اليهم براسه من على السور فلما علموا بقتله ارتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار نحو باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شزيمة قبض عليهم واودعوا السجن فلما تخلص الملك المعز ايبك من طائفة الصالحيين قبض على الملك الاشرف والقاء في سجن مظلم فمات فيه تعساً بعد ان حكم سنة وشهراً



ش ٧٧ : تقود الملك الاشرف

وترى في الشكل السابع والسبعين صورة النقود التي ضربت على عهد الملك الاشرف بن يوسف وعليها اسمه واسم الامام المستعصم بالله العباسي . والاشرف آخر من ملك مصر من الايوبيين . وحكم بعض افراد هذه العائلة في

دمشق وحلب وحمص وميافرقين . الا ان هؤلاء لم تمض عليهم عشرين سنين حتى انقرضوا ولم يبق منهم الا فرع واحد في حماه بقي حاكماً فيها قرناً بعد انقراض جميع الدولة وكانت سلطته ضعيفة لانحصارها في تلك الامارة الصغيرة وقد جاء من نسله ابو الفدا المؤرخ المشهور سنة ٧١٨ هـ . وقد نسي كثير من اذكر الدولة الايوبية وفتوحاتها العظيمة ولكننا لم ننس ابا الفدا لانه ترك لنا ذكراً لا يعمى بتأليفه المشهور

واستوزر ايبك شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي احد كتاب الاقباط وكان قد اسلم من ايام الملك الكامل وترقى في الكتابة وكان طبيباً للسلطان الايوبي الخامس مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوي اليسار وارباب العقاقير اموالاً ورتب مكوساً وضمانات سموها حقوقاً ومعاملات ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانوا ينازعونه الملك حسب الجلو قد خلا له وما دري ان شجرة الدر لاتزال واقفة له بالمرصاد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها مع علمه باستقلالها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقييد والسلطان في يده وهي تمن عليه بانها سبب وصوله الى ذلك المنصب فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه ان مكايده النساء اشد وطأة من ملاقات الرجال . فادعى انها عقيمة لا يزوج منها نسلأ فافتنى عليها سراري اخريات فولدت له احدها من ولدأ دعاه نور الدين علي ثم بلغها انه ساع في التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد امسك عن زيارتها فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك فخافت ان تحل محلها

من العظمة فاقرت على الكيد به

وكانت شجرة الدر صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس سكرانة من خمر العجب فلما ضاقت ايبك نزل من القلعة وهو غضبان فبعثت تتلطف به حتى عاد الى القلعة فلاقتنه وقامت اليه وقبات يديه على غير عادة منها وكانت قد اضرمت له السوء فنديت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « اذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طاع الى القاعة اصطالح مع شجرة الدر وراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه اولئك الخدم وبايديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فاغلظ عليها بعض الخدم في القول وقال لها « ان تركناه فلا يبق عليك ولا عيننا » فقتلوه في الحمام خنقاً وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما حملوه واخرجوه من الحمام اشاعوا انه قد اغمى عليه في الحمام فوضعوه على فراش الحمام واشاعت انه مات مصروعاً . وكان ايبك ظلوماً غشوماً صفاكاً للدماء

ولم تجسر شجرة الدر على تعاطي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى اميرين من كبار الامراء وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فايها . وكان قتل ايبك في داخل السراي ايلاً ولم يشع الخبر في القاهرة الى الصباح التالي . فلما علم اصحابه من المماليك بما حل به اضرموا الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور

وكانت مدة ايبك في الاحكام عشر سنوات واحد عشر شهراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك بقلعة الجبيل

سلطنة نور الدين علي بن ايبك

من سنة ٦٥٥ — ٦٥٧ هـ او من ١٢٥٧ — ١٢٥٩ م

فالملك المنصور حالما بويع قبض على قاتلة ابيه وعهد بها الى نساء يته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على راسها وطرحوا جثتها في خندق القاعة فاكلت الكلاب نصفها

ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة
فانتهت حياة هذين الخداعين شجرة الدر وايبك كما رايت فجوزي كل منهما بما
فعل لانهما قتلا الملك المعظم - اما نور الدين علي فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناظرة
وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره

وكان نور الدين قد استقر بالامير سيف الدين قطز المعزي نائب السلطنة بمصر
واتابك العساكر. وكان قطز شديد الباس صعب الخلق فقبض على الوزير شرف الدين
هبة الله وصادره واخذ جميع امواله ثم صلبه على باب القلعة وخلع على القاضي زين
الدين يعقوب بن الزبير واستقر به وزيراً عوضاً عن هبة الله
وفي ايام هذا السلطان بمصر هجوم هولاء الكوالتري على مدينة بغداد وقتل الخليفة
المستعصم بالله وخرّب بغداد. ووصل الخبر الى مصر انه حامل على بلاد الشام ومصر
فخافوا وعقد قطز مجلساً من العلماء والقواد اقرؤا فيه ان الحالة تقتضي ان يتولى
السلطنة رجل حازم. فانزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ بعد ان حكم سنتين
وبايعوا سيف الدين قطز وكان نور الدين طائش العقل يابى بالحماس مع الغلمان

سلطنة المظفر سيف الدين قطز

من ٦٥٧ - ٦٥٨ هـ او من ١٢٥٩ - ١٢٦٠

وسيف الدين هنا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود
شاه ابن اخي ملك خراسان فتح التتر بلادهم فنشئت اسرته. ولما تولى سلطنة مصر لقب
بالمملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وامر بقتله فحاول وصيه
شرف الدين المدافعة عنه فصلبه على باب القلعة

ثم لاح له ان دمياط بعد ان دكت اسوارها لم يبق ما يعيق مراكب العدو عن
المرور في النيل فامر بدم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فمضوا وقطعوا
كثيراً من الحجارة والقوفا فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الى دمياط وهو على
ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فتنقل البضائع منها الى
الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل او رمل متجمع هناك

مخاربة التتر

وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائداً نتري ناقلاً منشوراً من هولاء ملك المغول حفيد جنكيزخان وكان التتر قد انتشروا في جميع اسيا الشمالية الشرقية . وكان هولاء قد غزا العراقيين بجيش عظيم واستولى على مدينتي الموصل وحلب وقتل الخليفة المستعصم بالله كما تقدم . ونزل هولاء كوعلى سوريا ففتح دمشق والسواحل البحرية حتى قصد مصر فبعث اليها منشوراً مضمونه : من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الاعظم ونعت فيه نفسه بالفاظ معظمة وذكر في الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على اهل البلاد منه ولا سيما ما فعله في بغداد وما جرى على اهلها منه الى ان قال « يا اهل مصر اتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم مني ولا تقاتلونني ابدأ فتدموا »

فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوح هذا التتري وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة . غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر واثقة النصر فاستخفوا بقول هولاء واصرروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيوشه نحواً من ستمائة الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصحيح الاملاك وزكاتها واحداث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ تلك التراكات الاهلية فكان يجمع منها ٦٠٠٠ دينار سنوياً . ثم سار من القاهرة للملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ هـ وما كاد الجيشان يلتقيان حتى انصل بهولاء كوخبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالاً ليطالب بحقوق الوراثة . فعاد تاركاً في سوريا نحواً من عشرة الاف من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيه ونائبه كتبغا لمحاربة قطز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان وحصلت بينهما واقعة كبيرة شفت عن هلاك كتبغا وكل رجاله والتبض على ابنه . وغنم المصريون غنمية كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها محتوي على ائمن ما نهبه هولاء كومن اغنى المدن في اثناء فتوحه . فعاد الملك المظفر الى القاهرة ظافراً ولم تتم سعادته لان المنية كانت في انتظاره على الطريق فقتله بعض رجاله الذين كانوا يتربصون فرصة لقتله فتمكنوا من ذلك يوم السبت في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ بعد ان حكم ١١ شهراً و١٣ يوماً

وتفصيل ذلك انه بينما كان عائداً بجيشه الى القاهرة مرّاً من امامه ارنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار على اثره في عرض الصحراء حتى امعن فيها ثم عاد وحده ولا صيد معه فتقدم للملاقاة احد امرائه المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري فلما دنا منه هم

نيده كانه يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديه وطعنه بالاخرى في قلبه فسقط صريعاً
يخبط الارض . فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معه على هذه الفعلة فرفعوا جثة
سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خائف نخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموسى لحام
فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد . وكان الاتابك اذ ذاك في الصالحية مع
السواد الاعظم من الجيش فسار اليه قتلة قطوز واخبروه بما فعلوا فقال لهم « من
منكم ضربه الضربة الاولى » فاجاب بيبرس « انا هو » فقال له « فاحكم مكانه »
فبويج بيبرس للحال ولقب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابده بالملك
الظاهر واذاف اليه ابا الفتوح وكان يلقب ايضاً بالعلائي وبالبنقداري نسبة الى سيده
الذي كان يدعى علاء الدين بنقدار

سلطنة الظاهر بيبرس البنقداري

من سنة ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ او من ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

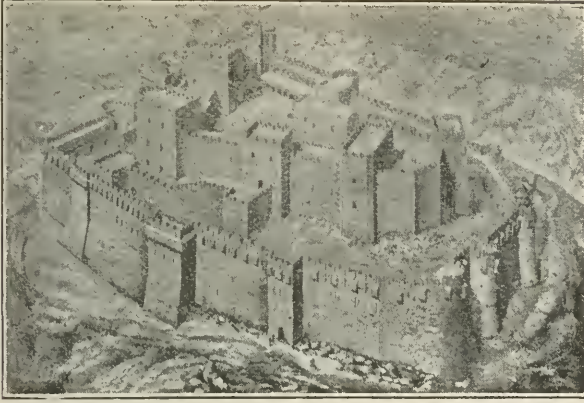
ولما تمّ لبيبرس امر السلطنة سار الى القاهرة واستوزر بهاء الدين بن حنا واتخذ
بلباي (بيلي بك) الخازن دار وهو من اعز اصدقائه بل هو صنيعته وجعله نائب السلطنة وصار
صاحب الحل والعقد فيها . واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمّنهم وضمهم اليه واطلق
من في السجون جميعاً بغير استثناء واكثر من العطايا لرجالهم وابطل كثيراً من
الضرائب التي كان قد ضربها سلفه كتصحيح الاملاك وتقويتها واخذ زكاة ثمنها في كل
سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك . واعلن امره هذا على اسان الخطباء في المنابر
على انه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية . فاهل الشام شقوا عصا الطاعة وبيعوا
الامير سنجر صاحب حلب ولقبوه بالملك المجاهد وعضدهم على ذلك التتر اصحاب
هولاكو . فسار بيبرس حالاً الى دمشق لاختاد الثورة فحارب التتر وتغلب عليهم في ٣
وقائع متوالية . فتنظت الدمشقيون من المساعدة فسلموا المدينة فدخلها وانتقم منها شر
الانتقام ومازال حتى اخضع بلاد الشام . ولما عاد الى القاهرة اخذ في اصلاح الداخلية
الحلفاء العباسيون بمصر

وفي سنة ٦٥٩ هـ قدم القاهرة رجل من بغداد قال انه من ذرية بني العباس واسمه
الامام احمد بن الخليفة الظاهر بامر الله بن الناصر بن المستنصر . فلما بلغ الملك الظاهر
قدومه خرج الي لقاءه . فلما وصل الى المطرية تلاقي هناك هو والامام احمد المذكور

وكان الامام احمد هذا اسمر اللون وامه ام ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ونزل الامام احمد عن فرسه ايضاً وتعانقا ثم ركبا ومرّا في القاهرة ودخلا من باب النصر فزينت له القاهرة . وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصل الى القاعة طلع الامام احمد مع السلطان الى القلعة فانزله السلطان في قاعة الاعمدة فاقام بها اياماً . ثم ان الملك الظاهر اراد ان يثبت نسب الامام احمد بانه من ذرية بني العباس لان الخلافة كانت خالية من حين قتل الخليفة المستعصم فعقد مجاساً بن القضاة والعلماء والمشائخ وأثبتوا نسبه فاقامه خايفة في القاهرة ولقبه بالمستنصر بالله . فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين وقد ذهب نفوذهم الا من الوجه الديني وهو الذي كان الظاهر في حاجة اليه لتأييد سلطانه . فلما بويع المستنصر ثبت الملك الظاهر في منصبه . ووافق نزول العباسيين في القاهرة قحط عم سائر القطر فتشاءم الناس بجلولهم . أما بيبرس فلم يأل جهداً في استجلاب الاقوات من جهات سوريا وغيرها وتفريقها في الناس فانفذ بلاده من ضيق عظيم

ثم اراد بيبرس ان يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستنصر بالله جنداً كبيراً لخراج التتر منها وتسليمها للخليفة المستنصر فلاقاهم التتر في الطريق فحاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بأمر الله . ثم الجىء بيبرس الى تجريدة أخرى انتقاماً من فتح الدين رئيس قلعة الكرك . وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليه سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند فتح الدين وقاية لها مما كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ففتك بها بغير وجه الحق . فاتصل ذلك بيبرس وكان قد تولى امور مصر فتأرفيه حب الانتقام . فجرد الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين . ثم تمكن بيبرس من القبض على فتح الدين احتيالا وسامه الى امرأته فقتلته على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر . فامست الكرك بغير رئيس . فسلمت وصارت جزءاً من مملكة مصر

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمناهضة الصليبيين وكانوا لا يزالون حاكمين في اماكن كثيرة من فلسطين فدارت الحرب بينهما سجالاتاً مدة سنتين (سنة ٦٦٣ و ٦٦٤) وانتهت باستيلاء بيبرس على قيصرية . وهو محاصر عكا الحبيء الى المسير لمحاربة التتر وكانوا قد استولوا على دمشق بمساعدة اهل ارمينيا وهددوا



ش ٧٨ : قلعة الكرك لما فتحها بيبرس

سأر سوريا . فاغفل حصار عكا وسار فلما وصل الى دمشق لم يجد عدواً لان هولاء كو
كان قد مات وتشتت جيوشه فسار بيبرس الى ارمينيا وكان عليها ملك مسيحي يقال له
هينون فاستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها وتابع فتوحه الى الاناضول فهاجمه
ربكا خان بن هولاء كو وولي عهده فاعاده على اعقابه فرجع الى سوريا وفتح صفد وذبح
اهلها . ثم رجع الى عاصمته بعد ان فتح ايلة على البحر الاحمر

الآداب العمومية

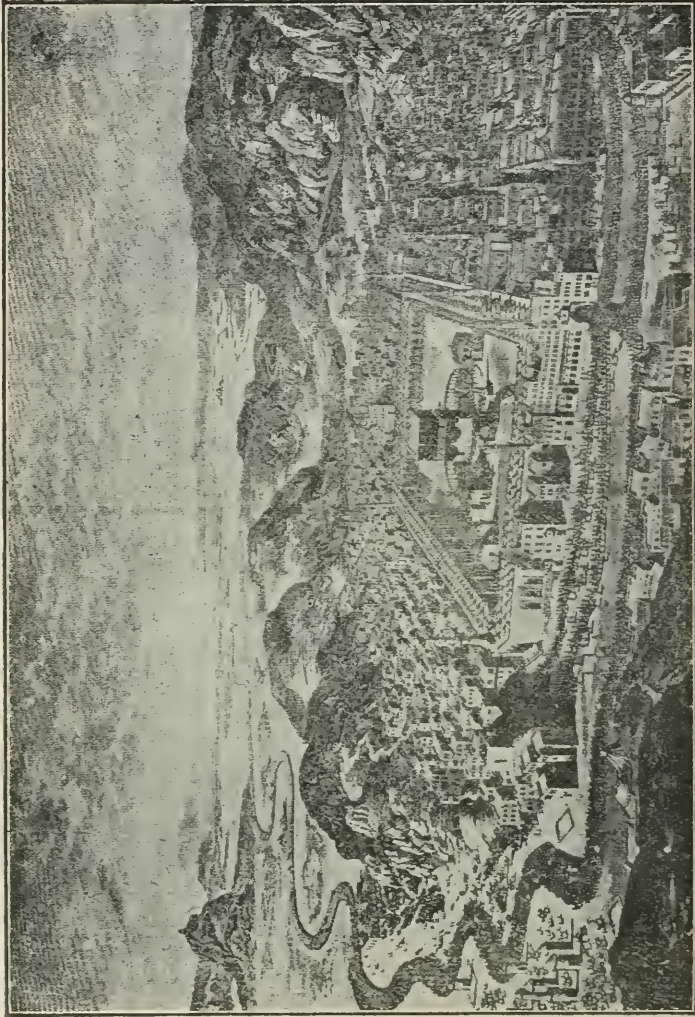
وقضي بيبرس سنة ٦٦٥ هـ في القاهرة يستعد لحرب جديدة وينظم داخلية فابطل
ضمان الحشيش وجهاته وامر باراقة الخمر وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات
ومنع الخانات والخواطىء بجميع اقطار مملكة مصر والشام . فظهرت من ذلك البقاع
وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال احد الشعراء المعاصرين :

ليس لابليس عندنا ارب غير بلاد الامير مأواه
حرفته الخمر والحشيش معاً حرمتا مأوه ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر بمنع
النساء الخواطىء من التعرض للبعاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب اهلها
جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعاً
قرئ في المنابر وعلم بعد ذلك ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز
يشرب المسكر فشنقه تحت قلعة الجبل . ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في

ابطال هذه المنكرات الا لعلمه يقيناً ان استعمالها يورث الفقر والذل ويحمد الهمة
ويضعف عزة النفس ويغضب الله

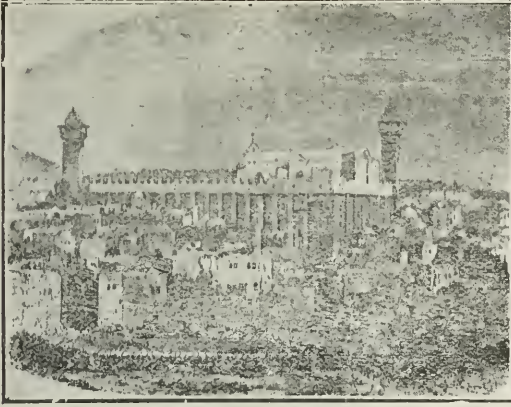
وفي ٦٦٢ هـ بنى الملك الظاهر دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها
لعرض العساكر في كل اثنين وخميس . وكان ينظر في امر المتظلمين بنفسه فاذا كان
لاحد مظلمة يأتي راساً ويشكوها للسلطان وهو يأمر بصرفها



ش ٧٩ : مكة المكرمة

وفي سنة ٦٦٦ هـ استأنف الحرب مع فلسطين فاستولى على يافا والشقيف وطبرية
وارصوف وانطاكية وبقراس والقرين وصافيتا ومرقية وايباس وختم ذلك بفتح بغداد ثم
احب بطريقه الى مصر ان يمر بالحج الى مكة مع ابنه بركة خان فمر بحلب فطرد التتر منها

ثم زار قبر ابراهيم الخليل في حبرون . وسار لزيارة بيت المقدس . ثم عاد الى مصر وقد اتم سياحته الجهادية والدينية معاً



ش ٨٠ : مسجد الخليل في حبرون

واصبح امر الشام يهيمه فاشتغل في تسهيل المواصلة بينها وبين مصر فرتب خيل البريد فكانت اخبار البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين^١ وقيل انه انفق على ذلك مالا كثيرا حتى تم له ترتيبه وكانت خيل البريد عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق وفيها خيول جيدة وعندها رجال يعرفون بالسواقين ولا يقدر احد يركب خيل البريد الا بمرسوم سلاطاني وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه المسافرون من زاد وعلف وغير ذلك

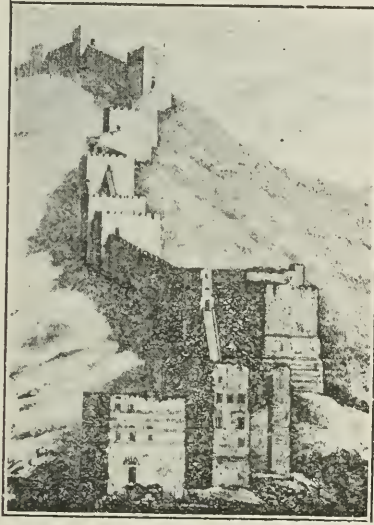
وكانت طريق الحج من مصر الى مكة عن طريق صحراء عيذاب يركبون النبل من ساحل القسطنطين الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون الى جدة ساحل مكة وهكذا يعودهم الى مصر . وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق ايضا وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان امينة المسالك . وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى السنة التي زار فيها السلطان الملك الظاهر مكة وكساها وعمل لها ، فتأخرا فصارت طريق الحج برأ من ذلك الحين . أما التجار فزالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ هـ ومن ذلك الحين قلت اهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة

وفي سنة ٦٧٠ هـ سار بيبرس لمحاربة من بقي من طائفة الباطنيين . وكان هولاء
قد اهلك السواد الاعظم منهم في جهات العراق . فافتتح بيبرس قلعة الاكراد وقتل
من فيها من الباطنيين فتفرقت جموعهم وهكذا كان انقراض دولتهم
وفي خلال ذلك عاد التتر الى سوريا وحاصروا البيرة فتجدد اليهم بيبرس وسارت معه
فرقة تحت قيادة الامير قلاون الانفي فالتقى الجيشان عند البيرة واشتدت الحروب بين
المسلمين والتتر وانتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على البيرة . ثم ساروا الى ارمينيا
ففتحوها واغتموا منها غنائم كثيرة ثم عاد بيبرس الى مصر ففرشوا له القاهرة بالبسط
والسجاد الثمين احتفالاً بعوده ظافراً وحملت القبة والطير على راسه وقد قرض الباطنيين
وغلب التتر

ثم ان ابغاخان بن هولاءكو خان قدم سوريا وحاصر البيرة ثانية فلاقاه الامير قلاون
بفرقة من الجيوش المصرية وارجمه على اعقابه . فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته
زوجة لابنه ليكون ابنه في المستقبل آمناً في حى حميه . فامنت سوريا بعد هذه
الانتصارات ولم تعد تخشى اغتياً فانفذ بيبرس الامير اق سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ هـ
لافتتاح بلاد النوبة فافتتح اصوان بعد ان استولى على جميع مصر العليا
موت الملك الظاهر ومناقبه واعماله

وفي سنة ٦٧٥ هـ اتت الاخبار بان التتر زحفوا على البلاد فخرج اليهم السلطان
وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتر فكسروهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتر
ابغاخان فلما انكسر هرب فقبه السلطان الى نحو الابليستين فكانت بينهما هناك وقعة
عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو مائة الف انسان فانكسر ابغا وهرب فقبه السلطان
نحو زبيد . ثم رجع السلطان من هناك الى قيسارية وحاصر اهلها فارسلوا يطلبون
منه الامان فارسل لهم الامان على يد الامير يسري فساموا المدينة فدخلها
السلطان وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً . فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين وحكم
بين الناس واقام بها اياماً ثم رحل الى دمشق وحلب سنة ٥٧٦ هـ فتوعك واخذته الحمى
فسقاه الحكماء مسهلاً فافرط في الاسهال وثقل عليه المرض فرحل من حلب وقصد
الدخول الى دمشق فمات في بعض ضياعها . فلما مات كتم موته عن العسكر وحمل في
حفنة الى ان دخل دمشق فدفن هناك ليلاً . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشر
الحرم سنة ٦٧٦ هـ ومات وله من العمر نحو ستين سنة وكان ملكاً عظيماً جابلاً مهيباً
كثير الغزوات خفيف الركاب يحب السفر والحركة في الشتاء والصيف وكان مشهوراً
بالفروسية في الحرب وله اقدام وعزم في القتال وله ثبات عند التقاء الجيوش وكان يلقب

باني الفتوحات لكثرة الفتوح في ايامه وكان له موكب بمصر وموكب بالشام وكان شعاره الاسد اشارة لشجاعته وقوة بأسه وكان كريماً سخياً على الرعية باسط اليد يفرق الغنائم التي تحصل من الفتوح على الرعية ترغيباً لهم في القتال وقت الحرب وكان محباً لجمع الاموال كثير المصادرات لاجل الغزوات والتجاريد وينفق ذلك على العسكر. وكان حسن الوجه طويل القامة مستدير اللحية الغالب في لحيته البياض . وكان مبعجلاً في موكبه كفوفاً للسلطنة منقاداً للشريعة يحب العلماء والصالحين ويحب فعل الخير وله برٌّ معروف وآثار اهمها رده الخلافة لبني العباس بعد ان كادت تنقطع عنهم



ش ٨١ : ا-وار انطاكية

وخلف من المذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد ملك بعده وسلامش وهذا ملك بعده ايضاً والمسعود خضر . وترك من البنات سبعا . وبما استولى عليه من ايدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبقراس والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحاب . وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وترسوس وادنة والمصيصة وغيرها من المدن في بر الاناضول . وصار الي يده مما كان في يد المسلمين دمشق وبلبيك وعجلون وبصرى وصرخد والسلط وحمص وتدمر والرحبة وتل ناشر وصهيون وبلاطس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة واخواتي والراففة ومصيف والقلعة والكرك والشوبك . وفتح بلاد النوبة وبرقة

ومن اعماله الماثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة بيت المقدس وزاد في اوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبيبة وبعلمك والساط وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص . وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وقد جعله الفرنسيون عند مجيئهم الى مصر قلعة . وهو البناء القديم في شارع الظاهر جمعاته الحكومة مخازن للاقوات ويعرف بجامع الظاهر . وحفر خايج الاسكندرية القديم وبارسه بنفسه وبنى هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة واعاد اليه الخطبة وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر وبنى القصر الابلق في دمشق . ومن آثاره في القاهرة ايضاً قناطر السباع قرب ميدان الجبل والبرج الكبير في القلعة

وكان محباً لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشأ ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له ايضاً الميدان الاسود وميدان العبد والميدان الاخضر وميدان السباق وكان شاغلاً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي

تحت الجبل الاحمر . وبنى فيه مصطبة سنة ٦٦٦ هـ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية . وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك . فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظاهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي امير ولا مملوك الا وهذا شغله . وما برح من بعده اولاده ومن بعدهم يمارسون في هذا الميدان جميع الالعاب الحربية

وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال وقام يسلب الاهالي من المال فوق ما اعتادوا دفعه من



ش ٨٢ : نقود الملك الظاهر يبرس

الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعده كثيراً في النفقات
هذه هي اعمال الملك الظاهر بيبرس قد تركت له اثرأ يبقئ ذكره دهوراً طووالاً
وترى في الشكل الحادي والثمانين صور نقود الملك الظاهر بيبرس وعليها
صورة اسد

سلطنة بركة خان بن بيبرس

من سنة ٦٧٦ — ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٧ — ١٢٧٩ م

فلما توفي بيبرس اقر الامراء على مبايعة ابنه البكر محمد ناصر الدين بركة خان .
ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة طويلاً على ان يكتموا وفاة بيبرس لئلا يطمع
فيهم العدو فارسوا جيشه سرّاً الى دمشق واشاعوا هناك انه مريض فنقلوه الى القاهرة
في محفة ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت وحالما ادخلوا الجئة الى القلعة
بايعوا ابنه البكر بركة خان ولقبوه بالملك السعيد . واقاموا الامير بلباي اتابكاً
وكان بلباي في الاصل مملوكاً ابتاعه بيبرس بثمن نجس الا انه ارتقى في خدمته حتى
صار امين خزائنه ونائبه كما تقدم . ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة ان
يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة . وكان للملك السعيد ثقة كبرى في بلباي حتى انه
التي اليه كل مهام الدولة فسعدت مصر في بادئ الرأي لكنها ما لبثت ان تعكر كأس
صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم . ولم يكن الملك السعيد يثق باحد من امرائه
ليعهد اليه مهام الامة . وكان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد
ذلك فنفر منهم فوقع اختياره على اق سنقر فاتح النوبة فولاه الاتابكية وبعد يسير خنقه
في احد ابراج الاسكندرية فتباعد الامراء عن هذا المنصب وارادوا بالسلطان سوءا
لكنهم شغلوا عنه بثورة الدمشقيين . وذلك ان شرف الدين سنجر الملقب بالاشقر كان
والياً على دمشق تحت رعاية بركة خان فادعى الملك لنفسه فبايعه اهلها ولقبوه بالملك
الكامل فاسرع بركة خان الى دمشق ونزل بجيشه في القصر الابلق الذي كان قد بناه
ابوه وبعد التحري عن اسباب تلك الثورة علم انها دسيسة من امرائه . فلما علم هؤلاء
بظهور امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المهايك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتبعهم
بركة خان فامتنعوا عليه وعجز عن قهرهم لكثرتهم فالتجأ الى قاعة الجبل فحاصروه
فيها وشدوا عليه الحصار فسلم فأنحط قدره عندهم وهموا بقتله فمنعهم الخليفة الحاكم

بامر الله العباسي لكنهم اصروا على خلعهم نخلعوه في ربيع اول سنة ٦٢٨ هـ بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر فبعثوه الى قلعة الكرك منفياً وجسوه فيها ثم عادوا الى قتله فانفذوا اليه من يقتله ثم بلغهم انه سقط عن جواده ومات

سلطنة سلامش بن بيبرس

من سنة ٦٧٨ — ٦٧٨ هـ لو من ١٢٧٩ — ١٢٧٩ م

فبايعوا اخاه بدر الدين سلامش وسنه سبع سنوات وبضعة اشهر ولقبوه بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفي وصياً عليه ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعه فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور وهو لقب ثاني سلاطين هذه الدولة

سلطنة الملك المنصور قلاون

من سنة ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ او من ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م

وهو من مماليك اق سنقر الكامي وقدمه الى الملك الصالح فاعتقه سنة ٦٤٧ هـ فلما تولى السلطنة قرب انصاره وانعم عليهم واستوزر نحر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وبعث الامير طرناطي الى دمشق لاجماد ثورة اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاه الملك الكامل ودافع دفاعاً حسناً ولكنه اله في سنة ٦٨٠ هـ الى التسليم فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة واودعوه سجناً مظالمًا وولوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

وفي سنة ٦٨١ هـ عاد التتر الى الشام بجيشين الواحد تحت قيادة ابغا خان والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيه منجوتيمور (منكوتمر) فخار بهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجوتيمور وفر ابغا خان الى حمدان فسمه اخوه الثالث تيكودار اوغلان وتولى الحكم بعده ثم اعتنق الاسلام ولقب باحمد خان . وكان اسلامه وسيلة لحقن الدماء لانه خابر قلاون مخابرة سلمية وتعهدا على حفظ الولاة . وما زال ذلك مرعياً الى ما بعد قتل احمد خان وتولية ارغون مكانه . فكانت مصر في خلال ذلك

مطمئنة في خارجيتها فنشأت القلاقل في داخليتها بسبب تمرد بعض العامة . فغضب السلطان غضباً اعمى بصره وامر بمالئكه ان يضعوا السيف فيهم ولم يعد يميز المجرم من البريء فساق الجميع بعضا واحدا واعمل فيهم السيف ثلاثة ايام متواليه حتى غصت الاسواق بجثثهم رجلاً ونساء واولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غيظه ويدينون له وجه عسفه . فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فندم لامتزاجه عليه وتكفيراً لذلك امر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام . ومن اجل ذلك ابضاً بنى المستشفى الشهير بالبيمارستان المنصوري بخط بين القصريين (في شارع النحاسين) وكان في الاصل قاعة لست الملك بنت العزيز بالله ولها تاريخ ذكره المقرئ في صفحة ٤٠٦ ج ٢

ملابس الممالك

وكان الممالك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جاهلهم كانت كلواتهم (للرأس) من الصوف الازرق الغميص وهي مضربة عريضة بغير شاش . وكانوا يربون ذوائب من الشعر خلفهم يجعلونها في اكياس حرير احمر او اصفر وكانوا يشدون في اوساطهم بنوداً بعلبكية عوضاً عن الحوائص . وكانت خفافهم برغالي اسود . وكانوا يشدون فوق قماشهم ابريم جلد وفيه حلق نحاس . وفي ذلك الابزيم ملعقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة . وكانت لهم مناديل من الخمام قدر فوطة كبيرة لمسح ايديهم . فلما تولى الملك المنصور قلاون امر العسكران يغيروا هذه الملابس الشنيعة ويدخلوا في الهئية المطبوعة . وكانت خلع المقدمين من العنتابي فامر لهم بالخلع الحامل الاحمر والاخضر بالفرو والسمور . ثم سار الى حصن مرقد محاصره ٣٣ يوماً فسلم . وفي سنة ٦٨٤ هـ افتتح قلعة الكرك وقبض على سلامش لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر فقاده الى القاهرة وادعه سجناً مظالم مكث فيه الى ما بعد وفاة قلاون

موت قلاون وآثاره

ولما اطمان باله في داخلته عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولي حتى اقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ فبقي على دستها زمناً طويلاً . ثم اوصى قلاون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح (الثالث) واخذ منذ ذلك الحين في تدريبه على الاحكام وادارتها على ان يستخلفه عليها اذا طرأ عليه ما يستدعي غيابه عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تقديره لان علياً اصيب بحمي شديدة ذهبت بجيانه سنة ٦٨٧ هـ فحزن قلاون حزناً شديداً وكثرت هواجسه حتى كره الاحكام . ثم رأى ان

يجرد حملة لافتح طرابلس الشام تساية له عن هواجسه . وكانت في حوزة الصايدين منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها . فسار اليها قلاون وافتتحها وذبح من فيها واخرها ثم اعاد بناءها وجعل عليها حامية ولما عاد الى القاهرة جاءه وفد من قبل الفونس ملك ارغون عقدوا معه معاهدة في ١٣ ربيع اول . غير ان ذلك لم يكن ايشغله عن احزانه وما زال كثيراً حتى قضى يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنائزه احتفالاً حضره جمع غفير من جهادية ومليكية وشيعوه الى البيمارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر و ٦ ايام



ش ٨٣ : بقايا البيمارستان المنصوري

ومن آثاره الباقية الى هذا اليوم جامع الشهرير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين شمالاً بعد ان تجاوز خان الخليلي ولا تزال هذه الابنية قوية العماد تجلي فيها العظمة والقوة الا البيمارستان فانه اصبح اقرب الى الاثر من العين . وقد زرت مقام هذا السلطان فرأيت فيه كما رأيت في غيره من امثاله جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض قد جاؤا يطلبون الشفاء وهم يأتون غالباً في ايام السبت ولهم في ذلك اساليب مختلفة . فرايت بعضهم يضع الطفل

المريض تحت المحراب وبجلاس مصلياً متضرعاً وآخر يأتي بقطعة من الليمون الحامض يمرح بها جدار المحراب او ما يقاربه ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء . ورأيت آخرين تفعلون غير ذلك

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ربع القامة دري اللون . وكان قليل الكلام بالعربية . وكان شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب مغرماً بمشترى الممالك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر الف مملوك وقيل سبعة آلاف مملوك . وما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمارة البيمارستان المذكور

وقد كان قلاون سبباً لاجراج السلطنة من نسله كما كان الملك الصالح الايوبي باستكثاره من الممالك الشراكية حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته وكان يلقب بعضهم بالالفي اي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك



وترى في شكل ٨٤ صورة نقود الملك المنصور قلاون مضروبة في حاب

ش ٨٤ : نقود الملك المنصور قلاون

سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك اتقاهر بيدرا

من سنة ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ او من ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م

وتولى بعده على سلطنة مصر ابنه البكر صلاح الدين خليل واقتب بالملك الاشرف فاستوزر علم الدين سنجر وجرى للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠ هـ حتى اتى عكا فحاصرها . وكانت الحصن الوحيد الذي بقي لهم فخصنوه تحصين اليأس لكنه لم يمنع على جيوش الساميين فهدموه ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً . وفي سنة ٦٩١ هـ عاد الى القاهرة واخرج سلامش منفيّاً الى القسطنطينية لانه كان سبباً للقتل . ثم سار الى ارمينيا وفتح ارضروم فذاع صيته حتى ارهب اعداءه فعاد الى القاهرة ليستريح من الاسفار فمأجأته المنية على فراشه . وسبب موته ان احدى نساءه تواطأت مع مملوك له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في جوفه في شهر محرم سنة ٦٩٣ هـ بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام . والى جهاز كس الخليلي احد المتسوين اليه ينسب الخان المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاهرة . وكان في مكانه قبل

بنائه مدافن الخلفاء الفاطميين فبني على انقاضها . وازاد الغوري الي بنائه في القسم العلوي كما يفهم ذلك مما هو مكتوب فوق مدخله . وفي الخان تباع الآن جميع انواع الاقمشة السورية والهندية وما شاكل من طنافس ومطرزات واوان نحاسية وغيرها . ومن آثاره البنائية قاعة الاشرفية التي بقلعة الجبل والمدرسة التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة .

وبويع بعده بيدرا وا لقب بالملك القاهر الا انه لم يحكم الا يوماً واحداً ثم قتله المماليك اخذاً بثار ساطنهم السابق . وبايعوا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وعمره ٩ سنوات وا لقب بالملك الناصر

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولاً)

من سنة ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ او من ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م

وسلطنة هذا الملك اكثر اهمية من سلطنات سلفائه لكثير ما حصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة . ونظراً لصغر سنه اقاموا له وصياً يدعى زين الدين كتبغا الملقب بالمنصورى لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاون . فما استتب له الوصاية حتى تآقت نفسه الى السلطة وكان معه وزير آخر هو علم الدين سنجر وكانت تحدته نفسه بمثل ذلك ايضاً فاختلفاً وتخاصماً وانتهت المحاصمة بقتل سنجر . ولما خلا الجو لكتبغا ولم يعد من ينازعه عمد الى الملك الناصر نخلعه وتولى مكانه سلطاناً على مصر ونفاه الى الكرك ولم يحكم هذه المرة الا سنة واحدة

سلطنة الملك العادل كتبغا

من سنة ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ او من ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ هـ بويع كتبغا وا لقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب به قبله سلامش بن بيبرس الاول واستوزر نجر الدين وزير قلاون . ولما كان هذا الاختلاس داعياً لتراكم المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها فداهمها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءاً كبيراً من اهلها ثم جاءت الحرب تمة لهذه الضربات وذلك ان قبيلة المغول التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولوكو

اصبحت بعد وفاته تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربنده بن ايغاي فتخوفت منه طائفة من رجاله عرفوا باسم الاويراتية وفروا من بلاده الى نواحي بغداد . فزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آت بهم الى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هناك وبعثوا الى نائب حلب يستأذنونه في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فأذن لهم وعبروا الفرات الى مدينة بهنا فاكمهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوقة والضيافة فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبغا فاستشار الامراء في ما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام اكبرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثمائة من اكبرهم الى القاهرة وفرق الباقون بالبقاع العزيزية وبلاد الساحل . ولما قرب الجماعة الى القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقاءهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للفرجة عليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طبخانة واجرى عليهم الرتب وازلهم بالحسينية . وكانوا على غير الدين الاسلامي فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بانواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم . وكان اذ ذلك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فضاعفت المضرة واشتد الامر على الناس . وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف عنا العذاب فانا قد تلفنا في الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانصقتنا وانطبختنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سنة ٦٩٥ هـ لم يصم احد من الاويراتية فأعلن السلطان بذلك فابى ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد . وكان مراده ان يجعلهم عوناً له فبانغ في اكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعه بهم لان الاويراتية كانوا من مواطني كتبغا وكانوا مع ذلك جميلي الصورة فاقتن بهم الامراء وتنافسوا فيهم وبالغوا في تفريرهم حتى بعثوا الى البلاد الشامية استجلبوا طائفة كبيرة منهم فتكاثر نسايم في القاهرة . واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين أهل الدولة حتى آل الامر بسببهم وباسباب أخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا وذلك في صفر سنة ٦٩٦ هـ



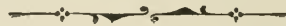
سلطنة الملك المنصور لاجين

من سنة ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ او من ١٢٩٦ - ١٣٩٩ م

وبوبع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون فاذن لكتبغا ان يخرج الى صرخد في سوريا وقبض على طرغاي .مقدم الاويراتية وعلى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسيجنهم بها . ثم قتلهم وفرق جميع الاويراتية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار اهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن . وما برحوا ايضاً يوصفون بالزعاة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان . وكانوا يعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ويؤثر عنهم حكايات كثيرة . وكانت الحسينية قد فاقت عمارتها على سائر اخطاط مصر والقاهرة

اقطاعات القاهرة

وكانت ارض مصر ٢٤ قيراطاً يختص السلطان منها باربعة والاجناد بعشرة وكان الامراء يأخذون كثيراً من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء . وكان يصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتشور بها الفتن وتمنع منها الحقوق الديوانية وتصير طعمة لاعوان الامراء ومستخدميههم ومضرة على اهل البلاد التي تجاورها . فعند ما تولى الملك المنصور لاجين راك البلاد ورد تلك الاقطاعات على اربابها واخرجها باسرها من دواوين الامراء وجعل للامراء والاجناد احد عشر قيراطاً وافرد تسعة قراريط ليخدم بها العسكر او يقطعهم اياها . ثم رتب اوراقاً بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط واقتصد قيراطاً لزيادة ما عساه يطالب زيادة لقلة متحصل اقطاعه . وافرد لبطانته عدة اعمال جليلة . فتنكرت قلوب الامراء وحقنوا عليه وما انفكوا حتى قتلوه في ١١ ربيع آخر سنة ٦٩٨ هـ فبقي كرسي السلطنة خالياً ٤١ يوماً تمكن في خلالها الامير سيف الدين طقجي من دعوة الناس الى حزبه فالتف عليه جماعة كبيرة فبايعوه ولقبوه بالملك الفاهر كما لقب بيدرا قبله وكان حظه من الملك كحظ سمية فلم يحكم الا يوماً واحداً ثم زجه المماليك



سلطنة الملك الناصر بن قلاوون (ثانية)

من سنة ٦٩٨ هـ — ٧٠٨ هـ او من ١٢٩٩ — ١٣٠٨ م

فكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقروا على استخدام الملك الناصر بن قلاوون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر لبيايعوه . فبعثوا اليه وفداً يباغوه ذلك القرار فقدموا اليه في الكرك . وكانت والدته عنده فلم تسمح بسفره معهم لئلاً يكون تحت اقوالهم مقاصد خطيرة . فالحوا عليها وأكدوا لها صدقهم ثم جنوا امام الملك الناصر وبيايعوه فتأكدت اخلاصهم فاذنت بمسيره معهم فساروا حتى اتوا القاهرة فحاول بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم هددوا فبيايعوه

وكان غازان خان ملك التتر قد عاد ثانية الى افتتاح سوريا فجرد اليه الملك الناصر سنة ٧٠٠ هـ جيشاً جراراً واسرع حتى التقى به في حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله وامدهم بالعدة والرجال واستأنف الحرب . وكان التتر قد حسبوا ان الفوز تقرر لهم فوضعوا ايديهم على سوريا وضربوا عليها الضرائب واخذوا في ادارة احكامها . وبينما هم في ذلك وصل الملك الناصر بجيشه الى مرج الصفر بقرب دمشق فخرج اليهم التتر وانتشب القتال بين الفريقين فغلب المصريون في بادئ الامر ثم ارتدوا على صفوف التتر كالسيل الهاطل بعزم اشد من الجبال ففرقوا جموعهم وأنخروا فيهم ضرباً بالسيف حتى تطهرت الشام منهم فعاد الملك الناصر الى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم

ولما لم يبق ما يشغله في سوريا عكف على اخضاع قبائل العربان الذين شقوا عصا الطاعة في مصر العليا فجرد اليهم فدانوا له واغتم منهم خمسة آلاف فرس ومائة الف رأس غنم وثلاثين الف من المواشي الكبيرة كالبقرة والجاموس وعدداً وافراً من الاسلحة . فلما كانت سنة ٧٠٢ هـ داهمت الشرق زلزلة قوية اخربت قسماً عظيماً من سوريا ومصر واخرجت المياض من الآبار الى سطح الارض وطافت الاجر على اليابسة فاغرقت خلقاً كثيراً . والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي اثر في اخلاق المصريين فانقسموا احزاباً يضاد بعضها بعضاً ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انه لا يقوى على دفعهم وخاف على حياته فترك القاهرة مظهراً للحج وسار مع بطانته الى الكرك وكان له فيها ثروة تبلغ ٢٧ الف دينار ومليون وسبعمائة الف درهم فاستولى عليها

وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحاً بتنازله ومفوضاً لهم تولية من ارادوا

سلطنة بيبرس الجاشنكير

من سنة ٧٠٨—٧٠٩ هـ او من ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م

فوصل كتابه اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هـ فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس

الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقبوه بالملك المظفر وهو من ممالك الملك المنصور قلاوون ومما يؤكد ذلك انهم وجدوا بين اسلحته سيفاً منقوشاً عليه اسمه مع لقب « المنصوري والسيفي » كما ترى في الشكل الخامس والثمانين



وفي اواخر هذه السنة قدم الصليبيون بموافقة صاحب قبرس لغزو دمياط بجزراً فاتفق الامراء في القاهرة على انشاء

جسر يمتد من القاهرة الى دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين ش ٨٥: اسم بيبرس على سيفه

بجزراً في ابام الفيضان فيتعذر الوصول الى دمياط فكتبوا بذلك الى العمال ان يخرجوا بالرجال والابقار لاتمام ذلك فاجتمع سماية راس بقر و ٣٠ الف رجل وباشروا العمل واتموا في شهر واحد . فكان طوله من دمياط الى قلوب وعرضه اربع قصبات من اعلاه وست قصبات من اسفله تمشي عليه ستة رؤوس من الخيل صفاً واحداً . ومن آثاره في القاهرة جامع المعروف بجامع جاشنكير في الجمالية مبني على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجداً الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالته وتخليه عن مقاليد الاعمال لاحد ممالিকে فجعل يترقب فرصة لتسلق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ هـ برح الكرك مستخلفاً عليها ارغون احد ممالিকে المقرين وجاء دمشق فبايعه امرأؤها فجند الى مصر ومعه رجال عديدون . وكان الامير برك احد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعه كثيرون من نخبة رجاله فتشجع الناصر وقدم القاهرة . اما بيبرس فخاف ولم يرسيلاً لنجاته الا بالتنازل فاستقال واخذ معه مبلغاً مقداره ٣٠٠ الف دينار وكثيراً من

الجمال والخييل وخرج الى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها فلاقاه خارج القاهرة
سرب من الاسافل اوسعوه شتما ورجماً فرشقهم بما كان معه من النقود وسار حتى جاء
انخيم فنزل فيها

سلطنة الملك الناصر بن قلاوون (ثالثة)

من سنة ٧٠٩ — ٧٤١ هـ او من ١٣٠٩ — ١٣٤١ م

وفي غد خروج بيرس من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة
الثالثة لتوايه . وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبوع بالسلطة ولبس
خلعة السلطنة وهي جبة سوداء وعمامة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوي . فجلس على
سرير الملك وجميع الامراء من كبير وصغير قبلوا الارض بين يديه وهو جالس في الايوان
الاشرفي . ثم خلع على سائر الامراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستقرار . وخلع
على الخليفة المستكفي بالله سليمان والقضاة الاربع وارباب الدولة من اصحاب الوظائف
ثم تتبع الهارين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوه . وفي جملة الذين قتلهم الاميرسلار
النائب وضبط امواله سنة ٧١٠ هـ فكان في جملتها صناديق افرنجية مصفحة بنحاس
فيها فصوص ياقوت احمر بهرمان رطلان وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص
زمرد بابي عشرون رطلاً وفصوص الماس وعين الهر ثلثماية قطعة ولؤلؤ كبير مدور
كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا
الف دينار . ومن الفضة اربعمائة الف درهم وواحد وسبعون الف درهم . وفي يوم الاثنين
سابع عشره وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون الف دينار ومن الفضة مليون
درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان . ووجد له مصاغ من ذهب ما بين خلاخل
واساور وزن اربعة قناطير مصرية . ووجد عنده طاسات فضة واطباق واهوان ذهب
وطشوت فضة ستمة قناطير . وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر وجد له من الذهب العين
خمسة واربعون الف دينار ومن الفضة ثلثماية الف وثلاثون الف درهم ووجد
عنده طلعات فضة للمساجق وقطريات فضة ثلاثة قناطير — وغير ذلك شيء كثير

ذكره ابن اباس في تاريخه مفصلاً مما يدعش لكثرة

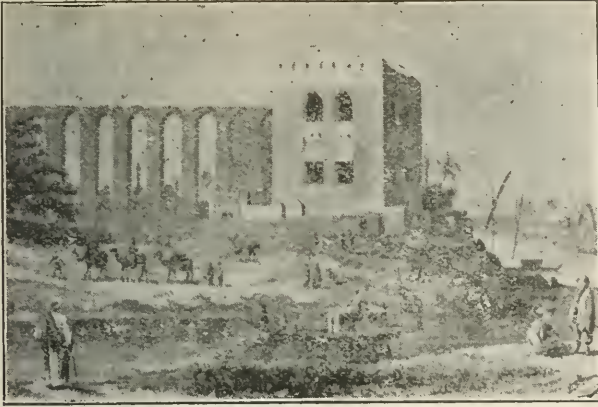
وكان سن الملك الناصر لما تولى للمرة الثالثة ٢٥ سنة صرف ١٦ منها في مفاصة الاهوال

حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمه في الملك فكان ذلك بمثابة الامثولة له فكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٣ سنة وكان النصرى الى ايام هذا الملك يقيمون احتفالاً سنوياً في ٨ بشنس في ناحية شبرا من ضواحي القاهرة يسمونه احتفال عيد الشهيد زعماء منهم ان النيل لا يفي الا اذا القوا فيه تابوتاً من خشب فيه اصبع من اصابع اباثهم المائتين . فكانوا يجتمعون من سائر القرى افواجا على اختلاف الدرجات والنزعات ويكثرون بسبب ذلك من الغناء وشرب المسكر . فكانوا ينفقون مبالغ فاحشة في هذا السبيل . وكان فلاحو شبرا يركنون في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الحمر في ذلك العيد . فامر الملك الناصر بابطال هذه العادة . وابطل كثيراً من الضرائب الظالمة كزكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ابدأ ولو عدم منه واذا مات يؤخذ من ورثته . وابطل ما كان يجبي من اهل القاهرة وضواحيها اذا حضر بمشرب بفتح حصن او نحوه فانهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على قدر طاقته . وكان يجتمع من ذلك مال كثير . وابطل ما كان يجبي من اهل الامة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد في كل سنة وكانت العادة اذا كان وفاء النيل ان يجبوا من التجار والباعة ديناراً من كل واحد قياماً باحتفال كانوا يقيمونه عند المقياس يكثرون فيه من الشوى والحلوى والفاكهة فابطل الجباية وامر بصرف ذلك من بيت المال

اعماله

أما اعماله فاكثرها بناء وترميم فقد بنى في سنة ٧١٧ هـ جسراً بين بولاق وميت شيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان وكانت الارض واطية ولم يكن فيها شيء من البناء فاذا ارتفع النيل جرى على مسافة قصيرة من المقس (تمن الازبكية) فلما بنى الجسر كف الماء الا يسيراً فتكوّن هناك جزيرة دعواها جزيرة بولاق فاقامت فيها المساكن ثم اتصلت بالبر الحقيقي فاصبحت جزءاً منه فآخذوها مرابى للسفن الواردة الى مصر ولا تزال كذلك الى اليوم وهذا ما يعبر عنه الآن بثمن بولاق

ومن آثاره البنائية جامعته المسمى الجامع الجديد عند موردة الخلفاء . ويقال انه نقل حجارتها من صنم عند قصر الشمع اسمه السرية عمل منه قواعد للاعمدة التكبار وعمر القصر الا بلى بالقلعة . وجر الماء الى قلعة القاهرة سنة ٧١٨ هـ في مجراة على قناطر مبنية بالحجر وركز للمياه آباراً وجعل عليها سواقي نقالة من عدة اماكن وهي الباقية الى الآن تعرف بالسبع سواقي عند فم الخليج وتمتد منها نحو القلعة قناطر



ش ٨٦ : مجراة الماء والسبع سقايات

تفصل بين القاهرة ومصر القديمة . وعمر الحوش الكبير في القلعة زرع فيه بستاناً نقل اليه الاشجار من الشام وغيرها . وبنى قناطر عديدة في اماكن مختلفة والبركة الناصرية . وكان في القلعة ايوان يسمى الايوان الاشرفي فهدمه وبناه وعقد فوقه قبة عظيمة وكان يعمل فيه المواكب العظيمة والقصر الكبير عند البركة الناصرية . وعمل باب الكعبة من الخشب السنط الاحمر المصفتح بالفضة

وكانت مدة حكم الناصر هذه المرة كلها سكيئة وسلاماً خارجاً وداخلاً ولم يخرج من مصر كل هذه المدة الا مرتين لزيارة الحرمين ولم يتخبر مع دولة اخرى الا التتر وذلك بشأن تزوجه بابنة ازبك خان سنة ٧٢٠ هـ فكان معتكفاً بكليته الى ترقية شأن البلاد فاقام فيها ولا سيما في القاهرة مشروعات كلية الاهمية منها نزع الخليج المدعو باسمه (الخليج الناصري) سنة ٧٢٧ هـ وقد انشأ سنة ٧٢٨ هـ سبعة جسور وفي السنة التالية انشأ مرصداً في الميدان وشاد قصراً على انقاض قصر الاشرف فانتهى منه في سنة ٧٣٤ هـ واقام جسور شيبين سنة ٧٣٥ هـ وابتنى عدا عن الجامع الناصري المتقدم ذكره جامعاً آخر بجانب جامع ابيه في شارع النحاسين يشاهد فيه عند الدخول اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاوون جاء بها من عكا تذكراً للظفر . وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى سنة ٦٩٨ هـ والمقرئزي يقول ان بناءه تم سنة ٧٠٣ هـ وان الملك العادل كتبغا هو الذي وضع اساسه ايام السلطنة . وشاد الناصر داراً كبيرة دعاها دار العدل وانشأ عيوناً كثيرة ومدارس عالية متعددة

ومن اعماله الحميدة انه ابطل جميع الضرائب الظالمة التي كانت تؤخذ على ما يباع ويشترى من حيوانات ونبات وعقار فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته . فاستتب الراحة وعمر الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الا تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاه حسماً للمشاكل

وفي سنة ٧٤٠ هـ توفي ابنه انوك فحزن عليه حزناً شديداً اورثه مرضاً رافقه حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الآخر الا ان تنصيبهم وخاعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال . فكانت مدات حكمهم قصيرة جداً

وتزايدت نخامة ملك ابن قلاون في آخر حكمه وكثرت مماليكه حتى صار راتبه وراتب مماليكه كل يوم من النجم الضائي ستة وثلاثين الف رطل . وبالغ في مشتري الممالك حتى قيل بلغت مماليكه اثني عشرة الف مملوك . وهو اول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والاقبية المفتوحة واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والاقبية القاتم . ورتب المواكب في القصر ترتيباً حسناً . ورتب شرب السكر بعد السباط في القصر والامراء مجتمعون ورتب وقوف الامراء في المواكب على قدر منازلهم وكذلك ارباب الوظائف من المتعممين . وقد طالت ايامه في السلطنة بخلاف من تقدمه من الملوك وصفا له الوقت وصار اكثر الامراء والنواب مماليكه او ممالك والده قلاون ولا يعلم لاحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه حتى قيل قد تزايدت في ايامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العمار مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من

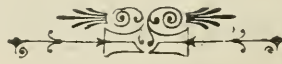
العمار والانشاء

وترى في الشكل ٨٧ صورة نقود الملك

الناصر بن قلاون النحاسية



ش ٨٧ : نقود الملك الناصر بن قلاون



سلطنة اولاد الناصر وهم ابو بكر وكجك واحمد واسماعيل

وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين

من سنة ٧٤١ - ٧٦٢ هـ او من ١٣٤١ - ١٣٦٢ م

فاول من تولى بعد الملك الناصر ابنه البكر سيف الدين ابو بكر ولقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يوماً عزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء ابيه واهانوهن ونهبوا متاعهن . فبويج اخوه علاء الدين كجك وله من العمر ست سنوات فقط ولقب بالملك الاشرف وبعد خمسة اشهر اي في رمضان من تلك السنة خلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويج اخوه شهاب الدين احمد وكان متغيباً في الكرك فاستقدم وبويج ولقب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ هـ اعيد الى الكرك منفاه الاول . فبويج اخوه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسي السلطنة اكثر قليلاً من اخوته السابقين اي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . واهم ما حصل في ايامه انه اعاد منصب الوزارة الى حكمه سنة ٧٤٤ هـ وكان قد الغاه ابوه كما رايت . وانه قتل اخاه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٦ هـ وكان منفيّاً في الكرك ثم انتهت سلطته بموته في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ هـ . فبويج اخوه الخامس زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل ولكنه لم يكن اسماً على مسمى فابغضته الرعية وهجاه الشعراء . ومكث حاكماً سنة وبضعة اشهر وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٧ هـ عزل . فبويج اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (الثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فلم تطل مدة حكمه اكثر من سنة وثلاثة اشهر فذبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ فبويج اخوه السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيره في الملك ما كان لابيه فخماً ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبه الامير الطمش وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ وسجن في قلعة القاهرة . فبويج اخوه الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح وكان على وزارته الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون او شيخو في الصليبية غربي الرملة ويقابله خانقاه . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و ١٤ يوماً وفي سنة ٧٥٤ هـ دم القطر طاعون وانتشر حتى عم البلاد واختطف الامام

الحاكم بامر الله (الثاني) وصي الخلافة فبويغ عمه المعتضد بالله
وفي اوائل سنة ٧٥٥ هـ رفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفصلة بما للنصارى
من الاملاك الموقوفة للاديرة فاحيات هذه التقارير الى ديوان الاحباس فوجد ان
للنصارى اوقافاً تبلغ ٢٥ الف فدان من الطين كلها موقوفة للكنائس والاديرة . فعرضت
على الامير شيخو والامير صرغتمش والامير طاز وكانوا قائمين بتدبير الدولة فقرروا ان
ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وهدموا للنصارى عدة كنائس . وفي اواخر
رجب من هذه السنة خرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن السكوراني وكان
والياً على القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر فهدم كنيسة للنصارى واخذ
منها اصبع الشهيد في صندوق واحضره الى الملك الصالح فاحرق بين يديه في الميدان
وذرى رماده في البحر حتى لا ياخذ النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذ . وكان
من المترشحين للوزارة وزيران قبليان مرتدان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها
وانضم الى كل منهما احزاب فانتهي الخصام بجمع الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ هـ
وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من اخيه الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين
وكان الناصر مسجوناً ففاز بمراة وخلع اخاه فأخرج من السجن وبويغ وبقي الملك
الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام
بمساعدة الامير تاج الدين فولاه الوزارة مكافأة لمساعده . وفي ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ هـ
قتل بمكيدة من كبار امرائه

ومن آثاره الباقية الى هذا العهد جامع في الرملة مقابل قلعة الجبل في القاهرة
وهو المعروف بجامع السلطان حسن او بجامع الحسينية وهو من اجمل جوامع القاهرة
واتقنها اقتضى لبنائه ٣ سنوات انفق عليه في خلالها ما يساوي ستاية جنيهه كل يوم وقد
جاء بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليه الكتابات الكوفية والعربية
فزادته رونقاً وجمالاً وقد اصبح الآن وعلى وجهه ملامح الشيخوخة لكنها لم تزده الا
عظمة ووقاراً



وترى في الشكل الثامن والثمانين صورة النقود
الذهبية للملك الناصر ناصر الدين حسن

ش ٨٨ : نقود الملك ناصر الدين حسن

سلطنة محمد بن حاجي

من ٧٦٢ - ٧٦٤ هـ او من ١٣٦٠ - ١٣٦٢ م

ولما قتل السلطان حسن بويغ ابن اخيه محمد بن الملك المظفر حاجي وسنه ١٤ سنة
ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان سنة ٧٦٤ هـ اضطر الى التنازل
عن الملك لابن عمه شعبان بن حسن وسنه عشر سنوات فبويغ ولقب بالملك الاشرف
(الثالث)



وترى في الشكل التاسع
والثمانين صورة النقود الذهبية للملك
المنصور محمد ضربت في القاهرة
سنة ٧٦٤ هـ

ش ٨٩: نقود الملك المنصور ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤

سلطنة شعبان بن حسن

من سنة ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ او من ١٣٦٢ - ١٣٧٦ م

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة ايام معظمها سكينه وسلام وفي
السنة الثامنة من حكمه اصيبت مصر وسوريا بفحط ضيق على الناس حتى اكلوا
الكلاب والقطط واكل بعضهم اولاده من شدة الجوع. واستقر الامر كذلك في بعض
الاماكن ٣ سنوات والما كانت السنة الحادية عشرة من حكمه اصاب البلاد حروب اهلية
اشد وطأة من الجوع. وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائباً للملك. ففي
سنة ٧٧٦ هـ سطت عليه عصابة من مماليكه في قصره فقتلوه وساروا يريدون مثل ذلك
من السلطان نفسه فردم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فقتلتوا فولى على النيابة
الجبلي اليوسفي وكان طامعاً فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدته فنال منها ثروة
عظيمة فقويت شوكته وكثر اشياعه فطمع بالسلطة فقتل زوجته المذكورة وتواطأ
مع قاتلي يلبغا على قتل السلطان فهاجموه فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعاً كبيراً وتبعهم
رجالهم حتى اغرقوهم في النيل. ولم يكذب يطمئن من هذا القبيل حتى اجتمع عليه اعداد

يريدون قتله فتربصوا ينتظرون فرصة حتى اذا كان عائداً من زبارة الحرمين كمنوا له في مضيق العقبة فقتلوا من معه من الحاشية ولم يبقوا للسلطان على اثر فظنوه قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣ هـ ان يبائع من يشاء فكتب اليهم « اختاروا من بينكم من تشاؤون وانا اصادق على بيعته » ثم علم الامراء ان الاشرف لا يزال حياً مختبئاً في القاهرة فقبضوا عليه وخنقوه في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ



وترى في الشكل التسعين نقود الملك الاشرف شعبان

ش ٩٠: نقود الملك الاشرف شعبان

سلطنة علي بن شعبان

من سنة ٧٧٨ - ٧٨٣ هـ او من ١٣٧٦ - ١٣٨١ م

وباعوا ابنه علاء الدين علي وسنه - بيع سنوات فسر بذلك المنصب لصغر سنه ولم يعلم انه مدفون ابيه ولا يابث حتى يلحق به . فلقبوه بالملك المنصور (السادس) واقاموا له الامير لاين بك وصياً . ثم ابدل لاين بالامير قرطاي ثم ابدل هذا بالامير برقوق . وهو الذي اتى على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة وكانت هذه مقاصده منذ ولي الوصاية لكنه بقي محافظاً على ولاء مولاه الى ان توفاه الله في شهر ربيع اول سنة ٧٨٣ هـ وكانت مدة حكمه اربع سنوات واربعة اشهر

سلطنة حاجي بن شعبان

من سنة ٧٨٣ - ٧٨٤ هـ او من ١٣٨١ - ١٣٨٢ م

فبويع اخوه زين الدين حاجي وسنه ست سنوات ولقب بالملك الصالح ولم تمض على مباحته سنة ونصف حتى مل برقوق من اخفاء مقاصده فخلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستام مقاليد الملك . وكان الملك المنصور هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية او التركمانية فانقرض دولتهم بعد ان حكمت نحواً من مائة وست وثلاثين سنة اولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية او الشراكسة

دولة المماليك الثانية

من سنة ٧٨٤ -- ٩٢٣ هـ ار من ١٣٨٢ -- ١٥١٧ م

منشأ المماليك الشراكسة

دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضا كركس أو جر كس او كرغز. وهم لم ينشأوا في اسيا العليا انما جاؤا اليها من سيديريا ونواحي بحيرة بيقال منذ القرن السادس للميلاد . ثم هاجروا الى غربي بحر قزوين يحملون من بلادهم للاتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الاخير عدداً وافراً فضلاً عن المماليك البحرية اقتداءً باسلافه . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الابراج فلقبوا بالبرجية . وما زالوا يزدادون عدداً وقوة ومنعة حتى تآقت نفوسهم الى تسليق كرسي الملك يجعلونه ارثاً لنسلهم . وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي ابن شعبان ويابوعوا برقوق

أما برقوق فهو ابن مرشد شركسي اسمه انس من قبيلة كسا استملك في شركاسيا وقيده الى القرم فاشتره رجل مسلم يقال له عثمان وجاء به الى مصر سنة ٧٦٢ هـ وباعه للامير يلغا فجعله في عداد مماليكه الا ان نباهة برقوق وجماله ومهابته استلفتت انتباه سيده فبالغ في ترقيته حتى ادخله في بطانته ولقبه بالشيخ اشارة الى براعته بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعله في مصاف الامراء وكان يلقب بالعماني والبلغاوي . وما زال في خدمته الى ان قضى الله على يلغا بما قضى وتشتت مماليكه فبقي برقوق وامير آخر يقال له بركة لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلوا في خدمة منجك صاحب دمشق . ثم عادا الى مصر بطاب الملك الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولاها ولقب باتابك الجيوش . وتولى رفيقه بركة رئاسة الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خلع الملك الصالح حاجي . فتمكن برقوق بمساعدة احزابه ان يتسلى كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ كما رايت

سلطنة الملك الظاهر برقوق

من سنة ٧٨٤ — ٨٠١ هـ أو من ١٣٨٢ — ١٣٩٨ م

فاقرَّ الخليفة المتوكل على الله على تولية برقوق وبايعه جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوه بالملك الظاهر وهو لقب اعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني به ركن الدين بيبرس البندقداري . واول شيء خالف فيه اسلافه انه ابطل حمل القبة والطير على رأس السلطان عند توليه وابطل ما كان يعمل في يوم النيروز اول السنة القبطية . ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية انه كان يجتمع السواد الاعظم من الناس الاسافل فيقفون على ابواب الاكابر من اعيان الدولة فيكتب امير النيروز وصولاً بالجملة الثقال وكل من امتنع عن الاعطاء من الاكابر سبوه سباً قبيحاً ولا يزالون قائمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرُّون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه امير النيروز . فيأخذون منه ذلك غصباً ويمضون . وكان ذلك السواد الاعظم العياق يقفون في الطرق ويتراشون بالماء المتنجس ويتراجون بالبيض النيء في وجوههم ويتصافعون بالانطاع والاخفاف ويقطعون الطريق حتى يمتنع الناس من الخروج الى الاسواق وتغلق في ذلك اليوم ايضاً اسواق القاهرة ودكا كينها وكل من ظفروا به في الطرق سبوه

وكان تيمورلنك القائد التتري الشهير اذ ذلك قد ملأ الارض بافتتاحه حتى سمع دويها في سوريا اذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق في جيش عظيم فوقفه عند حده لكنه لم يكذ يتخلص منه حتى ظهر له عدوٌّ في بيته نعني به الخليفة المتوكل على الله فانه دعا الى خلع برقوق فالتف حوله دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشايخ والائمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة نخلعه وحبسه في القلعة سنة ٧٨٧ هـ ونصب عمراً اخا ابراهيم ولقبه بالوائق بالله . ثم توفي الوائق في ١٩ شوال سنة ٧٨٨ هـ فنصب ابا يحيى زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله . وهذا لم يلبث طويلاً لانه اساء السلطان برقوق نخلعه في جمادى الاولى سنة ٧٩١ هـ واعاد المتوكل على الله لكنه ندم بعد ذلك لما رأى من سعيه في خلعه فحاول تنزيهه ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمي منطاش على خلعه ووافقها سائر الامراء ورجال الدولة فخلعوه بعد ان حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وارسلوه منفيًا الى قلعة الكرك منفي السلاطين في تلك الايام واستقدوا السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك



ش ٩١ : تيمورلنك القائم التتري

البحرية وهو الذي خلعه برقوق . فبايعوه في ٦ جمادى الأخرى سنة ٧٩١ هـ . وكان
يلقب بالملك الصالح فابدله بالملك المنصور لكنه لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل
ومنطاش بعد ان سعيا في توليته ندما فازلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ
فتعلم برقوق هذه المرة كيف يستبقي الملك في يده فبادر حالاً الى المنصور حاجي
وامانه وقتل كل من كان على دعوته منعاً لدسائسهم . ثم عمد الى الخارجية فوطد
الامن في انحاءها ولم يكن يثق بمقاصد اعوان الخلفاء فدخل في احزابهم تحمداً مع
هؤلاء وطوراً مع هؤلاء ليدوم الشقاق بينهم فلا يتفقوا على خلعه

وفي سنة ٧٩٤ هـ اهداه قرا يوسف امير فارس مدينة تبريز فبعث اليه برقوق
خلعة وفوض اليه ان يفتح ما استطاع من المدن على ان يكون والياً عليها . لكنه
ما لبث ان جاء القاهرة في السنة التالية مع احد محافيه احمد بن اويس فارين من وجه
تيمورلنك وكانا قد التجأ الى منويل امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانه كان في ريب
من امره مع دولة اخرى قارب صبحها الانفجار . وهي الدولة العثمانية نسبة الى عثمان
الغازي اول سلاطينها . وجرى ذلك في عهد بيازيد بن مراد رابع سلاطين هذه
الاسرة الخافرة . وكان قد غزا معظم ايلات المملكة الرومانية الشرقية (مملكة الروم)

واعظمتها حتى هدد القسطنطينية بجاء التتر من ورائه بقيادة تيمورلنك فوقفوه عن مقصده واصبحت قارة اسيا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبيازيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فارتعدت لهما افريقيا واضطربت مصر من دويهما

وطمحت انظار هذين الفاتحين الى مصر فبعث كل منهما وفداً الى القاهرة فطلب وفد بيازيد الى برقوق ان يعاهده على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة ان يقرب بيازيد رسمياً على سلطنة الاناطول فاجابهم الى ما طلبوه . اما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة اخرى لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في اقوالهم ومطالبهم فطلبوا اليه ان يسلم لهم قرا يوسف واحمد بن اويس اللذين قد التجأ اليه . فطيب برقوق خاطرهم واخذهم بالملاينة فازدادوا فجوراً فأمر بقتلهم . فشق ذلك على تيمورلنك فساق جيشه وقدم للانتقام فر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فانكى فيها . ثم توقف عن مسيره لغرض في نفسه ليسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكدهم هذه التأهبات حتى ادركته الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وعمره ستون سنة فاسف عليه الناس اسفاً شديداً لما كان من عدله ويقظته ورفقه برعيته

اعماله

ومن ادلة ذلك انه خفف ضرائب الحبوب وابطل الضرائب التي كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الواردة عن طريق بولاق . وكان كثير التصديق على الفقراء محباً للعلم والعلماء فبنى مدرسة دعاها المدرسة الظاهرية نسبة اليه . وابتنى جامعاً لا يزال معروفاً باسم جامع السلطان برقوق بجانب جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وكان له ولع خاص في اقتناء الاسلحة والخيول الجياد والاستكثار من المايلك الشراكية فنظم منهم فرقة يركن اليها عند الحاجة . وقد رتب مراتب الدولة في ايامه على هذه الصورة :

١ اتابك العساكر

٢ رأس نوبة الامراء

٣ امير السلاح

٤ امير المجلس

٥ امير الياخور

٦ دوادار

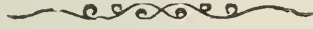
٧ رأس النوبة الثاني

٨ حاجب الحجاب

٩ النائب

وكانت مقاليد الحبل والعقد بيد هؤلاء التسعة فاذا اجمعوا على امر انفذوه
ولا مرد لقضائهم

وبما انشأه في ايامه من العمار جسر الشريعة بالغرورية وجدد بناء خزائن السلاح
بشجر الاسكندرية وجدد عمارة زريبة البرزخ بشجر دمياط بعد ان ظهر منها عظام
الشهداء وبنى سوراً على مدينة دمنهور وعمر قناة العروب بالقدس وجدد عمارة
المجراة التي تجر الماء من بحر النيل الى قلعة الجبل



سلطنة فرج بن برقوق (اولاً)

من سنة ٨٠١ — ٨٠٨ هـ او من ١٣٩٨ — ١٤٠٥ م

فلما توفي السلطان برقوق بايعوا بكر ابنائه فرج زين الدين الملقب بابي السعادات
وسنه ست وعشرون سنة واقبوه بالملك الناصر . وفي اول حكمه نار الاتابك ايتمش
وتم الفرساني حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع بابغا السالمي حاكم حلب فاستولى على
مضايق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها . الا ان حدسه لم يتحقق فأخذت
منه المضايق وضوبق عليه حتى قيد اسيراً وقتل هو وكل دعائه . ولم تكد تنجو مصر
من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة اشد وطأة واصعب مراساً . فان تيمورلنك بعد ان
اتم حروبه في الهند وبنغداد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ هـ امعن في سوريا فاستولى
على حلب وحمص بعد حروب شديدة . وفر فرج الى مصر فجمع اليه رجاله وتأهب
للدفاع فبلغه ان عدوه شغل عنه بمحاربة بيازيد في الاناطول فسكن روعه ثم جاءت
الانباء بفوز تيمور وانكسار بيازيد واسره سنة ٨٠٤ هـ في وقعة انقرة فخارت قواه
ويئس من الفرج . فبعث اليه تيمورلنك فيلاً هندياً وطلب اليه ان يبايعه ويبعث اليه
باحمد وقرأ يوسف حالاً . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله . فاجابه الى طلبه صاغراً
واهداه زرافة حبشية وابعه واعترف بسيادة التتر على مصر وانه قائم باحكامها بالنيابة
عنهم . اما احمد وقرأ يوسف فقال انهما احتميا به وحقوق الضيافة تمنعه من تسليمها

فيكون هو الجاني عليهما لكنه وعد ان يسجنهما عنده فاستقرت سيادة تيمور على مصر وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر بقصور النيل فدهى اهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف حتى انه مات في مدينة قوص وحدها ١٧ الف انسان ومات في مدينة اسيوط ١١ الفاً ونحو ذلك في مدن اخرى . وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتخاصم ابناؤه على الملك فتخلصت مصر من سلطة التتر وذهب الحذر عن احمد وقرأ يوسف فافرج عنهما فسارا الى بلادهما

ثم اخذ فرج بالتأهب لاسترجاع سوريا بنفسه فلم يكده يتم الاستعداد حتى ضوبق عليه في قصره . لان المصريين لما راوا اذعانه لتيمور وتسليمه بسيادته حسبوا ذلك خيانة وضعفاً وايقنوا انه لا يصلح لادارة الاعمال فاقروا على خلعه وتولية اخيه عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منه . فاجتمعوا تحت لوائه وساروا لمحاصرة اخيه في قصره في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ وما زالوا يهددونه حتى تنازل حفظاً لحياته وقد حكم ست سنوات وخمسة اشهر و ١١ يوماً

وكانت ايامه كثيرة الفتن والشروور فقد طرق الشام فيها تيمورلنك كما رايت فاخر بها واحرقها وعمها بالقتل والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتفرق اهلها في جميع اقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الارض الاقبايلاً وعظم الغلاء والفناء فباع اهل الصعيد اولادهم من الجوع وصاروا ارقاء مملوكين وشمل الخراب الشنيع عامة ارض مصر وبلاد الشام من مصب النيل عند الجنادل الى حيث مجرى الفرات

سلطنة عبد العزيز بن برقوق

من سنة ٨٠٨ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤٠٥ هـ

ثم خرج من قصره واخفى في مكان غير معلوم فظن الناس انه قتل من الضوضاء والازدحام فبايعوا اخاه واقبوه بالملك المنصور . ولم يمض شهران على توليته حتى تحققوا خيبة ظنهم به فقلوا من طاعته ومالوا بكياتهم الى سافه فاتصل ذلك بفرج نخرج من خبائه فتقدم اليه الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبه فعاد في جمادي الاخرة ونفى

اخاه عز الدين الى الاسكندرية فعاش فيها شهراً قليلة وتوفي في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ

سلطنة فرج بن برقوق (ثانية)

من سنة ٨٠٩ - ٨١٥ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤١٢ م

فلما عاد فرج الى منصبه وجه انتباهه خصوصاً الى استرجاع ثقة الاهلين فيه فغزا دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية تخيم الامن وسكنت القلوب . فاذا كانت سنة ٨١٣ هـ ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهب بجيانه . وذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا نصر الملقب بالشيخ الحمودي الظاهري نسبة الى سيده الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق . وكان الملك الظاهر قد اعتقه ووعده بانناصب الحربية فطمحت ابصاره الى السلطنة فاستخدم لهذه الغاية الخليفة المستعين بالله وكان قد ولي الخلافة بعد الخليفة المتوكل على الله منذ خمس سنوات . وكان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وانتقالهم الى القاهرة لا يخرجون في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالائمة . فاسرّ الشيخ الحمودي الى المستعين انه يقدر ان يعيد السلطة السياسية كما كانت لاسلافه وقال له « ان الناس ميلون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتك وتنفيذ اوامرهم » . فتنبه في قلب الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ الحموي . وكان فرج اذ ذاك في دمشق فاتفقا على استقدامه فانفذا اليه اولاً ان يتنازل عن الملك فاجاب ان لا جواب عنده غير السيف واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ الحمودي وتقدم الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر امراً بتوقيعه فجا بم لا يجيء به السيف ونصه « من الامام ابي الفضل المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر . اعلموا اننا قد خلعنا فرج بن برقوق عن سلطنة مصر والشام لان سيدهما الحقيقي انما هو الخليفة خليفة الرسول (صلعم) فويل لمن خالقه »

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبق له نصير فحاول الفرار فلم ينج فقبض عليه وقيد الى الخليفة فانتحل له ذنباً يستوجب عليه المحاكمة - وهو انه كان قد اضطر لكثرة ما انفق في محاربة التتر ان يضرب ضرائب فوق العادة فرفعت عليه

عرائض التشكي الى مجلس الائمة والفقهاء انه اختلس الاموال وخرّب البلاد وانه تمرّد على الخليفة ظل الله على الارض فاتخذ الخليفة ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جنته ملقاة على دمنة هناك

سلطنة الامام المستعين بالله

من سنة ٨١٥ — ٨١٥ هـ او من ١٤١٢ — ١٤١٢ م

فاجتمعت السلطان الروحية والسياسية للمستعين بالله فبايعه الامراء وقواد الجند ولقبوه بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي اتابك العساكر ومدبر المملكة . واخذ في اصلاح الاحوال ووجه انتباهه الى ما يكتسب قلوب الرعية فاعاد الامن الى البلاد بمقاصد المعتدين وظهر لياقته لما عهد اليه فشرع في تنظيم الاحكام وانصاف المظلومين وبذل العطاء فاحبه الناس . اما الشيخ المحمودي فانه قام بهذه الثورة خدمة لاغراضه وليس للخليفة فرأى انه اصبح آلة بيده فاضمر له شراً ونوى على خلعه لكنه استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفاً من الوقوع في شر اعماله فعمل على توطيد العلاقات الودية بينه وبين امراء المهايك والتقرب منهم واقناعهم تحت طي البساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئاً من ضعف الراي والحمول فضلاً عن كونه غريباً عنهم . فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم فاخذ يشكو من منصبه فولاه الخليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ ما ربه وما زال ساعياً الى مطمح انظاره حتى كثرت احزابه واصبحت ازمة البلاد في يده فاجبر الخليفة على مشاركته في السلطة فاجاب وبقبه بالملك المؤيد ثم خطا خطوة اخرى نخلع الخليفة وحبسه في بعض غرف القصر

سلطنة الشيخ المحمودي

من سنة ٨١٥ — ٨٢٤ هـ او من ١٤١٢ — ١٤٢١ م

فلم يستطع المستعين بالله مقاومة لكنه كتب سرّاً الى نوروز احد اصدقائه القداماء وكان قد ولاء سوريا يستنجد به فقدم نوروز مسرعاً الى القاهرة في جيش فرأى انه

يقصر عن مناوأة الحمودي فاعز الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية . وكان الشيخ الحمودي في دمشق فاصدر منشوراً بخلعه فاعتنم المشائخ والامراء فرصة غيابه وجاهروا بخلعه . وبلغ ذلك الشيخ الحمودي فاسرع الى القاهرة تخافه المشائخ والعلماء وانكروا خلعه وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الخلع والحواعلى معاقبته لانه تمرد على سلطانهم فخلعوه من السلطنة والخلافة وسيجنوه ثم نفوه الى الاسكندرية سنة ٨١٨ هـ واقاموا اخاه داود خليفة مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله . فعاد الشيخ الحمودي الى كرسي السلطنة واخذ يسمى في اكتساب ثقة الاهلين فاتبع خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فأمنت الرعية وسعدت البلاد . وما زالت الحال كذلك ثمانى سنوات وخمسة اشهر وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ توفي السلطان الشيخ الحمودي . وكان محبا للعلماء يكرم منواهم . وله بنايات جميلة من جماتها الجامع المسمى جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة وقد جدد بناؤه وهو كثير النقوش ولم يبق من البناء القديم الا ليوان القبلة . وبعد وفاته عادت الامور الى مجراها الاول من القلاقل فتولى السلطنة بعده ثلاثة سلاطين لم يحكموا الامدة قصيرة

سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين ططر ثم محمد بن ططر

من سنة ٨٢٤ - ٨٢٥ هـ او من ١٤٢١ - ١٤٢٢ م

اولهم ولده شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلى عن الملك لوصيه وحميه سيف الدين ططر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبوع ابنه ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعه وصيه سيف الدين برس باي فقضى باقى حياته في الشقاء

سلطنة الملك الأشرف برس باي

من سنة ٨٢٥ - ٨٤١ هـ او من ١٤٢٢ - ١٤٣٧ م

وبعد خلعه اختلف الامراء في من يخلفه فتحنى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضاً فالتقم السلطنة غنيمة باردة . فبوع في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ هـ ولقب

بالمملك الأشرف وقد كان برس باي مملوكاً أحبه سيده الملك الظاهر ططر فاعتقه ورفقه حتى جعله وصياً على ابنه . وفي اول حكمه فاض النيل حتى غمر الارض بالخيرات فكثرت الجبوب وشيع الفقراء . وكان برس باي كاشيخ المحمودي حكمة ورفقاً وقد رمم عدة مدن وشاد في القاهرة عدة بنايت منها الجامع المعروف بجامع الأشرفية تجاه سوق العطارين ابتداءً في بناءه سنة ٨٢٦ هـ . وقد تكن برس باي لحسن سياسته وحزمه من استبقاء السلطنة بيده مدة طويلة والبلاد في سكينه الا في سنة ٨٢٧ هـ اذ ثار الامير بنيق النجاثي نائبه في دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلت وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنجي يقال له عبد الرحمن فولاه برس باي على سوريا بدلاً من النجاثي وكانت هذه الثورة اول القلاقل وآخرها في ايامه

اما محارباته مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانه جرد على الافرنج عدة تجريدات وتغلب عليهم فاخضع جزيرة قبرص وحمل الملك جان لوسينيان الثالث على الاعتراف بسلطانه واداء الجزية . وعقد مع ملوك الصليبيين وسطان آل عثمان اذ ذاك مراد بن محمد معاهدات سلمية تدل على عظيم شوكته . فكانت مصر في ايامه سعيدة داخلاً وخارجاً وقال بعض المؤرخين ان الملك الأشرف برس باي اجدر الملوك الشراكية بالمدح لانه كان اعلامهم همة واشدهم عزيمة واكثرهم تدرّباً في الاحكام . ومما يمدح عليه انه ابدل جميع النذلات التي كانت تقدم للملوك قبله بتقبيل اليد فقط . ولكنه اصيب في اواخر ايامه بمرض في عقله كما اصيب الحاكم بامر الله فاصدر اوامر غريبة منها انه امر بنفي الكلاب الى بر الجزيرة . فصار كل من امسك كلباً يأخذ نصف فضة من صير في باب السلسلة فامسك العياق من الكلاب نحو الف كلب فنفوها الى بر الجزيرة . ثم انه امر بان لا يخرج امرأة من بيتها الا باذن من الحكومة فكانت الغاسلة اذا ارادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب تجعلها في راسها وتمشي في السوق . ثم انه نادى في القاهرة بان لا يلبس الفلاحون زمطاً مطابقاً فامتنل الناس امره . ثم انه رسم بتوسيط الحكماء فوسط الرئيس خضر . ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف واستمر على امثال ذلك الى ان مات بعد ان حكم ١٧ سنة و٨ اشهر و٦ ايام . قضى يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وعمره ستون سنة

سلطنة يوسف بن برس باي

من سنة ٨٤١ — ٨٤٢ هـ او من ١٤٣٧ — ١٤٣٨ م

فبوع ابنه جمال الدين يوسف الملقب بابي المحاسن ولقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة اشهر من مبايعته تخاصم ممالিকে وسيف الدين جقمق اتاك جيشه خصاماً انتهى بعزله ومبايعة جقمق في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ

سلطنة الملك الظاهر جقمق

من سنة ٨٤٢ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذذاك ٦٩ سنة ولقب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمه اصيبت مصر بطاعون نفشى في انحاءها . وفي سنة ٨٤٦ هـ توفي الامام المعتضد بالله وكان باراً تقياً واوصى بالخلافة بعده لاختيه بالرحم فبايعوه ولقبوه بالمستكفي بالله وكان صديقاً للسلطان جقمق وبعد ثماني سنوات من خلافته توفي سنة ٨٥٤ هـ وكان كاختيه تقياً وبراً حتى تخاصم الاعيان والكبراء في المسابقة الى حمل نعشه وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانه حمل به على منكبيه . فبوع اخوه ولقب بالقائم بامر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايراً لسير اسلافه فابغضه السلطان وخاف دسائسه وكان قد تجاوز النمانين من سنه ولم تبق فيه عزيمة على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطة لابنه نخر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧ هـ وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد الثاني القسطنطينية

سلطنة عثمان بن جقمق

من سنة ٨٥٧ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٥٣ — ١٤٥٣ م

وبوع نخر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور اما الخليفة فلم ينفك عن دسائسه طمعاً

بالسلطة فدعا اليه زمرة من الامراء وحملهم على نبد طاعة الخليفة على امل ان ينال بذلك ما ناله المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة شهر ربيع آخر من تلك السنة بعد ان حكم شهراً ويوماً . اما الخليفة فغاب انتظاره وحبطت مساعيه فغادرته الاحزاب وبايعوا مملوكاً مسناً اسمه ابو النصر اينال ولقبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف اينال

من سنة ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ او من ١٤٥٣ - ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسه ان هذا السلطان شيخ فلننتظر وفاته انه لا يلبث ان يصيب حتفه . فانتظر ست سنوات فلم يمت فعمد الى الدسيسة فانصل ذلك بالوزير بلجيووني فاعلم السلطان بامرهم فاستحضر الخليفة وقرّعه ثم امر بخلعهم عن الخلافة . فقال الخليفة « من اين لك ان تخلع الخلفاء ولهم وخدمهم ان يولوا وبعزلوا » فلم يجبه الا بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فبايعوا يوسف اخا المعتضد بالله ولقبوه بالمستنجد بالله وكان حكيماً معتدلاً وعاش السلطان اينال بعد ذلك سنتين ولي وعزل في اثنائها كثيراً من الوزراء ثم توفي يوم الخميس ١٥ جمادي الاولى سنة ٨٦٥ هـ بعد ان حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

سلطنة احمد بن اينال

من سنة ٨٦٥ - ٨٦٥ هـ او من ١٤٦٠ - ١٤٦١ م

فتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح وكان قد تعاطى الاحكام في

اخرايام ابيه . وترى في شكل ٩٢ صورة نقود مضروبة في عهد شهاب الدين احمد يوم كان يتعاطى الاحكام في حياة ابيه فلما بويع لقب بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا اربعة اشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبيع سيف الدين خوش قدم ولقب بالملك الظاهر



ش ٩٢: نقود ابي الفتح
والاشرف

سلطنة الظاهر خوش قدم

من سنة ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ او من ١٤٦١ - ١٤٦٧ م

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانه يوناني الاصل وبالناصرى لانه كان من ممالك الملك الناصر وكان محباً للاداب اليونانية محافظاً عليها . وكان حكيماً باراً حليماً محباً لرعيته ساهراً على راحتهم ولم يكن يستوزر الا الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فاجتبه الرعية واجمعوا على طاعته والاخلاص له . ويقال بالجملة ان هذا السلطان من افضل سلاطين مصر وقد اقتدى به رجال دولته . اما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطته الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفي في ١٠ ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ وسنه ستون سنة فاسف عليه الناس كثيراً

وكان حسن الشكل معتدل القامة مترك الوجه احمر اللون مستدير اللحية ضخم الجسم شائب اللحية فصيح اللسان بالعربية وكان ماشياً على النظام القديم تابعاً لطريقة الملوك السالفين في اقامة المواكب في القصر الكبير والمبيت به في كل ليلة . وكان سائراً على خطة استأذنه الملك المؤيد شيخ في كسر السد بنفسه ولبس الصوف في المطعم وكان كثير الرمايات في كل سنة وبشق في القاهرة المواكب الجليلة . وكان يطيف المحمل في كل سنة في رجب وتسوق الرماحة على جاري العادة اربعين يوماً ثم يلبسون الاحمر وتزين القاهرة ثلاثة ايام ويخرج الناس في ذلك عن الحد بالتصنف والخلاعة وكانت ايامه كلها لهواً ولم يجيء في ايامه الطاعون بمصر ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية . وكان متأقفاً في ملبسه فصنع ركباً ومهايمز من ذهب . وكان يلبس السمور الاسود بلون الجبر وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ويبطنه بالمحمل الاحمر الكفوي

سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمرغا

من ٨٧٢ - ٨٧٢ هـ او من ١٤٦٧ - ١٤٦٧ م

فبايعوا ابا سعيد بلباي ولقبوه بالملك الظاهر فكان سميّاً لسابقه بالاسم لا بالفعل فناء من السيئات اكثر مما جاء من الحسنات لانه كان مستبدّاً عانياً لا يغادر كبيراً ولا

صغيراً فكرهته الناس ولم يمض ٦٦ يوماً من توليته حتى خلعوه وذلك في ١٧ جمادى الأولى من تلك السنة وباعوا الأمير ابا سعيد تمر بغا الملقب بالظاهري واقتبوه بالملك الظاهر ايضاً فكان حظه من الملك كحظ سلفه لانه خلع بعد شهرين من توليته وباعوا الأمير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري واقتبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف قايت باي

من سنة ٨٧٢ -- ٩٠١ هـ من ١٤٦٧ -- ١٤٩٥ م

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ هـ اربعة سلاطين . اما السلطان الاخير فكك على سرير السلطنة مدة طويلة رغم ماكانت عليه البلاد من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكاً محرراً من مماليك جقمق وكان اعلو همته وحسن سياسته قابضاً على ازمة الاحزاب فكانت البلاد آمنة مطمئنة الا انها اضطرت ببحر انتصار محمد الثاني العثماني على اوزون حسن ملك الفرس . وكان بين الفرس والمصريين تحالف فتنبأ قايت باي ان ذلك التحالف سيكون سبباً لعزم العثمانيين على فتح سوريا . فارسل حامية كبيرة الى الحدود فاجل العثمانيون عزمهم لاشتغالهم بحروبهم في اوربا . اما قايت باي نخاف سوء العقبي ولم ير سبيلاً لرفع التبعة عنه الا بالتنازل عن الملك فادرك الامراء شدة احتياجهم اليه في مثل تلك الاحوال فاجبروه على قبول السلطنة . ولم يكديعلوها حتى جاءته الانباء بانتصار محمد الثاني على الافرنج وعزمه على فتح سوريا وذلك سنة ٨٨٥ هـ لكنه لم يخرج من برا الاطول حتى داهمته المنية في مدينة طيقور جابر . وتخاصم ابناه بيازيد وجم (اوزيم) على الملك فشغلا عن الفتح فاغتنم قايت باي تلك الفرصة وانسحب بجيشه الى مصر

ومازال الخصام يتعاطم بين ابني محمد حتى كانت بينهما واقعة يكي شهر فانهزم جم حتى اتى مصر فالتجأ الى قايت باي فاكرم وفادته ثم علم ان ذلك الاكرام يهيج حاسة الانتقام في بيازيد . فقال في نفسه « اذا كان لا بد لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين اولى من ان نكون مدافعين » فجعل بناويء الاتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة الحجاج الى الحرمين حتى قبض على وفد هندي مرسل في مهمة سياسية الى

بيازيد واستولى على اذنة وترسوس وكانتا في حوزة العثمانيين . أما بيازيد فكان واقفاً بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجرة المصريين فجاءت تلك الاجراءات طينة على عجينة الا انه راي ان يأتهم من باب الحزم فانفذ اليهم رسلاً في طلب التعويض عما سببوه من الخسائر والاضرار . فارجع قايت باي الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمانية فقاومته اشد مقاومة وارجعت جيشه الى ملاطية فاجدهم قايت باي بخمسة آلاف رجل فعادوا الى العثمانيين وهم في مضائق الجبال فهجموا عليهم بغتةً ونجحوا منهم عدداً كبيراً وفر الباقون وتحصنوا في ترسوس واذنة . فاتصل ذلك بقايت باي فارسل الامير الازبكي في نجدة لاجراج العثمانيين من تينك المدينتين فسار وحارب وفاز فشق ذلك على بيازيد وآلى على نفسه الا ان يسترجع ترسوس واذنة فانفذ جيشاً كبيراً تحت قيادة صهره احمد وهو ابن امير البوسنة - ولد في البانيا ثم اسلم واخذ يرتقي في اعمال الدولة حسب استحقاقه حتي تمكن مع صغر سنه وكونه غير مولود في الاسلام من قيادة هذه الحملة لمحاربة الجيوش المصرية . فلما وصل الى معسكر الازبكي اقتتل الجيشان فهجم احمد هجمة قوية لكن رجاله لم يستطيعوا الثبات ففازت الجيوش المصرية واسر احمد بعد ان جاهد جهاداً حسناً فعاد الازبكي باسيره الى مصر ظافراً فبنى جامع المشهور المعروف بجامع الازبكية وكانت في ايامه بركة يتجمع اليها الماء في ايام الفيضان وستأتي كيفية تحويلها الى ما هي عليه الآن

فلما بلغ بيازيد ما كان من انكسار جيوشه استشاط غضباً وجند جنداً كبيراً جعله تحت قيادة علي باشا لمحاربة المصريين فسارت تلك الحملة من الاستانة فعبرت البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ ونزلت في قرمان . فاتصل خبرها بقايت باي فواجس خيفة فعمد الى المصالحة فانفذ الى بيازيد صهره احمد واسطة لعقد شروط المصالحة . فرفض بيازيد ذلك رفضاً كلياً وسار حتى التقى بالمصريين في اذنة وترسوس فخاربههم وفاز عليهم واسترجع المدينتين الواحدة بعد الاخرى بعد ان اهرق دماءً غزيرة . ثم سار الى ارمينيا واخضعها وحاصر عاصمتها فافتتحها بعد ان دافعت دفاعاً قوياً واسر حاكمها وارسله بعد ذلك الى مصر بدلاً من الامير احمد . فبعث قايت باي الازبكي ثانية لدفع العثمانيين فواقعهم في ترسوس فغلبوه اولاً ثم عاد اليهم وفاز بهم واعادهم القهقري وعاد الى القاهرة ظافراً فخلع عليه قايت باي . ثم راي ان يغتم كونه ظافراً لمصالحة العثمانيين فبعث الى بيازيد في ذلك فاجابه مهدداً وطلب اليه ان يتنازل له عن ترسوس واذنه وانه اذا لم يفعل يدعو الناس الى الجهاد فيجتمع تحت لوائه

كل من يدعو لآل عثمان فيجيء مصر ويفتحها فتحاً مبيناً . فخاف قايت باي وتنازل عن المدينتين اكتفاء باهون الشرين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ وعاش قايت باي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد ان حكم ٢٩ سنة واربعة اشهر وعشرين يوماً فبكاه الناس . ومن آثاره جامع المعروف باسمه الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة . وفيه مقام قايت باي وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة . وبنى قايت باي جامعاً في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

سلطة محمد بن قايت باي ثم قنسوخمسمئة ثم قنسوابي سعيد

ثم قنسوجانبلاط ثم الملك العادل طومان باي

من سنة ٩٠١ — ٩٠٦ هـ او من ١٤٩٥ — ١٥٠١ م

وتولى بعد قايت باي ابنه ابو السعادة محمد ولقب بالملك الناصر ولم يجلس على سلطنة مصر رجل اقل لياقة لها منه فأنه كان احمق جيبصاً وحشياً لا يدن له الا الانفاس في المذات الحيوانية ولو كلفه ذلك ارتكاب شر الآثم . وقد زادت قبحته حتى سلخ جلد احد مماليكه حياً فثار عليه المماليك وخلعوه بعد ان حكم ستة اشهر . وبايعوا الامير قنسو الملقب بجمسمئة لانه ابتيع بالاصل بجمسمائة دينار ولقبوه بالملك الاشرف . وبعد خمسة اشهر تنازل عن الملك عجزاً فاعادوا الملك الناصر محمد ثانية لكنه لم يبق الا ١٨ شهراً ونصف فذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ هـ وبايعوا عم قنسو واسمه قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الا بالمرغم عنه . وبعد عشرين شهراً وبضعة ايام عزلوه وبايعوا قنسو الثالث جانبلاط ولقبوه بالملك الاشرف ولم يحكم الا سبعة اشهر ثم خلع في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ فاقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوه بالملك العادل . فوافتهم امراء القاهرة على ذلك . وبعد ثلاثة اشهر اضر له المماليك ميكدة يقتلونه بها فعلم هو بذلك ففر طلباً للنجاة فأوى الى مكان ظنه ملجأً حصيناً مكث فيه اربعين يوماً ثم اكتشف عليه المماليك وقتلوه في ذي القعدة سنة ٩٠٦ هـ ثم اجتمع المماليك

والاعيان وارباب الدولة وتداولوا فيمن يجب ان يختاروا ليحكم فيهم من اهل اللياقة فاقروا على الامير قنسو الرابع الملقب بانغوري وكان هو ايضاً من مهالك قايت باي وكان رجلاً تقياً مخلصاً محترماً عفيفاً غير عالم بما كان يتخاصم عليه الامراء وما كانوا يدسونه من الدسائس . فلما بلغه امر مبايعته انذهل ورفض قائلاً للذين استخبوه « لا اخالف لكم امراً انما اراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم اعتد معاناة الاحكام والامر والنهي » فاجابوه ان صدق نيته واخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاقه هذا المنصب . فلم ير بدءاً من القبول لكنه قال لهم « اكون في غاية السرور اذا جئتموني يوماً تبتئوني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » فولوه في غرة شوال من تلك السنة ولقبوه بالملك الاشرف ايضاً

سلطنة قنسو الغوري

من سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ لو من ١٠٠١ — ١٠١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام واخص في الحكم فاطمأنت البلاد وسكن حاهلها فاخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعاً ومدرسة ينسبان اليه وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كل منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة ويانها الى الجنوب مدفن فيه مقام بعض اهله . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليه انه هائل وهو مبني على مثال جامع قايت باي وعلى القبلة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الانار والى الشمال سبيل جميل . ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان يقصده من البناء والتحسين فارت البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند اقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جاء كركود اخو السلطان سليم بن بيازيد « سليم الاول » الى مصر ملتجئاً اليها بعد ان تخاصم مع اخيه على الملك كما حصل بحم وبيازيد المتقدم ذكرهما فرحب به قنسو الغوري ترحاباً عظيماً وجهزه بعشرين بارجة بحرية لافتتاح

القسطنطينية فذهبت هذه العمارة غنيمة اراكب اورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الا اثاره غضب السلطان سليم على مصر فجهز اليها وابتداً بافتتاح الحدود السورية واصل الى مصر رسائل التهديد . فاتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الا ان الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشنت الجيوش واي تشيت . فعمد قنسو الغوري الى مخابرة العثمانيين بامر الصاح على اي وجه كان وبعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى اتوا السلطان سليم نفرؤا ساجدين وخاطبوه بامر الصاح فقال لهم وقد استشاط غيظاً « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى ساطانكم وقولوا له ان الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها انا ذاهب الى القاهرة فيستعد للدفاع ان كان له اهلاً » فعادوا واخبروا بما كان فجمع اليه رجاله وسار للملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك وظهر الغوري بسالة واقداماً عظيمين حتى اوشكت رجاله ان تستظهر فنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الا الرماح والحرب والسيوف فتشوش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائد جناحهم الى العثمانيين وكان الغوري قائداً لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحول شكيمه جواده فسقط عنه لشدة الازدحام وذهب قتيلاً تحت ارجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد ان حكم ١٥ سنة وتسعة اشهر و ٢٥ يوماً

سلطنة الملك الاشرف طومان باي

من سنة ٩٢٢—٩٢٣ هـ او من ١٥١٦—١٥١٧ م

وكان السلطان قنسو الغوري قبل خروجه من القاهرة هذه المرة قد استخلف عايمها ابن اخيه طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوه ايضاً بالملك الاشرف وكان حازماً باسلاً . فلما وصات بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة امر باعداد حملة اخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي ان الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الا ان الامر لم يكن كما ظن لانه لم يكذب اعداداته حتى اتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصه :

« من السلطان سليم خان بن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باي الشركسي

« الحمد لله . اما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوتي . اما قنسوا الكافر الذي حملته القححة على مناواة الحجاج فقد نال جزاءه منا ولم يبق لدينا الا ان نتخلص منك فانك جائرٌ معاد والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعال الى اعتبارنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا »

فاما قرا طومان باي الكتاب وما في ذيله من التهديد المستمر استشاط غيظاً واصر على المقاومة وكان عالماً بعجزه لكنه فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما امكنه جمعه من الرجال وسار للملاقاة العثمانيين حتى اتى الصالحية فعسكر هناك . اما السلطان سايم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيعة . ثم علم بمقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيه من العزم على المدافعة لشدة اليأس فخرج بجيشه تاركاً الصالحية عن يمينه وسار حتى اتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة

فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشه لمهاجمتهم من الورا فالتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ واقتلا طويلاً والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففر المصريون الى القاهرة وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليه طومان باي عدداً كبيراً من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم ينل هذه المرة غير ما نال في الارات الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزاد في حصونها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصيناً عظيماً واقام في كل شارع وفي كل بيت طابية للدفاع وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للمدافعة عن الوطن . ولكن رغم كل هذه الاعدادات وماعما اظهره طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليه امرؤه لم تنجح القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً واستلموا القلعة

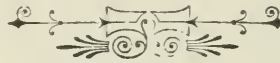
اما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجزيرة ثم سار منها قاصداً الاسكندرية فقبض عليه بعض العربان الرحل وابعوه للعثمانيين . فاستحضره السلطان سليم مغلولاً وانظر اليه فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجهه القنوط لما حل

بيلاده من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فامر بان تحل قيوده وان يؤذن له بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في امر البلاد فكان يسأله مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة ايام وفي اليوم العاشر راي السلطان سليم انه لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فامر بشنقه في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاّب من حديد كان باقياً هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية بعد ان تسلطوا نحو ١٣٩ سنة واصبحت مصر احدى الايالات العثمانية الكبيرة . وبقيت جثة طومان باي ثمانية ايام معلّقة ليراها الناس

تم الجزء الاول

من تاريخ مصر الحديث



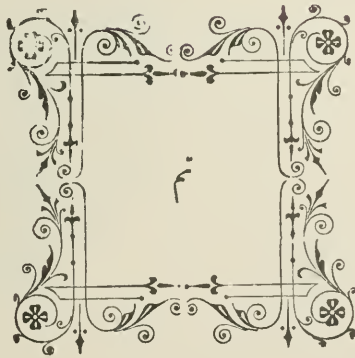
فهرس الجزء الاول

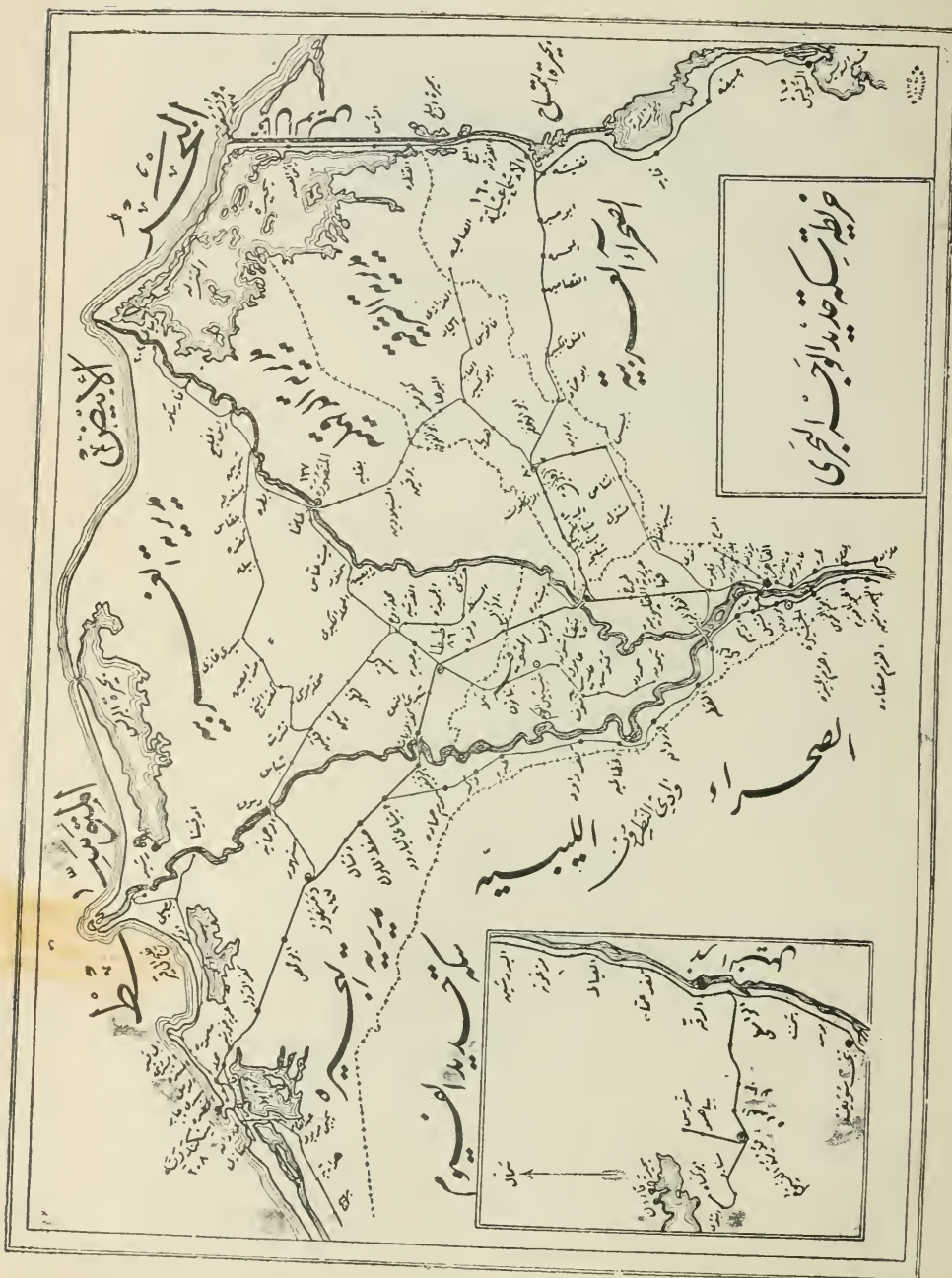
من تاريخ مصر الحديث

صفحة		صفحة	
١١٤	خلافة يزيد بن معاوية	٣	المقدمة
١١٥	« مروان بن الحكم	٩	اقسام تاريخ مصر العام
١٢٠	« عبد الملك بن مروان	١١	مصادر تاريخ مصر القديم
١١٩	« الوليد بن عبد الملك	١٥	جغرافية مصر القديمة
١٢٠	« سليمان بن عبد الملك	١٨	ديانة المصريين القدماء
١٢١	« عمر بن عبد العزيز		فذلكة تاريخ مصر القديم
١٢٢	« يزيد بن عبد الملك	٢٣	الدولة المملوكية الاولى
١٢٣	« هشام بن عبد الملك	٢٨	« « الوسطى
١٢٤	« الوليد بن يزيد	٣٥	« « الاخيرة
١٢٥	« مروان بن محمد	٥٣	« « الفارسية الاولى
	الدولة العباسية للمرة الاولى	٥٧	« « اليونانية — والبطالسة
١٢٧	خلافة ابي العباس السفاح	٦٥	« « الرومانية
١٢٨	« المنصور بن محمد	٦٧	الدور المسيحي
١٣٠	« محمد المهدي		تاريخ مصر الحديث
١٣٢	« هارون الرشيد	٦٩	مصادر تاريخ مصر الحديث
١٣٥	« محمد الامين	٧١	جغرافية مصر الحديثة
١٣٧	« عبد الله المأمون		دولة الخلفاء الراشدين
١٤١	« محمد المعتصم	٧٥	خلافة عمر بن الخطاب
١٤٢	مبدأ الدولة الطولونية	١٠٠	« عثمان بن عفان
١٤٤	خلافة الواثق	١٠٥	« علي بن ابي طالب
١٤٦	« المنتصر بن المتوكل		الدولة الاموية
١٤٧	« المستعين بن محمد		خلافة معاوية بن ابي سفيان
١٤٨	« المعتز بن المتوكل	١١٣	

صفحة		صفحة	
٢٣٥	خلافة الأمر بن المستعلي	١٥١	خلافة المهدي والمعتمد
٢٣٨	» الحافظ بن محمد		الدولة الطولونية
٢٤٠	» الظافر بن الحافظ	١٥٤	احمد بن طون
٢٤١	» الفائز بن الظافر	١٧٢	خارويه بن احمد
٢٤٢	» العاضد بن يوسف	١٧٥	جيش بن خارويه
	دولة الابطوبية	١٧٧	هارون « «
٢١٦	سلطنة صلاح الدين الايوبي	١٧٩	شيبان بن احمد
٢٨٩	« العزيز بن يوسف		الدولة العباسية للمرة الثانية
٢٠١	« المنصور بن العزيز	١٧١	خلافة المكتفي والمقتدر
٢٩٢	« العادل بن ايوب	١٨٢	« القاهر
٢٩٦	« الكامل بن العادل	١٨٢	مبدأ الدولة الاخشيدية
٣٠٣	« العادل بن الكامل	١٨٣	خلافة الرازي
٣٠٤	« الصالح بن الكامل		الدولة الاضيبيرية
٣٠٧	« المعظم بن الصالح	١٨٥	محمد الاخشيد
	دولة المماليك الاولى	١٨٩	انوجور بن الاخشيد
٣٠٨	منشأ المماليك	١٩٠	ابو الحسن بن الاخشيد
٣٠٩	سلطنة شجرة الدر	١٩١	كافور الاخشيدي وابو الفوارس
٣١١	« ايبك والاشرف		الدولة الفاطمية
٣١٥	« نور الدين بن ايبك	١٩٢	خلافة المعز لدين الله
٣١٦	« المظفر سيف الدين	٢٠٣	» العزيز بالله
٣١٨	« الظاهر بيبرس	٢٠٧	« الحاكم بامر الله
٣٢٦	« بركة خان بن بيبرس	٢١١	« الظاهر بن الحاكم
٣٢٧	« سلامش بن بيبرس	٢١٢	« المستنصر بن الظاهر
٣٢٧	« المنصور قلاون	٢٣١	» المستعلي بن المستنصر
٣٣٠	« خليل بن قلاون والقاهر		
٣٣١	« الملك الناصر بن قلاون اولاً		

صفحة		صفحة	
٣٥٠	سلطنة فرج بن برقوق ثانية	٣٣١	سلطنة الملك العادل كتبغا
٣٥٠	« الامام المستعين بالله	٣٣٣	« المنصور لاجين
٣٥١	« الشيخ المحمودي	٣٣٤	« الناصر بن قلاون ثانية
٣٥٢	« احمد بن المحمودي وغيره	٣٣٥	« بييرس الجاشنكير
٣٥٢	« الملك الاشرف برسباي	٣٣٦	« الملك الناصر ثالثة
٣٥٤	« يوسف بن برسباي	٣٤٠	« اولاد الناصر
٣٥٤	« الظاهر جقمق وابنه عثمان	٣٤٢	« محمد بن حاجي وشعبان
٣٥٥	« الاشرف اينال وابنه احمد	٣٤٣	« علي بن شعبان وحاجي اخيه
٣٥٦	« الظاهر خوش قدم		رواية المماليك الثانية
٣٥٦	« بلباي وتمرغا		
٣٥٧	« الاشرف قايت باي	٣٤٤	منشأها
٣٥٩	« محمد بن قايت باي وغيره	٣٤٥	سلطنة الملك الظاهر برقوق
٣٦٠	« قسوة الغوري	٣٤٨	« فرج بن برقوق اولاً
٣٦١	« الاشرف طومان	٣٤٩	« عبد العزيز بن برقوق







مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابطہ بدیل